

EMMA SKY

الانتهيار

الآمال الكبيرة والفرص الضائعة في العراق

ترجمة وتقديم

قيس قاسم العجرتي

دار الفكر

www.daralrafidain.com

,

الانهيار
الأمال الكبيرة والفرص الضائعة في العراق

إيما سكاي

الانهيار

الآمال الكبيرة والفرص الضائعة في العراق

ترجمة وتقديم

قيس قاسم العجرش



www.daralrafidain.com

الانتهيار

الآمال الكبيرة والفرص الضائعة في العراق

The Unraveling

تأليف: إيما سكاي
ترجمة وتقديم: قيس قاسم العجرش
تصميم الغلاف: CMYK Studio
الطبعة الأولى، لبنان/ كندا، 2016
First Edition, Lebanon/Canada, 2016

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق
All rights reserved, is not entitled to any person or institution or entity reissue of this book, or part thereof, or transmitted in any form or mode of modes of transmission of information, whether electronic or mechanical, including photocopying, recording, or storage and retrieval, without written permission from the rights holders



بغداد - شارع المتنبي - مدخل جديد حسن باشا
هاتف: 07711002790 - 07700492576
email: bal_alame@yahoo.com



لبنان - بيروت / الحمرا
تلفون: +961 1 751055 / +961 1 541980
daralrafidain@yahoo.com
info@daralrafidain.com
www.daralrafidain.com

هام: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعتبر من رأي كاتبها، ولا تعتبر بالضرورة عن رأي الناشر

ISBN: 978-1-77322-039-0

الفهرس

7	إهداء المؤلف
9	العراق
11	مقدمة المترجم
17	مقدمة المؤلف
23	استهلال: تحقيق بشأن العراق
29	القسم الأول: الحكم المباشر حزيران 2003 - حزيران 2004
31	الفصل الأول: إلى بلاد ما بين النهرين
57	الفصل الثاني: جنود سكاي
101	الفصل الثالث: مس بيل... ثانية
135	الفصل الرابع: التنافس على كركوك
165	الفصل الخامس: الحياة في القصر الجمهوري
189	الفصل السادس: اغتيال الشيخ عكار
213	الفصل السابع: وداعاً لكل ذلك
225	القسم الثاني: عمليات الموجة كانون الأول - كانون الثاني، 2007
227	الفصل الثامن: العودة إلى بغداد
265	الفصل التاسع: فرض القانون
295	الفصل العاشر: الصحوة لأجل المصالحة
331	الفصل الحادي عشر: عمليات الموجة في الصيف

347	الفصل الثاني عشر: الصديريون يوقفون إطلاق النار.....
367	الفصل الثالث عشر: النصر.....
383	القسم الثالث: الانسحاب ... أيار - 2008 أيلول 2010.....
385	الفصل الرابع عشر: حوار ميلوسي.....
405	الفصل الخامس عشر: اتفاقية غير مريحة.....
429	الفصل السادس عشر: توترات على طول الخط الأخضر.....
449	الفصل السابع عشر: انتخابات ومخادعات.....
473	الفصل الثامن عشر: خسارة العراق.....
495	القسم الرابع: ما بعد الجولات... كانون الثاني 2012 - تموز 2014.....
497	الفصل التاسع عشر: الأوضاع تتفكك وتتساقط.....
527	ملحق الصور.....

إهداء المؤلفة

**إلى الجنرال أوديرنو، وإلى كل أولئك الذين خدموا
في العراق خلال العهد الأميريكي
وإلى أصدقائي العراقيين.**

العراق

نص لعدنان الصائغ:

العراقُ الذي يبتعدُ

كلما اتسعتُ في المنافي خطاهُ

والعراقُ الذي يتنَدُّ

كلما انفتحتُ نصفُ نافذةٍ..

قلتُ: آه

والعراقُ الذي يرتعدُ

كلما مرَّ ظلُّ

تخيلتُ فوهةً تترصدني،

أو متاهةً

والعراقُ الذي نفتقدُ

نصفُ تاريخه أغاني وكحلٍ..

ونصفُ طغاه

مقدمة المترجم

لا أحد سيعرف الحقيقة في وقت حدوثها. الأمر صار وكأنه قانون أزلي من قوانين الطبيعة. وصار الناس يعرفون أن عليهم الانتظار لسنوات قبل أن تتكشف الأحداث وتبدأ التفاصيل بالظهور. سيجلسون إلى بعضهم، وسيروون الحكايات إلى مستمعيهم من الذين لم يسمعوا بها مسبقاً. وسيكون هناك أكثر من راوٍ لكل حكاية، وستقاطع المعلومات أو تتعاكس وفقاً لما رأت عيون الرواة، وتبعاً لما عقلته عقولهم وقلوبهم. المدهش أن هذا يحدث متزامناً مع طفرة نوعية هائلة في وسائل الاتصال والإعلام وطرق التوثيق. والتجدد في هذه الميادين يكاد يفاجئنا كل يوم بشيء جديد وكشف حديث.

إيما سكاي في هذا الكتاب تقدم لنا رواية لسلسلة معقدة من الأحداث والتفاصيل التي تلت غزو القوات الأميركية للعراق عام 2003. لكن روايتها ليست تحليلاً سياسياً، مثلما إنها ليست بموقف أخلاقي أو جزءاً من بحث تاريخي. إنها أبسط من كل هذه الأهداف، لقد دوّنت إيما سكاي ما فهمته عبر سنوات عملها بالعراق، دوّنت الجزء الذي فهمته من المشهد الذي تراه بعينيها وتعيشه بأيامها ولياليها. لقد تفاعلت بعاطفة كبيرة، وهي قد أدركت أن العواطف ستجعلها تروي الأشياء والأحداث بغير حقيقتها. أو على الأقل بنصف حقيقتها. لكنها مضت إلى الأمام

خلال تفاصيل هذا الكتاب بالقدر الأقل المُمكن من الرأي والاستنتاج،
ودفعت بالكثير لصالح تدوين الأحداث ومشاعر الأشخاص ومواقفهم
التي صادفتها.

لقد أظهرت إيما سكاي براعة أولاً في تصوير العشوائية التي يمكن
أن ترافق فعلاً يصدر عن قوّة عظمى بحجم الولايات المتحدة. هذه
العشوائية التي يصاحبها فقدان التخطيط المسبق ليست بالخلّة السيئة
في طبائع الأفعال المنبعثة من أميركا، الأمر لا يُقرأ هكذا، إنما حتمية
القوة العظمى حين تتحرك، فإن أركان العالم وجب عليها أن تتغير
هي الأخرى. بينما ليس على الولايات المتحدة أن تؤدي دور الجراح
الأخصائي الدقيق الذي يعيد تأهيل أصحاب الأقدام المبتورة للسير
مجدداً. واكتفت. بلعب دور صاحب الفأس الذي يبتز فقط. لا نعرف
حجم ما هو أخلاقي في هذا التنظير، لكنّ إيما سكاي أصرت طوال
هذا النص أن تذكر القارئ بأنها تعمل في العراق لأسباب أخلاقية بحتة،
وأنها تستنفر ذاتها لأجل تقليل الخسائر، وجعل الحرب أقلّ كارثية.

لكن الحرب هي الحرب، وفعل القتل هو أول العناوين فيها وأبرزها.
وهو أكثر الأفعال تصرّيفاً في مسرحها. هذا ما قالت إيما بكلمات روت
يومياتها فقط، وحملت إحساسها بتلك اليوميّات.

لم تكن الولايات المتحدة معنية كثيراً بترتيب الأوضاع أينما داست
أقدام جنودها في هذا العالم، فلو فعلت فإن ذلك سيصنع من جنودها
أضحوكة في مدن الكون الفسيح هذا. وبدلاً من ذلك، سارت القوّة
الأميركية تفرض الإرادة، في النهاية تعلم واشنطن أنها إزاء عالم ضعيف
لا قبل له بالحيل الكبيرة. أمّا تجربة العراق، فقد انتهت مع ملل الإدارة
الأميركية وتحسسها بأن الشعب الأميركي لم يعد مهتماً بعواقب الأمور

في العراق، فأرسلت جو بايدن يحمل خبر نهاية الحرب في العراق. الحرب انتهت، لكن آلام العراقيين لم تنته وما زالت مفتوحة. وأخطر وضع يجد فيه الأقوياء أنفسهم، هو حين تكون جراح الضعفاء مفتوحة على كل الاحتمالات.

لم تبالغ إيما سكاي حين وصفت اهتمامها الأول في هذه الحياة بأنه محاولة تصحيح الجوانب الإنسانية أينما وصلت يدها وتمكنت من تقديم المعونة. دليلنا على صحة شهادتها بأنها حين كتبت عن العراق وتجربتها مع قوة الاحتلال - وهي التي ترى في نفسها داعية لنشر السلام - فإنها كتبت بروح المصلح الذي لا يفارق مرضاه. كما لم تدّع بأنها فعلت الأعاجيب، إذ إن الإصلاح لا يشهد في العادة معجزات كبرى، كل ما هنالك أنه محاولة لاستنقاذ البشر والحياة الإنسانية من أتون السياسة ويدها العسكرية التنفيذية.



لقد وجدت خلال تتبع النص الذي كتبه إيما سكاي أنها تعمّدت في أماكن عدّة فيه أن تمارس قطعاً للاسترسال، إذ ما إن تقترب من نقطة حساسة - يدفع المنطق السردى إلى ضرورة أن تشرحها بالتفصيل - حتى تنتقل إلى الحدث اللاحق، وهي ممارسة أراها تتعلق بفهمها العام لصورة الأوضاع في العراق. أفترض أنها لم تكن متعمدة تماماً قدر أنها لم تر في تلك النقاط الحساسة حرجاً أن تتركها بلا شرح أو تفصيل. وهذا أمر - لو صح افتراضي فيه - فإنه يظهر ضعفاً عاماً لديها في ترتيب خارطة الأشياء العراقية في وجدانها، وفوضى يعانيتها ضميرها الناطق في النص. مع هذا فقد حفل الكتاب بتفاصيل الحياة اليومية التي تترك للقارئ (خاصة القارئ الذي تفصله عن الأحداث سنوات) أن يتصور

شكل الأجواء التي كانت القوات الأميركية تقاتل فيها في العراق، وشكل
الجهة التي تقاتلها.

في البداية قرأت الكتاب بعين القارئ الشغوف بمعرفة ما سيقوله
الآخرون، وكيف سينظر من هو خارج الوادي إلى أحداث العراق
التي تناثرت على مدى أربعة عشر عاماً منذ آذار من عام 2003 ولغاية
اليوم، ولا أخفي أنني وجدت فهماً عاماً لا يتعمق، وقد تساءلت: إن كان
الانتقاد الأكبر الذي توجهه إيما سكاي في هذا الكتاب إلى الولايات
المتحدة وسياستها يتعلّق أساساً بأن واشنطن لم تقارب جذور المشاكل
في الشرق الأوسط، ولم تسع بالأصل إلى إيجاد حلول جذرية تجعل
السلام أمراً راسخاً، إن كان هذا هو ما تنتقده سكاي، ألا تكون المفارقة
بأنها حين تكتب خبرتها وقصّتها مع العراق ستنتهج النهج نفسه أيضاً؟.
أليس من المفارقة أن تتعرض سكاي إلى سطوح المشاكل دون أن
تغوص في عمقها؟. لكنني في القراءة الثانية قرأت خطأً فكرياً ملتزماً
من جانبها؛ أولاً التزامها بالأسرار التي أملت عليها ظروف عملها،
واحترامها لمهنتها كمستشارة سياسية رافقت أعلى جنرال أميركي في
العراق. الالتزام الثاني أنها نقلت انطباعاتاً شخصياً صادقاً (وصحيحاً
في معظم الأحيان) عن الشخصيات العراقية الذين صادفتهم وعملت
معهم. وتركت التفسير في الانحدار والتدهور للقارئ. كما تركت تقييم
الشخصيات له أيضاً.

وفي النهاية فإننا سنقرأ محاولة عاطفية-عقلية لقراءة القضية العراقية
من وجهة نظر شخصية تعدّ نفسها ناشطة لأجل السلام في العالم، وهكذا
بالفعل يعدّها الكثيرون. إلا أنها وجدت نفسها تمارس دورها من أجل
مبادئها في العراق لكن ضمن صفوف القوة العسكرية الحاكمة المتحكمة.

ربما يكون الأمر قاسياً علينا كعراقيين أن نواجه حقيقة (وإن كانت نسبية) بأن الدولة العراقية قد انهارت عملياً، وأصبح من العسير للغاية إعادة وجودها، أو ترميمها بما يسحبها إلى الخلف على خط التاريخ إلى نقطة مرجعية معينة (حتى هذه النقطة المرجعية ستكون محلّ جدل يستحيل الاتفاق بشأنه). وجاء عنوان الكتاب المفضي بحذاقة إلى مضمونه ليخبرنا بهذا الخبر السيئ، بأن الدولة التي في داخلنا قد انهارت، بعد أن انهارت عملياً على مدى سنوات من قبل عام 2003، لتسرّع من وتيرة الانهيار بعد ذلك التاريخ الفاصل.

وهو أمر ليس محزناً كثيراً ولا يستدعي النحيب. إنه استثناء تعيشه هذه الأرض التي هي أكبر من كل الدول. العراقيون باقون، ومجتمعهم سيبقى ما بقي الليل والنهار، لكنّ الدولة يعاد تشكيلها باستمرار في هذه البقعة من الأرض. وليس على وجه الأرض كلها بقعة أقدم منها في ظهور الدولة، والأمر يشبه نوعاً من الحثوم التاريخية التي لم تفسّر ألغازها بعد.

وفي الفصول الأخيرة، سنقرأ في نص إيما سكاي مقاربة حاذقة لعدم الاهتمام الذي أبدته إدارة الرئيس باراك أوباما للشأن العراقي. وتركيز هذه الإدارة على طريقة الخلاص من العراق بأيّ ثمن كان، لكن الثمن هو فوضى و(انهيار) حقيقي في كل ما ضحت القوات الأميركية من أجل أن تحول دون وقوعه في العراق. تحكي إيما سكاي قصّة نكسة حقيقية تعرّض لها الجيش الأميركي، ليس بسبب ما واجهه من مقاومة وإرهاب في العراق، وليس لأنه خرج (مهزوماً) كما حاولت بعض القوى الإقليمية تصوير الأمر، إنما لأن السياسة الأميركية المدينية لم ينظروا بعين الإكبار والتقدير لعظيم الجهد الذي بذلته القوات المسلحة الأميركية في العراق من أجل مساعدته بصورة حقيقة على بناء ذاته وبناء

دولته الهشة. الإحباط كان علامة مهمة تكتب عنها إيما سكاي بتفصيل الأحداث اليومية ومآلات الحوادث السياسية في الحياة العراقية. وظهر ذلك واضحاً مما نقلته المؤلفة عن مشاعر الشخصية الرئيسة في رواية هذه المذكرات، وهي الجنرال أوديرنو.

تعترف المؤلفة بأن حياتها لم تكتسب المعنى إلا خلال عملها في العراق، عملها الذي مثل اشتراكها في أمر جسيم وصعب ويحتمل التأويل لكل قناعاتها. وهي الآن تعيش كامرأة عراقية في المنفى (حسب تعبيرها)، هذا الوصف يجعلنا نتسامح، ونتفهم قبل ذلك كل تفسير أو مظنة وقعت فيها المؤلفة سهواً، ولم تتبصر خلالها في ماورائيات الأحداث وما بين سطورها.

أقدم للقارئ الكريم جهدي في تحري ترجمة صادقة ومعبرة لما كتبه مؤلفة العمل. وأعد بالعمل على تلافي غموض بعض الصياغات أو التعابير أو سقوطها في السهو في الطباعات القادمة من الكتاب.

هذا الكتاب يثبت أن أماننا الكثير من أجزاء الصورة كي نتفحصها قبل أن نؤكد في أنفسنا القدرة على الرؤية الشاملة، والفضل في ذلك يعود لأقلام الشهود من أمثال إيما سكاي.

قيس قاسم العجرش

بغداد 2016

مقدمة المؤلفة

لا شيء مما حدث في العراق بعد إزاحة صدام حسين عام 2003 يمكن وصفه بأنه خضع للإعداد والتخطيط المسبق. ولم يكن هناك أي شيء حتمي أجبر الأحداث كي تمضي بما صارت إليه على أرض الواقع.

هذه المذكرات تقصّ تجربتي في العراق على مدى عقد من الزمان. قصّتي بدأت حين استجبت لطلب حكومي بريطاني يبحث عن متطوعين للعمل على إعادة بناء العراق بعد سقوط النظام السابق. ووجدت نفسي مسؤولة عن كركوك، وأحاول أن أنزع فتيل التوتر بين مختلف الجماعات العراقية التي تتنافس وتتدافع من أجل السلطة في المدينة. واستمرت قصّتي خلال العمليات العسكرية الفعّالة حيث شغلت منصب المستشارية السياسية للجنرال راي أوديرنو (Odierno)، وصولاً إلى البدء بعملية انسحاب الجيش الأميركي من العراق، لتنتهي عند احتلال ثلث مساحة العراق من قبل تنظيم (الدولة الإسلامية). إنها قصة مآلات غير مخطط لها، ولم ينوها أحد، نتجت عن محاولة الرئيس بوش لنشر الديمقراطية، ومحاولات الرئيس أوباما لفك الارتباط بعد ذلك.

إن كتاب (الانهيار) يكشف عن تحدّيات بناء أمّة، وكيف أن إزاحة النظم الاستبدادية يمكن أن توقع الأمم في صراع واختلاف كبيرين، فضلاً عن أنها يمكن أن تؤدي إلى انهيار الدولة التي كانت. إنها تذكّرنا

بمحدودية قدرات التدخل الخارجي في أراضي الغير، لكنها أيضاً قصة تشير إلى التأثير الممكن توجيهه من الخارج. كما ستذكرنا بأولئك الذين ساعدناهم على حيازة القوة لكنهم استخدموها من أجل تنفيذ مخططاتهم الخاصة، واستعيد إلى الأذهان مشهد وقوفنا على التل ونحن نتفرّج على القوات التي دربناها وعززناها وهي تُستخدم لمحاصرة المنافسين السياسيين. كان هناك الكثير أمام قوات التحالف مما يمكن فعله من أجل الدفع باتجاه التسويات بين النُخب والجماعات العراقية، ومن أجل ترسيخ الانتقال السلمي للسلطة عبر الانتخابات. وبدلاً من ذلك، فقد راهنت الولايات المتحدة على أن نوري المالكي هو الذي سيتمكن في النهاية من تحقيق أهداف العمل السياسي والعسكري الذي شرعت به في العراق. تلك كانت سقطة خاطئة جعلت الأميركيين يظنون أنه يشاطرهم هذه الأهداف. لقد ظنّ الأميركيون أن المالكي سيتتهز فرصة تراجع العنف في العراق خلال حملة الموجهة وزيادة عديد القوات الأميركية من أجل بناء عراق مستقل وديمقراطي وقابل للبقاء بالاعتماد على نفسه.

خطأ هذه السياسة تبين جلياً عندما ظهرت (داعش) بصورة واقعية على الأرض، وأمسكت بمساحات كبرى من العراق، وطرحت نفسها كمدافع عن العراقيين السنة بوجه الحكومة العراقية الشيعية المدعومة من إيران. في تلك اللحظة من حزيران 2014، توضحّت أعماق الإهمال الأميركي في الاختيار ونتائجه. وبعدها أصبح الرئيس باراك أوباما هو رابع رئيس للولايات المتحدة يُقدم على توجيه ضربات جوية على العراق، تابعاً خطى أسلافه، جورج بوش وبيل كلينتون وجورج بوش (الأب)، الضربات كانت تهدف إلى منع عناصر داعش من إبادة الأقليات، ومنعهم من مهاجمة مدينة أربيل.

وبعد ذلك، وعلى أثر مشهد قطع رؤوس اثنين من الرهائن الأميركيين، قررت الولايات المتحدة توجيه ضربات إلى التنظيم في سوريا. لم يعد الأميركيون قلقين من مآلات الحرب وعواقب التورط بها، لقد كانوا خائفين ويرغبون بدفع الضرر عن أنفسهم والتحرك ويغادرون موقف المتفرج. لم يكن أوباما يتوقع أبداً أن يجد نفسه في هذه الزاوية، لقد بنى حملته الانتخابية بالأصل على وعوده للناخبين بأن ينجز الانسحاب من العراق، وألا يورط الولايات المتحدة في الصراعات الإقليمية مرة أخرى.

كان داعش ما التاج البشع لفشل الجهود وخوار العزم الذي بُذل في الطريق إلى تحقيق العلمانية الليبرالية. لقد سارت التغييرات الجذرية باتجاه تعزيز موقف إيران في المنطقة، وسارت الخارطة الجديدة لتوازنات القوى لصالحها (على الأقل هذا ما ساهمت فيه حرب العراق بشكل كبير).

أما المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وعمقها المتجذر في مجتمعات المنطقة، فقد ساهمت جميعها في إطلاق الربيع العربي على طول العالم العربي، وكل هذا ساهم في إشعار بعض السّنة في المنطقة بأنهم إزاء نوع من العودة إلى الرزوح تحت ظلم عصر جديد من الاستبداد سيسقط على رؤوسهم. واقتنعوا بأن الصّراع المسلّح هو فقط ما سيرد عنهم الحرمان والتهميش لتحقيق التوازن، وهو فقط ما سيجعل الأوضاع تستقيم مجدداً في مكانها، وإن الصّراع المسلّح هو فقط ما سيلبّيها. بل إن الصّراع المسلّح هو فقط ما سيُكافأ في النهاية، وسيكون له عوائد واضحة المعالم. كان العرب السّنة راغبين بالانتقام مما شعروا به ورأوه على أنه انتصار إيراني، وإذلال للسّنة العربية. لقد وجد اللاعبون الدوليون (سواء كانوا دولاً أم منظمات) مُرادهم

في الصراع الطائفي كي يكون منفذاً لجريان تأثيراتهم، ودعموا الميول الطائفية والتأجيج الطائفي في عدد من البلدان. معظم البلدان العربية كانت غير قادرة على مواجهة مطالب قطاع الشباب فيها، فما كان من داعش إلا أن أذكى روح المشاعر بالانتماء إلى التسنن العربي، وتصويره على أنه يعاني من الحرمان لحقه في الوجود، ويتعرض إلى تأمر دولي. ثم ألهمت خيالات المستقبل لديهم عبر استلهاهم الماضي، بصورة نسخة محدثة من الخلافة والخليفة، وطوّعت هذه النسخة بحيث تبدو وكأنها ذات طموحات كونية، ولديها أرض تحميها وتنفذ فيها أحلامها. إن صعود داعش (وهو وارث تنظيم القاعدة)، ومحاولة إسباغ اللون الطائفي على كل مفاصل الصراع في المنطقة، إنما هو دليل على تعقّد المشهد، فضلاً عن كونه أحد أهم أمراض الشرق الأوسط المزمنة. إن هذا دليل آخر على أن الأيدولوجيا هي ركن أساس في هذا الصراع. وإذا لم تجر معالجة الأسباب التي مكّنت داعش من الدعوة الأيدولوجية لأفكارها، فقد تتكرر الدورة العنيفة في المستقبل من قبل أبناء داعش أو أحفادهم، وتستمر الدوامة إلى الأبد.

كتاب (الانهيار) هو ببساطة قصّة رجال ونساء، عراقيين وأميركيين، أناس عاديين أو متميّزين، رسميين أو شعبيين. أولئك الذي عاشوا تلك الفترة في «بلاد ما بين النهرين»، الذين كافحوا من أجل صنع حياة أفضل، أو خسروا أرواحهم خلال كفاحهم ذاك. هذا الكتاب هو مقدمة مني لبلاد كسيرة وقعت شخصياً في حبّها. لقد أثّرت الحرب في العراق ونتائجها في بعض الأميركيين أيضاً. وأجد اليوم إرادة متنامية لتحمل المسؤولية عمّا حصل في العراق وما زال مستمراً في الحدوث. كانت شرعية الحرب مثار جدلٍ طويل استمر بلا نهاية. أما العراقيون فإنهم

يتوجّهون باللائمة إلى الأميركيين لتدميرهم بلدهم، وأما الأميركيون فيلومون العراقيين على تفويتهم الفرصة لبناء دولة ديمقراطية مستقرّة. والسياسيون يحاولون استغلال أوضاع العراق لتحقيق مكاسبهم الخاصّة دون الالتفات إلى المواطنين وتطلعاتهم. الديمقراطيون يتوجّهون باللائمة إلى الجمهوريين لغزوهم العراق أوّل مرّة، بينما يلوم الجمهوريون نظراءهم الديمقراطيين على عدم ترك أي قوات خلفهم في العراق تبقى لأمدٍ أطول قليلاً. العسكر الأميركيون يلومون الموظفين المدنيين في سلطة الائتلاف على عدم بذل جهودهم، بينما ينحي المدنيون باللائمة على العسكر، متّهمين إياهم بمحاولة التدخل في كل شيء. البريطانيون من جانبهم يلومون توني بليير.

لكن ما حدث في العراق يهّم بالدرجة الأولى العراقيين أنفسهم الذين يتطلعون إلى غدٍ أقل قتامة ليوصلهم إلى بصيص من النور، وكذلك فهو أمرٌ مهمٌ لدينا نحن الذين خدمنا هناك سنة بعد أخرى كي نحقق شيئاً للعراق. إن لم تجر مراجعة حقيقة وفحص دقيق لما جرى في ذلك البلد، فلن يكون بمقدورنا تقديم العون والمساعدة على نشر الاستقرار في أيّ مكان في العالم مستقبلاً.

استهلال

تحقيق بشأن العراق

كان يوم الرابع عشر من كانون الثاني من عام 2011، قد ابتدأ بصباح بارد جداً. ترجلتُ فيه من الباص الذي يحمل الرقم 87 عند مبنى البرلمان البريطاني، ومشيت بمحاذاة كنيسة ويست منستر، ثم انعطفت نزولاً إلى شارع غريت سميث.

كانت أول مرّة لي أرتدي فيها بدلة رسمية منذ سنوات. واقترب موعدني للمثول أمام لجنة التحقيق المختصة بالعراق والتي عُرفت أيضاً باسم لجنة تحقيقات تشيلكوت (Chilcot).

التحقيق لم يكن يشبه المحاكمات التي تتعلق بجرائم الحروب، إذ لم تجر إدانة أيّ مسؤول بريطاني - أو حتى أميركي - فيما يخص تحمل مسؤولية ما حدث بعد غزو العراق. الشيء نفسه يصح قوله عن الطريقة التي جرت بها الأمور في مرحلة ما بعد الحرب. لكنّه كان تحقيقاً لأجل معرفة ما جرى بالفعل، ولأجل تسطير الدروس وتوثيق الحقائق التي قد تنفع في المستقبل.

وكان المئات من المسؤولين الرسميين البريطانيين قد أدلوا بإفاداتهم أمام اللجنة منذ أن بدأ عملها في أواسط عام 2009، والآن حان دوري. لقد دخلت إلى مبنى لم يوصف لي من قبل، واستقبلني موظف رسمي، سلّمني حقيبة وسار معي كي يدلّني على الطريق.

ثم دخلنا إلى غرفة، حيث جرى تقديمي إلى رئيس اللجنة، السير

جون تشيلكوت، الذي كان دبلوماسياً قديماً وموظفاً مدنياً مخضرمًا جرى اختياره ليقود الاستجواب.

وكان في الغرفة أيضاً، كل من: البارون يوشا براشر (Prashar)، وهو عضو في مجلس اللوردات البريطاني، وكذلك السير رودريك لين (Lyne)، وهو سفير سابق، بالإضافة إلى اثنين من المقررين وهما، السير لورانس فريدمان (Freedman) والسير مارتن غيلبرت (Gilbert).

أخذت مقعدي إلى إحدى جهات الطاولة في مواجهة الذين سيستجوبونني والذين جلسوا كلهم إلى الجهة الأخرى. بصراحة، كنت أشعر بالقليل من القلق، لكنني كنت أطمئن نفسي بالقول: «لا شيء يمكن أن يُرعبني بعد تجربتي في العراق. لن يموت أحد على الأقل». ثم دار الحوار التالي:

البارون براشر: هل يمكننا البدء باستعراض بعض المعلومات الأساسية أولاً؟ هل يمكن لك أن تشرحي لنا كيف جرى انخراطك للعمل لصالح (CPA) أو (سلطة الائتلاف المؤقتة) في العراق؟.

إيما سكاي: كانت هناك رسالة إلكترونية ضمن دعوات الخدمات المدنية، تطلب متطوعين للعمل والتعاقد مع سلطة الائتلاف. كان الأمر يطلب من البريطانيين والأميركيين أن ينخرطوا في إدارة البلاد هناك. وقد تمّ هذا عبر منفذ الخدمات المدنية. ويومها لم أكن ضمن الخدمة المدنية العامة، في الحقيقة كنت أعمل لصالح المجلس الثقافي البريطاني⁽¹⁾. فأبدت اهتماماً بالدعوة وأرسلت جواباً، فالتحقت كمنتدبة في الخارجية البريطانية ثم عضو في سلطة الائتلاف.

(1) المجلس الثقافي البريطاني (British Council) هو منظمة دولية مستقلة وتدار كشركة غير ربحية تعمل على توفير علاقات ثقافية وخلق روابط تعليمية حول العالم. وهي مسجلة كجمعية خيرية مقرها بريطانيا وتعمل فروعها في عشرات الدول - المترجم.

البارون براشر: وأيّ إيجازٍ حصلت عليه قبل أن تغادري إلى العراق؟
إيما سكاي: لم يجر إيجازي بالمعلومات من قبل أي شخص. كان هناك اتصال هاتفي فقط، وقيل لي: إنك قد سبق لك وأن عملت في الشرق الأوسط. ستكونين بخير، فقط توجهي إلى القاعدة الجوية الملكية في برايز نورتون ومن هناك ستأخذك طائرة عسكرية إلى البصرة. وحالما تصلين إلى هناك، سيكون أحد ما في استقبالك... سيكون هناك شخص يحمل لوحة كتب عليها اسمك، وسيصحبك إلى أقرب فندق.

البارون براشر: لكن السفر وفقاً لمكالمة تلفونية فقط؟ ألم يُحطك أحد علماً بقرار مجلس الأمن 1483 وآثاره المترتبة على سلطة الائتلاف المؤقتة؟
إيما سكاي: لا، لم أتلّق أي شيء من هذا.

البارون براشر: في الحقيقة سيكون من المفيد لنا أن تصفي دورك في سلطة الائتلاف المؤقتة وما هي المسؤولية التي أنيطت بك حينها؟
إيما سكاي: إن سلطة الائتلاف هي المسؤولة عن إدارة البلد،... خمس عشرة محافظة بالإضافة إلى كردستان. وكان هناك في كل محافظة مسؤول مدني يُعرف باسم (منسق المحافظة)، ويقوم بمهام الحاكم أو المحافظ وصلاحياته... وفي العادة يكون مسؤولاً عن النواحي الإدارية للمحافظة، ويتواصل مع القوات الأميركية، ويعمل مع العراقيين أيضاً. كما أن من مهامه إيجاد القادة المحليين الذين بإمكانهم تولّي بعض المسؤوليات، ويدعم قدرتهم على حكم المحافظة بأنفسهم.

البارون براشر: وأين كانت مهامك؟ أين كنت ستنفذين واجباتك؟
إيما سكاي: لم يكن هناك توصيف للعمل المناط بي. لم يجر إخبارنا بتفاصيل عملنا... لم أتلّق أي إخطار يخبرني ويحدد لي عملي حتى

حلول أيلول من عام 2003. وإلى ذلك الوقت، كنت أرتجل مفردات عملي كما أراها أنا مناسبة.

السير رودريك لين: فقط أتساءل إن كان بالإمكان العودة إلى بداية هذه المحاورة، فقط لأؤكد أنني فهمتها على نحو صحيح. عندما وصلت إلى هناك لم يكن لديك أيّ إيجاز مكتوب؟، ولا مصادر معلومات مرجعية عن عملك؟، ولم يكن هناك من أحد يمنحك التعليمات، باستثناء ما سبق أن تلقيته من توجيهات بخصوص سفرك من قاعدة برايز نورتون إلى البصرة؟.

إيما سكاي: لا، لم أتلّق أيّ شيء.

السير رودريك لين: أيّ شيء على الإطلاق؟.

إيما سكاي: لا، ليس قبل أن أغادر المملكة المتحدة. لم أتلّق أيّ شيء باستثناء اتصال هاتفي واحد. وعندما وصلت إلى البصرة، كان واضحاً أن لا أحد بانتظاري، ولا أحد يحمل لوحة عليها اسمي، كما لم يكن هناك فندق بالأصل. لذلك أكملت طريقي إلى بغداد وذهبت إلى القصر الجمهوري، وهناك التقيت بفريقنا البريطاني. لقد أمضيت أسبوعاً هناك أتجوّل حول منطقة القصور الرئاسية وأفهم كيف تجري الأمور، وأجمع ما أمكنني من معلومات توجز لي ما يجري. قيل لي: إن لدينا ما يكفي من العاملين هنا، لم نعد نرغب بالمزيد. اذهبي إلى الشمال، هناك نحتاج إلى أناس إضافيين؛ فذهبت إلى الموصل. وفي الموصل، قيل لي: إننا قد استعنا بشخص ما هنا؛ فذهبت إلى أربيل. وهناك قيل لي: لقد حصلنا على شخص ما هنا، لكن لا أحد لدينا في كركوك؛ فذهبت إلى كركوك. لم أكن أعلم أنني سأعمل في كركوك حين غادرت بريطانيا أوّل مرّة.

السير رودريك لين: إذن، حين غادرت بريطانيا لم تكوني على علم

إلى أين ستذهبين؟، كنت ببساطة لا تعرفين أي نوع من الثياب عليك أن تحزميه في حقبتك!.

إيما سكاي: حسناً، لا... كنت سأبقى فقط لثلاثة شهور.

وبعد مضي ثلاث ساعات من الاستجواب، بدا وكأنّ المُقررين على وشك إنهائه. نظرت إلى السير جون تشيلكوت، وأنا أرتجي أن أسمع منه بعض الكلمات المُطمئنة، وتمنيتُ أن تعترف اللجنة بأنني - ورغماً عن التحدّيات الكبيرة - فقد سعت جهدي لأداء الأفضل في ظروف صعبة للغاية.

ومن ردّة فعل تقاسيم وجه السير جون، بدا وكأنّه قد تاه نتيجة ما قلته أمامه. لقد كنتُ قد وقفت بالضّد من الحرب وعارضتها علناً، ومن الطبيعي أن أحمل شكوكاً تجاه أداء القوات العسكرية، وبالرغم من هذا، فقد تطوّعت للعمل مع سلطة الائتلاف لمساعدة العراق للنهوض على قدميه مرّة أخرى.

خلال أسابيع من سقوط نظام صدام، وجدتُ نفسي وأنا أحكم محافظة عراقية. وحين دقّت ساعة مغادرتي الأخيرة للعراق، كنتُ في منصب مستشارة سياسية لأعلى القادة العسكريين الأميركيين رُتبة في العراق، سواء في مرحلة الاندفاع وعمليات المواجهة ومحاربة التمرد، أو خلال مرحلة الانسحاب العسكري. امرأة بريطانية تقدم الاستشارة للقادة العسكريين الأميركيين، يبدو أنها قصّة غير محتملة الحدوث في مكان آخر من هذا العالم.

القسم الأول:

الحكم المباشر

حزيران 2003 - حزيران 2004

الفصل الأول

إلى بلاد ما بين النهرين

كل ما نريد قوله، هو أننا يجب أن نمنح السلام فرصة

(جون لينون/ مطرب ومؤلف أغاني بريطاني).

* * *

كان الصباح ما زال في بداياته من ذلك اليوم، 20 حزيران عام 2003. كنت أقف بالانتظار في قاعدة برايز نورتون، غرب لندن، كي تقلني الطائرة إلى البصرة. ويقف معي زهاء مئتي جندي بريطاني في صف الانتظار. أخذتني الدهشة من منظرهم، فصغر سنهم قد أدهشني بالفعل، وكذلك البراءة التي يبدو عليها. كان بعضهم يبدو مثل مراهق مُدلل في زيهِ العسكري النظيف والمكوي بعناية. كانوا يتحلّقون في مجموعات، وبعضهم حدّق في شكلي، لكن معظمهم اعتبرني غير موجودة أصلاً. شعرت بأنني لا أنتمي إلى ذلك المكان، فلم يسبق لي أن ركبَت الطائرة من قاعدة عسكرية، ولم يكن لديّ حتى بطاقة للصعود. بعد ذلك أتيح لي أن أعرف بأن هناك قائمة ما قد أدرج اسمي فيها، وهذا كل ما أحْتاجه للصعود إلى الطائرة العسكرية. وقد كتب أحدهم أمام اسمي كلمة «مدنية»، ودفعت بحقيبتني وصعدت إلى الطائرة.

بالتأكيد كانت الرحلة غير مُترفة، ولم يكن هناك ترقيم للمقاعد وفقاً للركاب لعدم وجود بطاقات أصلاً. وخلال الرحلة قام أحد الجنود بتوزيع وجبة طعام في علب على جميع الركّاب، فتحتّها وتناولت بسرعة الشطيرة التي كانت فيها، ومعها قطعة من الشوكولاتة. جرّبت أن أغفو لكنني كنت منفعة وقلقة فلم تغمض عيناَي. كنت منتدبة من قبل وزارة الخارجية البريطانية لمساعدة الإدارة المدنية في العراق على تمشية الأمور هناك لبضعة شهور ريثما يتمكن البلد من استعادة قدرته على حكم نفسه بنفسه. صحيح أنني لم أتلّق وقتها أيّ معلومات تفصيلية، إلّا أنني كنت واثقة من أن وزارة الخارجية تعرف بالضبط ما تفعله.

لقد حدث غزو العراق قبل ذلك التاريخ بثلاثة شهور، والمفروض أن الأعمال العسكرية قد انتهت، لذلك لا داعي للقلق غير المبرر.

في مطار البصرة، نزلت إلى الصالة ووقفت أنتظر حقيتي. وكنت أجد بنظري على التفاصيل الداخلية التي يبدو عليها الفخامة والزخرفة، لكنها كانت قد تعرضت للإهمال أو السرقة، وقد تخرب الكثير منها نتيجة للحرب. كانت حقائب الظهر العسكرية المرقطة مصفوفة في كل مكان، والبنادق ملفوفة ومصنفة في مجموعات على طول أرضية الصالة. وحينها ظهرت حقيبة بنفسجية فاقعة اللون لا تشبه أي شيء حولها، تلك هي حقيتي. حملتها على ظهري وتقدمت أبحث عن الكمارك أو مكتب الجوازات. لكن لم يكن هناك أي شيء من هذا، لا أحد سيختم على جوازي، وليس هناك كمارك، وليس هناك عراقيون على الإطلاق.

لقد قيل لي إن أحداً ما سيكون في انتظارك ويحمل لوحة كتب عليها اسمك. لم يكن هناك أي شيء من هذا، ولم يستغرقني الوقت طويلاً كي أدرك أن لا أحد يتوقع وصولي بالأصل.

ومضيت أمشي باتجاه ممر كتبت عليه لافتة تقول: «الركاب عبر الترانزيت»، في الحقيقة كان ممراً إلى الجحيم، إذ لا توجد فيه نوافذ، ولا مراوح، ولا تبريد، وكانت درجة الحرارة تقترب من 48 مئوية. فقط كانت أضواء النيون مضياء ليل نهار بفضل مولدات الطاقة الكهربائية.

وعلى طول هذا الممر كان عدد من الجنود مستلقين على أمتعتهم، وبعضهم نصف عار وبالملايس الداخلية. لم أتخيل أن هذا سيكون خياراً لي أيضاً، كما أنني لا أمتلك فراشاً للنوم مثلهم. كانت معي منشفة، مددتها على الأرض واستلقيت عليها، كان بعض الجنود قد بدأ بالفعل بالشخير نتيجة الإرهاق والحرارة، أما أنا فقد حصلت على غفوة بسيطة.

في الصباح، وقفت في الطابور أمام الحمامات المتنقلة التي نصبها الجيش (والتي كانت بلا ماء)، ثم بدأت البحث عن شيء للأكل. وجبة

طعامي الأولى في العراق كانت (وجبة جاهزة للأكل)، جلبها الجنود البريطانيون من الوحدات الأميركية من أجل كسر رتابة طعامهم.

في الحقيقة، اتبعت التعليمات المكتوبة على الوجبة بدقة؛ افتح العلبة، أخرج منها المكونات، املاً الكيس بالماء البارد إلى غاية العلامة المؤشرة، ضع محتويات الكيس الفضي، اطوِ الكيس من الأعلى وانتظر. تأكد من أن المحتويات قد سخنت بما فيه الكفاية. وخلال عشر دقائق، كنت أتناول نوعاً من معكرونة التورتوليني، بالطبع لم يكن هذا ما توقعته عن إفطاري الأول في العراق، لكنني كنت أتصور جوعاً.

قررت أن أتجه إلى بغداد، على أمل أن أجد أحداً ما هناك يتوقع حضوري، ولديه عمل وتكليف مهمة أقوم بها. لذلك طلبت توصيلة من إحدى طائرات سلاح الجو الملكي البريطاني نوع (C-130) - هريكيوليس، وبالنسبة لشخص مدني، فقد كانت تلك الرحلة تجربة بحد ذاتها. كانت رحلات الطيران العسكري بسيطة جداً من جانب توفير الراحة، حشرت نفسي على أحد صفوف المقاعد التي على جانبي بدن الطائرة من الداخل، وتشبثت بذراعي بالشبكة الحمراء التي خلفي وباعدت بين أطرافي كوسيلة لاتقاء درجات الحرارة العالية التي كانت محرقة. ولم يكن في الرحلة ما يمنع الضوضاء أبداً، لذا فقد استمعت بصعوبة إلى تعليمات السلامة التي ألقاها عليّ أحد أفراد الطاقم وهو يشير إلى مخارج الطائرة ويصيح: «إذا تحطّمنا فوق المياه فاذهبوا إلى هذا الباب، وإذا تحطّمنا فوق الأرض فاذهبوا إلى ذلك المخرج». لقد شعرت بالفعل بأننا نتحطم حين بدأت الطائرة بالاهتزاز والهبوط التدريجي اللولبي، كان أثر الجاذبية قد جعل جسمي بأكمله ينضغط إلى جدران الطائرة. قيل لي بعدها: إن ذلك كان هبوطاً بطريقة الدوران اللولبي (البرغي!) لتفادي الإصابة بمقذوف ما.

هبطنا في مطار بغداد الدولي، وترجلنا من الطائرة. شعرت وكان مجففاً للشعر قد وضع على أعلى درجات سخونته وهو يعصف بوجوهنا لحظة خرجنا إلى أرض المطار. شيء تضاف له الحرارة التي تطرحها مكيفات الهواء العملاقة، التي نصبت لتبريد بعض الخيم والتي يتجمع فيها الجنود الأميركيون لمشاهدة التلفزيون. كانت قناة BBC تقدم حلقة من مسلسل (غريت بريتون)، في حلقة تتحدث عن الأميرة دايانا. وبعد ساعات من الانتظار، وصلت الحافلة العسكرية التي ستقلنا إلى القصر الجمهوري، والذي يبعد مسيرة نصف ساعة عن المطار، هذا القصر تشغله الآن سلطة الائتلاف المؤقتة. وبعد أن اجتزنا المنطقة المقفرة حول المطار، مرّ بنا الطريق على منازل كانت تختفي خلف أشجار النخيل. ثم وصلنا إلى القصر الرئاسي ولم أصادف أي شخص عراقي على الإطلاق، وهناك تم تقديمي إلى مكتب التمثيل البريطاني الذي يعمل فيه طاقم من الدبلوماسيين والعسكريين. وهناك وجدت اسمي ضمن لائحة تحتوي أسماء الموظفين المنتدبين، وكانوا بالفعل يتوقعون وصولي، وتلقيت ترحاباً حاراً من أحد العقداء البريطانيين؛ قال لي: «ليس هناك شيء يمكن أن نتخوف منه، باستثناء بعض إطلاق النار العرضي في الهواء من بعض الجنود الأميركيين الفرحين، هذا كان كل ما يتوافر لتهديد البريطانيين».

وخرجت في جولة حول القصر في محاولة لاكتشاف أسرارهِ، يقال إنه بالأصل شيد لإقامة الملك فيصل الثاني، لكن جرى إطلاق تسمية (القصر الجمهوري) عليه بعد اغتيال الملك عام 1958. القصر نفسه كان قد جرى قصفه خلال عمليات «الصدمة والرعب»⁽¹⁾ التي قُصفت خلالها

(1) عقيدة عسكرية تتضمن إيقاع ضربة قاصمة بقطعات العدو وتهدف إلى محو رغبته في القتال. نظر لها كل من: هارلن.ك. أولمان (Ullman)، وجيمس.ب. ويد (Wade). - المترجم.

بغداد. والآن، فإنّ من دك المنطقة الخضراء في يوم ما يحاول إعمارها وتطويرها اليوم.

وفي واحدة من قاعات القصر الكبرى التي تعلوها قبة شاهقة، رسمت عليها من الداخل صورة المسجد الأقصى في أورشليم القدس وحوله خيول طائرة، بينما حمل أحد الجدران تجسيداً لصواريخ سكود وهي تتجه إلى السماء. كان اسم صدام وحرف اسمه الأول محشوراً في كل مكان. ثم أكملت طريقي إلى الخارج ووقفت أتفرج. كانت هناك أربعة تماثيل برونزية عملاقة نصفية تحاكي رأس صدام مثبتة قرب سطح القصر. كان المهندسون الأميركيون يخططون للطريقة المثلى لإنزالها.

كانت الحياة في القصر الجمهوري في تلك الأيام المبكرة شيئاً لم يعتده القصر بالمرّة، إذ كان مزدحماً بقطعات ضخمة من الجنود، ولا يُرى فيه سوى القليل من المدنيين. أقيمت المكاتب الإدارية في كل مكان تقريباً، لكن أماكنها كانت تتغير باستمرار. وكانت لوحات الدلالة تعلق باستمرار للتعريف بالشاغلين الجدد، مع إشارات بالأسهم تشير إلى الأماكن القديمة للمكاتب التي تم نقلها. ولم يكن هناك أيّ تكييف للهواء، حيث كانت الكهرباء غير منتظمة ومنظومة المياه معطّلة باستمرار. أما الغرف الفخمة والممرّات الباذخة فقد تم اتخاذها مهاجع لنوم الجنود، أو مكاناً مؤقتاً للمستشفيات الميدانية.

كان المحظوظ منّا هو من يجد مروحة تنفخ الهواء على جسمه المتعرق حينما يكون هناك كهرباء. ولم تكن الحمامات والمرافق الصحية عاملة داخل القصر، كنا نمشي مسافات طويلة لقضاء حاجتنا في المرافق الصحية المؤقتة المُقامة في الفضاءات الخارجية. أمّا مجمع الحمامات المقام ميدانياً فقد كان يخصص خلال ساعات محددة للنساء،

وخلال ساعات أخرى من النهار يخصص للرجال. وفي بعض الأحيان كنا نضطر للاستحمام بالمياه المعدنية المعبأة، وربما نضطر في مرّات عدّة إلى غسل الأرضية بهذه المياه أيضاً. كانت المرافق الصحية المتنقلة تفرّغ باستمرار كلّما امتلأت في نقاط التفريغ فتفوح الروائح النتنة في كل مكان. في النهاية، وجدت لي فراشاً في إحدى الغرف في الطابق العلوي، حيث تشاركني في الغرفة امرأتان أخريان. لكن خلال بضعة أيام تلقينا إشعاراً بأن الغرفة قد تم تخصيصها لصالح استخدام أحد المكاتب وقد توجّب علينا إخلاؤها. لكنّي تدبّرت أمر غرفة في (فندق الرشيد)، القريب جداً من القصر؛ كان أحدهم سيغادر دون أن يسجل مغادرته وسيترك لي المفتاح.

فندق الرشيد كان بناءً إسمنتياً ضخماً من ثمانية عشر طابقاً يقع داخل المنطقة الخضراء. لم يكن في مدخله أيّ أثر يدل على اللوحة الموزائيكية التي كانت تحمل صورة الرئيس جورج بوش الأب، والتي وضعت على أرضية المدخل بعد حرب الخليج 1991، بحيث تطفأ الصورة أقدام كل من يدخل إلى الفندق. كانت قد أزيلت بواسطة جنود أميركيين قبل بضعة أسابيع.

أما (مستلزمات الحياة) فقد كانت تزوّدنا بها شركة (كيلوغ براون وروت) (Kellogg Brown & Root)، والمعروفة اختصاراً بـ (KBR). وهي فرع من فروع شركة هالبرتون (Halliburton) الأم. هالبرتون كانت شركة عملاقة أميركية - متعددة الجنسيات، تختصّ بشؤون القطاع النفطي. بينما كانت (KBR) مسؤولة عن توفير الطعام لنا، وعن إرسال ملابسنا لأغراض الغسل إلى الكويت، وعن كل المهام التي تؤمّن للجيش استمرارية عمله وإدارياته. تحولت القاعة الكبرى في القصر إلى

مطعم كبير، كان عليّ أن أقف في الطابور لثلاث مرّات يومياً وأحمل صينية وأدوات مائدة، كلها من البلاستيك وأختار الدجاج أو الهامبركر وشيئاً من بطاطس الحرية! التي يقدمها لنا طهاة باكستانيون (أطلق الجنود عليها هذه التسمية على أثر المعارضة الفرنسية للحرب - بدلاً من الاسم العالمي «بطاطس فرنسية»)، ثم بعد ذلك أختار صودا باردة أو شايًا مثلجاً وأجلس إلى إحدى الطاولات لتناول طعامي.

وخلال الأيام اللاحقة تلقيت عدّة إيجازات وشروحات من ضبّاط أميركيين ودبلوماسيين عن سير العمل في سلطة الائتلاف المؤقتة وتقدمه، وكيف تطور وفقاً للتسلسل الزمني للأوامر وتنفيذها. بدأت أتلّمس التنافس الداخلي بين الأجهزة الأميركية العاملة في العراق، وقيل لي حينها إن وزارة الدفاع الأميركية أطلقت عملية تأسيس (مكتب الإعمار والمساعدات الإنسانية)، وإنها أناطت إدارته بالجنرال الأميركي المتقاعد، جي غارنر (Jay Garner). لكن لم تكن سوى أيام وظهر أن البيت الأبيض غير مرتاح لما خطط له الجنرال غارنر من خطط للاستعانة بحكومة انتقالية تتكون من العراقيين، وأنه يخطط لإجراء انتخابات عامة خلال تسعين يوماً. لكنّ الحكومة الأميركية كانت ترى أنها بحاجة إلى شخصية ذات تأثير سياسي أعلى بدلاً من الجنرال المتقاعد.

وفي 11 أيار تم تعيين بول بريمر (Paul Bremer) ليكون الرئيس الجديد لسلطة الائتلاف المؤقتة، والتي صار مكتب الإعمار جزءاً منها. لم يكن بريمر يرى أن هناك من العراقيين من يمكن الوثوق بقدرتهم على إدارة البلاد، لهذا قرر أن تخوض الولايات المتحدة تجربة الإدارة المباشرة للعراق إلى أجل غير مسمى. كانت أميركا تنوي إعادة إعمار العراق على غرار ما فعلت مع ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية. ومن أجل

تقويض الأسس التي كانت الدولة تدار وفقها في عهد صدام، وتجه برير
سلطة الائتلاف بإصدار مرسوم يقضي بحل حزب البعث، وآخر يقضي
بتسريح القوات الأمنية العراقية. لكنّه بهذا، كان يزيل عصب الدولة التي
أبقت العراق متماسكاً وموحداً، لهذا فقد كان هناك فراغ في السلطة
وتسريح جماعي للجميع.

وبينما تركّز الوجود البريطاني في العراق بمدينة البصرة، فقد كان
هناك بعض البريطانيين موزعين على بعض المحافظات، ثم جاء من
أخبرني بضرورة سفري إلى الشمال لألتحق بعمل هناك. كان قد مضى
عليّ في العراق ما يقرب من أسبوع، وكنت راغبة بإلقاء نظرة على بغداد
قبل أن أتركها، لكننا كنا نواجه وضعاً أمنياً آخذاً في التعقيد شيئاً فشيئاً،
ولم يُسمح لنا بمغادرة القصر إلا بمرافقة أمنية مسلّحة ومدرّعة. لكن
الفرصة سنحت لي لرؤية بغداد حين قرر أحد الضباط أن يصحبني معه
إلى فندق الشيراتون، وهناك صافحني وتمنّى لي حظاً سعيداً وغضّ النظر
عني، فابتعدت عنه بهدوء وخرجت خارج الرقعة المحاطة بالأسلاك
الشائكة وأصبحت فجأة في الشارع وحدي.

وجدت نفسي أتمشى عند الضفة الشرقية لنهر دجلة، في الشارع
المُسمى باسم (شارع أبي نؤاس)، على اسم الشاعر العظيم الذي خلد
بغداد، وخلّد الشعر والأدب فيها لقرون طويلة لاحقة، الشاعر الذي
يذكرنا أن بغداد كانت مكاناً متميزاً للثقافة العربية، وعاصمة لها، حتى
غزاها المغول عام 1258.

لم يكن لدي أيّ فكرة عما هي عليه صورة بغداد المعاصرة، لكن أياً
من الصور الخالدة التي وصفتها حكايات (ألف ليلة وليلة) لم يكن لها
أي أثر، كانت الأوساخ تنتشر في كل مكان، والقطط والكلاب السائبة
تهيم على وجهها في الأزقة.

في بدايات القرن العشرين، كان ثلث سكان بغداد من اليهود. هذه الأرض شهدت ذات مرة واحداً من أكثر المجتمعات اليهودية ازدهاراً. فعلى ضفاف النهر عند بابل، جلس اليهود ذات مرة ينعون خراب معابدهم. ثم جاء صعود الدولة القومية في العراق، وتأسيس دولة إسرائيل، وهو ما دفع بمعظم اليهود العراقيين إلى الهجرة نهائياً عن العراق، والآن لم يبق منهم سوى أقل من عشرة أشخاص ربما.

وبينما كنت أتمشى لمحت لافتة كتب عليها (غاليري) فدخلت إلى المكان. بادرت صاحب المكان بالقول: «سلام عليكم»، فأجابني بترحاب كبير، ودعاني إلى شرب الشاي وكان فيه الكثير من السكر في كأس تقليدي عراقي. ثم حدثني عن المعرض الفني الذي يديره. إن بغداد كمدينة شرق أوسطية معروفة بأنها مركز للفن التشكيلي. وقال صاحب الغاليري: «لقد أخفيت كل الأعمال الفنية المهمة ونقلتها إلى مخزن أمين، أعرف أن القصف الجوي لم يستهدف سوى المواقع الحكومية، لكنني أخشى عمليات السرقة (الحواسم) التي تلت دخول القوات الأميركية».

أخذ المصطلح (حواسم) مني بعض الوقت لأفهم أن معناه هو (عمليات السرقة)، كان صدام قد أطلق على عملية غزو قوات التحالف لقب (أم الحواسم)، وقبيل وصول القوات الأميركية إلى بغداد، فتح أبواب السجون وأطلق عدداً كبيراً من المجرمين إلى الشارع.

لم يكن صاحب المعرض الفني قد أعاد اللوحات كلها إلى جدران معرضه، لكنه اصطحبني إلى الطابق العلوي ليعرض عليّ بعضاً من الأعمال الباقية. وقال: «كل العراقيين فرحين لزوال نظام صدام، لكنهم محبطون وخائفون من حالة الانفلات وغياب القانون». ثم أضاف:

وأجبتة مستفهمة: «عذراً؟». فكرر على مسامعي: «هوبز... هوبز»⁽¹⁾، ومضى في طريقه دون أن يتوقف. وحين عدت إلى النقطة التي انطلقت منها في فندق الشيراتون كي ألتحق بالعربات الأميركية العائدة إلى القصر الجمهوري، كان السؤال يرنّ في أذني، من كان ذلك العراقي؟ وكيف تعرّف إلى توماس هوبز؟.

بعد محاولتي هذه «لاستقراء» بغداد، حان موعد مغادرتي المدينة، فالتحقت بطائرة (C-130) الأميركية المتّجهة إلى الموصل، ومن هناك ذهبت في رحلة برّية إلى أربيل، مقر حكومة إقليم كردستان. وفي فندق (خان زاد)، حيث تستقر إدارة سلطة الائتلاف للمناطق الشمالية، التقيت هناك بـ (ليان ساندرز) (Liane Sanders)، وهو صديق قديم من أوكسفورد، وكان يعمل في الخارجية البريطانية، وعرفت أنه الآن يعمل كمستق مفوّض للخارجية للمناطق الشمالية من العراق لدى سلطة الائتلاف المؤقتة. لقد قيل لي وقتها إن عليّ أن أستقر في كركوك، لكن توجّب أن ألتحق أولاً بجولة مع إدارة السفير بريمر. لقد لمحت بريمر مرّة في مهبط المروحيات، بدا حينها مندفعاً وملئاً بالطاقة والحيوية. كان يرتدي بدلة مع حذاء عسكري، وهو ما أصبح فيما بعد علامة مميزة له. لقد كنت أظنّ أنه في منتصف الأربعينيات من العمر إلى أن أخبرني أحدهم أنه في منتصف الستينيات من عمره آنذاك. وكان محاطاً بشكل دائم بحراسه التابعين لشركة بلاك ووتر للخدمات الأمنية. إن الانخراط في حاشية بريمر كان له كلّ السحر والدهشة التي تصاحب العمل المشابه في الحملات الانتخابية الرئاسية.

(1) ربما يشير هذا الشخص الذي تحدثت معه المؤلفة إلى رأي توماس هوبز بأن الفوضى خليقة بأن تفكك الناس أكثر مما يمكن أن يفعل الاستبداد وهو ما أسماه «حرب الجميع ضد الجميع» - المترجم.

كانت رحلتنا الأولى من أربيل إلى السليمانية، حيث ركبت الطائرة المروحية لأول مرة وكنت مرعوبة حقاً أن أسقط منها. في السليمانية اجتمع الأكراد بأعداد غفيرة للترحيب بنا، يحملون الورود ويلوّحون بالقبلات. وكانوا يحملون لافتات توجه الشكر للأميركيين على تحريرهم للأراضي الكردية. أما الطريق داخل المدينة فقد شهد انتشاراً كثيفاً على جانبيه لجنود (البيشمركة)، وهم المقاتلون الأكراد الذين قاتلوا إلى جانب قوات التحالف. كنت أرافق السفير بريمر إلى لقائه بجلال طالباني، وهو زعيم حزب الاتحاد الوطني الكردستاني (PUK).

في ذلك اللقاء، تكلم بريمر وقتها بكثير من التفاؤل والحماس. وقد كان يناقش لحظتها تشكيل مجلس الحكم العراقي الذي سيتشكل من خمس وعشرين شخصية عراقية مختلفة، تمثل كل المجتمعات والمناطق المختلفة التي يضمها العراق.

وتحدث بريمر يومها أيضاً عن تشكيل مجموعة تتولى مهام كتابة دستور للعراق، ثم يجري نشر المسودة والنقاش فيها في مختلف الأوساط، وأخيراً يجري عرضها على الاستفتاء العام من أجل العمل بها. وحالما يقرّ الدستور شعبياً، فإنه سيفتح الطريق أمام إجراء انتخابات حرة، تسمح للعراقيين بأن يختاروا ممثليهم. وبعد ذلك اللقاء طرنا ثانية إلى بلدة (سره رش) وهي مقر مسعود بارزاني حيث كان لنا معه نقاش مماثل، بارزاني هو زعيم الحزب الديمقراطي الكردستاني (PDK) وهو الفصيل الكردي الرئيس الثاني. وخلال مأدبة الغداء أشار إليّ بريمر أن أجلس إلى جانبه وفي قبالة بارزاني. كان ينوّه بي على أنني الواصلة حديثاً إلى العراق. قبلها سألني عن عملي السابق وما أنجزته، ذكرت له عن فلسطين وإسرائيل، وعن محاربة الفقر، وعن المساعدة في تأسيس

العدالة الانتقالية في كل مكان سبق لي أن عملت فيه حول العالم. وسار الحوار إلى أن وصل إلى ذكرى الرابع من تموز، لحظتها نظر إليّ كل من بارزاني وبريمر فأجبت: «إننا كبريطانيين نتمنى لكلّ مستعمراتنا السابقة الازدهار الذي شهدته الولايات المتحدة»؛ وأجاب الاثنان بابتسامة، لكنني سألت نفسي، كيف أمكن للأقدار أن تجعلني هنا لأكون جزءاً من الاحتلال الذي تقوده الولايات المتحدة للعراق.

بعدها احتفلنا بيوم الرابع من تموز- يوم الاستقلال الأميركي- عند شواطئ بحيرة دوكان. كانت بحيرة دوكان هي الأعظم في منطقة كردستان، تشكّلت عند مقدمة سدّ تم بناؤه في الخمسينيات من القرن الماضي. ووقفت عند شاطئ البحيرة أشاهد الغروب الهادئ للشمس خلف الجبال. وأخذت الموسيقى تعزف النشيد الوطني الأميركي (راية النجوم المتلائة). ثم ألقى برهم صالح، وهو نائب زعيم حزب الاتحاد الوطني كلمة أثنى فيها على الجهود الأميركية، وقال فيها: «نحن الكرد، تعودنا أن نقول إن لدينا صديقاً واحداً وهو الجبل، لكن هذه لم تعد الحقيقة كلها». بعد ذلك قضيت الأمسية في منزل برهم صالح أطالع واحدة من أهم مقتنياته، كان قد حصل على البوم للصور يخصّ صداماً وعائلته. الألبوم تظهر فيه صور صدام الأب مع أطفاله، أو صدام كمزارع في الحديقة ويرتدي البيجاما، أو صدام وهو يأخذ قيلولة. فخلال عمليات السرقة والنهب التي حصلت في بغداد، وبطريقة ما جاء أحدهم بالألبوم ليضعه بيد برهم صالح. ولاحقاً في تلك الليلة بدأ الأكراد في الرقص الشعبي حول حوض مائي في حلقة، وانضمّ إليهم بعض العسكريين الأميركيين وبعض المدنيين وكنت أنا من بينهم.

وفي وقت لاحق من الأمسية، أشار لي أحدهم إلى ضابطٍ يجلس

في زاوية ويخوض نقاشاً جاداً مع جنود آخرين، كان ذلك هو العقيد مايفيل (Mayville)، وهو قائد القوّة العسكرية الأميركية المسؤولة عن كركوك. وقبل يوم من التحاقه بالعمل في إدارة تلك المدينة، عرفت أنه كان يناقش في تلك الأمسية عملية عسكرية لملاحقة مجموعة مسلّحة خططت لاغتيال الشخص الذي عيّنه مايفيل على إدارة المدينة، ولاحقاً عرفت أن هذه المجموعة المسلّحة كانت تنتمي إلى فرقة من القوات الخاصّة التركية.

في اليوم التالي ركبنا الطائرة المروحية للذهاب إلى كركوك، وحين أغلقت أبواب الطائرة شعرت بأمان وموثوقية وقررت ألا أربط جميع الأحزمة التي يفترض ربطها حول جسمي، ففي المرّة الأخيرة تركت علامات على ملابسي، وخلال الرحلة قامت المروحية بالتفافعة عنيفة وكان الباب مفتوحاً، وإذا بي أدفع من مكاني باتجاه السقوط، لولا تشبثي بالمقعد من أجل حياتي. كانت صرخاتي ضائعة ولا يسمعها أحد، لأن صوت المروحية يفوق كل شيء. وحين عادت المروحية إلى وضعها الأفقي المستقيم، كنت منحشرة بين ركبتني باتجاه الأرضية. ولما هبطنا في مهبط الطائرات في كركوك، كنت أرتعش تماماً. هنا سأمارس دوري كممثلة للحاكم بريمر في هذه المحافظة وبعنوان كبير، (منسقة الحاكم لشؤون محافظة كركوك).

...

قبل أربعة شهور، وحين بدأت طبول الحرب تُسمع في كل مكان من العالم، كنت في زيارةٍ إلى الولايات المتحدة. وهناك وقفت عند قاعدة برججي التجارة العالميين اللذين انهارا خلال هجمات 11 أيلول. كان من السهل فهم الانعكاس الذي خلفه هذا الهجوم على الأميركيين،

وكيف تركهم غاضبين، وهم يشعرون بأنهم مكشوفو الجناح، وراغبون بالانتقام. ومع هذا، فقد كان القلة منهم، من الذين تحدثت معهم راغبين بالحرب على العراق، ولم يروا أي ربط بين العراق واعتداءات 11 أيلول.

في ذلك الوقت، كنت في الخامسة والثلاثين من العمر، وكنت مستقرة بالسكن في مدينة مانشستر. حينها كنت أعمل في المجلس الثقافي البريطاني كمستشارة في شؤون الحوكمة والعدالة. وقتها عملت على عدد كبير من المبادرات، تنوعت من عملية إصلاح السجون في البرازيل، إلى تحقيق مؤسسات العدالة في نيجيريا، إلى مواضيع حقوق الإنسان في بنغلادش وإلى قضايا العنف ضد المرأة في الأردن. لقد اكتسبت خبرة في العمل ضمن بيئات مختلفة، وبلدان متنوعة ثقافياً وجغرافياً. وخلال أحداث 11 أيلول، كنت في القاهرة أعمل على برامج تقوية منظمات حقوق الإنسان المستقلة. ومن خلال التلفزيون في غرفتي بالفندق كنت أتابع انهيار برججي التجارة في ذلك اليوم، ومن خلال تغطية شبكة CNN الإخبارية.

كنت أتلصص نوعاً من البهجة في القاهرة نتيجة هذا الهجوم؛ لسان الحال يقول: «على الأقل ستلقى الولايات المتحدة جرعة مما تسقيه للآخرين»، أو إن «الشيطان الأكبر» يذوق اليوم الألم الذي منحه للآخرين حول العالم. في تلك الليلة التي قضيت أمسياتها في عوامة على ضفاف النيل، شعرت بأن العالم لم يعد العالم نفسه الذي نعرفه.

وفي المجلس الثقافي البريطاني، شرعت في المشاركة بإعداد دراسة لمعرفة مصادر الكراهية والعدائية التي تتوجه وتتطور بالضد من الغرب. كما شاركت في إعداد سيناريو تصوّري لما سيكون عليه شكل العالم إذا ما دخلت كل من بريطانيا والولايات المتحدة في الحرب ضد العراق.

كان موقفي معارضاً للحرب بوضوح، وأحمل شكوكاً حول شرعيتها والأهداف التي تقف خلفها. كان صدام واحداً من أكبر الأوغاد على وجه الأرض، لكنني لم أكن مؤمنة بوجود صلة بين تنظيم القاعدة ونظامه. كنت أخشى أن تتعرض المنطقة العربية إلى إذلال جديد على يد احتلال جديد، الأمر الذي قد تستغله القاعدة وابن لادن من أجل تجنيد المزيد من الأتباع إلى التنظيمات الإرهابية.

كنت أسمى هذه الحرب بأنها «حملة صليبية أخرى»، ستتسبب في تشظي العراق وإطلاق حروب إقليمية جديدة. وكنت قد اتخذت قراراً، فيما لو وقعت الحرب على العراق، فإنني سأجد طريقة للعمل هناك، وتقديم الاعتذار للشعب العراقي عبر هذا العمل، وعبر مساعدتهم على بناء بلدهم. هذا الأمر لم يكن غريباً عند من يعرفني؛ كان هذا القرار هو بالضبط ما يمكن أن أفعله ويصدر عني.

* * *

لقد ولدت في لندن عام 1968. وانفصل أبواي عن بعضهما حينما كان لي من العمر شهر واحد. وترعرعت وأنا لا أعرف والدي، قيل لي إنه كان يهودياً من عائلة هاجرت إلى بريطانيا قادمة من شرق أوروبا. وجدت أمي عملاً لها كمديرة منزل مقيمة في منزل مستخدمها ذاته، وعقدت العزم على أن توفر لي تعليماً جيداً. وحين أصبحت في الرابعة من عمري، انتقلت والدتي للعمل كمسؤولة تدبير في بلدة آشفولد (Ashfold)، في مدرسة ابتدائية داخلية للبنين تتخذ من قصر قديم مقراً لها. القصر تتبعه أرض خضراء تربو مساحتها على ثلاثين أكراً في ضواحي أوكسفورد. كنّا نسكن في غرفة في الطابق العلوي. وحين أصبحت في السابعة من عمري، قبلتني المدرسة كضييفة عليها. كنت

واحدة من خمس فتيات فقط تم قبولهن بهذه الطريقة. لقد كانت تجربة رائعة، أتذكر كيف أننا كنا نتجمع جلوساً على الأرض لمشاهدة الأفلام السينمائية القديمة التي تتحدث عن الحرب. وأتذكر كيف كنا نلعب لعبة الهرب من سجن الأعداء، والتخفي في الغابة بين الأشجار خلال الليل. ثم الوصول إلى العلم الخاص بالفريق، وهو علامة الفوز.

أتذكر مطالعة قصص مغامرات (ثور هايردال) ورحلته في حملة (كون تيكي)، أتذكر أيضاً مطالعة رحلات (ريتشارد بورتون) و(جون سبيك) إلى أفريقيا في بحثهم عن منابع النيل. كما كنت ألعب في فريق كرة القدم المصغر في المدرسة، وكنت أحمل اسم اللاعب (فريد بلوغز) فلا يكتشف الفريق الخصم بأنني كنت فتاة!.

وعندما كنت في العاشرة من عمري، ارتبطت والدتي بعلاقة حب مع مدرّس يعمل في المدرسة ذاتها، كان يصغرها بعشر سنوات. ترك زوجته وأطفاله ورحل بنا إلى شمال آيرلندا، حيث أقمنا في مدرسة كانت تبدو مثل السجن، كنت أحنّ إلى آشفولد وأيامي فيها يومياً. وبعد سنة، عدنا إلى إنكلترا حيث حصل زوج أمي على عمل في مدرسة ابتدائية للأولاد في (أولد رايد) وكنت أحضر الدروس فيها، طبعاً كنت الفتاة الوحيدة فيها. لقد كانت تجربة مذهلة، أن أتعامل مع الصبيان المشاغبين الذين لا يريدون لفتاة أن «تلوث!» مدرستهم الخالصة للبنين. لكنني كنت المتفوّقة دراسياً عليهم. وفي سن الثالثة عشرة، فزت بمنحة دراسية ستأخذني إلى مدرسة تخصصية في تشيلتنهام (Cheltenham). تفوّقت في تلك المدرسة، وبرزت أكاديمياً والتحقت بفصيل التلاميذ الحربيين. كان لدي - ولأول مرّة في حياتي - صديقات من الفتيات. لكنني تمرّدت على التعليمات واللوائح في السنة الأخيرة، وجرى تعليق دراستي نتيجة

تلك التصرفات. أبلغتني المديرة حينها - وكانت مسيحية إنجيليكانية-
بأنني قد ضيعت حياتي. وخرجت من تلك المدرسة وأنا أحمل شكوكاً
عميقة تجاه المؤسسات الدينية والدين كمؤسسة بصورة عامة.

وخلال سنة من الفراغ بعد تركي للمدرسة، سافرت للعمل كمتطوعة
في مستوطنة كفار مناحيم (Kfar Menachem) في إسرائيل. هناك عشت
أياماً من الحرية بطعم آخر. كانت حافلة بالنقاشات حول العلمانية
والاشتراكية. وتدخين الحشيش حول نار المساء في المخيم، نتجادل
في معاني الحياة. كنّا نتحلّق لسماع راديو السلام والحرية - كان يبث
من مكان ما في شرق المتوسط - يدعو إلى «رفض المزيد من الحروب،
ورفض المزيد من إراقة الدماء». كنّا لا نتخيل المجتمع المثالي فقط،
إنما نحاول كشباب أن نعيشه بالفعل.

في تلك المستوطنة، قابلت إسرائيليين من مختلف الخلفيات
والمشارب، كان مؤسسو المستوطنة قد هاجروا من ألمانيا وروسيا
وبولندا. كان بعضهم من الذين نجوا من الهولوكوست، والبعض
الآخر هرب من التهجير وآخرون فقدوا عوائلهم، كانوا يحملون معهم
مخاوفهم وكوابيسهم من تلك التجارب. أما أبناء أولئك المهاجرين فقد
ولدوا في المستوطنة، وسيخدمون في وحدات النخبة والكوماندوس
في جيش الدفاع الإسرائيلي. في المستوطنة، كانت تتوفر مدرسة داخلية
تضم أبناء العائلات الأشد فقراً والتي هاجرت من البلدان العربية بعد
تأسيس دولة إسرائيل عام 1948.

وكان هناك بعض الإسرائيلييين الذين قسّموا خدمتهم العسكرية بين
الالتحاق بالجيش أو الخدمة داخل المستوطنة؛ بعضهم كان شديد
التمسك بيساريته ويوجهون انتقادات حادة لاحتلال إسرائيل للبنان.

كانت النماذج كثيرة، فمن بينهم الطيار البارع الذي يفتقر إلى غريزة القتل، أو المواطن الذي فقد ولديه في إحدى حروب إسرائيل، أو الشاب الذي تعمد جرح نفسه كي يفلت من الخدمة العسكرية، أو الرجل الذي تزداد لديه مظاهر العُته كلما اقترب موعد التحاقه بالخدمة العسكرية. الجميع ينظرون إلى الحرب باعتبارها شيئاً فظيماً ويجب الندم على فعله. وكان هناك يونس وعائلته، وهو عربي من أهل المنطقة، منح مزرعته إلى المستوطنة أيام الحرب، وحين عاد السلام، رجع إليها ليطالب بها بصور سلمية. وتمكّن من العيش معنا وزراعة الأرض ثانية. كنت أقضي معهم أيام السبت، ونخرج في جولة بالحقول على ظهور الخيل.

ومن خلال العيش في المستوطنة، تعرّفت أكثر إلى المجتمع الإسرائيلي، وكيف ينظر الإسرائيليون إلى أنفسهم. اكتشفت عن قرب توقّهم للعيش في سلام وطمأنينة، كان ذلك الجانب من حياتي يوافقهم، وهو الجانب الذي لم أكتشفه في نفسي إلا هناك.

عدت إلى أوكسفورد لأواصل تعليمي التقليدي، كانت تكاليف الدراسة قد تم تسديدها من قبل الحكومة، وقد استلمت منحة تغطّي تكاليفي المعيشية أثناء الدراسة بسبب وضع والدتي المعاشي ودخلهما المنخفض. لكن مع اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الأولى في كانون الأول 1987، قررت أن أغير مجال دراستي إلى الدراسات الشرقية، وأن أركز على اللغتين العربية والعبرية.

وكانت مُدرّستي في اللغة العبرية هي ابنة الكاتب الإسرائيلي الشهير عاموس أوز (Amos Oz). في أوكسفورد تنعمت بالتأثيرات التفاعلية للتعدد، وقد أسرتني حكايات وخطابات المتحدثين الذين أغنوا خيالاتي. ولاحقت المستكشف الكبير ولفريد ثيسغر (Thesiger)، وحصلت

على نسخة موقّعة من كتابه (عرب الأهوار). كما أذكر ليونارد جاشير وهو يقص علينا صفحات من حياته، عن حياته العسكرية وجهوده في توفير مساكن للعاجزين. حدّثنا في يوم ما قائلاً: «عليكم أن تنجزوا شيئاً ما في حياتكم، لا أعني المال أو الأهداف بالضرورة، لكن أن يكون لحياتكم غرض ما». كنت أحفظ كلمات إيدموند بيرك (Edmond Burk) وأتبتها، إذ يقول: «كل ما هو مطلوب من أجل أن يتتصر الشر، هو أن يقف الصالحون ويتفرجوا دون فعل أي شيء». لكن ماذا عسى أن تكون قضيتي التي سأتبناها؟.

كان هناك يهود سوفيت يحاولون الهروب إلى الغرب، وكانت هناك المجاعة في أفريقيا. وكانت هناك حرب يجب أن تنتهي في الشرق الأوسط. كانت السيدة دافين بارك هي عميدة كلية ساميرفيل، وفي نهاية كل عام دراسي كنت أذهب (كغيري من الطلاب) لمقابلة شخصية مع العميدة تدوم نصف ساعة. تسألني فيها عادة عن طموحي وخططي للمستقبل، وفي كل سنة كنت أخبرها عن اهتمامي بنشر السلام في الشرق الأوسط. كانت تثير إعجابي بما تتذكره من محادثتنا في السنة الفائتة، مظهرها لم يكن ليختلف كثيراً عن أي جدّة طبيعية، لكنها كانت حادة الذكاء، لم تمض سوى سنوات قليلة وتكشفت قصّتها وجرى اتهامها بأنها كانت جاسوسة!.

كانت سنتي الثانية في جامعة الإسكندرية بمصر، وقد اعتدت على أن أعود إلى الشرق الأوسط كل صيف. وخلال السنة الأولى من الانتفاضة الفلسطينية، أمضيت الصيف أعمل مع المنظمات غير الحكومية التي تنشط هناك في رام الله، كان مشروعنا يهدف إلى تمكين الفلسطينيين من الاعتماد على أنفسهم في توفير سلّتهم الغذائية. وقابلت طيفاً عريضاً

ومتعددًا من فلسطيني (1948) من الذين هجروا منازلهم بعد قيام دولة إسرائيل، وآخرين من الضفة الغربية الذين نزحوا بعد حرب الأيام الستة عام 1967، وعدداً غير قليل من المقدسيين المنحدرين من عائلات فلسطينية معروفة. عشت معهم محنة الانتفاضة واستخدمنا البصل لاتقاء الغاز المسيل للدموع. وتعلمت معهم كيف نلتف حول نقاط التفتيش الإسرائيلية. لقد فهمت ووعيت حالة انعدام الأمان التي يعيشها الفلسطينيون. وفهمت مطالباتهم المستمرة بتحقيق العدالة ودوافعها.

وحيثما كنت في أوكسفورد، أقدم زوج أمي على الدخول في علاقة مع امرأة أخرى، تاركاً والدتي كسيرة القلب وبفلسة ومنذلة من فعلته. كانت علاقتي به صعبة من البداية، لكنها غدت معقدة ومستحيلة، أما الأصدقاء الذين حولنا فقد غمرونا بالتعاطف والتشجيع، لكن أمي كانت محبطة للغاية.

بعد التخرج قررت الذهاب في رحلة إلى تمبكتو في أفريقيا، بدت لي حينها مملكة بعيدة ومليئة بالأسرار، كنت أحاول الهرب من الألم والتعاسة التي تسببت لي بها العائلة ومشاكلها. لكن خوفاً من الفشل وألا أنجح في شيء بحياتي كان أكثر من خوفاً من الخطر والأماكن الجديدة.

الذي حدث هو أنني لم أصل أبداً إلى تمبكتو، وبدلاً من ذلك شققت طريقي عبر المغرب ثم الصحراء الجزائرية واكتشفت أنني على حدود النيجر حين استوقفنا الجنود في الصحراء وأنزلونا من سيارة البيجو التي كنت أركب فيها مع آخرين من قبائل الطوارق، وعند نقطة الحدود أمرونا بالعودة رجوعاً إلى الصحراء. ولأنني الشخص الوحيد الذي يتكلم الفرنسية في السيارة، فقد أقنعت الجنود أننا كنا مجرد سائحين

أوروبيين. لكنني لم أتمكن من العبور، ومن هناك اتجهت إلى مالي ثم شققت طريقي إلى جمهورية بنين، ثم إلى نيجيريا ومن هناك عدت إلى مصر حيث عثرت على عمل مؤقت كمدرّسة للغة وصحافية مستقلة. وبعد مصر، اتجهت عبر سيناء إلى القدس، كان قد مضى عامان كاملان قبل أن أشدّ الرحال عائدة إلى بريطانيا.

لكن العودة كانت قصيرة، ففي 1993 تصافح ياسر عرفات وإسحاق رابين في حديقة البيت الأبيض بواشنطن، فحصلت على وظيفة في هيئة تابعة لتنفيذ اتفاقيات السلام بين الطرفين. واقتضى عملي أن أزور الشرق الأوسط عدّة مرات، وكذلك مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، أسجّل احتياجاتهم ونعمل على تليبيتها وتوثيقها. قضيت في خضم تلك المسألة خمس سنوات، بعدها حصلت على وظيفة في المجلس الثقافي البريطاني، بالعمل على مشروع يهدف إلى تحسين الخدمات العامة التي تقدمها السلطة الفلسطينية إلى السكان في أراضيها. ولقد مضيت في التنفيذ والتخطيط لمشروع يساعد المجلس التشريعي الفلسطيني، والمنظمات الحقوقية الفلسطينية، ويساعد على إحلال السلام بين الفلسطينيين وإسرائيل على الأرض.

لقد كنت في تل أبيب في 5 تشرين الثاني 1995 حين خرج متّاف ألف إسرائيلي في مسيرات للسلام، يساندون فيها إسحاق رابين كي يمضي إلى الأمام ويخوض المفاوضات الصعبة، ويقدم التنازلات المهمة من أجل السلام وتحقيق اتفاقية نهائية. لحظتها تقدم أحدهم لاغتيال رابين. بكيت على أثر ذلك لأسبوع، فقد تلاشت أيام الأمل لتحل محلها فترات الإحباط.

وكل شيء بدأ ينهار مجدداً، قنابل انتحارية وقنابل في الباصات، كلّها

ازدادت. وخلال السنوات اللاحقة، كل ما عملت عليه في المشروع جرى تعليقه، وكل اتفاقيات أو سلو جرى خرقها.

عدت بعدها إلى المملكة المتحدة عام 2001 لأستقر في مانشستر. وفي عام 2003، عندما اندلعت الحرب في العراق، وعرفت أن وزارة الخارجية بحاجة إلى من يعمل على إدارة البلاد هناك، فسارعت إلى التطوع لأعمل هناك لشهور محدودة. كان واضحاً أن العمل في العراق سيتيح لي أن أفعل شيئاً وأقدم لحياتي غرضاً. هناك يمكن أن أحيي هذه الآمال.

وتوجهت إلى الشرق الأوسط ثانية، أحب الاستيقاظ مع نداء الصلاة وقت الفجر، وأتنفس رائحة المقاهي، وأمشي مع الناس في الأسواق، هناك عرفت أنني سألتقي بأناس دافئين ومرحبين بالغرباء أشد الترحيب.

الفصل الثاني

جنود سكاي

نحن الممدون في العصور
في الماضي المدفون بالأرض
قد بنينا نينوى بآهاتنا
وبابل نفسها قد بُنيت على وقع أغانيها
وقد ملأنا أنفاسها بالنبوءات
من أجل العالم الجديد ومن أجل أغلى ما فيه
لكن؛ لكل عصر نصيبه من الأحلام الميَّنة
حتى ذلك العصر الذي لم يولد بعد

آرثر وليام أوشغنيسي - شاعر إنكليزي.

* * *

ذهبت لأرى مبنى حكومة كركوك (مبنى المحافظة)، لأجد أن المكان هناك يعجّ بالجنود الأميركيين. كانوا ينتشرون في كل مكان ويتصرفون كما لو أنهم يملكون المكان بالفعل. كانت أبواب الغرف تحمل أسماء الشاغلين الجدد لها أو وظائفهم.

وبعض الغرف الأخرى تم تخصيصها للمجلس المحلي لكركوك والذي عيّن الأميركيون أفرادهم بأنفسهم. وكانت هناك غرفة صغيرة في الطابق الأرضي خصصت لسلطة الائتلاف المؤقتة؛ أي إن هذه الغرفة كانت مخصصة لي. أما العقيد مايفيل، فقد اتخذ من أكبر غرفة في البناية مكتباً له، تلك الغرفة كانت مقراً لمحافظة كركوك لغاية الغزو.

العقيد وليام مايفيل كان قائداً للواء 173 المجوقل، كنت قد لمحته سابقاً في مناسبة أو اثنتين، لكن لم نتبادل أي حوار سابقاً. كان متوسط الطول وذا بنية رياضية، ولفت انتباهي أنه يضع المسدس دائماً في الجهة اليمنى ويعكف ملابسه العسكرية إلى الخلف بحيث يبدو المسدس ظاهراً دائماً. منحني انطباعاً بأنه إنسان يصعب التكهن به، وربما كان انطوائياً بعض الشيء. ارتقيت الدرج وصولاً إلى مكتبه، وهناك قدّمت نفسي له، وبقيت واقفة قرب الباب لأنه استمر بالتبخر في الغرفة ذهاباً وإياباً، بينما كان يعرب لي عن مخاوفه وشكوكه في قدرة سلطة الائتلاف على تقديم شيء حقيقي. قال لي إن السلطة تعاني من نقص في العاملين وفي القدرات، كما وصف لي أن الآخرين غيري يأتون ويذهبون بعد أن يمضوا بضع ساعات هنا في كركوك، لكن لا أحد يبدو أنه مهتم حقيقة بالمدينة.

قلت له: «أنا أنوي البقاء أيها العقيد. كركوك تحمل أهمية استثنائية، فهي بمثابة عراق مُصغّر، تحمل مكوناته نفسها، فإذا تمكنا من النجاح

هنا، فستتمكن من النجاح في كل مكان». قلت هذه العبارة الأخيرة وأنا
أهز رأسي تأكيداً لما أقول. لقد بدا لي العقيد متعجباً جداً. كان الجنود
الأميريكيون يتحركون في كل مكان ويبدو عليهم الانفصال كثيراً عن
المكان بلباسهم العسكري الذي يشبه البيجاما. كنت أتساءل، كيف وما
هي الطريقة المثلى للتعامل مع هؤلاء؟.

*** * ***

(ط.ط.ط....ط.ط.ط.. أصوات إطلاق نار مستمرة)... استيقظت
فزعة من صوت رمي الرصاص الكثيف، كانت الساعة في حدود الرابعة
صباحاً. ثم تلا ذلك صوت انفجار. في الحقيقة كانت عدّة انفجارات
ضخمة هزّت المنزل. وتزامنت معها أصوات مكتومة لم أفهمها.
تسمّرت في فراشي عارية تماماً، وقد تكوّرت على نفسي ويدي تكتمان
أذني. كنت أهتز مثل ورقة في شجرة تحت مرمى العاصفة. وكاد قلبي
يقفز من مكانه وأنا أرى التراب ينهال من أكياس الرمل. تساءلت إن كان
السقف سيصمّد فوقي!. بدا الأمر وكأنّ غرفتي الموجودة بالطابق العلوي
ستنقلع من مكانها، وربما ستحلّق بعيداً عن المنزل وأنا في داخلها.

كانت تلك ليلتي السابعة في كركوك، لقد استمر الهجوم لما يقرب من نصف ساعة، لكنها بدت لي أطول من ذلك بكثير. وحين توقفت الأصوات، قفزت من فراشي وارتديت ملابسني، ووضعت الدرع الواقني، ونزلت إلى الطابق السفلي أتفقد الأضرار. اكتشفت أن أربعة مقذوفات ذاتية الدفع قد أطلقت على المنزل، وأن واحدة منهن انفجرت بعد دخولها إلى المنزل، حيث مرّت على مبعدة بضعة أقدام من غرفتي. كانت الصالة الكبيرة والمطبخ قد تضررا بشكل كبير، الزجاج يتناثر في كل مكان. لقد تكفلت النيران التي أطلقها حرّاس الـ(غوركاس)

(Gurkhas)⁽¹⁾ المتواجدون فوق سطح المنزل برّد المهاجمين ومنعهم من الدخول، لكنهم وصلوا إلى نطاق 25 متراً من المنزل.

كان «منزلي!» عبارة عن فيلا كبيرة مستأجرة بمبلغ ضخم، تقع في حي سكني في مدينة كركوك. كنت أتناقش الفيلا مع طاقم يعمل لحساب سلطة الائتلاف، من ضمنهم اثنان من التقنيين، ومستشارون أميركيون يعملون لحساب شركة تدعى (RTI)، ومعهم بعض المهندسين.

ودفع الهجوم بقذائف المورتر العديد منهم إلى حزم الحقائق والاتجاه إلى الإقامة في أربيل، المنطقة الأكثر أمناً من كركوك. لكنني بقيت في المكان نفسه مع اثنين من العاملين المساندين لي. كان الحراس الغوركاس قد وضعوا أكياس الرمل على كل النوافذ والمنافذ في الطابقين. كانوا فريقاً من النيباليين المتعاقد معهم من قبل شركة خاصة للحمايات الأمنية. ولم يكن لديّ أيّ حراس شخصيين حين أكون خارج المنزل، ولم يكن يتوفر لديّ أيّ عربة مصفحة للتنقل، رغم أن التعليمات تحث عليّ استخدام عربة من هذا النوع حصراً للتنقل.

وفي صباح اليوم الذي تلا الهجوم، حضر مدير فرع الشركة الأمنية، وانتقد الحراس النيباليين لأنهم لم يقتلوا أيّاً من المهاجمين. كان في الحقيقة شخصاً أسترالياً لا يتمتع باللطافة الكافية. أما النيباليون فقد طالبوا بالمزيد من الذخائر، والمزيد من المعدات المناسبة للتصدي، الأمر الذي لم يقرّه لهم المدير. أجابه النيباليون الغوركاس بأنهم لن يتمكنوا من البقاء أكثر من هذا في أماكنهم، ثم تقدموا واحداً تلو الآخر

(1) الغوركاس، هم وحدات عسكرية بريطانية تتكون من جنود نيباليين يستخدمهم الجيش البريطاني في أعمال حراسات معسكراته في المستعمرات حول العالم - المترجم.

وألغوا بأسلحتهم في كومة وسط الفيلا. أما المدير الأسترالي فقد زاد من عناده وجمع الأسلحة ووضعها في ظهر الشاحنة المتوقفة في الشارع، أمام مرأى من الناس في الحي.

في هذه المرحلة تقدمت وتدخلت لأشترك في الجدل، وجمعت كل الغوركاس في غرفة واحدة وقلت لهم: «إنني ممتنة لكم، وأود أن أشكركم على إنقاذكم لحياتنا ليلة أمس»، وحدثتهم عن زيارتي لمدينة بخارى في النيبال، وهي المكان الذي انحدر أغلبهم منه. وقلت لهم إن التاريخ البريطاني يفاخر في العادة بانتمائكم وخدمتكم في الجيش البريطاني، وإننا نحترمهم كجنود مُخلصين، ثم قلت: «رجاء، هلاً تستمرون بحماية المنزل؟ وأعدكم بأنني سأطلب تعزيزات كي ترسل إلينا من بغداد». كما حذرتهم بأنهم لو تركوا أماكنهم فسيكون من الصعب عليهم مجدداً أن يلتحقوا بأي شركة أمنية أخرى في المستقبل.

نظر الغوركاس إلى بعضهم البعض وتبادلوا بعض الهمسات والتعليقات وقرروا العدول عن قرارهم، لكن المدير الأسترالي عاد وأبدى ملاحظات ازدرائية أخرى لهم مما تسبب بدفعهم إلى إعادة تقديم الاستقالة. وهنا عُدت إلى التدخل ثانية!.

في النهاية قررت الأغلبية منهم العدول عن الاستقالة باستثناء ثلاثة منهم، كانوا قادة الفريق، قالوا إنهم واجهوا ما يكفي، وإن لديهم أطفالاً وعائلات يعيلونها، وإنهم لا يريدون الموت في العراق.

ثم طلبت من التقنيين أن يشغّلوا «شاحنة البات موبايل للاتصالات»⁽¹⁾،

(1) (Bat mobile): شاحنة لتأمين الاتصالات مع الأقمار الصناعية، كان الجيش الأميركي يستخدمها لتوفير منفذ إلى شبكة الإنترنت في الأماكن التي لا توجد فيها تغطية، واستخدمها في العراق (2003)، قبل أن ينشر شبكة اتصالات مايكروويف وهاتف خلوي خاص به - المترجم.

وأصبح بإمكانني أن أتواصل عبر الإنترنت باللاسلكي، صعدت إلى الشاحنة وأرسلت منها بضع رسائل. كانت تلك المرة الأولى التي أستخدم فيها هذه التقنية.

ومن الشاحنة، أرسلت رسالة عاجلة إلى السفير البريطاني جون ساويرز (John Sawers)، وهو ينوب عن السفير بول بريمر كحاكم لسلطة الائتلاف في بغداد. وصفتُ في الرسالة الأحداث التي حصلت خلال الساعات الثماني الماضية، وطلبت إرسال شخص ما يجيد التعامل مع الغوركاس إلى كركوك فوراً. ومع المساء وصل ضابط بريطاني سابق في سلاح الفرسان مع بضعة جنود من الغوركاس كتعزيز لنا من بغداد.

وعلمت أن السفير ساويرز كان قد اتصل بإدارة الشركة الأمنية في لندن وقد استجابوا لاتصاله فوراً. وفي اليوم التالي وصل ساويرز إلى كركوك شخصياً، وبمظهره الأنيق وشعره الداكن، وقدرته على التحدث باللغة العربية، كان أشبه بأسطورة. في الحقيقة اندهشت من نزوله في كركوك، ثم اصطحبني معه إلى كردستان في آخر جولة له كسفير حيث كان هناك عدد من الأصدقاء توجب أن يوجّه لهم التحيّة الوداعية. كانت جولة ممتعة للغاية، ورافقتنا فيها العضو البارز في فريق بريمر، ميغان أوسوليفان (Meghan O'Sullivan)، كانت شابة تتمتع بشعر أصهب مائل إلى الحمرة، وتضع أحمر شفاه قاني اللون. وكانت على قدر كبير من المرح. وقد نشطت معها في محاصرة السفير بلا رحمة وانتقدناه لخلو عناصر إدارته من العنصر النسوي. سألتها: «ميغان، هل سمعت السفير وهو يذكر شيئاً عن النساء في كلماته؟». فأجابت: «لا، كل ما تحدث عنه كان عن الرجال والأبناء، لم أسمعه يذكر شيئاً عن النساء والبنات!». وجعلناه يُطلق وعداً بأن يكون مُنصفاً تجاه قضية (الجنדר) في كلماته القادمة، لكنه مع ذلك قد فشل في الإيفاء بوعدده.

وحين أوصلني السفير إلى كركوك في طريق عودته، سألته النصيحة فيما ينبغي أن أفعله، فأجابني بأن عليّ أن أحوز ثقة الناس هنا في المدينة. وأن عليّ التحدّث إلى التركمان في المدينة. كانت هذه النصائح في الحقيقة بعيدة كل البعد عن شكل التعليمات التي كنت أتلقاها من مركز سلطة الائتلاف.

وبعودتي إلى كركوك، كانت الأولوية عندي هي إيجاد مكان آمن للعمل فيه. وعدتُ إلى زيارة العقيد مايفيل في مبنى المحافظة مرّة أخرى. وحين دخلت عليه في مكتبه، كان مستقلياً على الأريكة ويضع قدماً على قدم ويتعل حذاءه. وقال لي إنه قد عرف بأمر هؤلاء الذين هاجموا منزلي وإنه كان يخطط لمطاردتهم واعتقالهم أو قتلهم. قلت له: «هؤلاء الذين هاجموا المنزل لم يكونوا يعرفونني». وإنهم كانوا في الحقيقة يهاجمون رمز الاحتلال في مدينتهم. وقلت له: «لو أُلقيت القبض عليهم فإنهم يستحقون محاكمة عادلة». وفي اليوم التالي ذهبت إلى مكتب العقيد ومعي على الحاسوب نسخة من اتفاقية جنيف الرابعة. من خلال عملي في الأراضي الفلسطينية، لطالما اعتبرت أن العمل ضمن اتفاقية جنيف هو الإطار القانوني الأول الذي يجب الالتزام به. وقلت للعقيد: «لو وجدتك تخرق هذه الاتفاقية، فسأذهب إلى لاهاي لعرض الأمر». ومن تلك اللحظة بدأت أوثّق كلّ كلمة يقولها العقيد وكل فعل يُقدم عليه.

في اليوم التالي، انتقلت للإقامة في خيمة نُصبت على أرض المطار. تقاسمتها مع سبعة رجال أميركيين كانوا يسكنون معي في الفيلا التي تعرّضت إلى هجوم. كانت الخيمة منشأة كبيرة مزودة بنظام كفاء للتبريد يوصل الهواء البارد عبر أنابيب. كما توفر فراشاً منفرداً لكل شخص ومعه

تتوفر طاولات وثلاجة وبضعة كراسي. كنا ننهض في الصباح في حدود الساعة لنتمشى ونذهب إلى المكان الذي نُصبت فيه (حمّامات متنقلة). كانت هذه الحمّامات تحمل لافتات تحتوي التعليمات الخاصة بها. لا يجب أن يستمر الحمام الصباحي لأكثر من ثلاث دقائق؛ ثلاثون ثانية لاستعمال الصابون ودقيقتان ونصف الدقيقة للغسل. لم يكن طبعاً هذا نموذجاً للإقامة المريحة لكنه مكان أكثر أمناً من تلك الفيلا التي تتعرض للقصف والهجوم وسط المدينة.

بالرغم من تناقضي الكلّي مع العقيد مايفيل، إلا أنه في الواقع كان سعيداً لحضوري إلى كركوك. لقد كان العقيد يرى في سلطة الائتلاف (استراتيجية لخروجه) من تلك المدينة. كنا نمثل الموجة المدنية الأولى التي قد تعرّض عن وجوده العسكري هناك.

وفي منتصف تموز، أخبرني أنه كان يأمل بأن يعود إلى مقرّ الفرق الأميركية في قاعدة فيسينزا بإيطاليا مع حلول نهاية الشهر. بدا عليه أن فكرة العودة إنما تروق له، وأني كنت سأقف بديلة عنه بالسلطة المدنية وفوق هذا- سأكون بديلة بلكنة إنكليزية!. وأخبرني بأنه سيواظب خلال الأسبوعين المقبلين على تعليمي كل ما قد تعلّمه وعرفه عن المحافظة خلال فترة تواجده فيها.

من جانبي، كنت ما زلت أحمل القلق الشديد ذاته تجاه العسكر. لم يسبق لي بالأصل أن تعاملت مع البريطانيين العسكر فضلاً عن التعامل مع الجيش الأميركي. لكن العقيد كان ماضياً في تعريفني إلى الشخصوس العراقيين المؤثرين والرئيسيين في المحافظة. ثم قرر العقيد أنني يجب أن أشاركه مكتبه في مبنى المحافظة. كان يقول: «في بغداد هناك بريمر والجنرال سانشيز»، وهو يشير إلى الجنرال ريكاردو سانشيز (Sanchez)،

القائد الأعلى للجيش الأميركي في العراق، والذي يعمل إلى جانب السفير بريمر، «وهنا في كركوك سيكون لدينا سكاي ومايفيل». وخلال ساعات، تم نصب مكتب لي إلى جانب مكتبه وتم تغيير اللوحات التعريفية لتحمل هذه المرأة: «سكاي ومايفيل».

وكانت هناك لوحة تعريفية في الأسفل تشير إلى «جنود سكاي!». في هذه المرحلة ظننت أن العقيد فقد الصواب تماماً، أنا أعرف أن الحرب قد تدفع الأشخاص إلى فعل بضعة أفعال غريبة، لكنني كنت أسير في الممرات وأسمع بعض الجنود يصيحون تعريفاً بأنفسهم «نحن جنود سكاي!» أثناء تأدية التحية لي. وسرعان ما اكتشفت أن هذه التسمية قد شاعت بأبعد مما أظن. وفي الإنترنت قرأت أن اللواء 173 المحمول جواً، كان قد أسس بالأصل عام 1917 باعتباره لواءً للمشاة. وقد خدم في جزيرة أوكيناوا حيث تم تفعيله عام 1963 كقوة جاهزة للتدخل السريع تحت إمرة قيادة المحيط الهادئ للجيش الأميركي. أما المظليون التايوانيون فقد أطلقوا على هذا اللواء اسم (تيان بين) أو جنود السماء⁽¹⁾، في دلالة على أنهم يكثرون من الهبوط الجماعي بالمظلات حين جرى نشرهم في فيتنام عام 1965. وفي الحقيقة فإن أسماء 1790 جندياً منهم منقوشة على جدار ذكرى حرب فيتنام في واشنطن.

وفي عام 2000، جرت إعادة تفعيل اللواء واتخذ من فيسيترا في إيطاليا مقراً له. وهو يخدم هناك كجزء من القوات الاستراتيجية المظلية المحمولة جواً في أوروبا.

حدثني العقيد مايفيل عن أول شهر أمضاه في العراق. لقد قاد اللواء

(1) مؤلفة الكتاب تشير إلى التشابه الظريف بين اسم القوة القتالية واسمها هي (Sky)- المترجم.

للهبوط في مدرج باشور (حرير) شمال العراق كي يفتح الجبهة الشمالية. وهي كانت عملية الهبوط الأول في حالة نزاع مسلح التي يجريها الجيش الأميركي منذ الإنزال على بنما عام 1989 واعتقال نورييغا.

وفي 10 نيسان، قامت قوات اللواء بالتعاون مع قوات البيشمركة الكردية بالاستيلاء على كركوك من قبضة الجيش العراقي الذي كان يعاني من الانهيار وهرب أكثرية جنوده. وعلى الرغم من أن القوات العراقية كانت تمتلك الموارد والمعدات التي تسمح لها أن تخوض معركة دفاعية عن كركوك إلا أنها فضّلت الهزيمة وترك المواقع. وشهدت البنى التحتية تخريباً واسعاً، لكنهم اختاروا رغم هذا الانسحاب السريع.

وبعد ذلك بوقت قصير، اندلع قتال داخلي في المدينة، وحدثت حالات من السرقة والنهب. وبحلول يوم 17 نيسان تمكّنت قوات التحالف من إرساء الأوضاع الأمنية وأعادت الهدوء إلى شوارع كركوك. ثم عاد النشاط التجاري في القطاع الخاص إلى طبيعته المعتادة. أما في القطاع العام الخدمي، فقد طلبت قوات التحالف من الموظفين العموميين العودة إلى مزاولة واجباتهم، ولما كان المديرون وكبار الموظفين في العادة هم أعضاء متقدمون في حزب البعث، فقد اختفوا عن الأنظار وتلاشوا، بينما حلّ محلهم من ينوب عنهم من الموظفين الأقل شأنًا، وهؤلاء كانوا أقل ارتباطاً بحزب البعث.

بدأت عجلة الحياة تدور مجدداً في المدينة مع عودة الخدمات العامة، بما في ذلك الرعاية الصحية والمؤسسات التعليمية. ثم وافقت قوات التحالف على استقدام مجموعة من الأكراد (كانوا في العادة موالين لحزبي الاتحاد الوطني والديمقراطي الكردستانيين) كي يتولّوا أهم المناصب في المدينة من أجل المحافظة على البنى التحتية

وتشغيلها. لكن عدداً كبيراً من العرب أبدوا امتعاضهم مما اعتبروه (تكريداً) لكركوك، وقرروا عدم التعاون معهم.

وفي يوم 17 أيار قام عدد من المسلحين العرب باستعراض في المدينة ثم أقدموا على مهاجمة القطاعات الكردية فيها. وبعد مواجهات استمرت يوماً واحداً، تدخلت قوات التحالف وتمكنت من إعادة الهدوء وضبط الشوارع، ومع نهاية الشهر، تمكن العقيد مايفيل من تعيين مجلس للمدينة يضم ثلاثين شخصاً.

أجريت مع العقيد مايفيل في مكتبنا المتقاسم في مبنى المحافظة عدداً من الحوارات حول المدينة. كانت مكاتبتنا متقابلة، واحداً أمام الآخر، وكانت هناك أيضاً طاولة للاجتماعات. وفي الغرفة أيضاً كان هناك طقم من الأرائك، وفي نهايتها كان هناك حمام ومرافق صحية عادة ما تتعرض للانسداد. وفي الغرفة أيضاً تراس يمكن أن نطلّ منه على الباحة الخارجية. لكن لم يكن هناك تكييف للهواء فيها. وعلى لوح خشبي، نقشت أسماء المحافظين الذين تعاقبوا على السلطة في إدارة المدينة. كان مبنى المحافظة قد اتخذ مقراً للقيادة العسكرية وكذلك للإدارة المدنية ومركزاً للمتقاعدين المدنيين والعسكريين. لذلك، فقد كان أمر جعل هذه البناية آمنة من الهجمات بالسيارات المفخخة وإطلاق رصاص القناصة أمراً يحتل أولوية عالية. ونشر الجيش الأميركي أطواقاً من الأسلاك الشائكة ونقاط القناصة حول نطاق المبنى ريثما يتم تهيئة الحماية اللازمة. وسرعان ما تم وضع نظام إلكتروني لقراءة بطاقات الدخول لجعل عملية الدخول أسرع وأكثر سلاسة لكل من يستخدم المبنى سواء من العسكريين الأميركيين أو العراقيين الموثوق بهم.

في تلك الأسابيع المبكرة لي في العراق، كنت أبحث عن مواطن

الإبداع وأحاول أن أجعل الأشياء تكون في نصابها الصحيح. وبدأ لي أن العقيد مايفيل قد بدأت أساريه تنفرج بوجودي. ومضى يعاملني مثل لعبة مُحببة، وأخذ يدللني بالكثير من الشاي والاهتمام. كان مهتماً بخبرتي السابقة عن العمل في الشرق الأوسط وراغباً أيضاً في أن يشاركني تصوراتهِ واستنتاجاته. الأمر راق لي وأحببت أن أجد من يأخذ بنظر الاعتبار آرائِي، خاصة أنني كنت أعاني من إهمال رؤسائي المدنيين في بغداد.

وعندما يصدف ألا نكون في المكتب، فقد كنا نمضي الوقت في جولات حول القرى والبلدات التابعة للمحافظة. وملتقي بجنود الفرقة القتالية في مواقع العمليات المتقدمة. كما كنا نتواصل مع مختلف قادة المجتمع.

كنا نتحرك، أنا والعقيد مايفيل بعربته المصفحة ذات الدفع الرباعي، وكانت شاحنة من نوع شيفروليت ونشغل المقعد الخلفي لها. وبينما نقطع المسافات، كانت عربتان من نوع هامفي تابعتان للشرطة العسكرية تقطعان الطريق معنا بكل الاتجاهات، واحدة خلفنا والأخرى أمامنا في العادة. وعادة ما يخرج الجنود في العربتين الأسلحة وهي مصوّبة إلى أيّ شيء قد يبدو مثل تهديد لنا. بالنسبة لي فقد كانت طريقة غير مألوفة تماماً للتنقل، لقد كان مظهرنا يبدو وكأننا متطفلون جداً على المكان، وأنا مثل قوّة محتلة على هذه الأرض، وهذا ما كنا عليه في واقع الأمر، جيشاً للاحتلال.

وخلال هذه الرحلات، كنا نتبادل الأحاديث بلا انقطاع، كنت أمثل للعقيد مايفيل أقرب تماس مع الشرق الأوسط حظي به في حياته. وكان عازماً على أن يتعلم كل شيء، لقد كان بحاجة إلى وجهة نظر من خارج الصندوق كي تفتح له آفاقاً أخرى لفهم الحقائق على الأرض. صحيح

أنني كنت أعرف القليل عن العراق، لكنني سبق وأن أمضيت عقداً من الزمن في الشرق الأوسط، ولديّ معرفة في الواقع الثقافي والاجتماعي للمنطقة الأكثر سعة والتي ينتمي إليها العراق.

وللمسافات الأبعد، كنا ننتقل بالطائرة المروحية، والتي تطير في العادة وأبوابها مفتوحة، وتبرز منها المدافع الرشاشة التي تمسح الأرض تحسباً لأيّ تهديد محتمل. في العادة كنّا ننتقل باستخدام مروحتين. في البداية أخذني العجب من استخدام هذا التكنيك البدائي لتأمين الطيران، نحلق بارتفاعات منخفضة جداً ثم نضطر للتسلق بسرعة تفادياً لأسلاك الأبراج الكهربائية. كان ذلك من أجل تفادي فرصة تعرّضنا للإصابة بمقذوفات أو صواريخ المورتر. كنّا نتفادى المرور فوق القرى، لكن كان من الصعب أن نخفي صوت الطائرات المروحية العالي جداً والذي يكون مسموعاً من مسافات بعيدة، خاصة بالنسبة لأولئك الذين يعملون في الحقول. وسرعان ما تعلّمت أن أتفادى الجلوس في «مقعد الإعصار» وهو المقعد الخلفي على اليمين الذي يكون معرضاً للفتح الهوائي، ويترك صاحبه بفم ووجنات تعرضت بشدّة لصفعات الهواء.

سرعان ما اكتشفت أن ماضي كركوك كان قد شهد نزاعات واسعة على تبعيتها. وكيف أن هذه النزاعات التاريخية ستنعكس بالفعل على مستقبلها وحالتها الراهن. تقديراً كان هناك في الواقع ما يقرب من نصف مليون إنسان يسكنون أحياءها، معظمهم من الأكراد ومعهم أيضاً من التركمان، كانوا قد تعرضوا إلى التهجير من المدينة فيما عُرف بخطة حزب البعث لـ «تعريب» المدينة. وتم إعادة تسمية المحافظة باسم (التأميم)، وجرى كذلك إعادة رسم حدودها الإدارية وفقاً لهدف استقطاع القرى والبلدات الكردية عنها. كما جرى ترحيل عشرات الآلاف من العرب

الشيعية ليسكنوا فيها، معظمهم تم جلبهم من الجنوب. وقد جرى منح هؤلاء حوافز للسكن فيها. كان الهدف الواضح لنظام البعث هو الإبقاء على المحافظة - ومعها طبعاً البترول المتوفر فيها - تحت القبضة القوية لسيطرة الحكومة المركزية.

كان صدام قد أطلق فيما سبق حملة (الأنفال)، وتعني غنائم الحرب، ضمن عمليات عسكرية استهدفت الأكراد وجرى فيها استخدام السلاح الكيميائي في بعض مراحلها، كما حدث مع بلدة (حلبجة) عام 1988، حيث قضى الآلاف فيها موتاً جراء الغازات الكيميائية. وبعد أن غزا صدام الكويت عام 1990، شهد العراق تظاهرات واسعة، لكن النظام قمعها، واستعادت القوات العراقية السيطرة على كركوك بالقوة. ثم تم تأسيس منطقة حظر الطيران الشمالية والجنوبية، الأمر الذي سمح بتطوير المحافظات الشمالية في دهوك وأربيل والسليمانية تحت إشراف حكومة مكونة بشكل أساسي من الحزبين الكرديين، حزب الاتحاد الوطني الكردستاني والحزب الديمقراطي الكردستاني.

كان حزب الاتحاد الوطني قد انشق عن الديمقراطي الكردستاني عام 1975، كان يمثل جناحاً يسارياً نخبويّاً أصابه الإحباط من الهيمنة القبائلية على قيادة الحزب الديمقراطي. لكن في عام 1994، تطورت المنافسة بين الحزبين لترتقي إلى مستوى الحرب الأهلية الطاحنة قبل أن تتمكن الولايات المتحدة من جمعهما في اتفاق سلام يسهّل عملية تقاسم السلطة في المنطقة الكردية بين الحزبين. وعلى الرغم من أنهما قد تجاوزا ما حدث في تلك الحقبة، إلا أن التوترات ما زالت تخيم بشبحها على العلاقة بينهما. لكن كلا الحزبين يتفقان على ضرورة أن تكون كركوك مُلحقة بالمنطقة الكردية، والآن بعد أن لعبت قوات

البيشمركة دورها في المساعدة على إزاحة نظام صدام، فإن الحزبين الكرديين يجدان الفرصة سانحة لتحقيق هذا الهدف.

وفي أحد الصباحات، اصطحبني العقيد مايفيل في جولة شمال كركوك برفقة قياديين كرديين، الأول هو كمال كركوكي من الحزب الديمقراطي والثاني هو ريزكار علي من حزب الاتحاد الوطني الكردستاني.

حشنا المسير في الأراضي ما خلف شعلة الحقول النفطية في كركوك وتعمقنا في المناطق غير المأهولة. كان العقيد يرتبط بعلاقة قوية مع هذين الشخصين، حيث رافقاه منذ الأيام الأولى للسيطرة العسكرية على كركوك انطلاقاً من المناطق الكردية، لكن هذه الجولة لم تكن مجرد جولة عسكرية في الميدان معهما، إنما كان الهدف منها استكشاف آثار السياسة التي انتهجها النظام السابق تجاه الأكراد. وفي مكان ما، أشار كل من كمال وريزكار إلى بقعة من الأرض على أنها قرية سبق لنظام صدام أن محارباها عن وجه الأرض. لم يبق من القرية سوى بضعة أحجار تشير إلى شكل أزقتها وشوارعها. كما وصفا الحياة التي عاشاها في ما مضى في تلك القرية. كانت عيونهما تشعان بالتأثر وهما يسردان عملية التطهير التي شهدتها القرية، شرح كمال من جانبه كيف أن إحدى قريباته تعرضت للاغتصاب بينما قتل آخرون، وكيف قضى شطراً من حياته هارباً قبل أن يلجأ إلى أستراليا. حتى إنه أخبرنا بأن اسمه (كمال كركوكي) هو اسم حركي اتخذهُ لأجل التخفي والهرب. ومع إزاحة نظام صدام، أراد الكرد المعونة من قوات التحالف لأجل استعادة القرى التي هجروا منها، ولأجل إزاحة العرب الذين لا جذور لهم في المدينة، وأن يجري تمييزهم وفقاً لإحصاء عام 1957، وهو آخر إحصاء سكاني يمكن الاعتماد بنتائجه.

ثم قمت بمصاحبة العقيد بزيارة مخيمات العوائل الكردية المهجرة في محيط المدينة، في الحقيقة كانوا يعيشون في ظروف فقيرة للغاية. كان العديد منهم يستقر حول منطقة الملعب في المدينة، البعض منهم يتخذ من الخيام مأوى له، فيما قام البعض الآخر بصنع أعشاش تغطيها الصفائح كي تؤويه هو وعائلته، كان لديهم نقص واضح في الطعام بينما كان الرجال يصلون من أجل معجزة تنقذ عوائلهم.

لقد كنا نقدر أعداد سكاّن المحافظة بمليون ونصف المليون إنسان، منهم نصف مليون في المدينة. لكن مع حلول فصل الصيف، بدأت أعداد القادمين إلى المدينة بالازدياد بصورة ملحوظة. وسمعنا بعودة الكثير من العوائل من السليمانية وأربيل. وسرعان ما سرت الشائعات بين مجتمع المهجرين والنازحين:

«قوات التحالف ستبني مساكن للعوائل التي سبق ترحيلها عن كركوك قبل حلول الشتاء».

«عشرة آلاف دولار لكل عائلة تعود من أربيل إلى كركوك في موطنها الأصلي».

«الشاحنات تنقل العوائل وأثاثها مجاناً للذين يرغبون بترك أربيل والاستقرار في كركوك».

لكن المدينة لم تكن تستوعب، لا من ناحية المنازل المعروضة للسكن، ولا من ناحية البنى التحتية، هذا الكم الهائل من القادمين. ولقد امتنعنا عن تسجيل الوافدين خشية أن يفسر هذا التسجيل على أنه دعوة أو مساندة للهجرة إلى المدينة. وكنا نحذر من ارتكاب أيّ تشجيع للمرّحّلين قبل إقرار برنامج معقول وشامل يحل قضيتهم. وفي العديد من الاستفسارات

التي أرسلتها إلى سلطة الائتلاف في بغداد، كنت أتساءل على الدوام فيما لو أمكن تخصيص أرض بديلة لسكن العرب الذين سبق أن شجعهم نظام صدام على الهجرة إلى المدينة. خاصة أن البعض أبدى استعداداً لمغادرة المدينة فيما لو توفر البديل في الاستقرار أمامه.

لكننا لم نستلم أي رد، لقد اقتضت سياسة سلطة الائتلاف تجاه الناس المرشحين على إبقاء الوضع على ما هو عليه ريثما يجري إقرار إطار قانوني يفصل في نزاعات الملكية. لكن لم يكن واضحاً على أي عائق ستقع مسؤولية هذا التنظيم. لقد جرى الاتفاق مع منظمة الهجرة الدولية، وهي المنظمة الدولية التي جرى تأسيسها بعد الحرب العالمية الثانية للمساعدة في إعادة توطين اللاجئين وضحايا الحروب، لكن أداء هذه المنظمة كان بطيئاً واختص في وضع الإطار القانوني لهذه المطالبات. أما الأمم المتحدة فقد كانت تفضل العمل شمال الخط الأخضر، وهو الحد الفاصل بين المناطق الكردية والمناطق التي كانت تحت سيطرة نظام صدام. وهذا يعني عملياً أن الأمر ترك للجيش الأميركي كي يتعامل مع المشكلة. كان ميراث سياسات صدام يكبل العراق، فقد وجدت في مبنى الحكومة المحلية لكركوك قوائم بأسماء هؤلاء الذين جرى إبعادهم من كركوك والأثمان البخسة التي استلموها كتعويض مقابل عقاراتهم ومنازلهم. كان العرب يرفضون النقاش في هذه القضية، البعض منهم جادل بأن الأكراد قد (باعوا) منازلهم إلى الحكومة حينها، لكن في معظم الحالات يمكن التأكيد بأن العرب كانت مواقفهم سلبية وهم يرون أن نظام البعث ينفذ سياساته في الترحيل القسري.

إن العوامل التي قادت إلى تنفيذ ذلك النظام لسياسات الترحيل القسري إنما تقع في صلب الصراع الداخلي على السلطة والموارد

في العراق، ومنها تتفرع باقي القضايا في العراق عبر صراعات الثروة والأرض والموارد والهوية والولاء والمواطنة وحقوق الأقليات. كما لم تقدم أي مجموعة على الاعتراف للمجموعات الأخرى بحقوقها. وهنا أخفقت سلطة الائتلاف في التعامل مع صراعات الماضي أو الحاضر كما أخفقت في منع صراعات المستقبل حول هذه القضايا. كما لم يكن لهذه السلطة الشرعية اللازمة للدخول في إيجاد حلول لهذه العقد. كما أنه لم يكن من المناسب السماح للكرد بتدارك التطهير الإثني في كركوك عبر طرد العرب الذين قدموا إلى المحافظة كجزء من سياسات التعريب التي مارسها نظام صدام.

* * *

أصدر العقيد مايفيل تعليماته ليجهز لي مقراً جديداً للإقامة، وكان ثكنة عسكرية من طابقين في موقع مطار المدينة قرب مركز القيادة والسيطرة العسكرية. وحالما جرى استقرار في هذا المكان الجديد، اتخذت جدولاً للعمل وللحركة اليومية، ففي الساعة صباحاً كنت أصحو لأستخدم الحمام الداخلي في الجناح. وكنت أدّخر بعض المياه لتنظيف الأسنان فإن لم أجده، أعود إلى استخدام المياه المعبأة في قناني. وكثيراً ما كان الحمام يبقى بلا مياه. وحالما أرتدي ملابس، أتوجه مسيرة ثلاث دقائق إلى مركز القيادة والسيطرة. مركز القيادة التكتيكي للعمليات يعرف بمختصر (TOC)، وعلى طريقي يكون مقر قيادة (الصخرة)، (وهي مختصر لرمز اللواء 503 المظلي). وأرى مجموعة حيوانات في أقفاصها، أرانب ودجاجات وديكة رومية وثلاث عنزات!، أطلق عليها الجنود أسماء (صدام، عدي، قصي). كان قائد اللواء هو المقدم دوم كاراسيللو (Karacillio) وهو

ضابط ذو شخصية نافذة، كنت نادراً ما أراه دون تابعه ومعاونه الرائد آندي رولينغ (Andy Rholing) وهو ضابطه التنفيذي في الوقت نفسه، الرائد آندي كان من المحتمل جداً أن يصبح ممثلاً كوميدياً بارعاً لولا التحاقه بالجيش. كان مركز القيادة التكتيكي يمثل عصب المركز للعمليات العسكرية التي تشرف عليها الأركان وتراقبها وتتابع تنفيذها. كان المركز يحتوي على خرائط، وشاشات بلازما للمتابعة، وكمية ضخمة من الهواتف ووسائل الاتصال، ويتواجد فيه نحو عشرون من الكوادر العسكرية بمختلف الرتب. يجلسون أمام حواسيبهم، ويديرون عملية تلقي المعلومات ومناقشتها، بما في ذلك الأوامر التي ترد من قيادة الفرقة الرابعة على شكل أوامر متفرقة (فراغوز)، وقد وضعت لي طاولة بالقرب من القس التابع للواء، وفي قبالة المكان الذي يجلس فيه خبراء الحقوق التابعين للجيش. كنت أبدأ بتشغيل الحاسوب المخصص لي، وأدخل إلى حسابي المخصص من منظومة اللواء 173 الإلكترونية عبر الرمز الخاص بي وأبدأ بمتابعة الأخبار. وقد ألقي نظرة على اللوحة لأعرف ماذا حصل خلال الليلة الماضية، ثم بعدها أتوجه إلى قاعة الطعام التي كانت تتخذ من مسقف كبير جداً مكاناً، لأتناول بعض العصيدة والفريكة.

في قاعة الطعام، كانت هناك شاشة تلفزيونية تعرض برامج قناة (شبكة القوات الأميركية)، وهي في العادة تبث رسائل تحمل تعليمات عامة، وكلاماً عمومياً يركز على مبادئ الحرية والبطولة والتحرر. وقد نسمع منها قصصاً عن أميركيين عظماء خدموا بلادهم خلال القرون الثلاثة الماضية، مع التلذذ بوصف جهودهم ومساعدتهم بمصطلحات البطولة اللغوية. وكان التلفزيون يث كذلك إعلانات عن التمارين والتأمينات

المالية واللياقة وكل ما يمكن أن يهتم حياة الجندي، كان «الأخ الكبير يراقبك»⁽¹⁾ بالفعل... وفوق هذا يعتني بك.

وفي حدود الثامنة والنصف، كنت أتجه إلى مكتب العقيد مايفيل لأشاركه الشاي ونتناقش في شؤون ذلك اليوم. يقع المكتب العسكري للعقيد خلف مركز القيادة التكتيكي، إلى جانب عدّة مكاتب لمسؤولين آخرين. بعد ذلك قد نتوجه سوياً إلى مبنى الحكومة المحلية، أو قد أذهب بمفردي إن كان العقيد مشغولاً. كانت التعليمات تقتضي أن تجري تنقلاتنا في قافلة من عربتين مصفحتين أو أكثر، بعد ذلك تم تعزيز التعليمات لتشترط ثلاث عربات في الحد الأدنى. أما التعليمات البريطانية فقد كانت تحتم عليّ أن أستقل عربة مصفحة بالكامل، لكنني أبداً لم أحظّ بواحدة منها لتنقلاتي أثناء عملي في كركوك. كانت عربتي عبارة عن مركبة بيضاء من مركبات الدفع الرباعي المدنية، وفي العادة كان يرافقني الملازم (لي)، والذي يمثل دور الرامي خلال تنقلاتي، كنت سعيدة أنني استعدت مهارات قيادة السيارات بخشونة، تلك المهارات التي اكتسبتها في الشرق الأوسط فقط.

كنت أندفع بالسيارة وسط الساحات والدائريات، وربما نسير عكس اتجاه السير في الاتجاه الخاطئ، وهو ما يجعل استهدافنا بالعبوات الناسفة أو بالقناصة أمراً صعباً.

وفي الحالات التي لم يكن فيها التنقل متاحاً ضمن قافلة، فقد كنت أرافق (سرمد) وحدي في سيارة عادية، كان سرمد هو المترجم المرافق للعقيد مايفيل، وهو أميركي من أصل عراقي، وينتمي إلى أصول آشورية.

(1) جملة كنائية من عالم الإعلام تعني الإعلام الموجه والمراقب، وهي مقتبسة من رواية (1984) لجورج أورويل - المترجم.

وفي الحقيقة لم يكن سرمد يحمل أكثر من مسدس معه، والذي يبدو أنه يمنحه الشعور بالأمان فقط، أما تدريبه فلم يزد عن دورة تدريبية مبسطة في الرماية.

أما في مبنى الحكومة المحلية، فقد كان الملازم (لي)، يؤدي دور السكرتير والحماية المرافقة لي، كان يضطلع باستقبال أولئك الذين يرغبون برؤيتي أولاً قبل أن ينظم لهم جدولاً لمقابلتي. في الحقيقة، كان يرد إلينا يومياً عدد كبير من العراقيين الراغبين بلقائي لمختلف الأسباب، العديد منهم يأتون طالبين منّا منحهم بطاقات تسمح لهم بحيازة السلاح وحمله، آخرون كانوا يأتون ليقدموا معلومات عن أماكن قد تحتوي على أسلحة دمار شامل أو أسلحة من نوع آخر خبأها نظام صدام، وهؤلاء يطمعون في العادة بمكافأة لقاء هذه المعلومات. البعض الآخر يطلبون أموالاً أو يدعون بمستحقات لهم على الحكومة المحلية السابقة، فيما يطلب البعض الآخر منحه عقوداً مدنية. وكان البعض يزورنا لأجل التعريف عن أنفسهم فقط، وللتأكيد بأنهم منفتحون على علاقة جيدة مع الوجود الأميركي. ومرة حضر أحد المتصوّفة للقائي وقال إنه قادر على شفاء المعتوهين، وإن بإمكانه أن يدخل سيفاً في جسده دون الشعور بأي ألم. وحين عرض عليّ أن يريني ما بإمكانه أن يفعل، رجوته أن يترك هذا الموضوع إلى مناسبة أخرى.

ومرة حضر إليّ رجل كردي من قبيلة الهماوند، ومعه وثائق موقعة من قبل البريطانيين قبل أكثر من مئة عام تتعلق بكركوك، وقد رجاني بالأستماع إلى القادة السياسيين الأكراد وحذرني منهم بشدة. كما حضر ذات مرة رجل من (الكاكائيين)، وقال إنهم ليسوا من الأكراد ولا من الشبك، وحمل مطلباً بأن يكون لقومه مقعد في مجلس المحافظة.

كنت أستقبل العشرات من الأشخاص من كل المشارب والطوائف، مسيحيون آشوريون أو من الكلدان أو من الأرثوذكس أو الكاثوليك. وحدث أن استقبلت جمعاً من أئمة المسلمين وخطباء الجوامع، من التركمان أو العرب أو الأكراد، وفيهم من الشيعة والسنة. وبعد عبارات الترحيب والتعريف الأولي بالأشخاص، كنت أسألهم: «كيف يمكن لنا أن نساعدكم؟». كان الجواب لي: «أنتم تعرفون مطالبنا واحتياجاتنا...» لولا أن الأميركيين لا يعرفون احتياجاتنا بدقة لما أقدموا على غزو العراق». وبما أن المحاوراة كانت ستذهب إلى فضاء واسع من النقاش، طلبت منهم أن يدونوا مطالبهم. فكتبوا قائمة من التوصيات والصيانة التي تحتاجها مساجدهم.

واستلمت مرة طلباً من شقيق أحد القضاة الذين قتلوا في إطلاق نار من قبل قوات التحالف، كان يطالب فيه بـ«دية الدم». كنت أستلم دائماً وباستمرار مطالب - مكتوبة في العادة على ورقة مفردة - بإطلاق سراح معتقلين لدى قوات التحالف. أو من بعض المنظمات غير الحكومية التي تطلب دعماً مادياً، أو من المزارعين الذين يطالبون ببناء صوامع جديدة تستلم منهم محاصيلهم، أو يطالبون بالتعويضات عما لحق بمزارعهم من ضرر. كانت هناك إدارات جديدة للمصالح المدنية الحكومية، وفي بعض الأحيان يوجد مديران اثنان للقسم الإداري نفسه. كان البعض الآخر يوجه اتهامه إلى قوات التحالف بالتسبب في نقص الوقود، ويتهمها بأنها هي من سرق نفط البلاد. فيما كانت تأتينا وفود قبائلية تطالب بمنحها عقوداً لأجل حماية أنابيب النفط. وحين أجريت تحقيقاً بسيطاً في الموضوع، وجدت بأنهم يمثلون بصلة إلى القبائل نفسها التي عمد أفراد منها إلى تفجير أنابيب النفط لغرض الحصول على عقود بنقل المنتجات النفطية بواسطة الشاحنات الحوضية.

وكانت هناك مطالبات ترد تباعاً، تطالب بإعادة تخصيص المباني التي كان يشغلها حزب البعث. وكانت هناك كمية كبيرة من دعاوى ونزاعات الملكية المتأتية من عودة المرحّلين عن أماكنهم ومساكنهم؛ أوراق الدعاوى كانت تشبه الأهرام في حجمها. كان هناك على الأرض أناس مرّحلون بلا مأوى وبحاجة ماسة إلى مساعدات إنسانية، بينما نشأ الكثير من التذمرات حول المرحّلين والمُبعدين الذين عادوا واتخذوا من مباني الدوائر الحكومية سكناً لهم. وهناك أيضاً تذمرات واسعة وشكاوى من أن مجلس المحافظة لا يفعل أيّ شيء، في المقابل كان أعضاء المجلس يتذمرون من أن أحداً لم يدفع لهم أيّ شيء مقابل عملهم. الشخص الوحيد الذي يعرف كيف تجري عملية توزيع موازنة المدينة، كانت امرأة مسيحية قد جرى إبعادها بعملية اجتثاث البعث وطُردت من المدينة، وقد بذلنا عدّة محاولات لإعادتها إلى عملها. ووردتني اتصالات عدّة تطالني بإزاحة الشخص الذي عيّنته قوات التحالف على رأس الشرطة، وتقول هذه المطالبات بأن الأميركيين في الحقيقة قد عيّنوا سائق تكسي ليقود جهاز الشرطة!.

وواجهنا تظاهرات قام بها المئات من التركمان الشيعة الذين خرجوا في ردة فعل على تهديم أحد المقامات المقدسة في بلدة الطوز، والتي يتهمون بعض الشباب الأكراد بتدميرها، وطالبوا بأن يتم وضع حدّ لعمليات (تكريد) المحافظة وبلداتهم. كانت بلدة الطوز تقع إلى الجنوب من كركوك بخمسين ميلاً، وقد جرى استقطاعها خلال حكم نظام صدام من ارتباطها بكركوك لتلحق بمحافظة صلاح الدين. وكلما ازدادت ثقة العقيد مايفيل بإمكانيتي في التعامل مع هذه المشاكل، قلّ حضوره إلى مبنى المحافظة تاركاً الأمر لي كي أتعامل معه. كان على الراغبين بلقاء

العقيد أن يلتقوا بي أولاً وأنا من يقرر إن كانت هناك ضرورة للقائهم بمايفيل أم لا.

كان الغداء يأتي إليّ في مكتبي، وهو في العادة وجبة من الرز المعدّة في كافيتيريا مبنى الحكومة المحلية، أو قد يكون سندويشاً محلياً من أحد المطاعم القريبة. وبين حين وآخر، كنا نخرج لتناول الطعام في أحد مطاعم المدينة، كنت أفضل أكلة (التبسي الساخن)، (وهي أكلة شعبية تحتوي اللحم والبادنجان والبصل والطماطم والفلفل)، في كركوك لم يكن هناك شخّ في ما يمكن أن تقدّمه المطابخ الكردية أو التركمانية أو العربية.

وفي حدود الساعة الثانية كنت أعود إلى أرض المطار حيث سكني، وهناك أكتب بضع رسائل وأجيب عنها أيضاً. ثم في الخامسة أتوجّه لأداء بعض التمرينات. حوّل الأميركيون أحد المسقّفات الكبيرة إلى نادٍ رياضي، وقد جرى تجهيزه بمجموعة مدهشة من أدوات وأجهزة التدريب الرياضية. وخلال كل ساعات النهار، يمكن أن نشاهد أناساً يعملون رواحاً ومجياً. إلى جانب صالة التدريب الرياضية، كان هناك مركز للغسيل (لوندري) وهنا أيضاً خيّاطون يعملون. أما أنا فقد اكتشفت لنفسي دائرة أمارس الركض فيها ابتداء من الصالة الرياضية ثم عدواً باتجاه عربات برادلي المصفوفة ثم أعود في حلقة باتجاه الجهة الخلفية من المبنى الذي أسكن فيه.

وفي السادسة والنصف، كنت أحضر جلسة إيجاز المعركة، وهي جلسة يديرها العقيد مايفيل ويحضرها قادة الوحدات التابعة والقريبة. يقدّمون فيها تقاريرهم المختصرة عن الأحداث اليومية، وأهم الوقائع والمعلومات عن الأفراد والآليات، كما يقدمون فيها

جردة لسير تنفيذ الأوامر السابقة. وكذلك هناك إيجاز عن الأحوال الجوية وبعض التحركات العسكرية خلال أسبوع. وكلما استغرقتنا في الصيف أكثر، سمعنا المزيد عن الهجمات التي تستهدف قوات التحالف حول البلاد. بعد هذا الإيجاز كنت أتوجه مرة ثانية إلى قاعة الطعام لتناول عشاء بسيط، ثم أعود إلى مكثبي حيث أنشغل ببعض الرسائل أو المخاطبات.

وفي المساء، كنت أمضي الوقت في مكتب العقيد مايفيل، نناقش في أهم ما يطرأ على المدينة وفي الجديد من شبكة العلاقات التي تطورها مع الناس، لكن ولدهشتي، فقد بدأت أعتاد على وجود العقيد وأحبته كشخص منبسط. لقد بدأت أدرك أن خلف هذه الشخصية المتبجحة، ثمة إنسان مثقف عميق، ويمتلك روح دعاية هائلة ومتخفية. واكتشفت أنني أشارك معه في قراءة عدد كبير من الكتب والأشعار، لكنه كان مهتماً جداً بالعراقيين. وفي مكتبه، كانت هناك رفوف تضم كل أنواع الفنون الشعبية العراقية من كل القوميات التي تمثل كركوك. وفي وسط الرفوف، يمكن أن أرى صورة كبيرة وضعت في إطار لرجل فرنسي يرتدي الزي العسكري، وفي الأسفل، كتبت العبارة التالية:

من أجل الدفاع عن الإمبراطورية

لقد أهديت له من قبل ضابط فرنسي، وقد اعتاد أن يأخذها معه أينما توجه عليه أن يتواجد مع الجيش في خدمته العسكرية. وعندما اتضح جلياً بأن العراق لا يتوافر على أسلحة للدمار الشامل، فقد بقي العقيد مع أسئلته الحائرة حول السبب الذي جعله يتواجد في العراق، في الحقيقة لقد وجد الإجابة في الكلمة المكتوبة أسفل الصورة.

وعلى منضدة العقيد يمكن أن أجد مجلات متنوعة، بالإضافة إلى

نسخة من أشعار سيغفريد (Siegfried)، أما أشعار ولفريد أوين (Owen)، فيمكن أن أسمعها منه وهو يحفظها عن ظهر قلب.

كنت في العادة ألجأ إلى فراشي بحدود منتصف الليل، وعادة ما أستمتع بخمس أو ست ساعات من النوم، لكن الصواريخ كانت تسقط علينا تقريباً كل ليلة، ولأن أرض المطار كانت شاسعة وكبيرة فقد كان يستحيل معها إصابة هدف بدقة عن بعد. لذلك لم يحدث وأن أصيب أحد بهذه القذائف الليلية. وبعد أن تسقط القذائف، نستمع إلى تنبيهات المراقبة التابعة للقوة الجوية وهي تطلب من الجميع البقاء في الملاجئ، كان هذا ما يفعله أفراد القوة الجوية، أما الجيش فلا يفعل، أما أنا فقد كنت مع الجيش وكنت أبقى في فراشي. لكن هذه الهجمات نجحت في إبقاء الجميع، عراقيين وأجانب، على جانب كبير من التوتر.

ثم بدأت أقرأ المزيد عن التاريخ العراقي الحديث. فخلال الحرب العالمية الأولى، قام البريطانيون بدفع الشريف حسين، شريف مكة إلى الاعتقاد بأنهم سيدعمونه كي يكون ملكاً على العرب في مقابل الثورة على حكم العثمانيين الذين اصطفوا مع الألمان خلال الحرب. لكن الذي حدث، أن الاتفاقية السرية لسايكس بيكو عام 1916، تقاسمت أراضي المنطقة بين بريطانيا وفرنسا. أما البريطانيون فقد نفذوا نوعاً من الحكم المباشر على نواحي المنطقة وبلدانها، ووضعوا ضابطاً سياسياً يقود كل مقاطعة أو إقليم. وهو نوع من الحكم المركزي الذي أعادت صورته إلى الأذهان سلطة الائتلاف المؤقتة في العراق بعد عام 2003.

وفي عام 1919، خرج مؤتمر فيرساي بتشكيل عصبة الأمم التي تقاسمت الوصاية على الأراضي المحكومة من العثمانيين سابقاً. أما البريطانيون فقد أسسوا العراق الحالي المتكون ابتداءً من ثلاث ولايات،

بغداد والبصرة ولاحقاً الموصل، بناء على ما سلف من تفاهات خرجت بعد الحرب.

وعلى أثر الأنباء عن منح بريطانيا حق الوصاية على العراق، توّحد الشيعة والسنة والأكراد لرفض هذا الإجراء، مما حدا ببريطانيا إلى تأسيس نظام جديد آخر لحكم العراق، يتشكل من ملكية دستورية، يكون فيها رئيس الوزراء هو رئيس الحكومة وقائدها الفعلي، بينما يعين الملك مجلساً للشيوخ⁽¹⁾.

في الحقيقة لقد قررت بريطانيا أن تحكم العراق بطريقة غير مباشرة، عبر استخدام نخبة الضباط العثمانيين الذين سبق لهم أن خدموا مع الشريف حسين وشاركوه في ثورته، وعبر استخدام ملاك الأراضي الشاسعة. لكن هؤلاء الضباط كانوا جميعاً من العرب السنة، ولاحقاً جلبت بريطانيا فيصلاً ليكون ملكاً على العراق (وهو أكبر أبناء الشريف حسين، وابنه الآخر عبد الله أصبح أميراً على إمارة شرق الأردن لاحقاً). لقد حاول الملك فيصل أن يؤسس لهوية عراقية وطنية عبر التعليم والجيش. وكتب في مذكرة له يقول:

«أقول وقلبي ملآن أسى، إنه في اعتقادي لا يوجد في العراق شعب عراقي بعد، بل توجد كتلات بشرية خالية من أية فكرة وطنية، ومتشعبة بتقاليد وأباطيل دينية، لا تجمع بينهم جامعة، سمّاعون للسوء، مَيّالون للفوضى مستعدون دائماً للانقضاض على أي حكومة كانت، فنحن نرى والحالة هذه، أن نشكّل من هذه الكتل شعباً نهذب، وندربه، ونعلمه».

وبالرغم من أن العراق حاز على استقلاله عام 1932، إلا أن بريطانيا

(1) في الحقيقة هذا تبسيط كبير لطبيعة النظام الملكي الذي أسس في العراق بعد عام 1920 - المترجم.

أبقت على مستشاريها العاملين مع الملك وحكومته، وأبقت على جهودها في تسليح الجيش العراقي وتدريبه، وأبقت أيضاً على قواعدها العسكرية في كل من الحثانية والشعبية.

في ظل الحكم الملكي، كان العراق قد بدأ خطواته نحو صيرورته كدولة حديثة، لكنها كانت دولة بيروقراطية. وبدأ يحوز على بنى تحتية، وجيش عصري. لكن بعد وفاة الملك فيصل الأول، ابتعدت الملكية شيئاً فشيئاً عن واقع الشعب، وفشلت في بناء المؤسسات التي يتطلبها نمو العراق، فيما ازداد دور الجيش في الحياة السياسية واندفع يؤثر فيها تأثيراً كبيراً. وبعد انقلاب رشيد عالي عام 1941، تدخلت بريطانيا بالقوة لتساند الملكية وتعيد السلطة لها. وقد صارت الملكية العراقية تعتمد أكثر فأكثر على الإسناد البريطاني ودعم لندن للنظام السياسي العراقي، خاصة بعد أزمة السويس عام 1956. ونشأ جيل من الضباط القوميين العراقيين المتأثرين بتجربة جمال عبد الناصر في مصر. فحدث انقلاب عام 1958 وجرى قتل العائلة المالكة كلها، وتصدر الحكم عبد الكريم قاسم المتحدث من أصول مختلطة، عربية وكردية، وأخذ على عاتقه الوعود بتحديث العراق، وخلق مجتمع أكثر عدالة. لقد تمكنت هذه الثورة من إزاحة النخب الكلاسيكية القديمة وقدمت نخبة جديدة من الطبقة الوسطى، لكن لم يكن هناك توافق على السياسات العامة. كان القوميون العرب يعملون على أن يكون العراق جزءاً من العالم العربي الأكبر، بينما ركّز اليساريون على القضايا الاقتصادية، ودفعوا بالخطط الراديكالية الاشتراكية من أجل تنفيذ الإصلاحات الاقتصادية، فيما كان القوميون الأكراد يطمحون لنيل المزيد من الحكم الذاتي. لكن قاسماً أزيح عن السلطة وقتل عام 1963، وبعد سلسلة من الانقلابات والحكومات غير المستقرة، جاء حزب البعث ليقدّم الاستقرار حين

استولى على السلطة عام 1968. حيث شرع ببناء دولة الحزب الواحد، وتوسّع في البيروقراطية، وبذل الكثير من الاهتمام لإنشاء الجيش والقوى الأمنية، وجلب كل مؤسسات المجتمع تحت سلطته. أما صدام حسين فقد كان في سلطة الظل لعقد من الزمان قبل أن يصبح رئيساً عام 1979. وبدأ ببناء وترتيب نخب سنّية من عشيرته ومن مدينته تكريت، ووزع مهامهم في الأجهزة الأمنية والمناصب الحساسة في الدولة وفي المخابرات. وقد أسس منظومة جديدة من النخب مبنية على مبدأ الولاء والقربة؛ هذه النخب بدأت تحكم العراق بطريقتها.

كان لقيام الثورة الإسلامية في إيران الأثر البالغ في المنطقة بأسرها. لكن صداماً المدفوع بمخاوفه من التهديدات التي يتعرّض لها نظامه من القلاقل المحلية التي كان يراها أنها مدفوعة ومباركة من طهران، بدأ على أثر ذلك هجومه على إيران عام 1980. وقد استعمل في ذلك الخلاف الحدودي بين البلدين كذريعة.

كان يتصور أن الحرب ستكون خاطفة وسريعة، وستمكنه من تثبيت مكانة جديدة للعراق في المنطقة، مثلما ستثبت أركان حكمه في العراق، لكن الحرب انتهت بعد ثماني سنوات بلا أيّ تغيير في الحدود بين البلدين وبمليون ضحية من الجانبين. ومع خزينة مفلسة وخارجة من الحرب للتوّ، هاجم صدام الكويت مطالباً دول الخليج بإسقاط الديون العراقية وطامعاً في نفط الكويت. لكن صداماً أساء تماماً في حساباته احتساب رد الفعل من جانب المجتمع الدولي على خطوته هذه. وفي عملية عاصفة الصحراء، تمكنت الولايات المتحدة من قيادة تحالف أزاح صداماً وقواته عن الكويت بسهولة. لكن الرئيس جورج بوش (الأب) رفض المضي قدماً في مطاردة القوات العراقية إلى بغداد، وتوقع أن تكون مرارة الهزيمة

كافية لجعل نظام صدام يسقط لأسباب داخلية، أو عبر انقلاب عسكري. وعلى أثر ذلك، خرج الشيعة في الجنوب والأكراد في الشمال عبر انتفاضة واسعة ضد الحكم في أربع عشرة محافظة من أصل ثماني عشرة. لكن من دون مساعدة قوات التحالف، سرعان ما أمكن لصدام إخماده.

وفي إحدى الأماسي، قدم لي الكولونيل مايفيل هديّة، كانت عبارة عن كتاب (الكرد والعرب والأتراك - رحلة سياسية في أحوال الشمال الشرقي العراقي 1919-1925) كتبه سي جي أيدموند (C.J.Edmonds)، أيدموند كان ضابطاً سياسياً عمل في كركوك خلال حقبة الاحتلال البريطاني. التهمت الكتاب بسرعة مدفوعة بالرغبة في اكتشاف المصاعب والتحديات التي واجهت سلفي قبل ما يقرب من مئة عام. قلت حينها للعقيد بأنني لو كنت سأكتب مذكرات في المستقبل عن عملي في العراق، فإنني سأكتب عن (القبيلة الأميركية!)، هذه القبيلة التي تبدو أقل اهتماماً بالتاريخ مما يوليه العراقيون. إنهم مهتمون فقط بتحري ما هو صواب ليفعلوه برأيهم، وينصبّ جلّ اهتمامهم على الشكل الذي سيبدو عليه العالم.

كان العسكر والجنود ينظرون إلى أنفسهم على أنهم محررون، وكانوا غاضبين مما اعتبروه نكراناً للجميل من جانب العراقيين غير المرحّبين. وعندما وصلت إلى عملي في كركوك كان أحد الاسئلة التي وضعتها نصب عيني هو: «ماذا علينا أن نفعل كي نكون محبوبين؟».

لقد قلت للعسكر، بأن من يغزو بلداً ما، ويقتل أشخاصاً ما كانوا يشكّلون له تهديداً، في النتيجة لا يمكن أن يكون محبوباً. لقد قلت وكتبت ذلك بعد حرب الخليج عام 1991، والتي تبعثها سنوات طويلة من العقوبات القاسية التي أثرت على الصحة العامة، والتعليم، ورافقتها

حالة إذلال وهزيمة، كنت لهذا أنفهم تماماً لماذا نتعرض باستمرار للنيران من قبل العراقيين، لكن ما لم أتمكن من فهمه هو السبب الذي يدفع العقلاء الأميركيين أن ينخرطوا في الجيش من أجل قتل أناس هم في حالة مواجهة أيديولوجية معهم أكثر من كونها مواجهة دفاعية.

لقد كنت مهووسة بعدد القتلى الذين يسقطون من بين العراقيين، لقد رأيت الجنود الأميركيين وهم مغطون بالدماء. وكنت أتساءل عن أي حياة شاركوا في تدميرها؟... وعن أي نتيجة يمكن أن تخرج من هذه المواجهة، لقد أدركت أنه يتوجب عليّ أن أنظر إليهم كما ينظرون إلى أنفسهم من أجل التواصل معهم.

وطالما سألت الجنود الأفراد عن سبب التحاقهم بالجيش، كنت أستمع في العادة إلى قصص عن النشأة الفقيرة، وعن محاولة تحسين الوضع المعاشي، وعن الفرص التي يمنحها الجيش للملتحقين، كما استمعت إلى قصص تحدث عن نيل مكانة أفضل بعين المجتمع الأمريكي. تقريباً كل شخص سألته عن أسباب الالتحاق كان مندفعاً بأسباب الفخر بخدمته العسكرية والفرص التي يعينها له الانضمام للجيش، وكانوا ممتنين لهذه المشاعر في العموم. ومعظمهم تحدث عن حبه للولايات المتحدة، وأن خدمته العسكرية في العراق ستجعل بلاده مكاناً أكثر أمناً. كما سمعت منهم قصصاً كثيرة عن الرغبة في الالتحاق بالجيش بعد أحداث 11 أيلول، لكن أحدهم لخص لي أسباب التحاقه بالقول: «وأي عمل آخر سيسمح لك بأن تطرق الأبواب ثم تنتظر قليلاً ثم ترمي قبلة وتفجّر المكان؟!».

كان العديد من الجنود ينظرون إلى أنفسهم على أنهم جند الحق، وأن عليهم محاربة الشر، ونشر العدالة. لكنني وجدت ضمن جنود

اللواء عدداً كبيراً من الموهوبين، بعضهم كان يحمل شهادات عالية في القانون، وآخرون توافروا على شهادات دراسية في العلاقات العامة، أو في الإدارة والمحاسبة، بعضهم خدم في البلقان والبعض الآخر خدم في أفغانستان. كان من بينهم من يؤمن بربوبية الله، والبعض الآخر مؤمن بضرورة الحرب على الإرهاب. أو أنه مؤمن بما يجب فعله هنا في العراق أو أفغانستان. البعض الآخر قالوا ببساطة إنهم قد قطعوا عهداً للخدمة في الجيش، وإنهم سيطيعون الأوامر طالما كانت أوامر قانونية وأخلاقية. في الحقيقة كانوا منخرطين في حياة عسكرية منضبطة للغاية، يتواصلون مع أهلهم في أوقات محددة وبطرق معلومة، التلاعب الوحيد الذي كانوا يؤدونه هو محاولتهم التدخين وإخفاء بعض السكائر في ملابسهم، وإطفاء أعقابها في قناني الماء أو عشوائياً على الأرض. وعلى أحد جدران مركز القيادة التكتيكي، كانت هناك لوحة ورقية كبيرة، عليها صورة كنيسة في أميركا، اللوحة ثبتت عليها صور ضباط اللواء 173 وهم بالزي الرسمي، وإلى جانبهم بعض العبارات الرمزية الدينية.

عمل العقيد مايفيل على إدخاله إلى الدائرة المقرّبة من قيادة الجيش، الدائرة الخاصة التي تحتوي كبار الضباط، وفي المقابل شمرت عن ساعدي لتقديم أيّ عون لهم. لقد بدأت أفهم تسلسل القيادة المرعي بينهم، اللكمات التي يوجهها أحدهم إلى الآخر على سبيل التحية، بدأت أفهم دعاياتهم، اهتماماتهم. في الحقيقة وجدت أن العسكر وكأنهم مخلوقات قادمة من المريخ. لكنني وجدتهم قابلين للفهم، ويمكن إقناعهم حالما فهمت أولوياتهم. لكن الأهم في أولوياتهم أنهم كانوا راغبين بفعل الأمر الصواب.

في البداية كنت أنظر إلى كل التحيّات والبروتوكولات العسكرية

على أنها أوامر عشية، لكنني سرعان ما أدركت أهميتها وقيمتها على أرض التطبيق.

إنها تقدم إطار عمل يمكن فيه لكل شخص أن يفهم دوره وأسبقته في ضوء التراتبية الهرمية للقيادة والتنفيذ. وبما أن الأوضاع في العراق كانت بعيدة عن الوضوح، فقد تلقت البروتوكولات العسكرية دفعة من الدعم والتأكيد داخل الجيش الأميركي. وخلال مخاطبتي للعقيد مايفيل كنت أناديه باسم (بيل)، لكنني كنت أستخدم لقبه الرسمي بحضور الآخرين (عقيد)، ومنه اقتبست طريقة مخاطبة كل الضباط الأقدمين ببادئة (سيدي) (SiR)، والذي أدهشني أن الأميركيين كانوا أكثر تحفظاً ورسمية حين يخاطبون الرتب العليا، ويتفوقون بهذه الرسمية على نظرائهم البريطانيين؛ كنت أتخيل أن من غير اللائق أبداً مخاطبة المراجع البريطانيين الأقدم والأعلى بكلمة (سيدي)، كان السفير يطلب مني مخاطبتهم بالأسماء الأولى ويضاف إليها الرتبة فأقول: الجنرال جون...أو...الجنرال أندرو، وهكذا.

كانت علاقتي مع أركان قيادة اللواء في عمومها علاقة جيدة. فقد قبلوا انضمامي إليهم بكل سهولة. كانوا يفهمون أن العقيد مايفيل يقدر مشورتي وآرائي، والبعض منهم فهم أن تولي القيادة هو أمر يؤدي إلى الشعور بالوحدة، وأن العقيد - قائدهم - قد وجد في صديقة على الأقل.

لكن الأمر لم يخلُ من بعض المُشاحنات، صرخ أحد الضباط مرّة في وجهي قائلاً: «كيف تنظرين إلى الأمور؟... باعتبارك خريجة أكاديمية ويست بوينت العسكرية أم باعتبارك عربية مزيفة؟». كان ذلك بعد أن عارضته في رأي ما، فأجبت: «إنني لا أصتف الناس بهذه الشاكلة»، واحمرّ وجهي وتركته غاضبة. إن العسكرية قد تكون مسألة محبطة جداً لمن

يتعامل معها. فقد أقدموا مثلاً على تصنيف العراقيين على شكل كارتات ورقية، على الشكل التالي: الأشخاص الجيدون وهم (المتعاونون مع الأميركيين والأكراد) والأشخاص الأشرار هم (المعادون للأميركيين والعرب). أما الأشخاص الجيدون فهم يستحقون الدعم (بالمال والقوة) وأما الأشخاص الأشرار فنصيبهم (القتل والاعتقال). أما أولئك الذين نقاتلهم فقد كانوا يصنفون على أنهم (الأعداء) وقد يرمز لهم جميعاً بـ (ع.ن.س) أو عناصر النظام السابق، وكذلك هناك (الموالون للنظام السابق) ويرمز لهم (م.ن.س) ولاحقاً صار اسمهم (المتمرّدون). وهناك أيضاً (العدائيون تجاه القوات العراقية). وفي محاولتي لفهم هوية الجهة التي نحاربها، وما الذي تريده منا، كنت أجادل في الربط بين تصرفاتنا تجاه الآخرين في مقابل رد الفعل المتوقع منهم. لكن هذا لم يشاظرني العسكر فيه، كان بإمكانهم السير في طريق مستقيمة وتحطيم كل شيء يصادفهم ومع ذلك، يظنون في أنفسهم أنهم قد فعلوا الصواب. لقد سمعت جنوداً أميركيين يتحدثون وقد ملأهم العجب عن عراقيين يعيشون في «أكواخ طينية»، ويرتدون «ملابس رجالية غريبة» وزادهم عجباً أن «الرجال يتبادلون القبل بينهم كتحيّة». كانت التسلية الوحيدة التي يتمتع بها الجندي الأميركي هي مشاهدة الأقراص المدمجة أو الألعاب الإلكترونية العنيفة، بالإضافة إلى الصالة الرياضية. صحيح أن العقيد مايفيل كان معجباً بالإرث الثقافي العراقي، لكن عملية غرس احترام الثقافة العراقية عند الجنود كانت أمراً آخر.

تحاشيت تماماً أن أكون جزءاً من أيّ نشاط يحتوي على العنف، أو أن أكون جزءاً من أيّ شيء مشكوك في أساسه الأخلاقي، لقد وضعت خطوطاً حمراً لنفسِي. فعلى سبيل المثال، كنت أمتنع عن مشاركة أيّ معلومات أو الاشتراك في أيّ نشاط قد يؤدي في النهاية إلى موت إنسان.

لكنني كلما اقتربت أكثر من الانشغال اليومي للقطعات العسكرية، كنت أكثر تكتيفاً مع واقع الحال وأكثر مرونة، وزادت بصيرتي لأفهم ما هو عليه العالم الحقيقي البعيد كل البعد عن المثالية. لكن، سواء رضيت بهذا أم لا، فأنا جزء من قوة الاحتلال المسؤولة عن إيقاع القتل أو الإصابات أثناء الفعاليات. لقد كنت بالفعل جزءاً من القوة التي تحتل العراق. ولا يغير في الأمر شيء أنني كنت مدفوعة بالرغبة بإبداء المساعدة. فهل تبرر النتائج الوسائل المستخدمة؟. كنت أحاول أن أقنع نفسي بهذا.

منذ نيسان عام 2003، كانت الفرقة القتالية منشغلة تماماً بإدارة المحافظة، مولية الاهتمام لكل نواحي الحياة، بدءاً من الأمن وانتهاء بتوفير الوقود والرعاية الصحية والتعليم. وحينما وصلت كركوك، كان الجيش ينظر إلى المدنيين ومؤسساتهم على أنها مؤسسات غير كفوءة بالمرّة ولا يمكن لها أن تقدم شيئاً، وقد سمعتهم يتهاكمون بسلطة الائتلاف على أنها تختصر في جملة واحدة: «ليس لدينا القدرة على توفير أيّ شيء»، وحين قدمت أنا، البريطانية المتطوّعة للعمل في هذا السلك، تعززت قناعاتهم، حيث لم أمتلك إلا فريق عمل بسيط للغاية مع اعتمادي الكامل على الجيش في تأمين حاجات استمرارتي بالحياة. لم يكن بإمكانني فعل أيّ شيء سوى إبداء العجب من الطريقة التي تورّط بها الجيش خلال محاولته تأمين احتياجات الكركوكيين، لقد كان الجيش يرتب الأولويات في المدينة، ويمنح العقود للمقاولين المحليين، ويدير كمّاً كبيراً من الأموال التي تصرف.

كان أمرو الدبّابات يعملون على تطوير النواحي الاقتصادية في المدينة، والضباط المظليّون مكلفون بمتابعة شؤون الحكومة المحليّة، فيما كان الضباط الإداريون يتولون إدارة شؤون التعليم والمدارس.

لقد كانوا غارقين تماماً بهذه المهام التي في أيديهم. دخلت في إحدى المرات إلى مجلس المحافظة فوجدت ضابطاً برتبة نقيب يؤنب أعضاء المجلس لعدم اتباعهم قواعد النظام في الحوار والديمقراطية، وهو يمسك بيده نسخة من كتيب قواعد روبرت (Roberts roles). وكان يلقي عليهم محاضرة يدفعهم فيها إلى طلب الإذن عند الكلام برفع الأيدي والانتظار حتى يأذن رئيس المجلس بالكلام. ولم يكن التنافس والخلاف موجوداً فقط بين الوحدات العسكرية، إنما ظهر بين العسكر والمستشاريين المدنيين، الذين يعمل معظمهم بتمويل من وكالة المساعدات الأميركية (USAID)، كل المجاميع كانت تعمل بالتنافس إزاء بعضها البعض، وحالما أدرك العراقيون هذا التنافس بدؤوا باللعب عليه وعلى مفرداته.

وعندما حلّ الصيف تماماً، أصبح واضحاً أمام العقيد ما فيل أنه لن يغادر العراق عمّا قريب. كانت وثيقة سلطة الائتلاف التي تصف مواقع الخدمة المدنية التي يجب شغلها عبارة عن وثيقة خيالية أكثر من كونها وصفة سحرية تحمل (حكومة معلّبة للمدينة)، حيث لم يكن يتوفر هذا العدد من الشاغلين والقائمين بالأعمال المدنية. عندها اقترح العقيد أن يتم تكليف بعض الضباط كي يضطلعوا بهذه المهام مؤقتاً. لقد وافقني على أن تحقيق النجاح عبر الأداء العسكري ليس هو السبيل الوحيد لزرع الاستقرار. لقد توجب علينا أن نترك شيئاً على الأرض يثبت أننا قوة لمساعدة العراقيين.

لقد شخّصنا ابتداءً حاجتنا إلى تقديم الدعم وتمكين العراقيين بدلاً من جعلهم يعتمدون على سلطة الائتلاف أو قوات التحالف في توفير احتياجاتهم المعاشية وضروراتهم اليومية. ولهذا أصدر العقيد توجيهاً

إلى جنوده يقضي بوضع العراقيين في موضع وسيط بين المشكلة وبين جهود قوات التحالف من أجل حلّها.

لكنني تحاشيت أن أضع هيكلًا موازياً لتعليمات العقيد، وبدلاً من ذلك، عملت على تمكين الضباط لتقديم الخدمة المدنية، واستخدمت مهاراتي في توسعة الترابط بين العسكر والمشاكل المدنية. لكن الأولوية التي تعلمتها في كركوك هو أن أبقى على عيني مفتوحة على الآخر، لقد سبق لي أن عملت في أماكن نزاع متعددة في آسيا وفي مناطق مختلفة. لكن لأول مرة في حياتي المهنية أتحوّل أنا نفسي إلى هدف يحتمل استهدافه. لقد تعلمت بأصعب طريقة في التعرف على الأشياء بأنه لا وجود لمجال العمل الإنساني في العراق، دون أن ينظر إليك العراقيون بعين الريبة. لقد كان أمر الذهاب إلى الحرب في العراق قضية متنازع عليها، وكانت شرعية الحرب والعمليات العسكرية تخضع لجدل واسع. ولهذا، فإن أيّ عمل مدني يقدم الخدمات في العراق ويرافق القوات الأميركية سيعدّ جزءاً من (المشروع) الأميركي، وبالتالي هدفاً يمكن استهدافه.

لهذا وجهت دعوة إلى كل العاملين في المنظمات غير الحكومية والمستشارين والعسكريين والعراقيين العاملين في مبنى الحكومة إلى اجتماع في مكثبي. اتفقنا مبدئياً على أن التنافس وروح التغالب الموجودة بين الوكالات والوحدات المختلفة وجب أن تختفي، وكانت عبارة عن قضية محبطة، وغير مثمرة وتضييع الجهود، وفوق هذا تسببت في أن العراقيين يطلبون الطلب نفسه من خمس أو ست جهات في آن واحد.

واقترحت أن نحوّل أنفسنا إلى وكالة لتقديم الدعم والاستشارة

للعراقيين، نمنحهم النصيحة، ونوفر التدريب اللازم، ونعضد أداء المؤسسات العراقية المدنية.

يحتاج العراقيون بالفعل إلى استشارات في هيكلة الحكومات المحلية، وطريقة تقديم الخدمات العامة، وقواعد الإدارة المالية والمحاسبية، وفي تطوير المجتمع المدني، وفي تقديم الدعم للمرّحلين وتمكين عملية إعادة التوطين، وتوفير الأمن. أطلقنا على هذا التشكيل اسم (حكومة الفريق).

وفي نهاية الاجتماع خاطبت المجتمعين بالقول: «كل واحد منّا هو سفير للولايات المتحدة والغرب، ومن المهم جداً أن نحفظ هذه الحقيقة في عقولنا أثناء مقاربتنا لأيّ تماس مع العراقيين». وقد خاطبت العسكريين بالقول: «لا يمكن تحت أيّ ظرف رفع الصوت أو الصراخ بوجه العراقيين، عاملوهم باحترام في كل الظروف وفي كل الأوقات». لقد حدث ورأيت أنهم يعاملون العراقيين في بعض الأحيان كما لو كانوا أطفالاً، أو أنهم جنود أساؤوا التصرف. لقد كنت راغبة بأن أرى الكركوكيين وهم يمتلكون القرار في عملية التنمية والتطوير، وليس الاكتفاء باستشارتهم.

وشرعنا بتأسيس (هيئة تطوير كركوك)، للاستيثاق من أن إدارة المحافظة ستكون منخرطة تماماً في عملية رسم الاستراتيجيات التنموية للمدينة وبلداتها ونواحيها، وأن تكون مشرفة على استخدام أموال التنمية بأفضل صورة. وأن تحدد الأولويات والقطاعات المهمة التي يجب البدء في العمل عليها قبل غيرها. كانت الهيئة مرووسة من قبل المحافظ ومن قبلي أنا، وكنا نعقد لقاء نصف شهري للمراجعات. ولهذه الهيئة يعود أمر التنسيق لكل المشاريع في المحافظة. كانت التقارير ترفع إلى

مركز هذه الهيئة، وتدار من قبل كادر عراقي يعضده إشراف من (حكومة الفريق). كنت أعمل على تشخيص الاحتياجات، وأحرص على ألا تتكرر أمام المانحين المطالب، وبالتالي نقع في فخ التكرار. كما أهيئ عملية تصنيف المقاولين المؤهلين للاشتراك في التنمية وأضع المبالغ المتعلقة بالتكاليف.

ولكي نعلن عن أنفسنا أمام العراقيين أننا أهل للثقة، فقد جرى تأسيس مكتب في مبنى المحافظة يستلم الشكاوى التي ترد من العراقيين تجاه قوات التحالف.

انتهى وقت التعجب من معيشتي مع العسكر وقد أصبحت جزءاً فعلياً من القوات. حتى إن اسمي بدأ بالظهور في مخططات قيادة اللواء، وكنت أرفع التقارير إلى العقيد مايفيل أكثر مما أفعل تجاه حكومة سلطة الائتلاف التي يرأسها السفير بريمر. ولم يعد وجودي سبباً في الدفع إلى التهذية أو سبباً في رسم الابتسامات على الوجوه.

لقد ابتكرنا أساليب جديدة للعمل، وفتحنا آفاقاً مهمة للتواصل مع المدنيين وتنفيذ المشاريع التنموية بطريقة تجعلهم مسؤولين معنا. كنت أرفع التقارير عن التطور على الأرض وتحليلات الأوضاع أسبوعياً إلى سلطة الائتلاف مرفقة بتوقيع العقيد مايفيل. وحين كنا نتعرض إلى زيارة من المراجع العسكرية العليا إلى المحافظة، كنت ألعب دور المستشار السياسي للعقيد مايفيل، وحين كان يزورنا السفير بريمر، كان العقيد يلعب دور المستشار العسكري لي، وهكذا سارت خطة التعاون التي رسمناها للعمل في المدينة باستخدام وسائل ومصادر وكوادر عسكرية.

كان الأمر نافعاً لنا نحن الاثنين، كان لديّ اتصال قليل بمقر سلطة الائتلاف، أما اتصالي بلندن وبوزارة الخارجية هناك فقد كان معدوماً

تماماً. كان هذا أقصى ما تمكنت من تدبره من أجل تمشية عملي الذي لم يجر تعريفه لي بالأصل.

لم أكد أصدق نفسي لحظة وقع بصري على الجنرال أوديرنو، إذ لم يسبق لي أن شاهدت إنساناً بهذه الضخامة. بدا وكأنه كائن مختلف عن البشر، كان رأسه حليقاً تماماً، ويداه كانتا ضخمتين للغاية⁽¹⁾، ومع هذا فقد كانت عيناه حادّتين لمّاحتين ووجهه عطوفاً للغاية.

كان الجنرال رايموند أوديرنو (برتبة لواء)، قائداً لفرقة المشاة الرابعة، التي تستقر في قصور صدام السابقة في مدينة تكريت، مركز المحافظة المجاورة لكركوك. أوديرنو هو الرئيس المباشر للعقيد مايفيل، وكثيراً ما كان يأتي إلى أرض المطار والقاعدة العسكرية في كركوك لزيارة مقر العمليات التكتيكي. وحين يأتي، كانت حاشيته تهول أمامه. كانت زيارته المتكررة تهدف إلى الاطلاع على الإيجازات اليومية أو الأسبوعية من مقر العمليات. وباعتباري المرأة الوحيدة في المكان، والشخص الوحيد الذي لا يرتدي الزي العسكري، كنت أحرص على أن أبقى خارج نقاشات هذه الإيجازات التي يتلقاها الجنرال أوديرنو، لكنه أدهشني ذات مرّة والتفت إليّ بسؤال مباشر، إذا كان البعثيون إما خارج المدينة أو قد قتلوا بالفعل، فلماذا ما زلنا نشهد قلاقل أمنية؟.

فأجبته: «جنرال... كركوك تحتوي على 40% من بترول العراق، وهو ما يشكل 6% تقريباً من البترول العالمي. والأكراد بحاجة إليها إن كانوا سيحوزون الاستقلال في المستقبل، ولقد قاوموا العقود في سبيل إلحاقها بالمنطقة الكردية، وفي المقابل قامت السلطة المركزية بعملية تطهير عرقي

(1) يبلغ طول الجنرال رايموند أوديرنو بحدود 194 سم. وولد في نيوجيرسي عام 1954 - المترجم.

واسعة لمنع هذا الاحتمال وجلبت العرب من الجنوب، لهذا فإن عدم الاستقرار سيلاحق المنطقة التي ستنشأ عندها حدود كردستان».

بدا الجنرال أوديرنو مندهشاً للغاية وهو يردد ما قلته له، وأدهشني أكثر أنه واصل طرح المزيد من الأسئلة حول كركوك. الذي عرفته أن الجنرال كانت لديه خطط تفصيلية لحد الآن تركّز على القتال وربح المعركة، وليس على طريقة احتلال مكان معقد للغاية مثل كركوك. ولاحظت أيضاً أنه في كل مرّة يلقي فيها رأياً أو تعليقاً فإن الجميع يومئ برأسه موافقاً، وفي كل مرّة يعلق فيها بمزحة فإن الجميع يردون بالضحك وكأنه أطرف تعليق يمكن أن يلقي. ردود الفعل الجماعية كانت تبدو وكأنها تصدر عن جوقه إغريقية أو عن قبيلة ما تجتمع بحضور زعيمها.

كان اللواء 173 المحمول جواً والمتمركز أصلاً في إيطاليا غير تابع لأيّ فرقة عسكرية أميركية. لكن خلال انتشاره في العراق، جرى إلحاقه بالفرقة الرابعة التي كان يقودها الجنرال أوديرنو، ومع مرور الوقت، تطوّرت الروابط بين أوديرنو وأركان اللواء، وحازوا على ثقة الجنرال بينما تفهّم هو من جانبه خصوصية اللواء وقدراته وإمكاناته في تنفيذ الانتشار والواجبات.

أبدى الجنرال أوديرنو لامبالاة تجاه علاقة العمل التي تجمعني مع العقيد مايفيل، وخلال أحد الاجتماعات أبدت ملاحظة عن الشؤون العسكرية كانت فيها شحنة من الفلسفة أكثر من اللازم، فوجدت العقيد يشير إليّ بالقول: «اذهبي وارتيدي بدلة العمل البرتقالية!»، وهنا وجدت الجنرال أوديرنو في ما يشبه الصدمة وهو يسأل مايفيل: «هل جعلتها ترتدي بدلة برتقالية؟. مثل المعتقلين العراقيين؟»، قال ذلك وهو يزمجر في نوبة من الضحك.

فأجابه مايفيل الذي تناغم مع حبكة المزاح هذه: «نعم سيدي، فحين نجدها تذهب بعيداً في التفلسف نحتجزها هنا، في هذه الخزانة الصغيرة».

وقف الجنرال أوديرنو ليتفحص الخزانة عن قرب، فوجد العقيد مايفيل يقول: «صحيح أنها لا تكفي لوضع يدي، لكنها يمكن لها أن تضع جسدها كله هنا». وتراهن الرجلان حول إمكانية أن تحتوي الخزانة، وبدوري أثبت لهم عملياً أنني يمكن أن أدخل فيها بكامل جسمي. فقد كان الطعام في القاعدة العسكرية بعيداً عن اللذة والشهية حتى أنني فقدت المزيد من الوزن وبلغت 55 كيلو غراماً.

وعلى حد علمي، فإن الجنرال أوديرنو لم يتساءل أبداً أو يعترض على حقيقة أن أحد القادة العاملين بمعيته، قد تشارك في العمل العسكري مع امرأة بريطانية مدنية، وكنت أحضر الاجتماعات العسكرية بصرف النظر عن حساسية المعلومات والمواضيع التي تطرح فيها. لقد كانت العلاقة بين العسكر والمدنيين في العراق على الدوام مسألة فيها الكثير من التعقيد والتحسس، إذ حاول كل طرف أن يقصي الآخر من ساحة عمله. لكننا كنّا في كركوك بالفعل نعمل بروح الفريق الواحد، وكثيراً ما كان الجنرال أوديرنو يوجه إليّ استفساراته، لقد كان يعدّني فعلياً من بين هيئة أركانه.

وكلما زارنا الجنرال أوديرنو كان العقيد مايفيل يطلعه على كل ما نواجهه من قضايا وتفاصيل. كنّا نحن الثلاثة نجلس لتبادل الأحاديث في غرفة العقيد أو في الفناء الخلفي حيث يتمتع الرجلان باستراحة للتدخين، حيث تبدو وكأن السيكرة هي متعتهم الوحيدة. وكنا دائماً ما نتسبب في تأخير مُغادرة الجنرال. كان حريصاً على سؤالنا عن الطريقة المثلى التي يمكن له عبرها أن يقدم المساعدة، ويسأل عمّا نريده أن يفعل من جانبه. وكلّما حدث طارئ أو توتر، كان الجنرال يسرع بالقدوم

إلى كركوك، ويشعرنا بمقدمه أن كل شيء على ما يرام، ويغمر الجميع بروح من الثقة، كما يزيح عن كاهلنا حمل المسؤولية.

كان رمز النداء العسكري الخاص بالجنرال أوديرنو هو (الحصان الحديدي 6)، ولفترة طويلة كنت أظن أن اختيار هذا الرمز جاء متناسقاً مع الحجم الضخم للجنرال، لكنه في الواقع كان الرمز المستخدم دائماً لقائد الفرقة الرابعة. أما العقيد مايفيل فقد كان يرمز له بـ (بايونيت 6)، وبعد ذلك طرق مسامعي النداء الرمزي (بي بي)، واتضح أن ذلك الرمز يشير إليّ، ويعني (الفتاة البريطانية) ١.

الفصل الثالث

مس بيل...ثانية

«إذن أنت الفتاة البريطانية التي سمعت عنها كثيراً، والتي تسكن مع 3500 مظلي أميركي في قاعدة عسكرية، كيف أمكنك أن تتعاملتي مع هؤلاء؟».

من حوار لي مع كولن باول،

15 أيلول 2003.

* * *

كيف انتهى بي الأمر أن ألعب هذا الدور؟... ومع عقيد أميركي يمثل أفضل صديق أتيح لي؟... كنت ما زلت أشعر بالارتباك من الاضطلاع بهكذا وظيفة. لم يكن لديّ التأهيل المناسب أو المهارة الكافية لهذه المهمة. لقد جئت إلى العراق وفي قلبي نيّة أن أقدم الاعتذار إلى الشعب العراقي عن الاحتلال، الآن أنا أجلس مثل أيّ إداري استعماري في مكتب كان يجلس فيه محافظ كركوك قبل الحرب.

لقد كنت أبدو كرمز للقوّة الجديدة والسلطة القادمة، ويتأكد ذلك بوجود العقيد مايفيل الذي يمثل الأداة التنفيذية لهذه القوة. كنت أتطلع دائماً إلى طوابير من العراقيين ينتظرون مقابلي، البعض منهم يتطلع إلى تلقي العون، بينما الآخرون ينتظرون التدخل من سلطتنا لحلّ نزاعاتهم، والبعض الآخر يريدنا أن نعالج بعض القضايا المهمة.

كانت المشكلة المبدئية التي تواجه الأميركيين هي عملية إيجاد أشخاص شرعيين لتولي مسؤولية النواحي العامة. وخلال عقود وجيلاً بعد آخر، خسر العراق الطبقة الوسطى في مجتمعه عبر الحروب المتتالية والتوترات والحروب التي استمرّت طويلاً. الكثيرون منهم قتلوا من قبل النظام، بينما فضل الآخرون اللجوء إلى المنافي على البقاء مطاردين داخل بلدهم. لقد عمل صدام على منع بروز قادة محليين يمكنهم تهديد سلطته. كما ساهمت عملية اجتثاث البعث بإبعاد أولئك القادرين على إدارة المصالح العامة، أما القادمون من الأحزاب السياسية المعارضة فمشكلتهم أنهم بلا خبرة، وكانوا مجهولين من قبل أفراد الشعب العراقي ولا يعرفهم أحد تقريباً. لقد اختارت سلطة الائتلاف أن تحكم العراق بطريقة مباشرة وعبر تعيين إداريين يباشرون القضايا بأنفسهم. وبطلب من سيرجيو دي ميلو (ممثل الأمين العام للأمم المتحدة)، جرى تعيين

مجلس يضم 25 عضواً عراقياً يجري استشارتهم في شؤون الحكم. ومن أجل أن تكون القيادة المستقبلية للعراق أكثر تمثيلاً لقطاعات المجتمع العراقي، فقد جرى مراعاة النواحي الإثنية والطائفية في تشكيل المجلس لأول مرة في تاريخ العراق؛ ولهذا كان 13 عضواً من أعضاء المجلس هم من العرب الشيعة، و5 أعضاء من الأكراد، و5 من العرب السنة، وواحد تركماني وآخر مسيحي آشوري.

لكن التأكيد على الهويات الفرعية جاء على حساب بناء هوية عراقية شاملة يشترك فيها الجميع. ولم يكن أحد يدرك مدى الكارثة التي يمكن أن تجلبها هذه القضية على مستقبل العراق.

وخلال الرحلة بالطائرة المروحية التي أفرغتني حيث لم أكن أربط فيها كل الأحزمة، رافقتني امرأتان من سلطة الائتلاف، كانتا في منتصف العشرينيات من العمر، سبق للواء القتالي أن رتب لهن لقاء مع عدد من النساء العراقيات وكنت أحضر هذا اللقاء كمراقب. وخلال اللقاء توجهن بالسؤال إلى النساء العراقيات عن خلفياتهن المهنية قبل الحرب، وعن اهتماماتهن. وما اكتشفته لاحقاً أنهن كن يبحثن عن امرأة تركمانية لتكون عضواً في مجلس الحكم الذي سرعان ما تشكل. وكانت (سونغل عمر) هي المرأة الوحيدة التي تعمل في مجال المنظمات غير الحكومية اللاتي قابلنهما، وتتوافق مع المعايير التي كانتا تبحثان عنها. ولم يستغرق الأمر مني كثيراً لأعرف أن (سونغل) لم تكن مؤلفة فعلياً في النشاطات النسائية، كما أنها لم تكن معروفة في أوساط المجتمع التركماني بكرهوك على الإطلاق. لذلك، ذهبت إلى بغداد وأجريت عدة اجتماعات مع مسؤولين لأجل وقف تعيينها، لكنني كنت متأخرة جداً، فالقرار قد صدر ولا مجال للبحث مجدداً.

واتباعاً لنصيحة السفير البريطاني، أمضيت الأسابيع اللاحقة أتواصل مع المجتمع التركماني، سواء الناشط مدنياً أو الأحزاب السياسية. كان التركمان أقلية عرقية في العراق، ويسكن أكثرهم في كركوك ونيوى. وكان نصفهم من الشيعة والنصف الآخر من السنة. والعديد منهم كان قد اندمج في المجتمع العربي إلى درجة أنه يتحدث العربية على أنها لغته الأم. أما الباقون فيتكلمون التركمانية وهي لهجة من لهجات اللغة التركية.

وحضر إلى مكثي عدد من التركمان الذين يتدمرون مما أسموه بالمؤامرة الأميركية بالضد منهم. لقد راعهم الإعلان عن تعيين سونغول (المرأة التي لم يسمعوها أبداً) كممثلة عن التركمان في مجلس الحكم ببغداد. كان هذا قبل شهر من ظهور صور جنود القوات الخاصة الأتراك في الإعلام وهم معتقلون من قبل القوات الأميركية في 4 تموز 2003، وكانت أياديهم مغلولة وقد غطت الأكياس رؤوسهم. لقد حسب التركمان أن هذه العملية جاءت رداً على رفض تركيا أن ينطلق الجنرال أوديرنو بالفرقة الرابعة من أراضيها خلال عملية احتلال العراق. أما أنا فقد أكدت لهم أنه لم تكن هناك أية مؤامرة، وأن للتركمان دوراً حيوياً في تنظيم الحكم في العراق ومستقبله، لكنهم أبقوا على شكوكهم الحائرة ولم يصدّقوا ذلك.

لقد عقدنا، أنا والعقيد مايفيل، اجتماعاً مع الأعضاء العرب في مجلس المحافظة المعين وذلك في مبنى الحكومة المحلية. لقد كانوا ساخطين جداً على ما رأوه على أنه تغيير في حالتهم ومكانتهم، وكان سخطهم يتمحور حول التمدد الكردي في المحافظة بعد أن أعان الأكراد قوات التحالف في احتلالها للعراق. وبالعودة إلى أيار 2003، كانت قوات التحالف قد شكّلت المجلس عبر تخصيص 6 مقاعد لكل

إثنية من المجاميع الإثنية الأربعة في المحافظة⁽¹⁾، فقد وجهت الدعوة إلى 300 شخصية من شخصيات المحافظة، وطلب منهم أن ينقسموا في مجموعات، وأن ينتخبوا 6 ممثلين من كلّ مجموعة إثنية، ثم أضيف إليهم لاحقاً 6 أشخاص (مستقلين)، صادف أن من بينهم 5 أكراد وواحد مسيحي آشوري. كان التركيز على الإثنية قد دفع التركمان إلى التذمر والشك بأن قوات التحالف إنما تحايي الأكراد، لأنهم الآن يمتلكون 11 مقعداً في مقابل 6 للتركمان و6 للعرب و7 للمسيحيين.

ومنذ اللحظة الأولى التي وصلت فيها إلى كركوك، كنت أستمع إلى شكاوى عن مجلس المحافظة. وهناك إحساس إدراكي بأن التركمان والعرب يشكلون غالبية سكّان المحافظة، وحيث إنه هناك هجرة مقصودة منها وإليها، فلا أحد بإمكانه أن يجزم عن النسب السكانية الحقيقية على أرض الواقع، ولنتذكر أن آخر إحصاء يعتد بنتائجه كان عام 1957.

«السلام عليكم»، قالها كل من دخل إلى غرفة الاجتماع، ومددنا الأيدي أنا والعقيد مايفيل لنصافح الحضور، وفي كلّ مرّة نصافح فيها عراقياً وجب أن نضع الأيدي على صدورنا من جهة القلب بعد المصافحة. في الحقيقة لم أدرك أبداً عدد القبلات التي يجب أن يتبادلها الرجال، فمرّة تكون قبلتان واحدة على كل خد، ومرّة تكون ثلاثاً أو أربعاً ومن جهة واحدة فقط. أربعة من العرب كانوا من الشيوخ وكانوا يرتدون (الدشداشة) و(البشت)، وهي عباءة من قماش خفيف مع حواف مطرزة بخيوط الذهب عند الأكتاف. وعلى رؤوسهم يرتدون (الغتر) البيضاء والعقال الأسود، أما الاثنان المتبقيان فقد كانا يرتديان بدلات رجالية.

(1) المقصود بالإثنيات الأربع هي الكردية والعربية والتركمانية بالإضافة إلى المسيحيين الآشوريين - المترجم.

وكان (سرمد) حاضراً لترجم اللقاء بيننا، سرمد كان شاباً مسيحياً عراقياً يعمل في كافيتيريا المبنى ويدور يومياً بالشاي على الجميع بكؤوسه وصحونه الصغيرة.

«الله بالخير»، افتتح الجلسة أحدهم وردّ الجميع عليه بالعبارة نفسها، وبدأ العقيد الحديث بأن يؤكد للعرب أن لا خطط ولا مؤامرات لدى الأميركيين من أجل محاربة الأكراد أو تفضيلهم. وكان الشيخ (غسان العاصي)، رئيس قبيلة العبيد هو أول المتحدثين وقال: «سيادة العقيد، كلامك جميل لكن لا شيء يجري بالفعل على الأرض». واسترسل يشرح كيف أن العرب في المحافظة يضعون المسؤولية على الأعضاء العرب في المجلس، ويتهمونهم بأنهم بلا جدوى وبلا نفع. وكرر الطلب بأن لا تساعد قوات التحالف على محو الوجود العربي من المحافظة، وقال: «الأكراد تجدهم الآن في كل مكان من المحافظة، في المستشفيات وفي مراكز الشرطة وفي كل مكان، الآن هناك ثلاث قوى في المحافظة هي: قوات التحالف وقوات الاتحاد الوطني وقوات الديمقراطية الكردستاني». وشرح أن العرب قد قبلوا بوجود قوات التحالف، لكنهم لن يقبلوا بوجود سلطة عليهم من قبل الأحزاب الكردية، وإن كركوك هي القضية الحقيقية، وإن على قوات التحالف أن «تفتح الباب أمام العرب ولا تدير لهم ظهرها».

وهنا تكلم الشيخ وصفي العاصي، الذي كان صامتاً أثناء كلام ابن أخيه الشيخ غسان، وقال: «أمام الله والقانون الدولي، فإن قوات التحالف هي المسؤولة عن العراق، وإن الأفعال تسمع أفضل من الأقوال».

وهنا رأيت نظرة من الحزن على وجه العقيد مايفيل، ورأيت يرفعه يديه في إشارة للإحباط الذي يشعر به، وقال إنه مستاء جداً أن يكون في موضع يخيب فيه آمال الأصدقاء العرب في المحافظة. وهنا قال الشيخ

وكان (سرمد) حاضراً ليرجم اللقاء بيننا، سرمد كان شاباً مسيحياً عراقياً يعمل في كافيتيريا المبنى ويدور يومياً بالشاي على الجميع بكؤوسه وصحونه الصغيرة.

«الله بالخير»، افتتح الجلسة أحدهم وردّ الجميع عليه بالعبارة نفسها، وبدأ العقيد الحديث بأن يؤكد للعرب أن لا خطط ولا مؤامرات لدى الأميركيين من أجل محاربة الأكراد أو تفضيلهم. وكان الشيخ (غسان العاصي)، رئيس قبيلة العبيد هو أول المتحدثين وقال: «سيادة العقيد، كلامك جميل لكن لا شيء يجري بالفعل على الأرض». واسترسل يشرح كيف أن العرب في المحافظة يضعون المسؤولية على الأعضاء العرب في المجلس، ويتهمونهم بأنهم بلا جدوى وبلا نفع. وكرر الطلب بأن لا تساعد قوات التحالف على محو الوجود العربي من المحافظة، وقال: «الأكراد تجدهم الآن في كل مكان من المحافظة، في المستشفيات وفي مراكز الشرطة وفي كل مكان، الآن هناك ثلاث قوى في المحافظة هي: قوات التحالف وقوات الاتحاد الوطني وقوات الديمقراطية الكردستاني». وشرح أن العرب قد قبلوا بوجود قوات التحالف، لكنهم لن يقبلوا بوجود سلطة عليهم من قبل الأحزاب الكردية، وإن كركوك هي القضية الحقيقية، وإن على قوات التحالف أن «تفتح الباب أمام العرب ولا تدبر لهم ظهرها».

وهنا تكلم الشيخ وصفي العاصي، الذي كان صامتاً أثناء كلام ابن أخيه الشيخ غسان، وقال: «أمام الله والقانون الدولي، فإن قوات التحالف هي المسؤولة عن العراق، وإن الأفعال تسمع أفضل من الأقوال».

وهنا رأيت نظرة من الحزن على وجه العقيد مايفيل، ورأيت يرفعه يديه في إشارة للإحباط الذي يشعر به، وقال إنه مستاء جداً أن يكون في موضع يخيب فيه آمال الأصدقاء العرب في المحافظة. وهنا قال الشيخ

غسان: «سيادة العقيد، أنت هنا الضابط الأمر، لا نشك في حكمتك، وبالضرورة فأنت صديق لنا».

وهنا تكلم الشيخ (عكار نزال الطويل)، واصفاً بكلمات مسرحية الكيفية التي اعتقلته بها قوات التحالف، وكيف أنه تعرّض للضرب وإلى الرمي خلف الأسلاك الشائكة. كان الشيخ عكار رجلاً نحيفاً وطويلاً، وله لحية رمادية مشدبة. وكان هو العضو العربي الشيعي الوحيد، وهو في منتصف الستينيات من العمر. في الحقيقة كانت أصوله محلّ لغز من نوع ما بالنسبة لنا، كانت والدته تنحدر من كركوك ظاهرياً لكن والده لم يكن كذلك⁽¹⁾. كان يتردد باستمرار على مبنى المحافظة، ولا يترك العقيد مايفيل إلا بقبلتين على الخد بالطريقة العراقية.

وكانت أولى شكواه أن قوات التحالف كانت تقتحم منازل العرب في المحافظة، وتصادر ما تجده من أسلحة يحتفظون بها لحمايتهم الشخصية. وقال إن الآلاف من العرب (حسب ادعائه) ما زالوا معتقلين في قاعدة المطار بكركوك بلا سبب معقول، وهو يطالب الآن بالإفراج عنهم كنوع من بؤادر «حسن النية» من جانب الأميركيين. وكرر الشكوى من أن الأكراد الآن يشغلون كلّ المناصب والمواقع الحساسة، وهم «حتى لا يجيدون العربية»، وإن مراكز الشرطة قد تحوّلت الآن إلى جيش كردي مؤلف من 3000 مسلح.

كان الشيخ يتكلّم وينظر إليّ وأنا أدوّن بعض الملاحظات، وخلال

(1) الشيخ عكار نزال الطويل هو أحد النسابة المشهورين في كركوك، ويعود بنسبه إلى عشيرة بني (جميل)، وهي قبيلة عدنانية عربية مختلطة، فيها من الشيعة والسنة. وبالعادة يحرص شيوخ العشائر المختلطة على عدم إبراز هويتهم الطائفية حفاظاً على تراص انتهاء أبناء القبيلة لهم - المترجم.

الكلام أشار إليّ بالقول: «هذه المس بيل..صاحبتنا»، وعلى الفور أدركت أنه يشير إلى جيرترود بيل التي سبق أن لعبت دوراً مهماً في تاريخ العراق بعد الحرب العالمية الأولى، والتي سبق أن خدمت كسكرتيرة شرقية للسلطات البريطانية في العراق. وخلال الكلام امتدح الشيخ عكار دورها وطريقة البريطانيين في التواصل مع القبائل والعشائر من أجل حفظ النظام، وكيفية استثمارهم في تشييد البنى التحتية بالعراق.

كانت شكاوى السكّان العرب وتذمراتهم تنحصر في قضية غياب العدالة، ردّ العقيد مايفيل بالإيجاب، وبأن كل شيء في المحافظة قد بُني بلا عدالة في الأصل، وقال: «انظروا إلى قصر علي كيمياوي وكيف أنه قصر مبني على جماجم، إن المحافظة تعاني من غياب العدالة منذ ثلاثين عاماً». وشرح العقيد أن من ينشر الخراب والدمار الآن في المحافظة هم فقط، البعثيون السابقون، وأنصار النظام السابق، وبعض المرتزقة، وهؤلاء لا يمارسون دورهم التخريبي بسبب غياب العدالة الآن، إنما لأنهم مُعادون لكل شيء، ويرغبون في تدمير كل مظاهر الحياة. وهم يهاجمون العراقيين مثلما يهاجمون قوات التحالف. لقد استنزف صدام ثروة العراق في الحروب وبناء القصور. لم يكن في العراق أيّ أموال تذكر، والبلد بالكاد يُنتج يومياً نصف مليون برميل وهي لا تكفي لإنارة شوارع بغداد. لم يكن هناك من الأموال ما يكفي لمنح الجميع رواتب ومعاشات.

انتهى اللقاء بأن حيّا الجميع بعضهم بكلمة «في أمان الله»، لكن ليس طويلاً بعد ذلك الاجتماع توقف الشيخ غسان العاصي والشيخ يحيى الحديدي عن الحضور إلى اجتماعات مجلس المحافظة احتجاجاً على ما اعتبروه (هيمنة كردية على كل شيء).

وفي إحدى المرات في مبنى المحافظة، كنّا نجلس أنا والعقيد مايفيل، وقد غرقنا في نقاش حول أهم القضايا الراهنة في حياة المدينة. كنت أستمع إلى العقيد وهو يصوغ تصوّراته عن كيفية منع اندلاع النزاعات في المدينة. وهنا توقفت وقلت له فجأة: «ما تصفه الآن هو حاجة المحافظة إلى وضع خاص بها»، فأجاب: «نعم... بالفعل هذا ما أقصده»، وهنا بدأت بتدوين الأفكار في مذكرة نرسلها إلى سلطة الائتلاف في بغداد للتوصية بوضع خاص للمدينة وللمحافظة عموماً، كانت المذكرة بعنوان (كركوك... تحدّيات تواجه قوات التحالف). وبعد ذلك صادف أن توقف السفير بريمر في كركوك بسبب تأخر رحلته إلى مكان ما، فانتهزنا الفرصة لاصطحابه لمشاهدة المواقع التاريخية في المدينة. وخلال هذا، فقد كان هناك بعض الوقت متاحاً للحديث معه، واكتشفت أن مكتبه لم يعرض عليه المذكرة، فانتهزت الفرصة وسلمته نسخة أخرى. وخلال جلوسه في عربته المصفحة والمكيّفة بانتظار الطائرة المروحية، سلّمته النسخة وأنا أجلس قبالة، كنت متوترة وأنا أراه يُمعن النظر في بعض فقراتها، ويدوّن عليها بعض الملاحظات. ثم التفت إليّ وطلب مني أن أكتب بالتفصيل ما أعنيه بـ(الحالة الخاصة لكركوك)، وما هي متطلبات تنفيذها.

وسارعت إلى كتابة ورقة أخرى قدمتها إلى سلطة الائتلاف في بغداد، وعرضت فيها إمكانية أن تكون (قضية كركوك) هي أبرز عقبة أمام إقرار الدستور. لقد كانت هناك احتمالات حقيقية أن تندلع النزاعات بسبب كركوك، وهذه قد تنتشر في أرجاء أخرى من العراق ولا تقتصر على المحافظة فقط، وعندها سيكون الباب مفتوحاً أمام العوامل الخارجية والأخرى كي تتدخل في الشأن العراقي سلباً. إن طرح مسألة توفير وضع خاص لكركوك قد يساعد في تأجيل البت بوضعها النهائي لخمس سنين

مثلاً، ستكون هذه الفترة كافية لتنمية القيادات المحلية، ولتنفيذ التنمية الاقتصادية وجلب أطراف النزاع إلى عقد تفاهمات طويلة الأمد.

واستلمت استدعاءً لمقابلة السفير بريمر في مقر سلطة الائتلاف. كانت مسألة الذهاب إلى بغداد ليست بالأمر الهين، فالنقل العسكري الجوي يشهد زخماً كبيراً. وتمكن الرائد بيل أوستلاند من إيجاد منفذ لي في الخط الساخن عبر تصنيفي ك (سفيرة)، هذا يعني أن تتوفر لي طائرة مروحية متى ما احتجت إلى وجودها. اكتشفت هذا بعد أن حيّاني الطيار بقوله: «صباح الخير أيتها السفيرة»، بعد أن صعدتُ إلى المروحية ووضعت سماعات الأذن. لم يكن في الطائرة أي راكب غيري، ورددت التحية له بعد أن ضغطت الزر الخاص: «صباح الخير أيها الطيار، كيف حالك اليوم؟». فأجاب بسرعة: «لن يكون أفضل من هذا... مع يوم مجيد آخر في العراق».

هبطنا مقابل القصر الجمهوري في بغداد وتوجهت مباشرة إلى مكتب الاستعلامات. كان هناك عدد من موظفي فريق الحكومة في سلطة الائتلاف، وصادفت السفير جيريمي غرينستوك (Greenstock)، الذي وصل حديثاً إلى العراق باعتباره الممثل الخاص للمملكة المتحدة، وكنت ألتقيه للمرة الأولى. كان غرينستوك يوصف بأنه واحد من أفضل دبلوماسيي عصره، وسبق أن مثل المملكة المتحدة في مقر الأمم المتحدة. وahan موعد المقابلة ودخلنا كلنا إلى مكتب السفير بريمر، كان مكتباً بحجم متوسط. وتتصدره لافتة خشبية كبيرة كتب عليها «للمجاح آباء كثيرون».

وأشار بريمر إليّ ان أجلس إلى اليسار منه، وأن أطرح موضوع الحالة الخاصة بكر كوك. ثم بدأت النقاشات بكل اتجاه بين الحاضرين.

وتحدّث غرينستوك عن الشروط الواجب توفرها لمنطقة ما من أجل أن تحوز على وضع قانوني خاص، وأحد أهم هذه الشروط يعتمد فيما إذا كان السكّان المحليون يدعمون تأسيس مثل هذا الوضع؟. وتمكنت من إقناعهم بأن مثل هذا الدعم موجود في كركوك. من جهة أخرى تم طرح القضية على أنها عملية تدويل لوضع كركوك، وإن هذا الوضع سيجلب لاعبين دوليين آخرين للدخول في ترتيب أوضاعها. كما طرح رأي آخر مفاده بأن الوضع الخاص يمكن أن يمنح فقط في حال وجود أزمة حقيقية، وهذا ما سيوصل رسالة خاطئة عن سير الأوضاع في العراق في الوقت الراهن. وفي النهاية تفوّقت أطروحاتهم المعارضة.

في صالة الاستقبال طلبت كأساً من شرابٍ قوي لإزالة التوتر والإحساس بالمرارة والأسف بعد رفض المقترح، وحين اعتليت الطائرة المروحية وربطت أحزمة الأمان أخبرني الطيار أن الإقلاع سيتأخر، كان وزير الدفاع دونالد رامسفيلد قد وصل توأ وينوي المغادرة على عُجالة، وهو ما سيؤخر إقلاعنا لبعض الوقت. وأخبرت الطيار أن عليّ المغادرة بسرعة إذ كان يتعين حضوري اجتماعاً مع العقيد مايفيل في كركوك فأجاب: «مفهوم سيدتي»، وخلال دقائق كُنّا نحلق في الأجواء ونراقب الوزير رامسفيلد وهو يتوجه إلى طائرته.

ومع مرور الأسابيع، كان التشدد تجاه الوجود العسكري لقوات التحالف يزداد في عموم العراق، خاصة بين أولئك الذين يعتقدون أنهم قد تم استبعادهم عن صورة العراق الجديد. وقد ازدادت معدلات الهجمات تجاه قوات التحالف بصورة ملحوظة. وفي 19 من آب 2003 تمت مهاجمة مقر بعثة الأمم المتحدة في العراق بتفجير ضخم، وقتل في الهجوم ما يقرب من عشرين شخصاً، كان من بينهم السفير سيرجيو

فييرا دي ميلو (De Mello)، الممثل الخاص للأمين العام للأمم المتحدة إلى العراق. وكان التفجير استهدافاً مباشراً للأمم المتحدة وجهودها في العراق. ثم توالى الإدانات التي قدّرت الخسارة بفقدان دي ميلو وحياته التي قضّاها في جهود تحقيق السلام حول العالم ونشر العدالة في كل مكان، ومع هذا فقد انتهت حياته بأكثر صورة متخيلة للعنف. وفي 29 من الشهر نفسه، جرى اغتيال آية الله محمد باقر الحكيم في مدينة النجف بانفجار ضخّم، شهد كذلك مقتل ما يقرب من مئة عراقي. كان محمد باقر الحكيم رجل دين عتيد، ويرأس واحداً من أهم الأحزاب الشيعية السياسية؛ المجلس الأعلى الإسلامي، وهو شقيق عضو مجلس الحكم عبد العزيز الحكيم. وبالرغم من أن مجلس الحكم لم يقدم الشيء الذي يستحق الذكر من أجل إصلاح الأوضاع، فقد كان يُتهم بأنه أصبح لعبة بيد الاحتلال، ويهيمن عليه الإسلاميون والقادمون من المنافي، وهؤلاء مرتبطون بالولايات المتحدة وإيران في وقت واحد.

وبالرغم من عدم امتلاك هؤلاء الأعضاء لقاعدة جماهيرية حقيقية، فقد كانوا يرغبون بفرض هيمنة أحزابهم على مفاصل الدولة. ثم عملوا على دفع سلطة الائتلاف لتنفيذ سياسة اجتثاث البعث كي يتخلصوا من أولئك الذين ساندوا النظام السابق، ويتأكدوا من عدم عودتهم إلى الحياة العامة مرة ثانية. وصدر الأمر رقم (1) عن سلطة الائتلاف في 16 أيار 2003، الذي شدد على منع من كانوا يشغلون المواقع القيادية الأربعة المتقدمة⁽¹⁾ في حزب البعث من مزاولة وظائفهم في الخدمة الحكومية، ومنعهم مستقبلاً من تولّي أية وظيفة حكومية أيضاً.

(1) المقصود بها هي الدرجات الحزبية البعثية التالية: أعضاء الفرق، وأعضاء الشُعَب، وأعضاء الفروع، وأعضاء المكاتب في حزب البعث السابق. - المترجم.

ويبدو أن من صمم هذا القرار في واشنطن، كان قد استلهم التجربة الألمانية في اجتثاث النازية بعد الحرب العالمية الثانية. ثم سلّمت سلطة الائتلاف مهمة اجتثاث البعث لهيئة عراقية يرأسها أحمد الجلبي. وهو من قام بدوره بتسييس عملية التنفيذ، حيث منح أعضاء حزب البعث من الشيعة استثناءاتٍ بينما طبّق المعايير كلها على الأعضاء السنّة. والنتيجة أن عدداً أكبر من العراقيين تأثر بهذه السياسة أكثر مما كانت تعنيه بالأصل سلطة الائتلاف في قرارها الأول. كما أنتجت هذه السياسة مزيداً من النفور السنّي من العراق الجديد، وملاًهم الشعور بأنه يجري تحميلهم المسؤولية الجماعية عن جرائم صدام، لأن صداماً كان سنياً في النهاية.

وفي أحد صباحات أيلول من عام 2003، زارني في مكثبي الشيخ وصفي العاصي، عضو مجلس المحافظة، وقد كان يحمل شكوى تتضمن الاعتراض على إبعاد 54 معلماً من بلدته الحويجة (جنوب غرب كركوك) تحت طائلة شمولهم باجتثاث البعث. كان الشيخ وصفي يدير مكتباً في مجلس المحافظة وقد تعوّد أن يستلم الشكاوى من الناس في مكتبه. لكنني أوضحت له أن عملية اجتثاث البعث لم تعد بيد سلطة الائتلاف أو قوات التحالف، إنما يجري إدارتها من قبل هيئة عراقية يرأسها أحمد الجلبي، وما كان منه إلا أن نظر إليّ وملؤه الريبة والشك، ثم قال: «لو تمكنت المقاومة المسلحة الحالية من دفع الأميركيين خارج أراضينا فإنني ومعني كل عائلتي سألتحق بهم».

في الواقع كان يشير إلى أنّ هذه القرارات إنما توفر ملتحقين جُدداً مستعدين لحمل السلاح بالضد من قوات التحالف. لكنه يعتقد في قرارة نفسه أن أيّ مواجهة عسكرية مع قوات التحالف كانت ستطيل فترة بقائهم. كنت أشعر بأن ليس في يدي حيلة. لقد أرسلت التقارير الواحد تلو الآخر

إلى بغداد أشير إلى سوء تنفيذ عملية اجتثاث البعث في المحافظة. لم يكن واضحاً لدى سلطة الائتلاف مدى التأثير الكارثي الذي أنتجه هذا القرار، كما لم يتضح لديهم أن هناك عوائل باتت بلا معيل وما عادت تستلم أيّ رواتب. لقد كان اجتثاث البعث موضوعاً إشكالياً تماماً في اللحظة التي تسبب فيها بزيادة التوتر بين العرب والكرد في كركوك.

لقد تحول التنفيذ إلى عملية إيقاع واصطياد بدلاً من أن يسهم في تحقيق العدالة التي كانت مفقودة في السابق. وكان من الضروري إزاحة البعثيين الذين ارتكبوا جرائم ضد الإنسانية، لكننا كنّا بحاجة أيضاً إلى وسائل وآليات للمصالحة. ولو أحصينا العدد الكبير لهؤلاء الذين باتوا بلا مورد وقد لفظتهم الوظائف الحكومية، فإننا سننظر بيسر كبير إلى الأسباب الواضحة لترجيح ازدياد التوتر.

كنت أتشاطر هذه الآراء مع العقيد مايفيل، وبشكل خاص فيما يتعلق بتوفير التعليم للأطفال. ثم عدت لأتفحص نصوص معاهدة جنيف الرابعة، ووجدت فيها تأكيداً على أن قوات الاحتلال يجب أن تتأكد من توفير التعليم للأطفال، كما تمنع المعاهدة قوات الاحتلال من مطاردة الأشخاص وتعقيبهم قانونياً بسبب انتمائهم الفكري في ظل النظام السابق. وفهم الجنرال أوديرنو بأن اجتثاث البعث لو طبق بهذه الطريقة في المناطق التي تقع تحت سيطرته، فسيكون هناك مستشفيات بلا أطباء، ومدارس بلا مدرّسين، وسيحدث أن الناس سيتدمرون وقد يتمردون. لذلك، وبدون الرجوع إلى مراجعه، منح الجنرال العفو عن كل الفئات الأربع التي اشتملها الاجتثاث في المحافظات الثلاث التي تقع في مسؤولية قواته. وقوبلت هذه الخطوة بارتياح كبير، وسرعان ما استقبلها السكّان العرب بصورة جيدة.

شهدت كركوك زيارات متعددة في تلك الأيام للمسؤولين الأميركيين، عسكريين أو مدنيين. بينما كان المسؤولون البريطانيون يفضلون زيارة بغداد أو البصرة حيث تتمركز القوات البريطانية.

وفي منتصف الصيف، وصل الجنرال سانشيز (Sanchez)⁽¹⁾ إلى كركوك. سانشيز كان القائد الأعلى لقوات التحالف المتواجدة في العراق، وهو المسؤول الأعلى للجنرال أوديرنو.

وحين وصل الجنرال سانشيز، قدنا السيارة أنا والعقيد مايفيل على المدرج للترحيب به عند سلّم الطائرة. واصطحبناه إلى مقر قيادة الشرطة في كركوك لنطلعه على التطور الذي شهدته عملية إعادة جهاز الشرطة المحليّة إلى العمل. وهنا فجأة التفت إليّ يسألني عن مقدار الأموال التي استثمرتها سلطة الائتلاف في المحافظة. في الحقيقة لم يكن عندي جواب حاضر، ونظرت إلى العقيد مايفيل لعله ينجدني لكن لم يكن هو الآخر لديه أرقام محددة جاهزة. أجبت الجنرال سانشيز بأنني لا أتوافر على معلومات تفصيلية الآن، لكنني سأزوده بمجرد عن المشاريع بصورة عاجلة. لقد كنت أدوّن تفاصيل المشاريع في أجندة كنت قد تركتها في سيارة أخرى. في الحقيقة كانت هناك الملايين تصرف بصورة سريعة، وكانت العملة العراقية تصلنا على شكل رزم هائلة محمولة على مصاطب خشبية. كان الأمر يبدو وكأننا كلما نفدت من عندنا الأموال، كان هناك من يعيد ضحّها. إلى أن حلّ الوقت الذي لم نجد فيه السيولة المالية المطلوبة.

(1) اللوتانينت جنرال ريكاردو سانشيز (1953 - الآن) (فريق ركن)، قاد قوات التحالف في العراق بين حزيران 2003 وحزيران 2004، وبعدها عاد إلى القواعد الأميركية في ألمانيا. حجب الكونغرس عنه الترقية إلى جنرال بأربع نجوم على أثر فضيحة سجن أبي غريب التي حدثت في عهده. وفي عام 2012 انتخب سنا تورا في كونغرس ولاية تكساس.

ثم اصططحبنا الجنرال سانشيز في جولة بالسيارة، لقد كان مسروراً أن يرى المحال التجارية والأسواق مفتوحة وتعجّ بالبضائع. ثم بدأت أوجز للجنرال قضايا كركوك الأساسية؛ مشكلة التعريب والحاجة إلى استراتيجية دقيقة لعلاج مشكلة المرحّلين من أجل حفظ الأمن والاستقرار. ثم التفت وسألني: «كيف هو الحال مع الفساد؟». في الحقيقة لم تعجبني تلميحاته إلى أن الكركوكيين ومن يعمل معهم من الشركات هم أناس فاسدون. فأجبت: «سيدي، الجنود الأميركيون ليسوا سيئين لهذه الدرجة!». ثم سادت فترة من الصمت القاتل، ربما استمرت لعشر دقائق. ثم التفت أحد الجنرالات وقال للجنرال سانشيز: «سيدي أظنّها كانت تمزح!»، وأجابه سانشيز بابتسامة لكنه بقي مُكشراً في وجهي. والتزمت الصمت، لم يكن ممكناً لذلك اليوم أن يمضي بأسوأ من هكذا أحداث.

كان سانشيز يريد أن يطلع على أهم المشاريع الرئيسة التي تحتاج إلى تمويل في المحافظة. أطلعناه على مشروع المطار، ومنظومة مياه المجاري، ومشروع محطة الطاقة في (ملا عبدالله)، كما أطلعناه على المشاريع المتعلقة بالتربية وبناء المدارس، ومشاريع مراكز الرعاية الصحيّة، ومبنى الحكومة المحلية، بالإضافة إلى معمل الإسمنت. كنت راغبة بأن أشرح له شيئاً عن النزاعات الداخلية وطرق حلّها، لكن كل ما كان الجنرال يرغب بسماعه انحصر في المشاريع وكيفية إنفاق الأموال. ثم تكلم الجنرال بتفصيل عن التحدّيات التي تواجه قوات التحالف وفقاً لأماكن تواجدّها. ثم تحدث عن الظروف الواجب تهيئتها من أجل أن يصبح الانسحاب الأميركي مُمكناً من العراق. لقد تركنا حائرين بخصوص زيارته، فهل كان يُخطط لسحب اللواء القتالي من كركوك؟ أم إنه يخطط لسحب وحدات بعينها؟.

لقد كان سانشيز شخصاً يصعب قراءة أفكاره، لكننا خرجنا بانطباع وحيد عنه، لقد كان شخصاً لا يتمتع بأي روح للدعابة.

وبعد تلك الزيارة بمدة قليلة، زارنا السفير بريمر ووزير الخارجية كولن باول، في وقفة لتغيير الطائرات في طريقهم إلى حلبجة وفي العودة منها أيضاً.

ودار بيننا الحوار التالي:

- «شكراً إيما، جميل منك أن تخرجني إلى هنا للقائنا».

- «لا مشكلة سيدي، هذا واجبي».

- «كان بإمكانك أن ترسلي مسؤول المراسم فقط ولا تتجشمي عناء الحضور».

هنا ابتسمت وهمستُ لنفسِي سرّاً، «تري ما هي توقعات السفير بريمر عن حجم الطاقم المتوفر لدي؟».

أمّا كولن باول، فقد كان لديه حضور طاغ ويُشعر الآخرين بالدفء، كان يتبادل بضع كلمات مع العقيد مايفيل ويتكلمان عن الإنزال الذي نفّذه العقيد شمال العراق، وقراره العاصف بسرعة الإنزال والانتقال إلى خطّ التماس مع القوات العراقية، كان كولن باول يُتابع كل تلك الأحداث من الولايات المتحدة.

ثم استدار كولن باول نحوي وقال: «إذن أنت الفتاة البريطانية التي سمعت عنها كثيراً، والتي تسكن مع 3500 مظلي أميركي في قاعدة عسكرية، كيف أمكنك أن تتعاملي مع هؤلاء؟». قال ذلك وهو يصافحني ثم قبّلني على وجنتي. وأجبتُه بضحكة كبيرة. لقد أعادني تعليق كولن باول بالذاكرة إلى الوقت الذي كنت فيه الفتاة الوحيدة في مدرسة كبيرة

للفتيان، إن الوضع مشابه نوعاً ما، الفرق الوحيد هو أن هؤلاء الجنود الأميركيين يبدون أكثر تحضراً بكثير من أولئك الصبيان البريطانيون.

وبعد أن انقضت الشهور الثلاثة لي في كركوك، وصلتني رسالة إلكترونية من المركز الثقافي البريطاني يطلب مني فيها العودة إلى العمل. فأجبتهم بأنني لا يمكن لي مغادرة كركوك الآن؛ لدي التزامات وواجبات مهمة جداً، وفي هذا الوقت الحرج من وضع المدينة، ليس هناك من يحل محلي في مكاني هذا. لكنهم طلبوا مني الكف عن المبالغة وأن أعود إلى العمل معهم بالسرعة الممكنة، واستجابة لطلبهم، فقد قدمت تقريراً عن عملي في كركوك للمجلة الفصلية الداخلية للمركز الثقافي. لكن تقرير رُفض، على مبدأ أنه يكشف ويثبت لأعضاء المركز أن واحداً من أعضائه إنما اشترك بالفعل في عملية احتلال العراق، وهذا ما سيخرج به التقرير ويثبتته. لقد اعترضوا بأنهم إنما ساعدوني على ترشيحي للعمل في الجانب المدني وإعانة المجتمع المدني وليس لأكون «إدارية استعمارية». كنت في الحقيقة منزعة جداً من طبيعة الاستجابة التي أبداها المجلس الثقافي البريطاني.

لقد كنت أعمل ليل نهار، مستخدمة كل المهارات التي تعلمتها، وأوفر كل الشروط والمبادئ التي كان المجلس الثقافي البريطاني حريصاً عليها، لكنني وجدتهم في النهاية غير مهتمين بالمرّة بهذا العمل. ثم بعد ذلك عدت في رحلة سريعة إلى بريطانيا لأقدم التماساً بتمديد عملي وتنسيبي إلى العراق وأعرض عليهم الأسباب، وفي النهاية أذعنوا لأسبابي.

كنت سعيدة جداً بالعودة للعمل في العراق، لقد كنت في حالة من القلق الشديد على الملفات التي بدأت بالفعل في تنفيذها وتركتها خلفي

في كركوك لأسبوع خلال سفري. وخلال عودتي جلبت معي حزمة من الملابس التي تناسب العمل في كركوك، حيث إنني لم أتوافر إلا على ملابس صيفية، وأعطيت الحزمة إلى (حسين كارا) كي يذهب بها إلى مصبغة للغسيل وجدها تعمل في مدينة كركوك، وهي تقوم بعملها بأفضل مما تفعل وحدة الغسيل وكَيّ الملابس التابعة للجيش في القاعدة العسكرية. (حسين كارا) كان كردياً مولوداً في تركيا ويحمل الجنسية الأمريكية، وكان من أخلص الناس الذين صادف أن التقيتهم في حياتي.

وبعد أيام قلائل عاد لي وهو يبدو متوتراً جداً، وقال إن المصبغة التي تغسل ملابسني قد تحطمت في تفجير ما، ولم يكن ممكناً استعادة أي قطعة ملابس لي. لكن حسين ذهب إلى المتجر التابع للقاعدة العسكرية واشترى لي قميصاً (تي شيرت) بني اللون وبنطالاً مرقطاً وملابس داخلية ناعمة وزوجاً من الأحذية العسكرية، ووجد لي أيضاً سترة عسكرية مطرزة بشعار اللواء 173، لقد أصبحت حتى خزانة ملابسني عسكرية بالكامل هذه المرة.

وذات مرّة اصطحبني حسين إلى مطعم في المدينة لتناول طعام الغداء، وبعدها ذهبنا في جولة في الأسواق. لقد كان جميلاً جداً أن أخرج من القفص الذي أرى العراق من خلال قضبانه، وأتففس رائحة الخضروات والقهوة والأزقة مرّة أخرى. ها أنا أعود إلى التواصل مع أجواء الشرق الأوسط بكل الألوان الزاهية والناس البسطاء الذين كانت تعجّ بهم أسواق كركوك. ثم دخلنا إلى متجرٍ للملابس وجلسنا نشرب الشاي (أيضاً في كؤوس صغيرة وفيها الكثير من السكر) ونسأل صاحب المتجر عن عمله وكيف أن الأوضاع الآن تختلف عما كانت عليه في عهد صدام. كنت أرغب بمعرفة وجهة نظر الناس عن الحكومة المحليّة

وعن مجلس المحافظة، وكيف ينظرون إلى الاحتلال. بعد ذلك سرنا أنا وحسين لأميال عديدة واستكشفنا أجزاء أخرى من المدينة. كنت سعيدة جداً وأنا أتمشى في جزء قديم جداً منها، أستكشف الحوارية والأزقة وأنظر إلى المنازل القديمة فيها. كان ذلك الجزء مأهولاً بالتركماني، ويعود تاريخهم فيه إلى قرون طويلة سابقة. كانت تلك المناسبة هي الأولى في عدة مناسبات انتهزناها أنا وحسين كي نهرب من المحيط العسكري ونتجول في المدينة.

وفي أحد صباحات تشرين الأول، زارني في مكثبي كل من (تحسين علي) و(عباس البياتي). كان عباس البياتي من زوّاري الدائمين وكثيراً ما قدّم ملاحظات مهمة حول تحقيق ما يسميه بـ«التوازن» في كركوك. وكان شيعياً تركمانياً ورئيساً للاتحاد الإسلامي التركماني. أما تحسين فقد كان رئيساً لمجلس كركوك وجزءاً من هذا الحزب. حدثني عباس أن الأمر قد يستغرق عقوداً قبل أن نشهد تأسيساً للأحزاب على أساس غير عرقي أو غير إثني، فالعراق يعاني -حسب وصفه- من نقص في الهوية الوطنية. وكان يحدثني وهو يبتسم دائماً، بأن أصل المشكلة قد نشأت من الطريقة التي أنشأ بها البريطانيون الدولة الحديثة في العراق حين فضلوا التعامل مع طرف دون آخر، أي العراقيين السنة. ثم اقترح أن تكون كركوك معملاً مختبرياً لإنشاء مشروعٍ عابرٍ للطائفية والإثنية. لكنهما في لقائهما ذلك جلسا وقد اعتلت وجهيهما نظرة حيرة وشك. سألتهما: «شلونكم؟، شكو ماكو؟».

قالا إن خطأ فظيلاً قد حصل، وإن أحد أعضاء حزبهم قد اعتقل من قبل قوات التحالف وهو الآن في معتقل القاعدة العسكرية. كان اسمه (هاشم جعفر)، وهو يحمل الجنسية الألمانية، وهو مسؤول حزبهم في أوروبا،

وقد قارع النظام السابق لفترة طويلة كمعارض. حينها وعدتهم بأن أبذل ما بوسعي لكشف الأمور، وذهبت إلى المقر العسكري لأجمع المعلومات. قيل لي إن هاشم جعفر ومعه 8 من مرافقيه، كانوا يحفرون مواضع دفاعية في بلدة الطوز، وإن القوات الأميركية جرى مهاجمتها وإصابة أحد أفرادها من قبل تلك المواضع الدفاعية.

ثم حدث والتقيت تحسين بعد أيام قلائل، حيث كانت القوة الجوية تقدم عرضاً مسرحياً في صالة الرياضة التي جرى تحويلها مؤقتاً إلى مسرح، وكانت المقاعد الأمامية قد خصصت لنا ولأعضاء مجلس المحافظة باعتبارنا ضيوف شرف. كان هذا النشاط مناسبة استثنائية نادرة، فلم يسبق لي أن شهدت نشاطاً ترفيهياً مثله خلال الشهور الأربعة التي قضيتها في القاعدة. وبدأت الحفلة، وظهر على المسرح الراقصون، وكانوا من منتسبي ومنتسبات القوة الجوية الذين يسعون إلى ترفيه الحضور عبر هذا العرض. كان الراقصون يرتدون بناطيل ضيقة والراقصات في تنورات قصيرة، وحين يستعرضن أمام الحضور ويرقصن فإنهن يرفعن أرجلهن إلى الأعلى كجزء من الرقصة حيث تبدو ملابسهن الداخلية وأرجلهن عارية تماماً، ثم يقفزن ليعانقن خصور شركائهم الذكور في الرقصة. بالنسبة للجمهور الغربي فإن محتوى الإثارة في هذا العرض كان محتوى معتدلاً، أما بالنسبة للجمهور في الشرق الأوسط فإن هذا العرض هو عرض إباحي من الدرجة الأولى. التفت إلى أعضاء المجلس فرأيت تحسين وقد طأطأ رأسه ليمتنع عن رؤية المشهد، ثم بعد قليل نهض كل الأعضاء وغادروا ومعهم تحسين، وأنا غادرت على أثرهم. وفي الخارج وفي الهواء البارد وقفت معهم، حيث أشعل بعضهم السكائر، في الحقيقة كنت مُحرجة جداً بسبب ما حدث. قال أحدهم: «إن هذه ليست ثقافتنا»، فأجبت: «وهي ليست ثقافتني أيضاً»، وسمعت

أحدهم يقول: «شكراً لدعوتنا من قبل قوات التحالف، لكن رجاءً لا تدعونا مرّة ثانية».

وكتعبير عن الاحترام لعباس البياتي وتحسين علي، وكنوع من المجاملة لحلول شهر رمضان، فقد وجّه العقيد مايفيل بإطلاق سراح هاشم جعفر ورفاقه، وكلّفني بالإشراف على إتمام هذه المهمة. لذلك قادت السيارة باتجاه مكان الاعتقال الواقع في حافة المعسكر في آخر المطار، ولم يسبق لي أن ذهبت إلى تلك النقاط من قبل. كنت بحاجة إلى من يدلّني، ومررت بمبنى هناك محاط بالأسلاك الشائكة. وكان هناك رجل يرتدي بدلة برتقالية من بدلات المعتقلين. فوقفت وترجّلت من السيارة واقتربت من السياج لأنادي إن كان أحد يدعى هاشم جعفر هناك؟. وردّ عليّ أحد الأصوات واقترب أحد الرجال من الأسلاك الشائكة. وعرفتهم بنفسي وقلت له إن تحسين علي وعباس البياتي قد سهلاً أمر إطلاق سراحه هو ومن معه. ثم تم إخراجهم من الاعتقال وجيء بهم إلى غرفة أخرى حيث وقّعا على أوراق تتعلق بأغراضهم واستلام سياراتهم. وقف هاشم جعفر أمامي وهو يرتدي (دشداشة) متسخة، وسألني بغضب عن سبب اعتقاله. كان يصف بمرارة الإذلال الذي تعرّض له، وأفهمته بأنه وجد وهو يحفر ما يبدو على أنه مواضع قتالية، فسألني: «هل تبدو لك كمجموعة إرهابية؟». نظرت إليه وإلى أصحابه، كانوا يرتدون أسمالاً وخرقاً بالية. «هل يقود الإرهابيون سيارات بي أم دبليو؟»، صرخ وهو يشير إلى سيارته المركونة قرب المبنى. لم أعرف كيف أجيبه، أنا لا أعرف بالأصل كيف يبدو شكل الإرهابيين، وقرأت الأسماء في الورقة ووقعت عيني على اسم منهم كان (صدام حسين)، وقلت له: «لقد تصوّرنا أننا نقبض على صدام حسين». وهنا سادت لحظة صمت انفجر بعدها الجميع بالضحك، ثم

أشاروا إلى شاب من بينهم له عين معطوبة وفي أوائل العشرينيات من العمر، وقالوا: «هذا هو صدام حسين!».

وبعد يومين زارني كل من عباس وتحسين في مكنتي بمبنى الحكومة المحلية، ومعهم هذه المرأة هاشم جعفر، كان يرتدي بدلة أنيقة وربطة عنق مزركشة بالأصفر والأزرق، كررت عليه مرة أخرى اعتذاري عما لحق به أثناء الاعتقال. لكن هاشماً أخبرني بأنه كان يحمل آمنيات كبيرة للعراق الجديد، وأنه قد قطع هذا الطريق من هولندا إلى العراق من أجل الاستثمار في كركوك، كل هذه الآمال الآن قد انزاحت وتبخرت، وكل ما يريده الآن هو العودة إلى عائلته في أوروبا مجدداً.

كان اسم (عبد الفتاح الموسوي) يتردد كثيراً في كركوك. كان هناك الكثير من الكلام عن جلساته في جامع الحسيني، وعن منشوراته الدعوية، وعن أناس طلبهم للمثول أمام محكمته الإسلامية التي شكلها هناك. كنت أعرف القليل عن عبد الفتاح الموسوي، ليس أكثر من كونه شاباً عربياً شيعياً قادماً من النجف، وهو من أتباع رجل الدين الحماسي مقتدى الصدر. وأنه قد وصل حديثاً جداً بعد الحرب إلى كركوك. وفي تشكّل مجلس الحكم، جرى استثناء مقتدى الصدر، وهو الأمر الذي يخشى معه أن يدفع بأتباعه (ومعظمهم من الفقراء والطبقة المسحوقة من الشيعة) إلى التدمير ورفض الوجود الأميركي. لقد كان مصمماً على مناهضة ما يراه على أنه تحالف مشين بين القوميين الأكراد والإسلاميين الشيعة في تراصفهم مع قوات التحالف. لقد كانت الاتهامات توجه إلى مقتدى الصدر بوقوفه خلف مقتل عبد المجيد الخوئي في النجف في نيسان 2003، عبد المجيد كان ابناً لأحد أهم القيادات الدينية في العالم الشيعي، وجاء مقتله بعد أسبوع من عودته إلى العراق بعد أن قضى عقوداً في المنفى.

وفي تشرين الأول من عام 2003، اتفقنا أنا والعقيد مايفيل على أن الوقت قد حان من أجل زيارة عبد الفتاح الموسوي في مسجد الحسيني، ووافق الشيخ عكار الذي كان يتردد على المسجد أن يصحبنا إلى هناك. وجلب لي عباءة نسائية تعود لابنته كي أرديها وقال إنها هدية لي. ثم استقلينا السيارة ولففت نفسي بالعباءة وسط دهشة الجميع وركب معنا الشيخ عكار، الذي قال: «أنت الآن بمقام ابنتي»، كانت تلك المرة الوحيدة التي أخفيت نفسي فيها بكركوك.

وعلى حائط المسجد كانت هناك قصاصات ورقية معلقة كتب عليها: «لا تدعوا قوات الاحتلال تكتب لكم دستوركم، أو تعيّن مجلساً يكتب الدستور، نحن مع الدستور، لكن مع الدستور الذي يمثلنا وليس الذي تكتبه قوات الاحتلال».

ثم دخلنا عبر بوابة المسجد، وخلعنا أحذيتنا ودخلنا إلى غرفة يكون الجلوس فيها على الأرض، وجلسنا قرب عبد الفتاح الموسوي.

ظهر لنا الموسوي منفتحاً ومسترخياً جداً، لقد كانت هيئته تدل على أنه في العشرينيات من العمر، وقال: «إنني أبذل كل الجهود الممكنة من أجل الحفاظ على الاستقرار في المدينة»... أنا بإمكانني حفظ الأمن، ما أقوله سيستمع له الكثيرون، لكن الأميركيين وهم القوة العظمى، يبدو أنهم يفضلون الكرد علينا نحن العرب والتركمان. إن العرب والتركمان يعيشون سوية في تناغم على الأرض، لكن الكرد يستحوذون على كل شيء، انظري إلى محافظ المدينة وهو كردي، ومدير الشرطة وهو كردي، الكرد يهددون مساكن العرب ويكتبون على الجدران كلمة (محجوز للأكراد) أو (للبيع) وذلك على جدران مساكن العرب».

فأجابه العقيد مايفيل بأن هناك الكثير من غير الأكراد في الحكومة

المحلية، وإن التوازن في التمثيل الإثني في كركوك هو أكثر بكثير مما يظنه الناس. لكنه اعترف بأن هناك نوعاً من عدم التوازن في قوات الشرطة، وأن قوات التحالف كانت تفحص سجلات الرواتب وفي طريقها إلى إصلاح هذا الأمر. ثم قال الموسوي إنه يرى الأعلام الكردية والأسماء الكردية واللافتات الكردية أينما يذهب في دوائر الدولة والشرطة، ومن جانبه أكد العقيد مايفيل أن قوات التحالف ملتزمة بتحقيق التوازن بين جميع المكونات في المدينة، وسوف تمضي فيه.

وأهل الموسوي العقيد حتى ينتهي من كلامه وقال إن كركوك عانت من الظلم لأكثر من ثلاثة عقود. وإن مستوى الأمن اليوم هو تحت الصفر بوجود أعداد كبيرة من الأكراد يأتون من السليمانية وأربيل. وإن كل شخص يخشى أن يلقي حتفه في أي لحظة، حتى إن البعض صار يتمنى عودة نظام صدام بسبب المستوى المتدني للأمن في المدينة. لكن وفقاً للتعاليم الإسلامية، فلا يجوز تفضيل فئة على أخرى، ثم قال: «إننا نحب جميع خلق الله بالتساوي وبلا تمييز».

استمر اللقاء إلى ما يقرب الساعة أو أكثر، ورأينا أنه كان لقاءً مثمراً، لقد دخلنا إلى المسجد وجلسنا فيه واستمعنا إلى آراء بعضنا البعض، وتوصلنا إلى فهم معقول للآخر. وخلال الأسابيع التالية، استلمنا أوامر لاعتقال الصدرين، وكنا نستثني عبد الفتاح الموسوي، كنا نرى بأن الحوار معه دائماً أفضل من المتاحات الأخرى.

وفي الحقيقة لم يحدث أن التقينا الموسوي مرة أخرى، لكن بعد ذلك بأسابيع حضر إلى مكثبي شخص اسمه (مظفر ياس) وقدم نفسه على أنه رسول من الموسوي، إذ لم يعد بإمكانه لقاءنا مجدداً. فبعد لقائنا الوحيد به، وصل الخبر إلى النجف، المدينة الشيعية المقدسة في

الجنوب، وصار هناك ما يمنع الموسوي من التواصل معنا مباشرة، لأن التواصل مع الاحتلال أمر غير مقبول هناك، ولذلك فهو سيتواصل معي فقط عن طريق مظفر ياس، وهو سيكون الوسيط بيننا.

تكلم مظفر بمديح عالٍ عن عبد الفتاح الموسوي، وقال إن محمد صادق الصدر (والد مقتدى) تمكن من خلق جيل من رجال الدين الشباب الشجعان الذين وقفوا بوجه طغيان نظام صدام. وقبل استشهاده تمكن الصدر من تجميع الأتباع حوله من المهمشين والفقراء وأبناء القبائل والريف المعدمين. وشرح ياس كيف أن قادة الشيعة لم ينادوا بالجهاد بوجه نظام صدام حيث لم يرغبوا برؤية أتباعهم وهم يذبحون على يديه من أجل لا شيء. وحيث إن الدم العراقي هو المكوّن الأثمن في العراق، وصف ياس مقتدى الصدر بأنه رجل شجاع. وأن جيش المهدي (المليشيا التابعة له) هم مجموعة من الرجال القادرين، والذين يمتلكون النية والقوة لإدارة المدينة. وقال: «إنهم غير متورطين في القتل أو القتال».

كان مظفر عربياً شيعياً، ومتعلماً بصورة جيدة وقارئاً جيداً، ويتكلم الإنكليزية بمستوى جيّد بالرغم من أنه لم يسبق له أن زار الغرب. كانت أصوله من بغداد، لكن عائلته انتقلت للمعيشة في كركوك حيث إن السكن هنا كان أقلّ كلفة. كان والده معلماً فقيراً، أما هو فقد درس في جامعة بغداد ويعمل حالياً كمبرمج للحاسبات. كان مظفر قد التحق بالجيش العراقي كمجنّد لغاية الحرب، وبعدها ظلّ الكثيرون أن العراق سيكون مكاناً غاية في الروعة (وفقاً لما شرحه كوجهة نظر يتبناها)، لكنهم تفاجؤوا بأن يروا المُقامرة والأفلام الإباحية تباع بشكل علني في الشارع العراقي.

عاد إلينا مظفر بعد أسبوع ببعض الأسئلة الموجهة لنا من عبد الفتاح

الموسوي؛ كم على المرء أن يعيش في كركوك ليعتبر من سكانها؟. وقال إن الناس الذين انتقلوا للمعيشة في كركوك، فعلوا ذلك لأنهم كانوا فقراء بالأصل، وليس لأنهم يظنون أن كل أراضي العراق تعود إلى العرب حصراً. أجبته بأن الحال في إنكلترا يترك الحرية للشخص أن يسكن أينما أراد دون أن يؤثر ذلك على مواطنته، لكن الأمر في الشرق الأوسط يختلف، فالشخص يعد (وافداً جديداً) إن لم يكن يمتلك جذوراً عائلية تمتد لقرن من الزمان في المكان نفسه. وفي مناسبة أخرى حمل لي سؤالاً من الموسوي يسأل فيه عن وجهة نظرنا إلى البعثيين وكيف نقيّمهم؟. كان سؤالاً مهماً، وأجبته بأنني لاحظت في كثير من أنحاء الشرق الأوسط أن هناك تماهياً بين الإدارة المدنية والحزب الحاكم الذي في السلطة، وفي كثير من الأحيان يصعب العزل والفصل بينهما. لكننا لا ننظر بنوع من العدائية إلى من وجد نفسه مقيداً ضمن النظام المهيمن، أما أولئك الذين ارتكبوا جرائم باسم البعث فلا يمكن فأمرهم مختلف. وبدا لي مظفر وهو سعيد أن يسمع مني هذا الجواب.

وقد زارني الدكتور إسماعيل عبودي ليطلعني على البطالة في المحافظة، كان الدكتور هو المسؤول عن التعيينات الحكومية في المدينة. لقد سمعت عنه قبل أن ألتقيه كثيراً، وكان مجلس المحافظة يرغب بإقالته لأنه تطاول على أعضاء المجلس، لقد كان عربياً شيعياً متديناً، وقد اقترح عدد من الضباط الأميركيين أنه يجب أن يعتقل. اشتكى إسماعيل من أن الأكراد يرسلون المئات من المعلمين إلى مدارس المحافظة بينما كركوك تعج بالمئات من المعلمين بلا وظائف. وقد وجه تحذيراً لي بأنني إن لم أحلّ هذه المشكلة، فإنه سيقود العاطلين عن العمل والبالغ عددهم 35 ألفاً في المدينة في

تظاهرة ضدي، قال جملته الأخيرة وخرج من مكتبي، في الحقيقة لم يبذل أيّ جهد كي يكون ودياً في النقاش أبداً.

وبالرغم من العدائية التي ظهر عليها في لقائنا الأول، فقد دعوته إلى لقاء ثانٍ لتناقش. وأوضحت له الجهود التي نبذلها في سبيل توفير منافذ توظيف عادلة، وعن المناقشات مع بغداد بشأن اللامركزية. وتناقشت معه في السبل التي يظنّ فيها أحسن الوسائل لإدارة مكتب التوظيف، لقد بينت له أن أفضل المنافذ للإصلاح هي عملية ربط التدريب بالاحتياجات الفعلية وكيفية جذب طالبي الأعمال. لقد كان إسماعيل يخرج من عندي ممتلئاً بالأفكار دائماً. لقد تناقش إسماعيل معي في الأخطاء التي ارتكبتها قوات التحالف، وقال إن هذه القوات لم تحاول أن تنفذ وعودها للمواطنين. الناس لم تلاحظ أيّ تحسن في منظومة الكهرباء أو مياه الشرب، وهذا ما جعلهم يتعاطفون مع كل صاروخ يسقط على معسكرات التحالف. وقال إسماعيل إن استمرار الحال على هذا المنوال، فسيفقد التحالف تعاطف الشارع، وأنه يعمل لوجه الله ولإرضاء نفسه. كان يجد العمل مع الاحتلال أمراً صعباً، خاصة مع أناس مخالفين له في الدين. قبل الحرب، كل ما كان يعرفه الناس عن الولايات المتحدة أنها الشيطان الأكبر. كان (الباج) الذي يحمله يشير إلى أنه موظف مدني، وهذا يحمل العلم الأميركي فيه، كان هذا يعني للعامة أنه (عميل) للمحتلين، وهذا أمر صعب عليه حقاً.

أخبرته بأنني أيضاً لا أحب حمل العلم الأميركي في الباج التعريفي، وأخبرته كيف أن عملي كان يتركز في محاربة الفقر في العالم العربي والإسلامي قبل أن آتي إلى العراق. لكن عملي الحالي يحتم عليّ التعاون مع الأميركيين، وقد سبق لي أن جبت العالم والتقيت بأناس

من مختلف الأمم ووجدت أن الإنسان في الأساس والاحتياجات هو واحد لا يتغير كثيراً. وفي كل مكان أرى الناس وهم يكافحون من أجل لقمة عيشهم، وهم هنا يستحقون المساعدة لأجل كفاحهم هذا. وافقني إسماعيل واقتبس من كلام للإمام علي بالقول: «الناس إما نظير لك في الخلق أو أخ لك في الدين».

وفي إحدى أمسيات تشرين الأول، تساءلنا أنا والعقيد مايفيل عما حل بمتحف كركوك، لقد كان كل ما تبقى منه هو مجموعة من الإطارات والعارضات المحطمة. كان العقيد محبطاً لفقدان أحد رجاله من الذين يعول عليهم. كان يعرف الملازم ديفيد برينشتاين جيداً، كان قد تخرج في أكاديمية ويست بوينت العسكرية. لقد التقيته قبل يوم واحد من مقتله في كمين نصب له. كشف لي العقيد وقتها شكوكه عن جدوى كل ما نقوم به، فقدان الأرواح وتلاشي علائم النجاح كانت هي الحقيقة السائدة.

ومن أجل أن أرفقه عنه قليلاً، قلت له: «أراهنك بخمسين دولاراً بأننا ستمكن من إحياء هذا المتحف وإعادته إلى العمل قبل نهاية هذا العام». فابتسم وضرب كفه بكفي معلناً قبول الرهان.

لقد افتتح متحف كركوك عام 1989، حين أسست وزارة الثقافة ثمانية متاحف شبيهة في محافظات مختلفة. وقد جرى تخصيص موقعه في الشكنة⁽¹⁾ الواقعة ضمن المجمع المكون من طابقين والذي يعود إلى عام 1864 في بنائه.

اقترحنا أن تكون هذه الشكنة نوعاً من المتاحف التي تحمل الفنون الشعبية، واقترحنا أن يجري تشجير الساحة التي في المقابل لها بأشجار تحمل كل منها اسم أحد الجنود الذين فقدوا أرواحهم في (1) (المترجم) المقصود بالشكنة هي قشلة كركوك التي تعود إلى العهد العثماني في بنائها.

هذه الزاوية من أرض المعركة. وكلفنا الرائد هيوارد هيوستن بمهمة تهيئة الساحة المحاطة بالجدران لتكون مسرحاً ويجري إعدادها. وخلال أسبوعين جرى حذل الأرض وتهيئتها ووضعت البلاطات، وظهرت المنصة فعلاً. وقام مدير متحف كركوك بدعوة الأهالي إلى تزويد المتحف بما لديهم من أنثيكات وتراثيات، وكانت الاستجابة جيدة. وقد جرت دعوة الموسيقيين من مختلف الإثنيات في المحافظة لتقديم عروضهم في يوم الافتتاح. كانت عملية تنظيم قائمة للحضور ليست بالأمر الهين، أرسلنا دعوات إلى المحافظ ونائب المحافظ، وإلى أعضاء مجلس المحافظة وإلى أعضاء المجالس المحلية في الأقضية التابعة إلى كركوك، كما أرسلنا دعوات إلى قائد الشرطة والقادة الأمنيين والقادة الدينيين. القليل منهم فقط استجاب للدعوة، ولم يكن بالإمكان معرفة العدد الحقيقي الذي يكون حاضراً. وبينما نتوقع أن العدد الأكبر منهم لن يحضروا زوجاتهم، فإن هناك عدداً منهم سيفعل ويحضر زوجته. كل هذا، والجانب الأمني كان مشكلة أيضاً، إذ نتوقع أن يكون هذا الحفل هدفاً للهجمات الإرهابية المحتملة. وفي 23 تشرين الأول 2003، تم الافتتاح وتقدمنا أنا والعقيد مايفيل نستعرض المتحف الذي بقي مهجوراً لفترة طويلة.

وفي كل غرفة، كان هناك شخص ما لشرح لنا المعروضات، فهنا نرى سيفاً عربياً مثلاً، أو إنجيلاً آشورياً، أو لوحة تركمانية أو سلّة كردية مصنوعة من الجلد. وفي الجناح الكردي، كانت هناك محاكاة لحفلة زفاف كردية أمتعت الحضور وشدتهم إليها.

وفي الباحة، قمنا بإزاحة الستار عن تمثال وسطي، كان رائعاً ويمثل كل إثنيات كركوك. كما يجسد الحرف والزراعة والمصنوعات التي تعرف بها المدينة.

ثم توجهت مع العقيد مايفيل إلى الطاولة الرئيسة كي أنضم إلى المحافظ ونائبه ورئيس مجلس المحافظة. وجلس إلينا أيضاً عدد من أعضاء مجلس المحافظة، أما الجنرال أوديرنو فقد وصل من تكريت خصيصاً لشاركنا الحدث. وتم تقديم الطعام حيث كنا قد كلّفنا فندق (القصر) كي يعدّ الطعام بما يتناسب مع أذواق إثنيات كركوك الأربع.

وخلال المأدبة، بدأت الموسيقى تعزف وسمعت صوتاً عبر مكبرات الصوت ميزته على الفور، لقد كان المترجم (سرمد) الذي تولّى مهام عريف الحفل. كانت وصلة الحفل الأولى من تقديم فرقة كردية اندفعت إلى المنصة وقدمت أغاني تراثية رائعة، وكان الأوبريت يحاكي مرّة موسم الحصاد، ثم يحاكي الغزل بين الشبان والبنات، لقد بدا لوهلة أنهم لا يريدون مغادرة المنصة بعد أن قدموا عروضهم، ثم رأيت سرمداً يتسلل إلى خلف المنصة ليكلّم أحدهم ويطلب منهم النزول من أجل العروض الأخرى.

الوصلة التالية كانت للفرقة الآشورية، كانوا يرتدون أزياء مبهرجة ومحللة بالريش على القبعات، كانوا يتحركون برقصة بدت أكثر رزانة من سابقتها الكردية. أمّا العرض التركماني فقد تضمن عزفاً على العود مع غناء لأغنية ظهر أن عدداً كبيراً من الحاضرين يرددونها مع المطرب.

وآخر العروض كان العرض العربي، الذي بدا برجل أعمى جلس في آخر المنصة للغناء، وأنهوا العرض بالدبكة العربية، وهي رقصة أحبها الجميع تتشابك فيها الأيدي وتتحرك فيها الأرجل إلى الأمام وإلى الخلف بينما يدور الراقصون حول دائرة وهمية.

كان الجميع يبدو عليهم البهجة بلا حدود، وبعدها وقف عضو المجلس العربي السني، إسماعيل الحديدي ودعا كمال كركوكي، الذي

يعاني جسده من أثر رصاصات قديمة، والتحق الاثنان براقصي الدبكة.
وفي مفاجأة غير متوقعة نهض العقيد مايفيل والتحق بهم جميعاً.

المطرب كان يغني مرّة أغنية تركمانية ومرّة أغنية عربية، وفي أخرى
يغني بالكردية. ثم نهض المحافظ الكردي (عبد الرحمن مصطفى)
وأمسك بمكبر الصوت وقال: «هذه هي حقيقة كركوك، حيث تعيش
فيها جميع الإثنيات بمحبة، والجميع يعرف لغة الجميع، وهي مثال
للتعايش السلمي».

في نهاية الأسبوع رفعت القطع الأثرية وعاد المتحف ليدو خالياً
مجدداً، لكن ذكريات تلك الليلة الرائعة في المتحف ستبقى عالقة إلى
الأبد في ذهني. تلك كانت صورة لما يمكن أن تكون عليه كركوك.
المدينة الساحة التي تجمع الإثنيات في عمقها.

الفصل الرابع

التنافس على كركوك

«عُرفت كركوك بسكانها التركمان، وبأشجار الفاكهة فيها، وبحقولها النفطية. كانت بلدة بخمسة عشر ألفاً من السكان. وكانت واحدة من بلدات حدود كردستان التي عرفت بلغاتها الثلاث. الجميع يبدو أنهم يتكلمون التركية والكردية والعربية. وكل هذه اللغات تستخدم في الأسواق، حيث إن السكان داخل البلدة كانوا من التركمان، وسكان غرب وجنوب المدينة كانوا من البدو العرب، أما شرقها وشمالها فقد كانت أريافاً زراعية كردية».

من كتاب (خفايا ما بين النهرين وكردستان)

لإيلي بانستر سوان.

لقد كانت سلطة الائتلاف في بغداد مستغرقة تماماً بشؤونها وغير قادرة على التواصل معي في تفاصيل كركوك، لذا تركتُ وحدي أواجه تحديات المحافظة. وكل منسق لأيّ محافظة (أي نظرائي) يرى بأن المحافظة التي يعمل فيها هي الأكثر حاجة للدعم، وأنها هي الأكثر حساسية فيما يتعلق بمستقبل العراق. اتضح لي هذا جلياً حين حضرت مع الجنرال أوديرنو في بدايات أيلول 2003 مؤتمراً في بغداد للمنسقين والقادة العسكريين للمحافظات كلها. عقد المؤتمر في فندق الرشيد، وجلس المنسقون وكبار الضباط في قاعة الاجتماعات. وفي بداية المؤتمر شرح السفير بريمر الخطوات السبع المطلوب إنجازها لإتمام بناء العراق الجديد المستقل، ثلاث من أصل هذه الخطوات السبع قد جرى تنفيذها بالفعل؛ تعيين مجلس للحكم، وتعيين هيئة تحضيرية تقرر شكل الهيئة التي ستكتب الدستور، وتعيين وزراء للحكومة يديرون الأعمال اليومية للوزارات والدوائر الرسمية.

وتتطلب الخطة أن يكتب الدستور وأن يجري الاستفتاء عليه. وأن تجري انتخابات عامة تؤدي إلى تشكيل حكومة، هذا الترتيب سيستغرق ما يقرب من سنتين لتنفيذه. كما شرح بريمر معيارين يجب أن يتوافرا لتحقيق النجاح؛ حكومة لامركزية تدير التنمية مع سياسة تدار من قبل المركز وتكون واضحة المعالم. وثاني المعايير هي أن يتوفر قطاع خاص حر وناشط بالحياة.

كان بريمر يحمل في يده ملفاً بسماكة بوصة تقريباً قال إنه يحتوي الخطوط العامة والدليل لإنجاز ما قاله. وهنا تكلم الجنرال ديفيد بيترابوس، وكان من أوضح الجنرالات في مقاصده وسأل، كيف يمكن لنا أن نشارك في تطبيق سياسة واستراتيجية تفصيلية دون أن يجري استشارة أحدنا في رسم هذه الاستراتيجية؟ لكنه لم يتلق جواباً.

وفي غياب الاشتراك من جانب سلطة الائتلاف في بغداد، كان الجنرال بيترايوس يدير محافظة نينوى الشمالية بالطريقة التي وجدها مناسبة؛ حتى إنه اكتسب هناك لقب (الملك بيترايوس). بل إنه نفذ هناك نوعاً خاصاً به من السياسة الخارجية. كانت تجلس إلى جانب بيترايوس نظيرتي في نينوى واسمها (هيرو مصطفى) وهي أميركية من أصل كردي تجيد الحديث بعدة لغات.

كان الجدول الزمني الذي عرضه بريمر لهذه الخطوات يبدو في نظر واشنطن بطيئاً، وكذلك في نظر العراقيين، كان أعضاء مجلس الحكم قد شرعوا بالفعل في تعزيز قوتهم السياسية وعلى الأرض.

بعد ذلك قيل لنا إن بول ولفوفيتز (Wolfowitz) قد يزور كركوك في تشرين الأول، كان (ولفي) كما كنا نسميه، نائباً لوزير الدفاع، وهو واحد من أهم شخصيات المحافظين الجدد والمدافعين عن الحرب. وكان قد صرّح ووعد بأن الحرب ستموّل نفسها بنفسها، حيث إن العراق قادر على تحمّل الأعباء المالية لإعادة إعمارهِ. كان العراق وقتها يمتلك 112 مليار برميل من احتياطي النفط المؤكد، وهذه الأرقام مرشحة للتصاعد، وهو بذلك يمثل خامس أكبر احتياطي نفطي في العالم.

لكننا اكتشفنا لاحقاً أن الطاقة التصديرية كانت متدنية بشكل كبير، حيث إن البنى التحتية لتصدير النفط كانت بحاجة إلى تحديث كبير، وإلى استثمارات ضخمة كي تنهض بمعدلات الإنتاج والتصدير. كما أن التمرّد استمر في عملياته التخريبية لأنابيب نقل النفط الخام.

وفي كركوك استقبل العقيد مايفيل الزائر ولفي في القاعدة العسكرية بالمطار، واصطحبه في جولة عبر شوارع المدينة في عربة من عربات الهامفي، ومعهم مرافقة مسلّحة متميّزة. ثم سنحت الفرصة لـ ولفوفيتز

وفي غياب الاشتراك من جانب سلطة الائتلاف في بغداد، كان الجنرال بيترايوس يدير محافظة نينوى الشمالية بالطريقة التي وجدها مناسبة؛ حتى إنه اكتسب هناك لقب (الملك بيترايوس). بل إنه نفذ هناك نوعاً خاصاً به من السياسة الخارجية. كانت تجلس إلى جانب بيترايوس نظيرتي في نينوى واسمها (هيرو مصطفى) وهي أميركية من أصل كردي تجيد الحديث بعدة لغات.

كان الجدول الزمني الذي عرضه بريمر لهذه الخطوات يبدو في نظر واشنطن بطيئاً، وكذلك في نظر العراقيين، كان أعضاء مجلس الحكم قد شرعوا بالفعل في تعزيز قوتهم السياسية وعلى الأرض.

بعد ذلك قيل لنا إن بول ولفوفيتز (Wolfowitz) قد يزور كركوك في تشرين الأول، كان (ولفي) كما كنا نسميه، نائباً لوزير الدفاع، وهو واحد من أهم شخصيات المحافظين الجدد والمدافعين عن الحرب. وكان قد صرّح ووعد بأن الحرب ستموّل نفسها بنفسها، حيث إن العراق قادر على تحمّل الأعباء المالية لإعادة إعمارهِ. كان العراق وقتها يمتلك 112 مليار برميل من احتياطي النفط المؤكد، وهذه الأرقام مرشّحة للتصاعد، وهو بذلك يمثل خامس أكبر احتياطي نفطي في العالم.

لكننا اكتشفنا لاحقاً أن الطاقة التصديرية كانت متدنية بشكل كبير، حيث إن البنى التحتية لتصدير النفط كانت بحاجة إلى تحديث كبير، وإلى استثمارات ضخمة كي تنهض بمعدلات الإنتاج والتصدير. كما أن التمرد استمر في عملياته التخريبية لأنابيب نقل النفط الخام.

وفي كركوك استقبل العقيد مايفيل الزائر ولفي في القاعدة العسكرية بالمطار، واصطحبه في جولة عبر شوارع المدينة في عربة من عربات الهامفي، ومعهم مرافقة مسلّحة متميّزة. ثم سنحت الفرصة لـ ولفوفيتز

أن يترجّل من العربة وسط الأسواق، وأن يكلم السكّان المحليين. كنت أنتظر زيارته في المتحف بصحبة عدد من رجال الدين من العرب السنّة والتركمان والأكراد، جلس هؤلاء في الخارج حول طاولة، وبدؤوا يصافحون بعضهم كالمعتاد. وقبل أن يغادر، أبدى ولفوفيتز بعض التعليقات الساخرة حول عمل سلطنة الائتلاف مبيناً أن حكم العراق يجب ألا يؤول إليها بأيّ حال من الأحوال. لقد كان من الذين دعوا إلى تسليم إدارة البلاد إلى العراقيين بأسرع وقت ممكن. وهو من الذين يفضّلون التعامل مع أحمد الجلبي بصورة خاصة، الجلبي هو الشخصية العراقية الأكثر قرباً إلى المحافظين الجدد.

ثم زارت هيلاري كليتون كركوك، والتقت بوجوه وشخصيات من السكّان المحليين ووجهت لهم أسئلة ذكيّة ومهمة. ووجد عدد من كبار الضباط ملاحظاتها مثيرة للإعجاب. لقد كانت تمثل روحاً جديدة في التعامل والتحرّك بالمقارنة مع العدد الكبير من أعضاء الكونغرس الذين زاروا العراق وكركوك بصورة خاصة. أتذكر أن أحد أعضاء الكونغرس الذين زاروا المدينة لم يتوقف عن سؤال أعضاء مجلس المحافظة إن كان أحد منهم قد رأى صداماً!. لقد كنت أرثي للحال التي جعلت هذا العضو المنتخب ممثلاً عن الشعب في الولايات المتحدة.

وبعد ذلك بوقت قصير⁽¹⁾، قام وزير الدفاع دونالد رامسفيلد بزيارة إلى كركوك، وحضر إلى مركز العمليات التكتيكي في القاعدة العسكرية لأجل أن يُعرض عليه إيجاز للحالة العسكرية وأوضاع الوحدات. والتقط

(1) زار وزير الدفاع دونالد رامسفيلد كركوك في بداية شهر كانون الأول-2003 وصرّح في تلك الزيارة تصريحاً أثار التساؤلات حيث قال: «إن كل الأهداف التي خططت لها الإدارة الأميركية في العراق قد تم إنجازها ولم يبق أي شيء» - المترجم.

صوراً في المركز استعملتها فيما بعد مجلة (تايم) لاختيار (الجندي الأمريكي) كشخصية متميزة لذلك العام.

ثم عرض عليه الجنرال أوديرنو مجموعة من الشرائح البصرية ببرنامج (باور بوينت) يشرح فيها تفاصيل عسكرية دقيقة، لكن رامسفيلد استمر بمقاطعته مراراً، وبقي ينثر الأسئلة بكل اتجاه؛ كم عدد الجنود المتوافرين في ساحة القتال؟. كم عدد القتلى؟. كم عدد الجرحى؟. ثم وقف أمام الخارطة التي تبدو فيها كركوك وشمال العراق وقال: «أين تقع إيران؟».

بعد ذلك استدعي بريمر فجأة إلى واشنطن للاجتماع بالرئيس، وبلا مقدمات تم تحويل الخطوات السبع التي سبق أن شرحها لنا إلى اتفاق تنفيذي، وذلك في (15 تشرين الثاني). الاتفاق سيسمح بتسريع الخطوات كي تدفع إلى تبني دستور مؤقت، وجمع (جمعية وطنية انتقالية) يجري اختيارها عبر مؤتمرات في المحافظات بدلاً من القوائم الانتخابية، ثم إلى تشكيل حكومة انتقالية يجري اختيارها داخل الجمعية الوطنية. على أن تستكمل كل هذه العملية بحلول منتصف عام 2004.

لكن، سرعان ما أثار هذا الاتفاق رفضاً ومعارضة قوية من قبل آية الله العظمى علي الحسيني السيستاني، المرجع الأعلى الذي يقلّده العراقيون الشيعة. السيستاني رفض بصورة قاطعة مسألة المؤتمرات الانتخابية في المحافظات. وجرى إيفاد مبعوث الأمين العام للأمم المتحدة الأخضر الإبراهيمي إلى العراق من أجل التوسط وحلحلة الموضوع. وتوصل الإبراهيمي إلى حلٍّ وسيط يقضي بحذف المقترح المؤتمرات الانتخابية والجمعية الوطنية المؤقتة، وأن تحلّ محلّها حكومة تشارك الأمم المتحدة باختيارها تأخذ دور سلطة الائتلاف بحلول حزيران 2004.

وبما أن الموعد قد تقدّم لإنهاء دور سلطة الائتلاف، فقد انعكس الأمر على شكل زيادة في الضغوط والتوترات في كركوك، وبشكل خاص من قبل الأكراد الذين يسعون لتحقيق أكبر قدر ممكن من المكاسب بينما تتواجد قوات التحالف وسلطة الائتلاف. لقد بدأ التدافع والتناحر من أجل كركوك.

منح حلول شهر رمضان فرصة لتقليل التوتر. وحرص العقيد مايفيل على أن يوجز لجنوده بعض التعليمات التي تخص عادات العراقيين المسلمين في هذا الشهر. وأعطى تعليماته بعدم التدخين أو شرب الماء أو تناول الطعام أمام العراقيين. وتغيّرت ساعات الدوام الرسمي لتكون من 10 صباحاً إلى 2 بعد الظهر، حيث إن الجميع ينامون في وقت متأخر من الليل ويأخذون قيلولة طويلة بعد الظهر. ومع أن الجميع صائمون في الظاهر، إلا أنني لاحظت من يتناول قدحاً من الشاي أو يدخن سيكارة بين حين وآخر. كانت لنا منهجية خاصة في رمضان للعلاقات العامة، أقمنا مأدبة إفطار دعونا إليها أعضاء مجلس المحافظة والشيوخ وبعض الأطفال. كما أطلقنا سراح بعض المعتقلين، ومن بينهم اثنان من أقارب الشيخ وصفي العاصي. كما منحنا بعض التبرعات للمساجد، ولبيّنا دعوة بعض أصدقائنا الكركوكيين لحضور مأدب الإفطار معهم في منازلهم.

في المساء زرنا إحدى المؤسسات التي تأوي الأيتام، كنّا قد زرناها سابقاً. وتشاركنا مع الأطفال الأيتام في تناول طعام الإفطار، كان عبارة عن كباب عراقي وسلطة كنّا قد اشتريناها من الأسواق. وبعد الإفطار، وزّعنا على الأيتام مجموعة هدايا كانت قد بعثتها عائلات الجنود الأميركيين. كانت هذه الهدايا من أجمل أنواع الدعم لمهامنا في كركوك.

كان من أجمل المشاهد أن نشاهد الفرحة تعلو وجوه الأطفال، ووقفت أراقب العقيد مايفيل يلعب مع الأطفال وقد تحرّك الأب الذي في داخله. مساحة الثقة بيني وبين إسماعيل عبودي تنامت واتسعت، واكتسبت من خلاله الكثير من الخبرة والمعلومات عن المجتمع الشيعي في كركوك. معظم عائلات العرب الشيعة في كركوك قدمت على أثر حملة التعريب التي أقرها حزب البعث، وقد أطلق عليهم تسمية «جماعة العشرة آلاف دينار»، في إشارة إلى تلقيهم مبلغ 10 آلاف دينار من أجل الاستيطان في كركوك.

وخلال رمضان، اصطحبنا إسماعيل إلى منزله، كان يقع في حي الحسين (وهو مركز تجمع عوائل العشرة آلاف)، جعلنا مشهد الحي نفتح أعيننا على آخرها، لقد سبق أن تجولنا كثيراً في أحياء كركوك لكن لم يسبق لنا أن دخلنا هذا الحي مطلقاً. كان الحي يبدو مهملاً جداً وشديد الاكتظاظ. وجدنا عدداً من العوائل الكردية تسكن في المدارس، لذا لم يكن بمقدور الأطفال الانتظام في دوام مدرسي واضح، ولم يكن هناك أي باص متوفر لينقلهم إلى مدرسة أخرى في مكان آخر.

في أحد مداخل المدرسة كان هناك رجل مريض يستلقي لم تتوفر له أي معالجة، ودخلنا نزور العوائل في المدارس وتناولنا طعام الإفطار معهم.

لقد ترسّخت علاقتنا مع إسماعيل حين دعانا إلى منزله وتناولنا الإفطار معه، والتقىنا زوجته وأطفاله. كان يقطن في ذلك الحي في منزل منسق وحديث البناء. وخلال تلك الزيارة علمنا أنه حائز على درجة الدكتوراه في الفيزياء النووية، وفي مرحلة ما كانت لديه تعاملات مع عدي بن صدام حسين، لكن شيئاً ما عكّر ذلك التعاون واضطره إلى أن يغادر العراق ويتوجه إلى سوريا تاركاً عائلته خلفه.

نوبة من الضحك والإحراج الذي سببته له نتيجة قبلاتي، وحذرني أن أكررها معه!.

وفي أحد صباحات تشرين الثاني المنعشة، ونحن نقرب من نهاية شهر رمضان، ركبنا السيارة أنا والعقيد مايفيل باتجاه أربيل. ثم اتجهنا إلى الشمال الشرقي حين تجاوزنا المدينة لنصل إلى مدرج باشور حيث المكان الذي أجرى فيه العقيد مايفيل إنزال لوائه العسكري في آذار الماضي. ترحلنا من السيارة وبدأنا بالمسير في ذلك الحقل الواسع. كان المدرج محاطاً بالجبال المحاطة بسماء خالية من الغيوم. ثم شرح لي كيف أنهم حفروا خنادق لحظة هبوطهم وربضوا فيها يواجهون الجبال. ثم اشار إلى الشرق حيث كانت هناك قرية، وثمة قلعة صغيرة بالقرب منها. واستمرينا أنا والعقيد مايفيل بالسير في أرض المدرج، ثم فجأة توقف، وأشار إلى بقعة بعينها وقال: «هنا بالضبط هبطت بالمظلة».

ثم قصّ عليّ كيف أن الأحوال الجوية كانت غير مواتية، حيث استمرت الأمطار لأيام متصلة، وحين توقفت الأمطار قليلاً وكشفت السماء عن وجهها مؤقتاً قاموا بالإنزال الجوي. نفذ أكثر من ألف جندي أميركي ذلك الإنزال، كلهم كانوا من جنود اللواء 173 المحمول جواً. وكل من شارك في ذلك الإنزال يروي قصّة الطين الذي غرقوا فيه، إذ كانت الأمطار قد جعلت الأرض مثل الإسفنجة. بل إن بعض الجنود علق في الطين والأوحال لعدّة ساعات قبل أن يتمكن من تحرير نفسه أو يحرره زملاؤه. ثم مرّت أيام طويلة قبل أن يتمكنوا من الاغتسال واستبدال ملابسهم التي نقعت بالوحل. سألت العقيد عن السبب الذي دفعهم إلى اختيار الإنزال بالمظليين بدل الهبوط بالطائرات بشكل تلقائي؟ هل كان في الأمر جانب من التبجح أو محاولة إظهار القوّة؟. أجابني بأن أرض

ذلك المدرج لا تحتل هبوط طائرات ثقيلة، إنهم كانت لديهم شوكهم حول أرضية المدرج. ووفقاً لحساباته، فقد اتخذ قراراً بأن ثلث جنود اللواء يجب أن يهبطوا بالمظلات بينما يأتي الآخرون بواسطة الطائرات. بقي جنود اللواء لفترة في ذلك المدرج، وقد أداموا التواصل مع قوات البيشمركة، وقد زارهم مسعود بارزاني هناك، ورحّب بهم كقوة محررة. أدرك الأكراد في تلك اللحظة أن الأميركيين عازمون بالفعل هذه المرة على الإطاحة بنظام صدام.

كانت زيارة مدرج الإنزال الذي نفذته قوة اللواء 173 تعني الشيء الكثير بالنسبة لي، فهي تعني مشاركتهم بجزء من تاريخ لوائهم الذي لم أعيشه.

أعادني منظر الجبال والسهول الرائعة في أربيل إلى ذاكرتي عن جبال المغرب. بعد ذلك ركبنا السيارة واتجهنا جنوباً نجتاز القرى المتناثرة على طول نهر الزاب الأسفل، واتبعنا خط سير قوة اللواء التي سار بها باتجاه كركوك، فلاح لنا في الطريق بلدة طق طق، ثم وصلنا كركوك.

كنت أتمنى لو أتيح لنا المزيد من الوقت لاستكشاف هذه الأرض الجميلة.

في 14 كانون الأول، ذهبت برفقة العقيد مايفيل ومحافظ كركوك إلى ناحية تازة للتوسط في فضّ نزاع حول عائدة بعض الأراضي. لكن أخبار إلقاء القبض على صدام وصلت للتو وجعلت الأجواء مشحونة بالتوتر. ادعت مصادر في الاتحاد الوطني الكردستاني أنها ألقت القبض عليه في بلدة الحويجة. لكننا لم نعر هذه الادعاءات أهمية، حيث إننا كنّا نتلقى باستمرار تقارير عن مشاهدة صدام، منحناها اسماً رمزياً هو (ظهور إيلفس)، كثيرون تحدثوا عن مشاهدته وهو يقود سيارة أجرة، أو في سيارة قرب الحويجة.

وعند وقت عودتنا إلى القاعدة، كانت أخبار إلقاء القبض عليه قد تصدرت النشرات الإخبارية، وظهر بريمر على شاشات التلفاز يقول: «سيداتي سادتي... لقد أمسكناه».

وعلى مدى تسعة شهور تمكن صدام من تحاشي القبض عليه، مما جعل قوات التحالف تبدو بشكل ضعيف غير قادر على حسم الأمور، كما رسخ في أذهان بعض العراقيين بأنه قد يعود إلى السلطة ضمن صفقة ما.

في اليوم التالي ذهبت بالمروحية إلى تكريت، كي ألتحق بالجنرال أوديرنو ونذهب سوياً إلى بغداد لحضور الاجتماع الشهري لقادة المناطق العسكرية والمنسقين المدنيين. وخلال الرحلة بالطائرة المروحية تبادلنا بعض الأفكار عبر سماعات الأذن، قال لي إن قواته وبعد شهور من البحث والتفتيش، عثرت عليه مختبئاً في حفرة ضمن نطاق مزرعة في تكريت، وكانت على مرمى البصر من القصر الذي اتخذهُ الجنرال أوديرنو مقراً له. لقد خرج من الحفرة وقال: «أنا رئيس جمهورية العراق وأريد التفاوض». نقلت إلى الجنرال أوديرنو مدى شعوري بالفخر تجاهه وتجاه الفرقة الرابعة الأميركية بأنها هي التي أنجزت المهمة في النهاية وألقت القبض على هدف مطلوب بشدة. ثم قلت له وأنا جادة: «سيدي، لقد أثار فضولي أنك قمت بفحصه طبيّاً بنفسك؟.. لماذا؟». كان العالم كله قد شاهد من الخلف رجلاً ضخماً أصلع الرأس وهو يفحص صداماً في شعره وأذنيه وأسنانه، صمت الجنرال لثوان وكأنه لم يفهم ما قلت، وبعد ذلك انفجر ضاحكاً واهتزت الطائرة لشدة ضحكاته. فهمت أنني كنت متوهمة تماماً بأن من فحص صداماً هو الجنرال أوديرنو!

هبطنا بعد ذلك في المنطقة الخضراء. وحين دخلنا قاعة المؤتمر، كان كل من تواجد يحيي الجنرال أوديرنو بوصفه بطلاً. ثم وقف الجميع وشرعوا بالتصفيق الحاد، واندفع الجميع يصافحونه ويهنئونه على ما حققه، بينما وقف آخرون لالتقاط صور تذكارية معه. لأنه منذ الآن فصاعداً سيعرف على أنه «الجنرال الذي ألقى القبض على صدام». أما ابنا صدام، عدي وقصي فقد قُتلا في مواجهة مع اللواء 101 الذي يقوده الجنرال بيترايوس، لكنّ ما جلبه لهم الجنرال أوديرنو كان هو الجائزة الكبرى.

وفي تقرير الأسبوعي الذي أرفعه إلى بريمر ذكرت ان أهالي كركوك استقبلوا أبناء القبض على صدام بالكثير من الحماسة وإطلاق العيارات النارية، هذه العيارات تسببت بموت 6 أشخاص وجرح ما يقرب من مئة مدني. وارتفعت الروح المعنوية لدى الأميركيين في بغداد وفي واشنطن. فبعد عدد كبير من الإخفاقات، كان هذا الحدث نجاحاً حقيقياً. لكن على الأرض، لم تختف أي من التحديات التي كانت تواجهها.

وأقام الحزب الديمقراطي الكردستاني مأدبة على شرف الفرقة الرابعة من الجيش الأميركي وتقديراً لجهودها في تحرير العراق، كما قالت الدعوة. أقيمت الولائم وقدمت أطباق الطعام بحفاوة بالغة، كانت ملأى بالرز ولحم الضأن والكباب والسلطات. أقيمت المأدبة على أرض المطار في القاعدة العسكرية. وجلس مسعود بارزاني على رأس المائدة الأولى ومعه مستشاروه. بارزاني كان دائماً يظهر بالزي الشعبي الكردي (الشروال والكولتاك، بالإضافة إلى الكوفية باللونين الأحمر والأبيض - جمداني). وبعد انتهاء الوليمة وقف بارزاني ليلقي كلمة

وقال: «أنا دائماً أتذكر اللحظة الأولى التي رأيت فيها العقيد مايفيل، لقد كان مثل ملاك نزل من السماء». كانت الفرقة القتالية قد هبطت في العراق في آذار 2003، وحين التقيتهم كانوا يتحدثون عن المغادرة بحلول حزيران من ذلك العام. والآن لا أحد يعرف بالضبط متى يغادرون إذ لم يجر الحديث رسمياً عن هذا الأمر أبداً.

فقد حدث قبل نهاية العام أنهم سمعوا بإمكانية مغادرتهم بحلول شباط من عام 2004، كان ذلك بعد ما يقرب من سنة كاملة على انتشارهم بعد أن أخذ منهم التعب والإرهاق مأخذه. كان عملهم يستغرقهم بشكل لا يصدق، لقد قاتلوا في الحرب التي ظنوا أن نهايتها قريبة، وأنها ستحسم بسرعة ليعودوا بعدها إلى قاعدتهم في إيطاليا. كان كادر الضباط المتقدمين قد غادر بمعظمه، وبقي الجنود بلا إجازات، وبلا أوقات مستقطعة للاستراحات الطويلة، ومَرّت سنة من أعمار أطفالهم لم يروه فيها وشكل ذلك ضغطاً شديداً على عائلاتهم.

كنت أدخل على العقيد مايفيل في غرفته، فأجده كثيراً ما يتفرّج بصمت على قارب يبحر في المحيط، يبدو عبر قنوات اللاقط الفضائي. كان قد أخذ التعب منه مأخذه، وانحصر تفكيره في العودة إلى الديار.

كنت أسأل الجنود عن مشاعرهم وهم يترقبون العودة إلى ديارهم، معظمهم كان منشغلاً ببعض التعقيدات مع عائلاتهم، البعض يتساءل إن كانت الزوجات سيتفهمن أسباب هذا الغياب الطويل. آخرون قالوا إن مشاكل عائلية قد نشأت بينما هم يخدمون في الجيش هنا في كركوك، لكن حياتهم البسيطة هنا جعلتهم يتعدون قليلاً عن تعقيدات الحياة في الولايات المتحدة، لقد غيّرت تجربتهم في العراق حياتهم إلى الأبد.

في هذه الأثناء، كانت الحياة في القاعدة العسكرية بالمطار تزداد

صعوبة، فقد حلّ الشتاء، والجو بارد والمطر ينهمر، لقد كان الطين والأوحال ينتشر في كل مكان. وفي أمسية ما، أمضيت فيها وقتاً طويلاً مع الرائد فينسينت والعريف أوليفر نشرب فيها عصائر طازجة، لقد كانا من فريق العلاقات العامة في القوة القتالية. واقتسمنا وجبات الطعام بينما كان للعريف أوليفر هرّ يرجبنا بين حين وآخر. كان لدى العريف أوليفر بعض الأقراص المدمجة لمسلسل قديم من السبعينيات دعانا إلى مشاهدته، كانت حلقة تتحدث عن الحرب الكورية ويظهر فيها المُسعفون وهم متجمدون ويتحلّقون حول النار، لكن الفضل في نجاتهم يعود إلى ارتدائهم الملابس الداخلية الطويلة التي تسبغ على الأرجل كلّها، عندها أحسست بالامتنان لصديقي حسين كارا الذي اشترى لي هذه القطعة من المتجر العسكري.

وانقطعت الكهرباء عن المبنى الذي أقطن فيه منذ أسابيع. وكل يوم أعود في المساء لأرمي بنفسي في فراشي. وعلى ضوء مصباح أخضر صغير، بالكاد أجد طريقي إلى غرفتي. أما الشرطة العسكرية التي كانت تشاطرنى المبنى فلم يرغبوا بالتشكي كي لا يظهرُوا للآخرين بمظهر الضعفاء الذين لا يتحملون الظروف الاستثنائية.

لم يكن هناك ماء ساخن، وتجمّعت النفايات في كل مكان، وعلا التراب ولطخات الوحل كل شيء تقريباً. حتى مكتبي في مقر القيادة التكتيكي علاه التراب، ووجدت رئيس العرفاء قد ترك لي رسالة مكتوبة تفيد بأن البريد الخاص بي مُحتجز لديه حتى أنظف مكتبي، وقد أثمرت تلك الرسالة.

وفي ليلة عيد الميلاد، تعرّض العريف مايكل ياشينيسكي (Yashinski 24 سنة) إلى صعقة بالكهرباء أثناء عمله على تمديد الكييلات، فسقط

من أعلى أحد المباني ولقي حتفه. وأمضينا اليوم في أبرشية اللواء القتالي، ثم حضرنا جنازة أقامها الجنود له. وفي البرد القارس اصطف زملاؤه الجنود لتحية جثمانه وهو يرّحل إلى الديار في تابوت على متن الطائرة.

انطلقت أهم التظاهرات في كانون الأول من ذلك العام. الأولى كانت بالضد من الإرهاب أمام مبنى دائرة التوظيف في ساحة وسط المدينة. وذهبت إلى هناك برفقة العقيد مايفيل لتتابع مجريات الأمور. لكن منظمي التظاهرة اشتكوا بمرارة من تحولها إلى استعراض للقوة والوجود مارسه الحزب الديمقراطي الكردستاني. وفي اليوم نفسه زرنا كمال كركوكي ونصحه العقيد مايفيل بالاتصال بالاتحاد الوطني الكردستاني من أجل أن يهدئ الأمور والاعتذار عما بدر من جمهور الديمقراطي الكردستاني، لقد كانت حالة التنافس بين هذين الحزبين حادة بدرجة لا منطق فيها.

بعد بضعة أيام، خرجت تظاهرة أخرى نظمها الحزبان الكرديان سوية أمام مبنى الحكومة. شارك فيها بضعة آلاف من الرجال والنساء وحتى أطفال المدارس الأكراد، تحتفل بإلقاء القبض على صدام، وكانت هناك لافتات تدعو إلى إعدامه. كان في وسط التظاهرة سيارة إطفاء وقد غطّتها اللافتات التي تمجّد الحزبين الكرديين ومعها عشرات الصور لطالباني وبارزاني. التظاهرة كانت مليئة بالأعلام الكردية (علم كردستان التقليدي)، ولمحت بعض الأعلام الأميركية فيها أيضاً، ونادى المتظاهرون بضرورة إعادة الأجزاء المستقطعة من كردستان إليها. وإن جمجمال وخانقين وكفري وجب أن تعود جزءاً من إقليم كردستان. بعدها ألقى كل من كمال كركوكي وريزكار علي كلمات بالكردية أثارت

حماس الحضور، لكن كلمة محافظ كركوك كانت بالعربية وشدت فيها على أن كركوك ستبقى مثلاً للتآخي ومدينة للإثنيات الأربع.

كان العقيد مايفيل مستاءً جداً من المماحكات التي يتسبب بها الحزبان الكرديان في كركوك، حتى إنه رفض حضور الاحتفال بليلة رأس السنة الذي نظمه الاتحاد الوطني الكردستاني. فذهبت برفقة المقدم راندي جورج (George) وهو نائب مايفيل، وحين دخلنا إلى القاعة المكتظة بالحضور، سمعت صوت المتحدث في المايكروفون يرحب بالقول: «أهلاً بسيدتنا إيما سكاي»، ولفظ مقطعي اسمي وكأنهما كلمة واحدة مثلما كان معظم الكركوكيين يفعلون. وقادنا المرحبون إلى أول طاولة في الحفل وجلسنا إلى جانب بضعة أعضاء من مجلس المحافظة. كان إلى جانبي الشيخ فيصل وهو زعيم قبيلة الجبور، فأخرج من تحت عباءته قنينة ويسكي فاخرة وقدمها لي لشرب منها أنا وهو. وبعد أن شربنا وأكثر الحاضرين على تلك المائدة، دعوني إلى الرقص في حلقة على المنصة مع باقي الحضور. لقد كان إلى جانبي عدد كبير من الشخصيات العربية والتركمانية والكردية من المدينة، واستمر الغناء والرقص في الدبكات إلى ساعة متأخرة، كنت أتصور أن هذا هو نموذج حي لما يمكن أن تكون عليه كركوك في الواقع.

وفي صباح يوم 31 كانون الأول تجمع ما يقرب من ثلاثة آلاف متظاهر، كانوا من العرب والتركمان أمام مبنى الحكومة المحلية. ورفعوا في تظاهرة شعاراتهم القومية وشوهدت الأعلام العراقية القديمة التي تحمل كلمة (الله أكبر) والتي أضيفت كما يفترض بخط يد صدام، كما شوهد العلم التركماني الأزرق. اللافتات كانت تقول بأن العرب والتركمان هم شعب واحد، ولا للفدراليات الإثنية. وبعد ما يقرب من

الساعة، انصرف أكثر المتظاهرين ولم يبقَ منهم سوى بضع مئات، هؤلاء قرروا التوجه إلى مبنى الحكومة المحلية والمجلس، إلى الشارع الذي تقطعه الدعامات الكونكريتية. وطلبت من أحد الضباط أن يوصلني إلى مبنى الحكومة وهناك التقيت برئيس المجلس تحسين والشيخ وصفي العاصي، بالإضافة إلى إسماعيل حديدي نائب المحافظ. وأثناء ما كنا مجتمعين يبدو أن بعض المتظاهرين قرروا أن يدخلوا إلى الشارع المقطوع بالدعامات الكونكريتية ولم يستجيبوا لتحذيرات القوات المتواجدة، فأطلقت النار عليهم وكان هناك بضع إصابات.

كان الشيخ وصفي العاصي قد التمس ألا نسمح بالتظاهرة لأنه يراها ستزيد من التوتر في المدينة. واجتمعنا بممثلين عن العرب والتركمان الذين كانوا يصرون على التظاهر ردّاً على المظاهرة الكردية، كانوا يريدون تأكيد الوجود العربي والتركماني في المدينة. في النهاية قررنا أنا والعقيد مايفيل بأن نسمح لهم بإقامة المظاهرة.

بعد ذلك دعا العقيد مايفيل قادة الأحزاب في المدينة والزعماء العشائريين وأهم الشخصيات إلى اجتماع للمصارحة حول الأحوال في المدينة، وقال لهم: «بكل صراحة، لو منعنا التظاهر فإن الناس ستفقد فرصة التعبير عن نفسها وطموحاتها، وعندها ما الفرق الذي سنشكله عن نظام صدام السابق». لقد سقط اليوم أربع ضحايا وعشرات الجرحى نتيجة إطلاق النار وتجاوز الحواجز الأمنية. ثم دفع العقيد مايفيل الجميع إلى تجنب سقوط المحافظة في حرب أهلية سريعة يصعب تفاديها فيما بعد.

في تلك الليلة، كان جنود اللواء 173 يستعدون للاحتفال بالعام الجديد، والشاشات تعرض برامج محطة CNN الناطقة بالتركية، وكان

هناك جزء من الاحتفال قد خصص لجنود الوحدة التركية المقاتلة من القوات الخاصة التي التحقت بقاعدتنا العسكرية، كنوع من إظهار الدعم والمشاركة لقوات التحالف. وجلسنا أنا والعقيد مايفيل نستمتع بعرض جديد لأحد الأفلام التي حصدت جوائز الأوسكار، ونشرب بيرة خالية (تقريباً) من الكحول.

ومع اليوم الأول من العام الجديد، أمر العقيد مايفيل جنوده بزيادة التواجد في شوارع المدينة من أجل فرض الاستقرار. لقد كان غاضباً من تصريحات بعض القادة الكرد التي ادعوا فيها أنهم اتفقوا مع الأميركيين على تغيير حدود المحافظة وطرد العرب «الجدد» الوافدين إليها. كنت أحمل الفضل دائماً لخدمة البي بي سي الاستطلاعية للأخبار والآراء في متابعة كل ما يقال عن المحافظة. ثم أعرب العقيد للقادة الأكراد عن قلقه من تصرفاتهم التي تزعزع الأمن في المدينة وتدفع البعض فعلياً إلى ارتكاب اعتداءات على القوات الأميركية. ثم أصرّ عليهم أن يكون لديهم مكتب سياسي واحد للتمثيل في المدينة، مثل باقي الأحزاب. لقد كانت لدينا شكوكنا بأن كلا الحزبين يستخدمان ما يقرب من مئة منظمة من منظمات المجتمع المدني كواجهة لأعمالهم الحزبية في الأوساط المدنية. وخلال يومين نفذت القوات الأميركية حملة دهم وتفتيش على مقر عدد من المنظمات المرتبطة بالحزبين الكرديين، وفي (جمعية رعاية قصار القامة الكردستانية) في كركوك، وجدت القوات الأميركية خزيناً مهماً من المقذوفات (RBGs) والرمانات اليدوية والمتفجرات. وأرسل المقدم كاراسليو المشرف على هذه العملية يقول: «في الحقيقة لم نجد أسلحة تتناسب مع قصار القامة في هذه الجمعية!».

وبلغني أن السفير بريمر سيأتي إلى الشمال من أجل لقاء جلال طالباني

ومسعود بارزاني، وخلال هذه الزيارة سيتوقف في كركوك لتناول الغداء معنا. وقبل وقت الغداء بدقائق هبطت طائرة بريمر في مهبط الطائرات، وسبقته بلحظات طائرة الجنرال أوديرنو الذي جاء لتقديم الدعم. ولم يكن لدينا الوقت الكافي لاستقبال الاثنين على الأرض، فالتقينا بهم عند بوابة مقر القيادة التكتيكي. رافق بريمر في تلك الزيارة السير غرينستوك، والسفير رون شليكر (Schlicher) الذي تم تعيينه حديثاً ليكون مسؤولاً عن شؤون شمال العراق. كما جلب معه اثنين من أعضاء الفريق الحكومي، ميغان أوسوليفان ورومان مارتينيز (Martinez).

وجلسنا لتقديم الإيجاز الذي اتفقنا عليه مسبقاً أنا والعقيد مايفيل، وقلت في الاجتماع: «إن الكرد يرغبون بتصحيح الأوضاع التي نشأت عبر خمسة وثلاثين عاماً من التطهير العرقي في كركوك، يريدون إتمام ذلك خلال فترة تواجد قوات التحالف. إن سعيهم الكديد لجعل كركوك جزءاً من إقليم كردستان العراق يجعل بالضرورة العرب والتركمان يندفعون إلى البحث عن حلفاء لهم في سوريا أو تركيا».

ثم قال العقيد مايفيل: «إن العودة السريعة لمجتمع كركوك جعلت غير الأكراذ يتخذون موقفاً شاكاً وحذراً»، ثم شرح جهودنا في العمل على خلق إطار مشترك للجميع من أجل إحلال السلام، ويتعاون الجميع في إدارة المدينة ونواحيها المدنية والإدارية اليومية، وهو أمر سيدفع المجموعات العرقية إلى الحوار والاستماع للآخر بدلاً من التقاتل.

وعلى المستوى الوطني، كانت كركوك تشبه إلى حد كبير كرة القدم التي تركلها أقدام اللاعبين في مباراة، أربيل والسليمانية من جهة، وبغداد من جهة أخرى، ثم أضاف العقيد مايفيل: «أما دورنا فيشبه الحكم بينهم!». رغم أنه عملياً كان «تحكيمياً في الجحيم»، على حد قوله.

لقد شرحت للحضور التكتيك الذي اتبعته الأحزاب الكردية، ففي البداية استولوا على المناصب العليا في الوظائف العامة في المدينة، وهيمنوا على الأجهزة الأمنية في المحافظة، ثم خلقوا حكومة ظل فيها. ثم أمضوا التعليم بواسطة اللغة الكردية واستبعدوا الطلاب الذين لا يتكلمون الكردية إلى مدارس أخرى. كانوا يشجعون الكرد على العودة إلى كركوك بينما يحثون العرب الجدد على مغادرتها. وعلى الأرض كانوا يدفعون باتجاه استعادة حدود عام 1976 التي كانت عليها محافظة كركوك. والهدف النهائي هو تأمين أغلبية كردية في كركوك حيث يتمكنون من إلحاقها بإقليم كردستان. ثم سأل بريمر عن الوجود المسيحي في كركوك، وقلت له إنهم أقل من باقي الإثنيات لكنهم عملياً يمتلكون تمثيلاً واسعاً، خاصة في الوظائف الحكومية حيث يكونون في العادة مرشحي تسوية مقبولين من باقي الإثنيات. إن الوجود المسيحي في العراق هو واحد من أقدم المجتمعات المسيحية في العالم. وخلال سنوات العقوبات في التسعينيات هاجر منهم الكثيرون، وبحلول عام 2003 كان عددهم في العراق قد بقي منه النصف فقط.

ثم طلب بريمر منا توصيات حول التعامل مع الوضع القادم والذي بدأ يلوح أمامنا، فاقترحت أن يتم العمل مع القادة السياسيين في بغداد عبر سلطة الائتلاف على بث روح التعددية بين أحزابهم الموجودة في كركوك. بعبارة أخرى، أن نعمل على دفع العراقيين إلى قبول آلية عمل مشتركة يتقرر مستقبل كركوك من خلالها. وأهم الفقرات أن نعمل على وضع استراتيجية تقرر الكيفية التي سيعود بها المرحلون من كركوك إليها، ثم نعمل على تسويات تتعلق بممتلكاتهم. وعلى الصعيد المحلي، يمكن أن نعمل على بناء جسور تواصل بين مختلف المجتمعات في المدينة، وأن يتفهم كل مجتمع مخاوف الآخرين وتحفظاتهم وتطلعاتهم. ثم علينا

أن نقنع الآخرين بأننا كسلطة ائتلاف (وكذلك قوات التحالف) يمكن أن نكون مساومين عادلين بين المجتمعات المختلفة في المحافظة.

سارت أمور عرض الإيجاز على أحسن ما يرام، وكنا سعداء، أنا والعقيد مايفيل أن تتاح لنا هذه الفرصة لعرض أفكارنا ومخاوفنا على أعلى مستويات سلطة الائتلاف. وبعد عرض الإيجاز طلب مني بريمر أن ألتحق بفريقه الحاكم العامل في بغداد بصفة مستشارة له لشؤون كركوك. لقد كان العقيد مايفيل هو من أثار الأمر أمام الجنرال أوديرنو، والاثنان يعرفان برغبتي باستمرار العمل في العراق، لكن كلاهما كانا يرفضان فكرة بقائي في العمل وحدي في كركوك بعد أن تغادرها قوات التحالف. أخيراً أتيح لي في النهاية الفرصة أن أدفع باتجاه إيجاد سياسات وطنية تساعد كركوك وتؤمن الهدف الذي جئت من أجله إلى العراق، صافحت بريمر وشكرته وقبلت العرض.

على مدى ثلاثة شهور، كانت لي حوارات مع المكونات الأساسية للبحث في الطريقة التي ننفذ فيها توازناً أفضل في مجلس المحافظة، وأوضحت للجميع أن ترك الأمور على حالها هو أمر غير مقبول وليس على خارطتي العملية. وعلى طاولتي، كانت هناك عريضة موقعة من قبل 10 آلاف مواطن من أهالي كركوك تطلب حلّ المجلس الحالي، ثم ارتأينا أنا والعقيد مايفيل أن نبقي على المجلس الحالي، وأن نضيف أعضاء آخرين يمثلون بلدات المحافظة المتنوعة. كنت أتأمل أن تكون زيادة رقعة التمثيل الجغرافي سبباً في تقليل التوتر، لكن لم يكن هناك وسيلة يمكن أن ترضي جميع الأطراف، فقط نتحرك آملين أن يعي الجميع أهمية التعايش السلمي وقبول الآخر. وفي ظهيرة أحد الأيام، دخلت إلى مكتبي سونغول عمر، وهي العضو التركماني في مجلس

الحكم. وقالت إن بريمر أخبرها أن عليها أن تتواصل أكثر مع كركوك لتقلل من فجوة سوء الفهم التي لمسها لدى الأعضاء عن أوضاع كركوك. ثم طلبت تهيئة منزل لها وسطت كركوك، ومكتب لها، بالإضافة إلى تمويل مالي لاستدامة منظماتها (كانت لديها منظمة من منظمات المجتمع المدني). والذي أثار ريبتي هو قولها بأنها ستشرف بنفسها على عملية استبدال المحافظ الحالي. قلت لها إنني استلمت المئات من الشكاوى من التركمان في كركوك، كلها تصبّ في اتهامها بأنها لا تمثلهم، إنها مجهولة بالنسبة لهم وليس لها أثر حقيقي على الأرض في المجتمع التركماني، وسألتها إن كانت ترغب بأن أكرر هذه الشكاوى إلى بريمر؟ حدّقت في وجهي صامتة للحظات، ثم هزت رأسها وكأنها فهمت المقصود وتركت المكتب.

وفي مساء يوم 14 كانون الثاني 2004، وقبل يوم من الاحتفال بتجديد مجلس المحافظة، التقينا في مأدبة عشاء في فندق القصر، ودعونا المحافظ ونائبه ورئيس المجلس وأعضاء المجلس بالإضافة إلى وجوه بارزة من مجتمع المدينة. كنّا قد أجرينا هذا التقليد في اللقاء كل أسبوعين لفتح أبواب الحوار بين المجتمعات المختلفة. كنت أشعر بأنني أهتم بالفعل لأمر هؤلاء الناس، وليس الأمر مجرد احترام لهم. سارت وقائع تجديد المجلس بسلاسة، وكانت الدبابات منتشرة حول مبنى الحكومة المحلية، وانتشر معها جنود اللواء في مفاوز لتأمين المنطقة المحيطة، وكان الحضور متميزاً في تنوعه من كل أنحاء المحافظة.

كنت قد أعددت كلمة كي يلقيها الجنرال أوديرنو في الحفل، لكن الطقس السيء منع طائرته من أن تقلّه إلى كركوك. فألقى العقيد مايفيل الكلمة نيابة عنه. وجاء في الكلمة أن العقيد يتذكر كيف تواجد في هذا

المكان قبل ثمانية شهور للمرة الأولى، وأنه ينظر الآن كيف تغيرت الأوضاع جذرياً في المحافظة عن ذلك اليوم. اليوم يقبع صدام في السجن، وقد هُزم أنصاره. ثم توجه بالخطاب إلى المحافظ ونائبه، وامتدح سعيهما في أن تكون كركوك مدينة للجميع دون استثناء أحد، وقال إن توسعة المجلس ستكون إضافة في هذا المجال، وقف العقيد وصفّق لجهود المحافظ ونائبه وتبعه المجلس بالتصفيق، هنا تأكدت أننا قد أحرزنا موافقة ثلثي أعضاء المجلس على إضافة الأعضاء الجدد، وهو ما طلبته منا سلطة الائتلاف في بغداد. وعلى الرغم من أننا أنجزنا الآن تمثيلاً أوسع في الانتشار الجغرافي، إلا أن المكونات الرئيسة ما زالت تنظر إلى المجلس بصيغة التمثيل الإثني. أصبح في المجلس الآن 12 من الأكراد، و9 من العرب، و8 من التركمان، و7 من الآشوريين، وبقيت 4 مقاعد شاغرة.

بالنسبة لي وللعقيد مايفيل فإن توسعة مجلس محافظة كركوك كان يمثل ذروة نجاحنا في العمل سوية، وهو آخر عمل سأضطلع به في كركوك بالشراكة معه، والآن حان وقت الوداع.

لقد بدأ جنود سكاي (قوات اللواء 173 المحمول جواً) بتسليم المهام للواء الثاني من الفرقة 25 من الجيش الأميركي. كان أمراً صعباً مشاهدة من يحل محل قادة اللواء 173، وكنت أتساءل، هل سيهتم القادمون الجدد بالكركوكيين بقدر ما فعل ضباط وجنود اللواء 173؟.

وفي المساء وقف العقيد مايفيل في مركز القيادة التكتيكي وألقى كلمة امتدح عملي فيها، وأشار إلى أنني تمكنت من التعامل مع كل النزاعات والمواجهات التي صادفتنا مع العراقيين خلال الشهور السبعة الأخيرة. وجاء دوري لألقي كلمة وداعية لهم، وقلت لهم: «إنني لم

يسبق لي أن عملت مع العساكر في حياتي، لكنني اكتشفت من مرافقتي لهم أنهم لم يكونوا بالصورة السيئة التي نسمعها بالعادة عن العسكر. وإن الحرب شيء سيء بالفعل، لكنني أقل قلقاً لو خيضت هذه الحرب من قبل جنود مثل هؤلاء، يتحلون بالالتزام والإنسانية المطلوبة. وفي كل الأحوال لقد كانت تجربة رائعة بالنسبة لي»، ثم صافحتهم واحداً واحداً وتمني لي الجميع النجاح في عملي القادم.

وقبل أن أشرع في عملي الجديد، أخذت إجازة لمدة أسبوع عدتُ فيها إلى بريطانيا، وقضيته في بيتي بمانشستر، جلست قبالة نار التدفئة. كنت متعبة جداً ومستنزفة عاطفياً. لقد شعرت بتغيير كبير فيما يتعلق بهذه التجربة، لقد ذهبت إلى العراق وفي ذهني أنني سأقدم يد العون في بناء السلام. ثم وجدت نفسي أعمل جنباً إلى جنب مع الجيش الأميركي وقد وقعت في عشقهم فعلاً. لقد جابهت كل الأفكار التي أومن بها تحدياً غير مسبوق. تصوّرت أنني سيتوجب عليّ أن أقدم الاعتذار إلى كل عراقي سأقابله، سأعذر عما عاناه من الحرب والنفاق والعقوبات. بدلاً من ذلك، وجدت أن العراقيين يرحبون بي، ويعملون معي بأذرع مفتوحة وعقول متفتحة.

عندما عدتُ هذه المرّة إلى كركوك، صار مفهوماً لديّ أن عليّ التأثير في العسكر الأميركيين من أجل تنفيذ ما أتوق إليه من أهداف، بدلاً من العمل عليها وحدي بمعزل عنهم. كان العمل مع متسبي اللواء 173 الأميركي لا يشبه أيّ تجربة سابقة مررت بها، وإنّي بالفعل أحببت كل لحظة من لحظات العمل تلك. لقد أتاح لي العقيد مايفيل أن أطلع على عمل اللواء القتالي من الداخل، وأن أستعرض بنفسي الكيفية التي يرون بها أنفسهم وعملهم، وأفضل ما في تلك التجربة هو

التمرّن على تقرير أيّ معركة يمكن أن يختارها المقاتل ليخوضها. لقد وفرت لي الوحدة العسكرية كل شيء من المأكل إلى مكان العمل، وأكثر من هذا، إنها حرصت على إيصال رسالة إلى العراقيين الذين عملت معهم، بأن الجيش يقف معي وخلفي في القرارات والمشاريع التي عملت عليها في العراق. وفي هذا المجال، يمكنني القول إنني رأيت أفضل ما في الولايات المتحدة، فيما يتعلق بنوعية الأشخاص الذين يرتدون البزة الرسمية.

ومع مطلع شباط عام 2004، انتقلت للعمل في القصر الجمهوري ببغداد، وهو مقر سلطة الائتلاف. لكنني ذهبت في رحلة عائدة إلى كركوك كي أحضر مراسم تسليم السلطة هناك. وفي الطريق مررت على تازة وداقوق والطوز، وأخيراً اقتربت من كركوك، وشعرت بتنمل وتحسس على شفاهي من أثر الغاز المحترق في الجو والمنبعث من حقول النفط.

كانت شوارع المدينة تشهد تواجداً للقوات الأمنية العراقية، أحسست بزهوهم وهم يرتدون زيّهم الجديد، وأراهم اليوم ممسكين بنقاط التفتيش بدلاً من القوات الأميركية، في الحقيقة لم يعد للأميركيين ذلك الوجود الكثيف في الشوارع وعلى الطرقات.

في ذلك اليوم التحقت بالعقيد مايفيل إلى مأدبة غداء أقامها (بيرو طالباني)، كان يقطن في منزلٍ قديمٍ مجاورٍ لمسجد الطالباني في المدينة، وكان المنزل يعود لهم منذ قرون خلت. بيرو هو أحد أقرباء جلال طالباني، وقد أمضى بعض الوقت في سجون صدام. كان يسكن مع شقيقتيه (هاوري) و(بيري)، ولم يسبق له الزواج هو أو أيّ من شقيقتيه. كانوا على جانب كبير من الترحاب، وجعلونا نشعر وكأننا

أصحاب حقيقيون لهم، وليس قوة محتلة. كان بيرو قد أصرّ على العقيد أن يمضي آخر ليلة له في المدينة في ضيافته.

في صباح اليوم التالي مرّ بي كلٌّ من العقيد مايفيل وحسين كارا واصطحباني إلى الشعلة الأبدية لحقول كركوك النفطية في بابا كركر. تلك الشعلة التي تنتج من انبعاث الغاز الطبيعي من شقوق الصخور. لقد كانت هذه الشعلة موجودة لعدّة قرون خلت، حتى إنها ذكرت من قبل هيرودوتس. وفي ذلك الموقع اكتشف النفط في العراق لأول مرّة عام 1927. ومن تلك التلّة وقفنا نراقب شروق الشمس وهي تخرج على كركوك التي صرنا نعرفها أكثر من أي وقت مضى. كنّا نشرب الشاي الساخن في الكؤوس العراقية التقليدية الصغيرة.

بعد ذلك جرت مراسم تسليم السلطة والمسؤولية في منتصف نهار ذلك اليوم، 19 من شباط على أرض المطار في القاعدة العسكرية. وقد حضر كل أصدقائنا في كركوك ليشهدوا المناسبة، ووقف جنود اللواء المظلي 173 إلى جانب جنود القوات الأمنية العراقية، وإلى جانبهم جنود اللواء الثاني من الفرقة 25 الأميركية. وجلس كل من الجنرال أوديرنو والعقيد مايفيل والعقيد مايلز (Miles) في منصة التحيّة. وكعادة السياقات العسكرية احتراماً لحضور الجنرال أوديرنو فقد وضع أفراد اللواء الثاني شارة الفرقة الرابعة التي يقودها أوديرنو، كرمزية للتعبير عن قبولهم به كأب وقائد لهم. ثم وقف أوديرنو ليصف منجزات اللواء المظلي 173، وعملية الإنزال التي قام بها شمال العراق، لقد كانت رحلة الإنزال تلك هي الأطول في التاريخ العسكري للإنزالات المحمولة جواً، فقد انطلقت بهم الطائرات من إيطاليا ليقفزوا عن هدفهم قاطعين 1800 ميل عن نقطة انطلاقهم. الآن يحقّ للواء إضافة

نجمة ذهبية إلى رمز المظليين الذي يمثله، وهي التي تعرف بين الجنود باسم (بقعة الخردل). كان اللواء المظلي قد فقد 9 من جنوده خلال عملية الانتشار التي انتهت اليوم بهذه المراسم، وأصيب من جنوده 95 فرداً في أعمال قتالية وغير قتالية مختلفة.

ثم انبرى الجنرال أوديرنو يذكر أسماء جنود اللواء الذين لن يعودوا إلى ديارهم وقد خسرهم رفقاؤهم:

نائب العريف سين رينولدز. نائب العريف جستن هيرت. العريف الاختصاصي كريغ آيفوري. العريف الاختصاصي كايل ثوماس. الملازم أول ديفيد بيرنشتاين. الجندي أول جون هارت. الجندي أول جايكوب فليتش. العريف سيرجنت مينوتشي. العريف مايكل ياشينسكي.

ثم أثنى الجنرال أوديرنو على عملي مع اللواء قائلاً إنه كان مثلاً للتعاون الممكن بين المدنيين والمؤسسة العسكرية. ثم رحّب العقيد مايفيل بخليفته -العقيد مايلز- متمنياً له تحقيق كامل مهامه الجديدة، وكرر الشاء على جهودي، ولحظتها لم أستطع كبح دموعي. بعد ذلك وقفنا نراقب مراسم طيّ علم اللواء المغادر ورفع علم اللواء الجديد مكانه. بعدها ذهبت مع الجنرال أوديرنو والعقيد مايفيل إلى مكاننا خلف مركز القيادة حيث جلس الرجلان السيکار فيه للمرة الأخيرة، وأوصلت العقيد مايفيل إلى سلّم طائرته وتوادعنا.

بعد مغادرة العقيد وأركانها، جلست وحيدة في حالة من السكون الطويل، كنت على مدى شهور أحاول أن أشرح لضباط اللواء بأن لا أحد يمكن أن يحب قوة عسكرية تغزو بلده، والآن أنا أجلس منكسرة بسبب عاطفة جياشة ربطتني بهذه القوة المحتلة التي حاولت تقديم الكثير، والآن أراها تغادر. اصطحبني حسين إلى (كافيه كردستان) شمال

المدينة مساءً، كان العقيد مايفيل قد أجبرهم على إزالة اللافتة الكبيرة التي وضعوها قبل شهور، والآن عادت اللافتة بأكبر من السابق، ومعها خارطة ضخمة تصوّر كردستان تمتد حتى بغداد، وفيها نصف سوريا وربع تركيا وأجزاء من إيران. وفي رسالة إلكترونية في تلك الليلة كتبت إلى العقيد مايفيل أقول: «ربما يمكن لبلاد ما بين النهرين أن تنتفع دائماً بأفضل ما عند أولئك الذين عشقوها».

الفصل الخامس

الحياة في القصر الجمهوري

أصبح القصر الجمهوري الآن مكاناً يختلف كثيراً عن ذلك المكان الذي زرته في الصيف الماضي. وتوفر التكييف الحار والبارد، ولم يعد العاملون ينامون في الممرات أو في القاعات، فقد انتقلوا كلهم إلى مقصورات خاصة بهم. وصارت هناك حمامات ومرافق صحيّة كلّها تعمل داخل الأبنية. لقد أصبحت (المنطقة الخضراء)، الآن شيئاً مختلفاً وشاداً عن محيطه. أربعة أميال مربّعة من المساحة المحاطة بالجدران الكونكريتية العالية قد فقعت مثل فقاعة وسط بغداد، كل سكّانها من الأجانب، ولا يراهم سكّان المدينة، ولا يدخل إليهم سوى العراقيين من الذين يحملون باجات تعريفية أصدرتها سلطة القوات الأميركية حصراً، ويدخلون عبر نقاط التفتيش التابعة لها حصراً. وبالإضافة إلى القصر الجمهوري، تحتوي المنطقة الخضراء على فندق الرشيد، ومركز المؤتمرات (قصر المؤتمرات) الذي يعقد فيه مجلس الحكم العراقي اجتماعاته، ووزارة الدفاع، وعدد من الفيّلات الكبيرة، التي كانت تعود إلى أعضاء كبار في حزب البعث. الآن استولت على تلك الفيّلات سلطة الائتلاف وبعض المسؤولين العراقيين الرسميين.

كان المقر المخصص لإقامة أعلى ضابط بريطاني في الرتبة يُطلق عليه اسم (منزل مود)، وهي فيلاً تبعد مسيرة عشر دقائق على الأقدام من القصر الجمهوري. أمّا أنا فقد تم تخصيص مقصورة لي كانت منصوبة في كراج السيارات التابعة لـ (منزل مود)، وبالإشتراك مع مواطن بريطاني آخر يعمل في العراق. لكنني سرعان ما تمكنت من تأمين مفتاح لمقصورة أميركية من تلك التي جرى تخصيصها لموظفي الأمم المتحدة. وفي مقصورتي الجديدة، كانت هناك غرفة للنوم، وغرفة للمعيشة، ومرحاض منفصل، وحمام داخلي يتوافر على الماء الساخن. كانت هذه المواصفات تعدّ ترفاً فيما يتعلق بما هو متوافر داخل المنطقة

الخضراء آنذاك. كنت أستمع إلى أخبار عودة موظفي الأمم المتحدة المرتقبة إلى العراق. كان مكتبي يبعد مسيرة دقيقتين، ودقيقة واحدة عن القاعة الرياضية، وثلاث دقائق عن قاعة الطعام. وقد بدأت في قاعة الرياضة بعمل تمارين تفيد القلب والأوعية الدموية. وبعد ندرة تنوع الأطعمة في القاعدة العسكرية بكركوك، فقد بدت الحالة في القصر الجمهوري تمثل تغييراً كبيراً في كمية ونوعية المأكولات. كانت هناك وجبة إفطار، ووجبة غداء، ووجبة عشاء، وهناك عشاء متأخر أيضاً. كانت النوعية والإضافات تمثل نقلة مهمة، الدجاج المقلي مع (بطاطس الحريرة)، متوفرة تقريباً في كل الوجبات. ويجري تقديم المأكولات كلها في صحون وأدوات بلاستيكية. كما تتوفر الفواكه والخضروات التي يجري جلب العديد منها من خارج العراق.

رحب بريمر بي بمصافحة حارة، ودعاني إلى التعرف على الفريق العامل معه (فريق الحاكم بريمر)، كانوا مجموعة من الأميركيين المعيّنين والبعض منهم يعمل في الخارجية الأميركية. كان هذا الفريق يمثل مجموعة من المستشارين الذين يمكن لبريمر أن يستفسر منهم ويطلب معونتهم أو يكلفهم بعمل في أي ساعة من الليل أو النهار، وفي أي موضوع يمر به. لكن كان من الواضح جداً أن هناك (دائرة داخلية) مقربة من بريمر ضمن هذا الفريق. والآن ستكون مهمتي هي التنسيق بين مكتب بريمر وكل الشؤون المتعلقة بالشمال (وبصورة خاصة كركوك)؛ لكنني سأبقى خارج هذه الدائرة الداخلية.

يعمل فريق بريمر في مقر له يقع في النهاية الشمالية من القصر الجمهوري، في قاعة كانت بالأصل تستعمل كمطبخ. كانت غرفة طويلة وذات مناوئد على جانبيها، وتم تخصيص كومبيوتر مع وصلة إنترنت

لي. كما مُنحتُ جهاز هاتفٍ خلوي برقم أميركي، مما يعني أن أيّ أحدٍ من العراقيين لو أراد الاتصال بي فإنه سيضطر إلى خوض اتصال مكلف للغاية يمرّ عبر الولايات المتحدة ليصل إليّ.

وفي كل صباح عند الساعة التاسعة، يعقد السير جيرمي غرينستوك اجتماعاً لكبار الموظفين البريطانيين العاملين في سلطة الائتلاف. ومعظم العاملين البريطانيين هناك إنما قدموا من وزارتي الخارجية أو الدفاع. كان غرينستوك يفتح الجلسة بإطلاعنا على آخر مستجدات الأوضاع السياسية والأمنية، ثم يتيح الفرصة لكل منا أن يدلي برأيه فيما يخص مجال عمله. لكنه يشاظرنا دائماً بعضاً من قلقه حول تطورات الأوضاع وبعض القرارات التي تتخذها سلطة الائتلاف.

غرينستوك كانت لديه معرفة مذهشة وسعة اطلاع تثير الإعجاب، مصدرها أربعون عاماً من العمل الدبلوماسي حول العالم، بما في ذلك العمل في العالم العربي والأمم المتحدة. لقد كانت تلك الاجتماعات بمثابة مصدر معرفي بالنسبة لي. كانت سخرية غرينستوك تتناقض مع التفاؤل اللامحدود الذي يديه بريمر، الذي لا يمنح نفسه حتى فرصة وضع بعض الشكوك في مسار عمله. كنت أتمنى لو أنهما عملاً معاً بأفضل من تلك التناقضات. كانت الأمور تتوضح يوماً بعد آخر بأنها تمضي إلى الأسوأ في العراق بما لا شك فيه. رافقت غرينستوك في عمله في العراق زوجته آن، والتي كانت تعمل على قضايا الديمقراطية المدنية. أما مكتبه فقد كان يضم سايمن شيركلف (Shercliff)، وهو دبلوماسي شاب يتمتع بالحيوية والنشاط، بالإضافة إلى رعد القادري، وهو حامل لشهادة دكتوراه من أوكسفورد ومن أصل عراقي.

وفي ثاني الأيام لي في بغداد، طلب روبرت بلاكويل (Blackwill)،

الذي كان في زيارة إلى بغداد، طلب لقائي. كان بلاكويل يشغل منصب مساعد وزيرة الخارجية الأميركية لشؤون الأمن الوطني، وله التأثير الكبير في توجيه سياسة سلطة الائتلاف في بغداد، وقد سبقته سمعته بأن من الصعب للغاية العمل معه. التقيته في غرفة صغيرة خلف مكتب السفير بريمر، وبدأ حديثه بأن ذكر لي اقتراح بول ولوفوفيتز عليه بأن يلتقي بي. لم يكن راغباً بسماع أيّ إيجاز مني عن كركوك، لكنه بدأ اللقاء بسؤالني عن أيّ مجموعة من مجاميع اللغات تنتمي إليها اللغة الكردية. ثم سأل عن الفنون والموسيقى لكل مجموعة إثنية في كركوك. ثم سأل عن الأكلات الشعبية التي تعزبها كل إثنية هناك، ثم سألتني التالي: «لو كان هناك 8 رجال عراة من كركوك يقفون في هذه الغرفة، فهل يمكن لك أن تميزي إثنياتهم من ملامحهم الجسدية؟». ولم أكن واثقة بأن هذا السؤال كان مناسباً أن يطرح، خاصة وأنه يصدر أمامي الآن عن مسؤول رسمي أميركي. لكنني أجبتة وسط حالة الذهول التي أصابتني بأنني أنا نفسي لن أكون قادرة على التمييز، لكن ربما أمكن ذلك للكركوكيين. ثم انشغلنا معاً بنقاش مطوّل عن السياسات المختلفة، والمواريث التاريخية للمنطقة والعراق التي تؤثر في الأوضاع اليوم، لكن النقاش معه ذكرني بالمناقشات الامتحانية في أوكسفورد.

وعن الإرهاب، قلت له إن أفعالنا تتسبب في إنتاج ردود لها. وسأل عن احتمالات اندلاع الحرب الأهلية في العراق خلال خمس سنوات، فأجبتة بأن الفرص (مرتفعة) في الواقع، لكنني كنت أتحدث عن العرب والأكراد. في عملي الجديد، سرعان ما أدركت بأنني لو كنت بحاجة إلى إنجاز أيّ شيء في بغداد فيتوجب عليّ بناء الأحلاف مع الآخرين. فالمعلومات لم تكن تصلني بسهولة، لقد كنت أحصل عليها من خلال المناقشات، وكان هناك العديد من الطامحين الذين يرغبون ببناء ذواتهم وأنفسهم

من خلال العمل في العراق. ولأجل القضايا المتعلقة بكركوك، فهم بحاجة إلى عقد تحالفات مع أشخاص يثقون بهم. وبين المجموعة التي كنت أعمل معها وجدت ثلاثة أشخاص رائعين يستحقون المديح، كانوا دبلوماسيين متميزين، وهم: رُون شليكر (Schlicher)، وكريس روس (Ross)، ورُون نويمان (Nuemann). الثلاثة أمضوا مدة طويلة من عملهم في الشرق الأوسط، وعشقوا الثقافة الجديدة عليهم، وكان لديهم انجذاب طبيعي إلى الناس.

رُون شليكر كان على وشك الذهاب إلى سِدني سفيراً لبريطانيا حين قبل بالعمل في العراق، حيث باشر العمل في مكتب السفير مسؤولاً عن التواصل مع المحافظات، بينما كان الآخرون مسؤولين عن التواصل مع أعضاء مجلس الحكم الخمسة والعشرين. لقد كان اختياراً مناسباً جداً لمكانه باعتباره يتكلم العربية بطلاقة. ولفترة مهمة شكل رُون شليكر بالنسبة لي مصدراً مهماً لفهم ما يحدث في باقي أنحاء العراق، بينما كنتُ منغمسة في شؤون كركوك. وصف لي كيف أن إغلاق الكثير من المؤسسات الحكومية، وعملية اجتثاث البعث، وحلّ الجيش العراقي السابق، كل هذه تركت مئات الآلاف من الناس بلا عمل ويحملهم الغضب دائماً. وفي الكثير من المناطق العراقية، كانت استجابة الجيش الأميركي للقلاقل والاضطرابات تنحصر في ضرب أطواق كبيرة، واعتقال الذكور في سنّ حمل السلاح. والآن بلغ عددهم عشرات الآلاف في حوزة قوات التحالف، وليس هناك منظومة معتبرة للتعامل مع المعلومات عنهم، كما لا تتوفر معتقلات مناسبة لإيوائهم، فضلاً عن غياب الوسائل المعقولة للتواصل مع عائلاتهم. كانت لرون مواجهات يومية مع المسؤولين العسكريين الأميركيين من أجل إطلاق سراح معتقلين عراقيين.

أما كريس روس، فقد كان سفيراً أميركياً متقاعدًا، ومديرًا تنفيذياً لإحدى المنظمات غير الحكومية. تسبّم روس مواقع مهمة خلال حياته العملية، من بينها منسق لشؤون مكافحة الإرهاب، وسفيراً في سوريا، وسفيراً في الجزائر. كان يجيد العربية كإجادة للإنكليزية حيث ترعرع بالأصل في الشرق الأوسط.

أما رُون نيومان فقد خدم كسفير للولايات المتحدة في البحرين. وقد جرى سحبه من هناك للعمل مع وزارة الخارجية العراقية بعد 2003. وقد شرحت له كيف أن كركوك تحتاج إلى رعاية من نوع خاص، بالإضافة إلى التزامنا الأخلاقي تجاه العراقيين؛ لقد غزونا هذا البلد، وأسقطنا صدام حسين، ووعدنا العراقيين بحياة أفضل. وإذا حدث وأن انحدرت البلاد إلى الحرب الأهلية، فلن نجد أحداً ليُشكرنا. لقد خسرنا أرواحاً في كركوك، ومن أجل هذه الخسارة، ومن أجل عوائلهم علينا أن نجعل من كركوك مكاناً أفضل كي لا تذهب تضحياتهم سدى.

لكنه أجابني بأن له أصدقاء أيضاً سقطوا في فيتنام، أو خلال أزمات الرهائن. ومع هذا، فإن الوفاء للراجلين ليس سبباً يدعونا إلى التحرك، إن الدافع الأساس يجب أن يكون مصلحة الولايات المتحدة وبريطانيا، فإن كنّا سنساعد الناس من أجل جعل حياتهم أفضل وأكثر أمناً، فإن ذلك يجب أن يصبّ في مصلحتنا أيضاً وقبل كل شيء.

ومع اقتراب شباط من نهايته، ازداد الجدل بشأن الدستور المؤقت، والذي عرف بـ(قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية). وتوجّهت إلى مبنى مجلس الحكم، كان من الجيد رؤية الوجوه المألوفة للقادة الأكراد مرّة ثانية. ووقفت أتبّادل بضعة أحاديث جانبية مع جلال طالباني وبرهم صالح، وفي البداية لم ألمح مسعود بارزاني كونه كان يرتدي بدلة رجالية

بدلاً من زيّه الكردي التقليدي. وقد استغرقني بعض الوقت كي أفهم أن المرأة التي تبتسم بوجهي وتلوّح لي بيدها كانت هي سونغول. كانت قد استبدلت زيّها المحافظ وصبغت شعرها باللون الأشقر، وترتدي زيّاً عصرياً. ويبدو عليها بالتأكيد التمتع بحياتها الجديدة كعضو في مجلس الحكم. لحظتها كنت سعيدة أن أراها مجدداً.

وخلف الكواليس، كانت كركوك قد استغرقت الكثير من المناقشات في إعداد قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية، وكانت محطّ جدل طويل مع الأكراد. وفي النهاية تم تضمين القانون عدّة مواد تتحدث ضمناً عن كركوك، وبشكل خاص الفقرة 58 منه. هذه الفقرة تؤكد أن على الحكومة الانتقالية أن تضمن للمرحلين عن كركوك خلال فترة التغريب أن «يعاد توطينهم في المدينة، وأن ينالوا التعويض المناسب، وأن توفّر لهم الحكومة أماكن جديدة، ويمكن أن تخصص لهم أراض جديدة في المحافظات التي قدموا منها، مع نيل التعويض المناسب». كنت أعلم أن الكلمة التي تعني في النص الإنكليزي (يمكن) قد تترجم إلى كلمة (يجب) في النص العربي، لكن لم يكن هناك في مجلس الحكم من يلقي بالاً لعواقب ما قد يحدث في كركوك لاحقاً.

وفشل تحديد موعد أولي لتوقيع قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية، حيث كان من المقرر أن يجري نهاية شباط، وتم تأجيل مراسم التوقيع إلى 6 آذار.

وفي يوم 6 آذار اجتمعت وسائل الإعلام في قصر المؤتمرات، وجاء المحافظون والدبلوماسيون والوزراء من كل مكان لحضور المناسبة. وحتى الأطفال كانوا يقفون متأنقين لتقديم وصلة غناء بالمناسبة، لكن أعضاء مجلس الحكم لم يظهر أحد منهم لغاية تلك اللحظة. كان الأعضاء

الشيعة غير راضين عن الفقرة 61/ ج. والتي تنصّ على أن الدستور لن يكون مُجازاً أو مُقرّاً إن حدث وصوّت بالصدّ منه ثلثا الناخبين في ثلاث محافظات. كانت تلك الفقرة مهمة للغاية للأكراد، الذين يريدون عبرها أن يثبتوا للناس في كردستان أن إرادة محافظاتهم ستمضي، وسيؤخذ بها من قبل الجميع. كانت تلك الفقرة قد جرت مناقشتها في مجلس الحكم، لكنهم في مراجعتهم مع النجف خشوا أن يحدث مرّة أخرى وتمضي إرادة الأقلية بالصد من إرادة الأغلبية الشيعية.

ومع اقتراب النهار من الانتصاف، كنت متواجدة هناك حين خاطب بريمر أعضاء مجلس الحكم بالقول إن هذا القانون هو الوثيقة الأهم في تاريخ العراق الحديث. وإن الفشل في توقيعها سيتسبب في إحداث ضرر بالغ بمستقبل العراق ومجلس الحكم نفسه، لكن إن تم تصحيح هذا الشيء بسرعة فإن التاريخ سيغفر لهم. وفي 8 من آذار حضرت مجدداً إلى قصر المؤتمرات، وكانت الاستعدادات على نطاق أضيق مما حدث قبل يومين. كانت هناك منصّة معدّة لأعضاء مجلس الحكم. فكان كل عضو من أعضاء المجلس ينهض من مكانه ليوقع الوثيقة، ثم يجلس على المنصّة في مكان مخصص. ثم أقيت الكلمات وغنّى الأطفال، ووقف مسعود بارزاني وقال: «لأول مرّة في حياتي، أشعر بأنني عراقي»، قالها بالكردية ثم بالعربية.

كان فريق الحاكم بريمر قد ملئ بالسعادة والفرح نتيجة توقيع القانون أخيراً، وأصبح ساري المفعول. لكن هذا القانون لم يجر إطلاع العراقيين المواطنين عليه، ولم يجر تواصلهم مع التفاصيل التي رافقت إعداده. لكن الفريق الحكومي كان سعيداً بتمريره، وبالأخص لما فيه من بنود تحترم حقوق الإنسان. وسرعان ما ظهرت التشكيّات والاعتراضات

عليه، فقد دعا مقتدى الصدر إلى إلغاء هذا القانون، وإلى حلّ مجلس الحكم. كما شعر التركمان بالإهمال والتهميش. أمّا اليزيديون فقد اشتكوا من أن قانون إدارة الدولة لم يتطرق لهم بتاتاً. في المقابل، فقد كان على سلطة الائتلاف الترويج لهذا القانون. لكن السؤال هو: «من هي الجهة التي يجب أن يناط بها الترويج لأفق عمل هذا القانون. الجواب هو أعضاء مجلس الحكم، لكن كيف هذا الحال إن كان الأعضاء بينهم من يعترض على نص الوثيقة - قانون إدارة الدولة لمرحلة الاتحادية».

كنّا جميعاً نحتشد عند التلفزيون يوم 31 آذار 2004 لنشاهد بعين مرعوبة الأخبار عن مقتل أربعة من المتعاقدين الأمنيين الأميركيين في الفلوجة. أطلقت عليهم النيران في كمين، ثم استوقفوا وسحبوا من سياراتهم وتم قتلهم بصورة شنيعة، ثم علّقت بقايا أجسادهم المحروقة على جسر فوق نهر الفرات.

كانت وحدات الفرقة 82 قد سحبت في ذلك الشهر معظم قطعاتها من الفلوجة، وانتشرت محلّها القوات الأمنية العراقية. وتبعها ضغط أميركي هائل يطالب بالرد، وضربت القوات الأميركية طوقاً من الدبابات والمدفعية حول المدينة تمهيداً لخوض معركة تستأصل منها ما يقرب من 2000 مقاتل متمرد. ومع لحظة بدء العملية العسكرية، تلاشت القوات الأمنية العراقية تماماً، وسقط المئات من العراقيين قتلى قبل أن يتحرك مجلس الحكم ويحاول إقناع القوات الأميركية بوقف إطلاق النار والتفاوض. كان حصار الفلوجة والتمرد المتنامي فيها قد أخذ اهتمام وانشغال سلطة الائتلاف. الواقع العراقي شهد رعباً عميقاً، وكان هناك المئات من القتلى. ومن تلك النقطة، بدأ العنف في العراق يزداد بثبات. كما تكررت الاعتداءات على المنطقة الخضراء، وفي كل مرة يعلن مكبر

الصوت أن على الأشخاص الاختباء من القذائف والتوجه إلى ملاجئ تحمي منها. كنت في العادة أستند إلى الجدار كي أتفادى أن أدهس من قبل المارينز وهم يتراكمون. وكانت المروحيات تنقل الجنود الجرحى طوال النهار، مرة تنقلهم إلى المنطقة الخضراء، وفي مرّات أخرى تنقلهم خارج المنطقة الخضراء. ثم تقلّص التواصل مع العراقيين، وتحولت المنطقة الخضراء أكثر فأكثر إلى ما يشبه الحصن المغلق. وبعد أسابيع قليلة، توقفت أصوات المكبّرات التي تعلن الإنذار، لا أعرف في الحقيقة إن كانت قد تعطلت أم إنها قد تم احتسابها أداة تؤثر سلباً على الروح المعنوية للجيش والعاملين في المنطقة الخضراء. المهم لم يكن هناك المزيد من حالات الإنذار أو الركض باتجاه الملاجئ.

في القصر الجمهوري، كانت الشائعات لها حيز جيد، ولا نتوقع خلّوه منها. وسمعت كلاماً يقول إن هناك من ضبط محاولة لتهديب الأسلحة إلى داخل المنطقة الخضراء. ثم حدث أن طعن أحد الجنود ببشاعة في عنقه، وعلى الفور تم ربط الحادث بأنه عمل عدائي له علاقة بالتمرد في العراق ضد وجود القوات الأميركية، لكن اتضح فيما بعد أنها جريمة تتعلق بعلاقة مثلية بين جنديين وكان هناك منافس ثالث دخل على الخط.

لاحقاً، تم نقل كل البريطانيين إلى مقر جديد للإقامة يقع إلى جوار قصر المؤتمرات، عبر الشارع من فندق الرشيد. وتم وضع صف طويل من المقصورات في مكان كان يستعمل كموقف داخلي للسيارات، وبالتالي فإن السقف الإسمنتي، والجدران تشكل حماية ممتازة من القذائف فيما لو سقطت. وأخيراً صار لي مقصورتي الخاصة، قريباً من القسم الذي يتوفر فيه مكان عام للغسل وقريباً من (بار للمشروبات)،

وبعد جدل حول تسمية هذا المكان الجديد اختير له اسم (جرف المحيط)، للدلالة الرمزية عليه. وحدث أن أصيبت الحافلة التي تقلنا يومياً إلى القصر الجمهوري بقذيفة مورتر، فعدت إلى استخدام سيارة خاصة للذهاب إلى القصر، وكانت التوصيات بأنه يتوجب عليّ في كل مرة أصعد فيها إلى السيارة أن أفحصها من الأسفل، لأتفقد إن كانت قد ربطت بها قبلة لاصقة. وفي كل مرة كنت أنسى وأتذكر بعد أن أكون قد قدت السيارة لمسافة!. وحدث أن تعرّضت إمدادات الطعام إلى نقص كبير، خاصة بعد أن أخذ المتمردون يستهدفون القوافل الناقلة بكثافة. انعدمت تقريباً الخضار والفواكه من قائمة طعامنا. لجأ الطباخون إلى حيلة أن يغيروا أشكال الطعام وطريقة تقطيعه وتقديمه، في وسيلة للحفاظ على الروح المعنوية. كما شهدنا نقصاً في الصواني والشوكات المستخدمة في الطعام. وقد صدرت تعليمات أمنية صارمة؛ يتوجب ارتداء الخوذة والدرع المضاد للرصاص في كل مكان أثناء الحركة داخل المنطقة الخضراء، كما يتوجب التوقف عن الذهاب إلى أي مكان غير مؤمن إلا بإخطار مسبق، بما في ذلك (القاعة الرياضية)، وتوجب الامتناع عن التجوّل أو ركوب الدراجة الهوائية حول المنطقة الخضراء، كما ألزمنا بحمل الهاتف الخليوي والراديو في كل مكان نتواجد فيه.

ثم وصلتنا منشورات من كل أنحاء العراق من مختلف المجاميع الجهادية، وأهمها كتاب ثورة العشرين (التسمية تتبع الانتفاضة التاريخية بالضد من البريطانيين سنة 1920). كانت المنشورات تحذر العراقيين من التعاون مع قوات التحالف، وتوعد أولئك الذين ينخرطون في القوات الأمنية العراقية. وذكروا أن هجماتهم كانت ثاراً للضحايا الذين سقطوا في النجف والفلوجة.

أرسلت عبر رسائل إلكترونية بعضاً من دواعي قلقي إلى العقيد مايفيل، الذي كان في ذلك الوقت قد عاد إلى إيطاليا. كان اعتقادي يزداد يوماً بعد آخر، بأن قوات التحالف باتت لا تعرف من تقاتل الآن. ففي تلك اللحظة كانت تتوفر عناصر في العراق لم تكن موجودة قبل سنة. كانت المقاومة المحلية للوجود العسكري الأميركي قد تشابكت مع الميليشيات الإسلامية. وبات عدد أكبر من العراقيين الذين رحّبوا بنا في بداية التحرير من سلطة نظام صدام، أصبحوا الآن راغبين برحيلنا بأسرع وقت ممكن.

أما المتحدث الرسمي باسم قوات التحالف، فقد استمر بإلقاء اللوم في تصاعد العنف على عناصر النظام السابق، والصداميين، وعندما حدث وأن قصفت قوات التحالف عن طريق الخطأ حفلاً للزفاف، وكان هناك أكثر من أربعين ضحية، فإن المتحدث الرسمي قال ضمن تبريراته: «حتى الأشرار يمكن أن يقيموا حفلات زفاف!».

وانتهى عمل غرينستوك في العراق، وأخلفه في منصبه ديفيد ريتشموند (David Richmond)، الذي أرسل لنا جميعاً كبريطانيين عاملين في العراق رسالة يشكرنا فيها على «إصرارنا ومجالدتنا». وشكرنا فينا بأننا كنّا جميعاً متطوعين، ولم يجر أيّ ضغط على أي أحد منا كي نعمل في العراق. لكنه نسي أن يذكر أن الطريق إلى المطار كان قد أعلن طريقاً غير آمن، وبالتالي لم يكن هناك أي مهرب لأحد سوى أن يطير بالمروحة إلى المطار لو أراد السفر. كنت قد ذهبت إلى المطار قبل أيام برفقة الأخضر الإبراهيمي بالطائرة المروحية، واضطر الطيار أن يرتفع ثم ينقض عمودياً ثم يدور في التفافة حادة، في خطّة للمراوغة والهروب من نيران محتملة قد تستهدف الطائرة. صار وجود الأخضر الإبراهيمي

في القصر الجمهوري أمراً مألوفاً. كان الإبراهيمي الجزائري الأصل، دبلوماً سياسياً قديماً ومعروفاً بسمعة حسنة عبر إنجازاته في تشكيل (اللويا جيركا) في أفغانستان. في ذلك الوقت عيّنه كوفي عنان الأمين العام للأمم المتحدة كممثل خاص له في العراق للإشراف على تشكيل جمعية وطنية مؤقتة تتسلم السلطة من سلطة الائتلاف المؤقتة.

وفي 9 أيار 2004، حضرت مأدبة في (منزل مود) على شرف الأخضر الإبراهيمي. أقام المأدبة الجنرال جون ماكول (John McColl)، كانت تربطه بالإبراهيمي معرفة قديمة منذ أيام العمل في أفغانستان. كان الجنرال ماكول قد وصل حديثاً إلى العراق، ويتسّم أعلى رتبة في وحدات الجيش البريطاني المتواجدة هنا. وفي اليوم التالي، رافقت الجنرال ماكول في جولة إلى الشمال، وفي أربيل حيث جلسنا في فندق (خان زاد)، التفت إليّ وسألني: «هل تظنين بأننا نواجه إخفاقاً استراتيجياً في العراق؟». فكانت إجابتي: «نعم... بلا شك إن هذا ما نواجهه».

كانت مثل تلك الشكوك والأسئلة نادراً ما تُطرح داخل أروقة سلطة الائتلاف ببغداد، ولهذا كان من المستحيل التطرق إلى تفعيل استراتيجيات جديدة أو طرح أخرى بديلة. كنّا نتبادل نوعاً قاسياً من المزاح الواقعي، ففي القاعة الرياضية، كنّا نذهب جميعاً إليها في السابعة مساءً. كان سكوت كاربنتر وهو كبير موظفينا يقول: «إن علينا أن نقوّي عضلات الجزء العلوي من أجسادنا كي تعيننا على التعلّق بالطائرة المروحية لو اضطررنا للهروب!... كما يتوجب تقوية عضلات أرجلنا كي تكون قادرة على رفس من يتعلّق بنا من الأسفل».

وبما أننا كنّا عالقين داخل المنطقة الخضراء، لا يمكن لنا مغادرتها، وبوجود الهرج والفوضى في الخارج، فقد كان العاملون في الداخل

يبحثون عن متنفس لهم. وبالإضافة إلى القاعة الرياضية، فقد كانت الكحول هي مهرب ثانٍ للبعض. كانت هناك حفلات تقام حول حوض السباحة، بالإضافة إلى تنظيم حفلات الديسكو في فندق الرشيد. ثم جرى افتتاح مطعم صيني يُدار من قبل طبّاخين صينيين حقيقيين، فتوفرت قائمة جديدة من أصناف الطعام فيه. وفي إحدى الليالي حضرت حفلاً أقامته باولا هوذيرسال (Paula Hothersall)، وهي مستشارة قائد القوات البريطانية في العراق، كان الشراب قوياً في تلك الحفلة إلى درجة جعلني أمشي مثل امرأة عمياء في طريق العودة، ووقفت على كومة من أكياس الرمل قرابة نصف ساعة وأنا أبحث عن سيارتي، وأخيراً قررت العودة بدونها. ولحسن حظي فإن نقطة التفتيش تعاملت معي على أنني مجرد ثملة ولم يعتبروني انتحارية تمثل تهديداً لهم.

لكن الكوميديا السوداء كانت هي الشاهد على ما وصلنا إليه، وكانت هي السائدة بيننا؛

- لماذا يعبر الدجاج العراقي الطرقات ويقطعها من منتصفها؟.

- (إجابة سلطة الائتلاف): إن حقيقة قيام الدجاج العراقي بالعبور من منتصف الطرقات إنما تمثل صواب القرار بنقل السلطات إلى الدجاج العراقي بحلول 30 حزيران، الآن أصبح الدجاج يتخذ قراراته بنفسه!.

- (إجابة مقتدى الصدر): إن الدجاج كان أداة يستخدمها تحالف الشر، وسنقتله حتماً.

- (إجابة شركة هاليبرتون): لقد طلب منا أن نقدم المساعدة الفنية لإعانة الدجاج على عبور الطرقات، وقدّمنا تقديراتنا لمخاطر العبور، بالإضافة إلى احتساب حجم العوائق التي تعيق الدجاج، هذه العملية ستكلف \$ 34004.00 دولار فقط.

- (إجابة الشرطة العسكرية الأميركية): لقد صدرت لنا الأوامر كي نهجم الدجاج لعملية العبور. وضمن الإجراءات فإن العسكر الأميركيين سيفقدون ويفحصون كل دجاجة، ونحن ندين ابتداءً أي استخدام للعنف مع الدجاج.

- (إجابة الفرقة المدرعة الأولى): من غير المسموح للدجاج أن يعبر الطرقات إلا بعد إبراز نوعين من الهويات التي تحمل صورة.

- (إجابة قوات المارينز، مشاة البحرية): نؤكد لكم، تم قتل كل الدجاج.

* * *

كانت وسائل الإعلام تنقل باستمرار تحذيرات المصادر العسكرية والسياسية من مآل الأحداث في العراق، والطريقة التي يتعقد بها المشهد. لقد كان هناك كم كبير من الانتقادات، والنادر منها فقط كان انتقاداً بئاء. وظهر ما يشير إلى بعض التوترات بين البريطانيين والأميركيين في الجانب العسكري على الأقل. أبدى العسكر البريطانيون مخاوفهم وقلقهم من التكتيكات التي كان الجيش الأميركي يعتمد عليها في نهجه، وبصورة خاصة؛ الاستخدام المفرط للقوة، معاملة العراقيين على أنهم بشر من الدرجة الثانية، رغبة الأميركيين بعدم تكبد أي خسائر، بالإضافة إلى العلاقة الضعيفة مع المجتمع العراقي.

وفي 29 من نيسان 2004، كتب خمسون سفيراً بريطانياً سابقاً رسالة مفتوحة إلى رئيس الوزراء البريطاني توني بليز، بينوا فيها أن سير أحداث الحرب يوضح بجلاء أنه لم يكن هناك بالأصل أي خطة لمرحلة ما بعد صدام. ولفتوا الانتباه إلى أن كل خبراء الشرق الأوسط توقعوا أن يواجه احتلال العراق بمقاومة عنيفة لاحقة. وكان لزاماً على السياسة

- (إجابة الشرطة العسكرية الأميركية): لقد صدرت لنا الأوامر كي نهبط الدجاج لعملية العبور. وضمن الإجراءات فإن العسكر الأميركيين سيتفقدون ويفحصون كل دجاجة، ونحن ندين ابتداءً أي استخدام للعنف مع الدجاج.

- (إجابة الفرقة المدرعة الأولى): من غير المسموح للدجاج أن يعبر الطرقات إلا بعد إبراز نوعين من الهويات التي تحمل صورة.

- (إجابة قوات المارينز، مشاة البحرية): نؤكد لكم، تم قتل كل الدجاج.

* * *

كانت وسائل الإعلام تنقل باستمرار تحذيرات المصادر العسكرية والسياسية من مآل الأحداث في العراق، والطريقة التي يتعقد بها المشهد. لقد كان هناك كم كبير من الانتقادات، والنادر منها فقط كان انتقاداً بناءً. وظهر ما يشير إلى بعض التوترات بين البريطانيين والأميركيين في الجانب العسكري على الأقل. أبدى العسكر البريطانيون مخاوفهم وقلقهم من التكتيكات التي كان الجيش الأميركي يعتمد عليها في نهجه، وبصورة خاصة؛ الاستخدام المفرط للقوة، معاملة العراقيين على أنهم بشر من الدرجة الثانية، رغبة الأميركيين بعدم تكبد أي خسائر، بالإضافة إلى العلاقة الضعيفة مع المجتمع العراقي.

وفي 29 من نيسان 2004، كتب خمسون سفيراً بريطانياً سابقاً رسالة مفتوحة إلى رئيس الوزراء البريطاني توني بليز، يتنوا فيها أن سير أحداث الحرب يوضح بجلاء أنه لم يكن هناك بالأصل أي خطة لمرحلة ما بعد صدام. ولفتوا الانتباه إلى أن كل خبراء الشرق الأوسط توقعوا أن يواجه احتلال العراق بمقاومة عنيفة لاحقة. وكان لزاماً على السياسة

أن تأخذ في حسابها تاريخ العراق وطبيعته. لذا توجب على الإجراءات العسكرية في العراق أن تتخذ لها دليلاً سياسياً قبل كل شيء. لهذا فليس هناك من فرصة في دعم السياسات التي بدأت تخبو وستنتهي بالفشل. لقد فشل جورج بوش وتوني بلير في تحشيد الإجماع خلفهم في الحلبة الدولية للبدء بالحرب، والآن هما يتلقيان العواقب، وكل من شكك في هذا العالم بجدوى الحرب نراه يستمتع برؤية الولايات المتحدة وبريطانيا في العراق وهما يترنحان من فشل إلى آخر.

ومع ارتفاع منسوب التوتر في العراق، عوّل بريمر على «استراتيجية جديدة للتواصل»، وبدأ بدعوة ممثلي مختلف المجتمعات العراقية للقاءها في المنطقة الخضراء. كان الأمر ينضوي على مخاطرة كبيرة على أمن بريمر لو قرر أن يترك العاصمة ويتنقل في أماكن أخرى من العراق. وحدث أن رافقته إلى لقاء ضم ما يقرب من ثلاثين من الضباط الكبار من الرتب العالية في الجيش السابق. حدثهم في البداية عن رؤية الرئيس بوش لما يجب أن يحدث في العراق، فالإقتصاد بحاجة إلى دفقة من التنشيط، ويتوجب رؤية قطاع خاص يتمتع بالحيوية. والعراق بحاجة إلى نقلة نوعية تحمله من الدكتاتورية إلى الديمقراطية، وذلك بإجراء وتنفيذ انتخابات حزيران عام 2005. ويجب أن يعود العراق تحت حكم القانون، وأن تعود الأمور الأمنية تحت إشراف متخصصين عراقيين مهنيين يديرون القوات الأمنية المسلحة العراقية. كانت الولايات المتحدة في ذلك الوقت تنفق الملايين على تدريب وتجهيز القوات العراقية، وبالرغم من ذلك فإن الوضع الأمني كان يتدهور بشدة وبقيت القوات العراقية بحاجة دائمة إلى دعم القوات الأميركية. وبعد ذلك أقدم أحد الحاضرين، وكان جنرالاً سابقاً في الجيش العراقي على توبيخ بريمر على توضيحه لوجهة نظر الرئيس بوش، وقال: إن من

الأولى توضيح وجهات نظر العراقيين وتطلعاتهم في البداية. واقتبس من كلمات بريمر الذي قال «إن مهنية الجيش الذي يحمل السلاح هي مهنية مشرفة»، وعلق عليها بالقول: «كان الأولى بقوات التحالف أن تحترم الجيش المهزوم بدلاً من إلغائه». وقال: «لقد وعد التحالف بتغيير النظام، ولكنه بدلاً من ذلك طوّح بالدولة وهدم بنيانها». العراق الآن له حدود غير مسيطر عليها، والخدمات العامة تعاني نقصاً حاداً، والوضع الأمني انحدر بطريقة غير مسبوقة، وقد تركت مئات الآلاف من العوائل بلا مُعيل أو دخل للمعيشة. وكان هناك جيش ضخم قد ترك بلا عمل، وهي أوضاع مثالية لانتشار العنف. ولا يمكن للديمقراطية أن تنمو في محيط مثل هذا.

أما آخر الجنرالات المتحدثين فقد أبدى اندهاشه من أن يقع بلد مثل الولايات المتحدة الأميركية، وبكل ما أوتيت من معلوماتية وتجربة، في مثل هذه الأخطاء الفظيعة. وأشار إلى اختيار أعضاء غير نزيهين في مجلس الحكم، وتنفيذ قوانين اجتثاث البعث، كما أن الجيش العراقي الجديد لم يجر تشكيكه بالطريقة المناسبة، ولم يفكر أحد في الطريقة التي يمكن بها جعل هذا الجيش يحمل ولاء للأمركيين بالضد من أبناء شعبه العراقيين. وفي النهاية ذكّر بأن المهمة الرئيسة لأيّ جيش في العالم هي حماية الأرض الوطنية، وليست مقارعة الإرهابيين.

كنت أجلس بصمت خلال اللقاء وأكتب بعض الملاحظات، كنت قد سمعت الكثير من هذه النقاط أثناء عملي في كركوك. لقد لاحظت أن العراقيين يشيرون إلينا في الكلام بأننا «قوات الاحتلال»، بينما يترجمها المترجم إلى بريمر بعبارة «قوات التحالف»، في الحقيقة كانت تلك الصفة هي ما ننظر به إلى أنفسنا وليست الحقيقة.

بريمر ذكر الحاضرين من جانبه بأن الأرقام تقول أشياء أخرى، فنسبة العاطلين عن العمل كانت أقل مما هي عليه في بداية دخول قوات التحالف إلى العراق، والعديد من منتسبي الجيش العراقي السابق يجري الآن تجنيدهم ضمن القوات الأمنية الجديدة التي هي في طور التكوين، وأن البلد في واقعه يشهد تطوراً. وشرح بأن عملية اجتثاث البعث كانت في الأصل خطوة صحيحة، لكن تنفيذها جرى بشكل خاطئ. وبالرغم من كل التشكي الذي سمعه بريمر من الحاضرين إلا أنه بقي هادئاً وأعاد إلى أذهان الحاضرين بأنهم مع كل ما وصفوه فإن لديهم الآن «الحرية»، وحين نطق بهذه الكلمة ارتسمت نظرة حيرة ودهشة على وجوه الضباط الحاضرين.

ثم استعرض لهم أرقاماً تتعلق بإنتاج الطاقة الكهربائية، وإعداد العينات في المصالح العامة، وتصدير النفط الخام. ولم يكن يخالجه الشك - كما قال لهم - بأن كل هذا كان من علامات تحقيق التقدم الفعلي. وقال لهم إن عملية هدم البلاد التي استمرت خلال خمسة وثلاثين عاماً لا يمكن أن تنعكس إيجاباً في ظرف سنة واحدة. لقد كان بريمر يحاول قيادة سلطة الائتلاف في واحدة من أحلك الظروف التي مرّت على الوجود الأميركي في العراق، وفي الوقت نفسه يحاول أن ينسجم مع المخططات التي كانت ترسلها له واشنطن لتخبره فيها عما يتوجب فعله.

في ذلك الوقت كان ينتشر في العراق قرابة 150 ألف جندي أميركي، وهو الحد الأدنى الذي فرضه رامسفيلد لأنه كان يحاول تجنيب الجيش الأميركي التورط في عملية «بناء أمة» كما كان يقول.

وجرت إقالة رئيس أركان الجيش الأميركي إيريك شينسكي (Eric

(Shinseki) لأنه طالب بأن يكون عدد الجنود الفعلي أقل بثلاثة أضعاف هذا الرقم إن أريد تحقيق الأمن ونشر الاستقرار في العراق. كما تم تجاهل الطلبات التي تقدم بها بريمر من أجل زيادة عديد القوّات المتواجدة في العراق. وعلاوة على هذا، فقد دأبت المؤسسات الدولية التي عارضت الحرب سابقاً على متابعة عمل سلطة الائتلاف في ما بعد. وكانت تتصيد زلاتها. كانت سلطة الائتلاف قد بنت نفسها بنفسها وبدأت من اللاشيء، لهذا فقد وضعت سياقاتها وإجراءاتها الإدارية بما يشبه عملية الحفر في الصخر. لم يكن يتوفر لديها سوى 1200 موظف لإدارة كل نواحي الحياة في العراق. لم يتوفر لها أبداً ما يكفي من المدنيين لشغل المسؤوليات المدنية، وقد جرى ضم المزيد من العسكريين للاضطلاع بالمسؤوليات المدنية، علاوة على أن معظم موظفيها كانوا من الشباب الذين لا يتوفرون على خبرة كافية في إدارة المناطق في مراحل ما بعد النزاعات. كما لم يتوفر لها أسلوب التعاقد السريع قصير الأجل.

بدا لي أن الإيمان الديني العميق لبريمر كان هو المحرّك لخطواته حين تشتد تقاطعات المشاكل على عمله. لقد كان يعوّل على أولئك الذين يحمل تفاهات مشتركة معهم بالرغم من نقص الخبرة الواضح لديهم، بينما كان يهّمش دور أولئك الذين يطرحون الشكوك أو يتبنّون بعضها وفقاً لنمط تفكيرهم. باختصار كان يفضل أهل الثقة على أهل الخبرة.

واصطدمت الجهود التي أقرّها بريمر للتواصل مع العراقيين والمجتمعات المختلفة في العراق، بظهور الأخبار التي تحدثت عن وجود حالات من التعذيب للسجناء العراقيين في سجن (أبو غريب). كانت صور العراقيين السجناء وهم عراة، أو مربوطون بالسلاسل، أو

ممددون فوق بعضهم البعض قد صدمتنا كلنا في العمق. وقد لمست مشاعر الخذلان بين العديد من الجنود الأميركيين، وإنهم كانوا ينظرون إلى المرتكبين لهذه الخروقات على أنهم أهانوا الجيش والبرّة العسكرية.

وبينما كان العديد من الجنود غاضبين من هذه التصرفات، فقد كشف آخرون من بينهم أنه كان يتوجب معاملة المعتقلين بطريقة (أسوأ!) من هذه وفقاً لرأيهم، وأن هذه المعاملة تبدو لاشيء لو قورنت بما كان السجناء يتلقونه في عهد صدام. أما في الصحافة العالمية، وخاصة في العالم العربي فإن تلك الصور الفوتوغرافية للتعذيب كانت قد تسببت بتخريب كبير لصورة قوات التحالف. أصبح الآن سجن (أبو غريب) -السيء السمعة في عهد صدام - رمزاً للتعذيب الذي تمارسه قوات التحالف، وأصبح مبعثاً جديداً لتجنيد المزيد من الشباب في صفوف التمرد الذي يجيد المساومة.

كنتُ واحدة من خمسة موظفين من سلطة الائتلاف تقرر إرسالهم إلى سجن (أبو غريب) لاستطلاع إمكانية وضع نظم المراقبة والإشراف على السجن. وكان معنا حمولة باص كامل من الصحفيين، دخلنا إلى نطاق الحماية الأول للسجن، وكان الجنود الأميركيون يتفحصوننا من أعلى أبراج المراقبة المنتشرة حول الجدران العالية للسجن. عند البوابة استقبلنا اللواء جيفري ميلر (Geofry Miller)، الذي وصل للتو من غوانتانامو ليشرّف على تنظيف السجن.

الجنرال ميلر بدا متفائلاً جداً حين حيّانا بالقول: «أهلاً بكم في أفضل سجون الشرق الأوسط من حيث الإدارة». بدأ حديثه معنا حيث كنا نقف في الشمس الحارقة بأن أفصح عن أهم (الأخبار الجيدة) في السجن وإجراءاته الجديدة، ثم انتقل في النهاية إلى (الأخبار السيئة)، حيث

قال: «لقد أصابتنا الصور التي نشرتها وسائل الإعلام بالفرع والإحراج حتماً». وأخبرنا بأن أيّاً من الجنود الموجودين حالياً لم يكن جزءاً من تلك الحقبة. وأنهم كلهم قد وصلوا في كانون الثاني الماضي، وأن الأوضاع كانت تحت السيطرة تماماً.

وبعد ذلك وضعنا في باص لتتنقل في أرجاء السجن، وقد صدمت لحظتها بأنه -وبالرغم من مرور سنة كاملة على إدارة السجن من قبل القوات الأميركية- لا يزال هناك معتقلون في العراء، ولا يتوفر لهم أي مكان بغطاء يحميهم من عناصر المناخ. وحين وقعت أبصار المعتقلين علينا اندفعوا إلى الأسلاك الشائكة وهم يصيحون بالعربية ويصرخون: «يسقط الاحتلال»، «هل هذه هي غداً لكم؟». ورأيت أن أحدهم كان يلوح بقدمه الاصطناعية ويصيح مثلهم. ثم سمعت أحدهم يصيح بإنكليزية واضحة عبر مكبر للصوت ويطالب بحقوق المعتقلين. يبدو أن الأميركيين كانوا قد عيّنوا (عريفاً) لكل مجموعة من المعتقلين ومنحوه مكبراً للصوت كي ينقل مطالب مجموعته ويتفاهم مع الحراس.

ثم استعرضنا الوحدة الطبية، وكانت مستشفى ميدانياً أميركياً يثير الإعجاب، وفي الداخل كان هناك عدد من المعتقلين يتلقون العلاج. هؤلاء تعرّضوا للإصابات عند قصف المتمردين للسجن بواسطة قذائف الهاون. ثم انتقلنا إلى القسم الذي جرى فيه تصوير السجناء وهم عراة، وكشفت الصور تعرّضهم للتعذيب هناك. كان قسم من طابقين، في داخله صفان من الزنزانات في كل طابق. وحين دخلنا لم يكن في تلك الزنازين سوى خمس نساء، وحين وقع بصرهن علينا بدأن بالصراخ والتشكي من المعاملة اللاتي يتلقينها، كما أبدين رعبهن مما قد يحصل لهن هنا.

ثم بعد ذلك انتقلنا إلى قسم الاستجواب، ورأينا زنازين الاستجواب.

وقال لنا الجنرال ميلر إن المحققين يتبعون 35 طريقة استجواب مذكورة في كتيب للدليل متوفر على الإنترنت. كنت أظن أن الاستجواب هو أمر يجب أن يبقى ضمن نطاق الحكومة، لكن في الحقيقة حتى الاستجواب كان قد خضع للتعاقد مع مقاولين وتوفر على شبكة الإنترنت. وبعد يومين صادف أن التقيت بالجنرال سانشيز وأخبرته عن النساء في السجن وأنهن كنّ خمسة ويصرخن ولا يفهمن أسباب اعتقالهن، فقاطعتني الجنرال وقال: «الآن أصبحوا ثلاثة فقط». لكنني سألته بسرعة وبلا وعي: «سيدي، هل تم قتل سيدتين منهن؟».

فأجابني بعد أن صمت لبرهة: «لا إيما... لم نقتل أيّاً منهن».

في (أبو غريب) اطلعت على أسوأ النواحي في الشخصية الإنسانية، لقد استعمل عدد من الحراس والجنود الأميركيون سلطتهم لخلق عالم متوحش، وما شجعهم على المضي في ذلك هو ضعف الرقابة على أدائهم. كان أولئك الجنود يتسلّون في أيامهم الضجرة بإظهار سادية غريبة ويتمتعون بانتهاك خصوصية السجناء الذين بعهدتهم. لقد كان (أبو غريب) واحداً من تلك الأماكن التي ينضح فيها الشر ويبرز وجهه بلا أقنعة.

الفصل السادس

اغتيال الشيخ عكار

«العراق مثل كوميديا إغريقية انتهت إلى تراجيديا. لكن الفرق فيها أننا نعرف كل الممثلين... ونعرف أن حادث مقتلهم لم يحن وقت ظهوره على المسرح بعد».

العقيد مايفيل

كنت أعمل في مكتبي حين قرأت في الأخبار أن الشيخ عكاراً قد تم اغتياله وهو في طريقه إلى اجتماع مجلس محافظة كركوك. وقالت الأنباء الأولية أن عجلتين استوقفتا سيارته وبدأ من فيها بإطلاق النار باتجاهه، وتمكّن حارسه الشخصي من ردّ إطلاق النار لكنه قتل أيضاً في الهجوم.

الشيخ عكار... أكاد أتصور هيئته أمامي الآن، الشيخ عكار الذي أمضيت ساعات طويلة برفقته، تذكرت طريقته في الابتسام، طريقته في الكلام التي يبدو فيها وهو يحرك يديه كثيراً. الشيخ عكار... الذي كان يسميني ابنته، أو المس بيل. أكاد لا أصدق أنه قد قتل بهذه البساطة.

بعدها ذهبت بالطائرة إلى كركوك، ونزلت على أرض مطارها في القاعدة العسكرية. كان العشب قد نما مجدداً وتخللته بعض الزهور البرية الصفراء المتفرقة. وخالجتني مشاعر مختلفة، مثل من يعود إلى المدرسة الثانوية بعد العطلة، وكأن المكان يعرفني وأعرفه، لكنه لم يعد لي أبداً.

ثم ذهبت بصحبة المحافظ وأعضاء مجلس المحافظة إلى حي حزيران حيث كان الشيخ عكار يسكن. وحين دخلنا إلى خيمة العزاء كانت ممتلئة بالمعزين الجالسين بصمت، المسبحات القلقة في أيديهم وقراءة القرآن تملأ المكان بصوت خفيف. وحين تجاوزت صفّ المُعزين كنت أسمع همسات: «إيما سكاي قد جاءت أيضاً». تكلمت إلى أبنائه، وبالأخص أصغرهم الذي كان يرافقه وطالما رأيته في مجلس المحافظة أو في مبنى الحكومة. وجهت له بضع كلمات بالعربية: «الله يرحمه»، «إنا لله وإنا إليه راجعون».

أجابني ابنه: «أنتِ أختنا»، فيما قال آخرون: «أنتِ ابنة أخينا». كان

الشيخ عكار، لروحه الرحمة، قد أخبر جميع عائلته عني، وكانوا متأثرين كوني قد قطعت كل تلك المسافة من بغداد إلى كركوك لأجل تعزيزتهم. كان الأسى يخيم على المكان، ومعه الخوف أيضاً. وجلست في خيمة العزاء صامتة، كنت المرأة الوحيدة الحزينة بين جمع كبير من الرجال.

بدأت القبائل تؤدي رقصتها الدورانية في دوائر، وترفع الرايات الحمر والبيض، يملأ رجالها الغضب والحزن. وبعد ذلك تم أخذي إلى غرفة خلفية في أحد المنازل. حيث جلست هناك لثلاث ساعات. أستمع لما حولي. لقد أثار مقتل الشيخ عكار مخاوف العرب من أن يتم إقصائهم ودفعهم إلى النزوح من قبل الأكراد. كان منزل الشيخ وصفي قد تمت مهاجمته الليلة الماضية ولم يعد بإمكانه المكوث فيه. لقد اكتسب الشيخ عكار بموته تأييداً وشعبية لم تكن متاحة له في حياته. وقبيل عودتي إلى بغداد، تمكنت من ترتيب لقاء لوفد من عرب كركوك مع بريمر، كنت أظن أن ذلك قد يساعد في منع هجمات ثأرية تالية لما حدث مع الشيخ عكار والشيخ وصفي. وقد أتمكن من منع التظاهرات أو المقاطعة لمجلس المحافظة من قبل الأعضاء العرب. كنت أحاول إزالة ما علق في أذهانهم من أن هناك مؤامرة أو تواطؤاً من جانب قوات التحالف بشأن إجلاء العرب من كركوك. هذه الظنون تدفعهم إلى توفير ملاذ آمن لأولئك الذي يشنون الهجمات على مواقع قوات التحالف.

رتبت الأمور والإجراءات كي ألتقي بالوفد عند نقطة التفتيش الثانية، والتي تقع بين فندق الرشيد وقصر المؤتمرات. ذلك المكان كان في يوم ما شارعاً جميلاً، وأصبح الآن مغطى بالحواجز الكونكريتية، وبراميل الإعاقة، والأسلاك الشائكة. كان الجنود ينظرون إلى الأعلى وبكل الاتجاهات خشية أن يتم استهدافنا من القناصة في مكان ما. كان إسماعيل

عبودي هو أول من وصل. ووقفنا نتبادل الأحاديث الجانبية لنصف ساعة قبل أن يظهر أول الواصلين بعده من وفد كركوك. ظهر الشيخ وصفي العاصي، وكان يبدو أنيقاً ومهيباً في جلبابه العربي وعباءته، وجلب معه عدداً من أقاربه، راكان، ويحيى، والشيخ نايف، وقريبه لقمان (الذي سبق أن اعتقلته قوات التحالف لخمسين يوماً مع عمه الشيخ حاتم)، ومعهم مدير مكتب الشيخ وصفي وأحد رجال الشرطة.

أخبرتهم أن من الجميل جداً أن ألتقيهم مُجدداً لكن للأسف ليس لدي الإذن لأصطحب الآخرين، لذا فإن عليهم الانتظار خارجاً. ثم دخلوا معي إلى نقطة تفتيش حيث جرى تفتيشهم للتأكد من عدم حمل الأسلحة، ثم صعدوا خمستهم في السيارة التي أقودها أنا، ووصلت إلى كراج السيارات الخاص بالقصر الجمهوري لأركن السيارة ثم اصطحبتهم إلى نقطة تفتيش أخرى.

ودخلنا جميعاً إلى مكتب بريمر حيث التحق بنا رون شليكر، وبدأ الشيخ وصفي⁽¹⁾ يقود الحديث حول أوضاع العرب في كركوك في مرحلة ما بعد إزاحة النظام السابق، وقلقهم من أن قوات التحالف تنوي بالفعل تسليم كركوك إلى الأكراد. وتحدث الآخرون أيضاً عن قلقهم، كان بريمر يستمع بإنصات. قبل اللقاء كنت قد زودت بريمر بملخص أو إيجاز عن الأوضاع في كركوك، والخارطة الإثنية لها، كما

(1) أطلعني الشيخ وصفي العاصي على أنه افتتح ذلك اللقاء بأن وجه كلمة إلى بريمر الذي يبدو أنه كان يجلس خلف مكتبه، بقوله: «أنت أرسلت إلينا للحوار معك، فإذا بنا نجدك تجلس خلف مكتب الرئاسة في القصر الجمهوري، هذا مكان مخصص لرؤساء العراق، ونحن لم نأت للحديث مع رئيس العراق»، فما كان من بريمر إلا أن ترك كرسيه وجلس مع الحضور وسأل الشيخ وصفي: «هل رضيت الآن؟». - المترجم.

عبودي هو أول من وصل. ووقفنا نتبادل الأحاديث الجانبية لنصف ساعة قبل أن يظهر أول الواصلين بعده من وفد كركوك. ظهر الشيخ وصفي العاصي، وكان يبدو أنيقاً ومهيباً في جلبابه العربي وعباءته، وجلب معه عدداً من أقاربه، راكان، ويحيى، والشيخ نايف، وقريبه لقمان (الذي سبق أن اعتقلته قوات التحالف لخمسين يوماً مع عمه الشيخ حاتم)، ومعهم مدير مكتب الشيخ وصفي وأحد رجال الشرطة.

أخبرتهم أن من الجميل جداً أن ألتقيهم مجدداً لكن للأسف ليس لدي الإذن لأصطحب الآخرين، لذا فإن عليهم الانتظار خارجاً. ثم دخلوا معي إلى نقطة تفتيش حيث جرى تفتيشهم للتأكد من عدم حمل الأسلحة، ثم صعدوا خمستهم في السيارة التي أقودها أنا، ووصلت إلى كراج السيارات الخاص بالقصر الجمهوري لأركن السيارة ثم اصطحبتهم إلى نقطة تفتيش أخرى.

ودخلنا جميعاً إلى مكتب بريمر حيث التحق بنا رون شليكر، وبدأ الشيخ وصفي⁽¹⁾ يقود الحديث حول أوضاع العرب في كركوك في مرحلة ما بعد إزاحة النظام السابق، وقلقهم من أن قوات التحالف تنوي بالفعل تسليم كركوك إلى الأكراد. وتحدث الآخرون أيضاً عن قلقهم، كان بريمر يستمع بإنصات. قبل اللقاء كنت قد زودت بريمر بملخص أو إيجاز عن الأوضاع في كركوك، والخارطة الإثنية لها، كما

(1) أطلعني الشيخ وصفي العاصي على أنه افتتح ذلك اللقاء بأن وجه كلمة إلى بريمر الذي يبدو أنه كان يجلس خلف مكتبه، بقوله: «أنت أرسلت إلينا للحوار معك، فإذا بنا نجدك تجلس خلف مكتب الرئاسة في القصر الجمهوري، هذا مكان مخصص لرؤساء العراق، ونحن لم نأت للحديث مع رئيس العراق»، فما كان من بريمر إلا أن ترك كرسيه وجلس مع الحضور وسأل الشيخ وصفي: «هل رضيت الآن؟». - المترجم.

قدمت له بضعة مقترحات للخطوات التي يمكن اتخاذها. وفي نهاية اللقاء، أعلن بريمر لهم أنه سيرسل بعثة تقصي حقائق للاطلاع على الأوضاع الأمنية، ومتابعة التطورات والوقوف على الحقائق. والبعثة ستضميني أنا ورون شليكر.

وبعد اللقاء أوصلت المجموعة إلى نقطة التفتيش الأولى، وسألني الجميع عن رأيي في الكيفية التي سار عليها الاجتماع، فقلت رأيي بأنه سار على أحسن ما يرام وأن الجميع تمكنوا من تمثيل مجتمعاتهم أفضل تمثيل. وكان الشيخ وصفي مبتسماً جداً باللقاء، ووعدت الجميع بأننا سنلتقي قريباً جداً في كركوك.

بعد ذلك بأسبوع أو أكثر توجهنا أنا ورون شليكر إلى كركوك، وبدأنا بلقاء أهم أصحاب القرار والمؤثرين في المدينة. وعكسنا تقريراً إلى بريمر يفيد بأن تصاعد العنف مرجح للاشتعال في أي لحظة، وأن مقتل الشيخ عكار أثار رعباً وعداوة عميقة بين المكونات الإثنية. وقد توقف الأعضاء العرب في مجلس المحافظة عن حضور جلسات المجلس، وتبعهم في ذلك الأعضاء التركمان. وكذلك فعل الآشوريون الشيء نفسه بعد أن تعرّض ضابط شرطة مسيحي آشوري لإطلاق نار. كانت لعبة المقاطعة للجلسات لعبة متكررة إلا أنها أخذت بُعداً جديداً هذه المرة بعد (الانتصار) الكردي الذي اعتبروه قد تحقق بتمرير قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية.

التصق العراقيون بشاشات القنوات التلفزيونية وهم يتابعون تطورات المواجهات بين قوات التحالف والعراقيين. كان موضوعاً يتحدث فيه الجميع حين زرت كركوك مرة ثانية. حتى إن نائب المحافظ دعا الأمم المتحدة إلى التدخل لحماية الأهالي في الفلوجة من مخاطر نيران القوات

الأميركية. وحين التقيت بإسماعيل عبودي كان مصدوماً من المواجهات بين قوات التحالف وجيش المهدي، وبادرني قائلاً: «لماذا تقاتل قوات التحالف جيش المهدي؟، إنه ليس جيشاً بالمعنى الحقيقي للجيش، هو ليس أكثر من ألعيب إعلامية وشيء من وسائل العلاقات العامة».

وفهمت من قائد اللواء العسكري المتواجد في كركوك أن عبد الفتاح الموسوي قد وضع نقاطاً مسلحة في أعلى سطح الجامع الذي يتمركز فيه. وأرسلت رسالة إلى مظفر ياس أدعوه إلى لقائي، فحضر إلى مبنى الحكومة المحلية على الفور وكان يبدو عليه التعب واليأس. وحدثني عن يأسه بالقول إن قوات التحالف نذرت وعوداً كثيرة لكنها لم تفِ بأيّ منها، كما لم تحفظ كلمتها التي منحتها لسكان كركوك. وقال بأن الجميع يؤمن الآن أن قوات التحالف قد جاءت لتبقى وليس لغرض التحرير. ومع كل هذا القتل الذي يحدث، فإنه في النهاية يمثل الوجه الحقيقي للاحتلال. وقال ياس بأن مقتدى الصدر كان قد دعا قوات التحالف إلى الرحيل، وإلى الإطلاق الفوري للمعتقلين لديها. انظري إلى مجلس الحكم فهو لا يمثل العراقيين حقيقة، حاله حال مجلس محافظة كركوك، الذي تفكك في النهاية وصار عاجزاً عن اتخاذ أيّ قرار. لقد ادعى كل من جلال طالباني ومسعود بارزاني بأن لديهم اتفاقاً مع الأميركيين، وبما أن قوات التحالف وقفت صامته تتفرج ولم ترد، فقد صدّق كثيرون أنه بالفعل هناك اتفاق بينهم. وقال لي إن الصدرين خائفون على أمنهم وأمن المسجد، وإن قوات التحالف قد نشرت قنّاصة في محيط المسجد. قلت له وأنا أحاول طمأنته: «اطمئن، قوات التحالف ليست عدوة لكم هنا في كركوك».

ثم أصرّ الأعضاء العرب في مجلس المحافظة ويقودهم الشيخ

الأميركية. وحين التقيت بإسماعيل عبودي كان مصدوماً من المواجهات بين قوات التحالف وجيش المهدي، وبادرني قائلاً: «لماذا تقاتل قوات التحالف جيش المهدي؟»، إنه ليس جيشاً بالمعنى الحقيقي للجيش، هو ليس أكثر من ألعيب إعلامية وشيء من وسائل العلاقات العامة».

وفهمت من قائد اللواء العسكري المتواجد في كركوك أن عبد الفتاح الموسوي قد وضع نقاطاً مسلحة في أعلى سطح الجامع الذي يتمركز فيه. وأرسلت رسالة إلى مظفر ياس أدعوه إلى لقاء، فحضر إلى مبنى الحكومة المحلية على الفور وكان يبدو عليه التعب واليأس. وحدثني عن يأسه بالقول إن قوات التحالف نذرت وعوداً كثيرة لكنها لم تفِ بأيّ منها، كما لم تحفظ كلمتها التي منحتها لسكان كركوك. وقال بأن الجميع يؤمن الآن أن قوات التحالف قد جاءت لتبقى وليس لغرض التحرير. ومع كل هذا القتل الذي يحدث، فإنه في النهاية يمثل الوجه الحقيقي للاحتلال. وقال ياس بأن مقتدى الصدر كان قد دعا قوات التحالف إلى الرحيل، وإلى الإطلاق الفوري للمعتقلين لديها. انظري إلى مجلس الحكم فهو لا يمثل العراقيين حقيقة، حاله حال مجلس محافظة كركوك، الذي تفكك في النهاية وصار عاجزاً عن اتخاذ أيّ قرار. لقد ادعى كل من جلال طالباني ومسعود بارزاني بأن لديهم اتفاقاً مع الأميركيين، وبما أن قوات التحالف وقفت صامته تتفرج ولم ترد، فقد صدّق كثيرون أنه بالفعل هناك اتفاق بينهم. وقال لي إن الصدرين خائفون على أمنهم وأمن المسجد، وإن قوات التحالف قد نشرت قناصة في محيط المسجد. قلت له وأنا أحاول طمأنته: «اطمئن، قوات التحالف ليست عدوة لكم هنا في كركوك».

ثم أصرّ الأعضاء العرب في مجلس المحافظة ويقودهم الشيخ

لمجلس المحافظة كان العرب والتركمان والآشوريون بالإضافة إلى الأكراد حاضرين كلهم، وعاد المجلس للعمل مجدداً.

كنا نعمل أنا وشليكر على عدد من المذكرات والتقارير التي أرسلناها إلى بريمر وواشنطن. وضعنا فيها نقطة أساسية وهي أن استلحاق كركوك بإقليم كردستان سيمنح الأكراد مرونة اقتصادية كبيرة، وهي خطوة باتجاه تحقيق حلمهم المؤجل بإعلان دولة كردية. وللأسباب نفسها، فإن كلاً من تركيا وإيران والحكومات العربية تحمل الشكوك العميقة حول المطالبات الكردية بكركوك وبالتأكيد سيعيقون هذه الخطوة وكل ما من شأنه أن يهيئ لها.

وقدّمت مقترحاً لتأسيس (مؤسسة كركوك) كنوع من الوقاية بالضد من اندلاع النزاعات. ومن المفترض أن يناط بهذه المؤسسة جلب كل قيادات المجتمعات المختلفة في كركوك إلى نقطة تلاقٍ من أجل تطوير رؤية عامة ومقبولة عن مستقبل المدينة. وعبر تمويل بمقدار 100 مليون دولار من الأموال العراقية، فإنه سيشكل مصدراً مهماً وأساسياً لتنفيذ هذه الرؤية الاستثمارية المشتركة. وترافقها تسهيلات دولية ورقابة مماثلة. يمكن أن تكون هذه المؤسسة مفتاحاً أساسياً لتغيير ديناميكية الحياة السياسية في كركوك. وأن تتقل من الصيغة الحالية المعتمدة على جدول زمني لتنفيذ الالتزامات، إلى طريقة أخرى لتنفيذها تعتمد على إيجاد مدى أوسع من المصالح والفوائد المشتركة.

ثم حضرت اجتماعاً في مكتب بريمر بشأن كركوك. لقد كنت أحمل مقترحين عن الحالة الخاصة لكركوك؛ واحد (ثقيل) والثاني (خفيف). كان الإجماع في الغرفة يميل إلى صالح ألا نجعل كركوك قضية دولية وتتضمن ترتيبات دولية بحيث تبدو وكأنها خرق فاضح للسيادة

العراقية. في المقترح الثاني، وصفت إمكانية تعيين مقرر مختص بكركوك، ويمكن له أن يزور المدينة كل بضعة أسابيع من أجل أن يلعب دور الساعي في النوايا الحسنة بين المجاميع المختلفة فيها، ويمكن أن يقدموا شكواهم ومقترحاتهم إليه. وعلى الفور قال بريمر إنه معجب بهذا المقترح، لكنني قلت له: «سيدي، أنت ستبحث عن عمل لفترة ما بعد حزيران القادم، فهل ستحسب حسابك لهذه الوظيفة؟». فضحك بشدة وهو يقلّب الأوراق التي أمامه وقال: «في الحقيقة لديّ الكثير لأعمله ما بعد حزيران القادم وأنا لا أجد هذه الفقرة ببساطة!».

لكن واشنطن لم تردّ علينا أبداً حول هذا المقترح. كما لم تجب عن برقيات بريمر التي شرح فيها حالة كركوك الخاصة. كما لم نلق أيّ استجابة في مضامين قرار مجلس الأمن الدولي الخاص بالعراق، مثلما لم تكن هناك أيّ إجابة بصدد طلب تعيين شخصيات دولية دائمة تشرف على (مؤسسة كركوك) المقترحة، لقد ضاع المقترح تماماً وتم حذف (الحالة الخاصة لكركوك) من قرار مجلس الأمن الدولي.

وفي منتصف أيار، وبعد ثلاثة شهور من وصولي إلى بغداد، عقد بريمر أخيراً لقاءً في كردستان ببارزاني وطالباني حول كركوك. وتصادف عقد هذا اللقاء مع وصول بلاك ول (Black Will) الذي سيتسلم منصب المساعد للأخضر الإبراهيمي في عملية تشكيل الحكومة المؤقتة. وبدأ بلاك ول في تأسيس مكتبه تحت عباءة من السرية، حيث كان يفترض أن أيّ تسريب يصل إلى واشنطن قد يؤدي في النهاية إلى تقويض العملية كلّها. ثم جرى رفض طلب السفير البريطاني ديفيد ريتشموند لمرافقة بريمر خلال لقاءه القادة الأكراد، منذ الآن فصاعداً سيتم إبعاد كبار المسؤولين البريطانيين من الاجتماعات المهمة والحاسمة.

وقرر بريمر أنه يتحتم عليّ أن أرافقه في تلك الرحلة مع ميغان

أوسوليفان، وقد قمنا بتهيئة بعض النقاط للنقاش وبعض المقترحات. واتجهت صوب مدرج الطائرة (البلاك هوك) التي ستقلنا إلى الشمال (كان المدرج قد شهد سقوط قذيفة في اليوم السابق)، كنت أنتظر وصول بلاك ول، وأتوقع اعتراضه على وجودي، وربما سيدعو إلى استثنائي من هذه الرحلة كما حدث الأمر مع باقي المسؤولين البريطانيين. إلا أنه وصل وصعد إلى الطائرة واتخذ مكانه بصمت، لقد كان يبدو هادئاً وهو يرتدي قبعة البيسبول، دون أن يتكلم بكلمة. وبعد ساعات نزلنا في بلدة (سره رش)، كان الجو بارداً والسماء تمطر بما يذكرني ببلادي. كان في استقبالنا مسعود بارزاني الذي قادنا إلى غرفة تناولنا فيها الشاي قبل أن نتقل إلى غرفة أخرى للاجتماع.

وخلال الاجتماع جلسنا أنا وميغان إلى جانبي بريمر في مقابل مسعود بارزاني، وبدأ بريمر الحديث وكان ملتزماً بما كتبناه من محاور للنقاش. وتكلم عن العلاقة القويّة ما بين قوات التحالف والأكراد، والرؤية المهمة لمستقبل العراق في أن يكون دولة ديمقراطية تعددية. كما أوضح لبارزاني التزام الولايات المتحدة بعلاقة طويلة الأمد مع العراق، مثلما إنها ملتزمة بالشيء نفسه مع الأكراد. وذكر أن كركوك كانت على جانب عظيم من الأهمية الجيوستراتيجية بالنسبة لكردستان، وللعراق، وللمنطقة، كما للمجتمع الدولي أيضاً.

ثم تطرق بريمر إلى شرح كيف أدّت بعض (التصرفات العدوانية) لحزبي الاتحاد الوطني الكردستاني والديمقراطي الكردستاني في توتير الأجواء في كركوك. وأقر بريمر بالظلم الذي تعرض له الأكراد في كركوك، بما في ذلك الترحيل، وإجبار الناس على تغيير قومياتهم، والاستبعاد من الوظائف العامة. ثم تكلم عن ضرورة إدماج «حكومة

الظل» التي كونتها الأحزاب الكردية في حكومة محلية متكاملة لكركوك. وأنه يعرف أن مثل هذه المشاكل لا يمكن حلّها بين ليلة وضحاها.

كان بارزاني يجلس هادئاً طوال الاستماع لبريمر، وأخذ ينقل عينيه بيني وبين بريمر. ثم شكرنا على قلقنا وأكد أنه يتمنى أيضاً أن تزدهر العلاقة بين الأكراد والولايات المتحدة مستقبلاً وأن تتعمق أكثر فأكثر. وقال إنه - مع جلال طالباني - يتعرّضان لضغط شعبي كبير بشأن مستقبل كركوك. وإن من الضروري أن نصل إلى حل مناسب بشأنها. ثم انتقلنا إلى صالة الضيافة لتناول الغداء حيث كان بانتظارنا هناك الأخضر الإبراهيمي وفريقه، حيث كان منشغلاً بالمداولات غير الرسمية لتشكيل حكومة مؤقتة واختيار مرشحين لها. وبعد الطعام توجهنا إلى بحيرة دوكان، إلى المنتجع الذي احتفلنا فيه بيوم الاستقلال الأميركي العام الماضي. وعند مهبط الطائرة كان جلال طالباني وبرهم صالح بانتظارنا. ثم توجهنا على الفور إلى دار ضيافة الاتحاد الوطني لنبداً جلسات العمل. لم يكن أمام بريمر في هذه الجلسة الأوراق التي تحمل محاور النقاش، لكن بما أنه تعامل مع لقاء بارزاني كما يجب فلا داعي للقلق. وفي بداية الحديث بيّن كم أن التحالف محب للأكراد- ثم قفز على الجزء الذي يفترض أن يبيّن فيه ما تعرّض له الأكراد من ظلم ودخل في صلب الموضوع التالي - وبدأ بريمر يتحدث عن الحوادث والتصرفات المسيئة التي صدرت عن الأحزاب الكردية.

كان جلال طالباني يجلس مُتملماً، وفي اللحظة التي أنهى فيها بريمر كلامه توجه جلال طالباني بالحديث إليّ وقال: «أنت مساندة للعرب، ومساندة للتركمان». ثم بدأ يقرّع أسماعنا بمعلومات عن معاناة الأكراد، والتهميش والقرى التي تم محوها. ثم بدأ يشرح كيف أن معاهدة

سيفر عام 1920 بين الدولة العثمانية والحلفاء قدمت للأكراد الأمل في الحصول على دولتهم المنشودة لكنها لم تصدق أبداً، ثم جرى استبدالها بمعاهدة لوزان 1923 والتي لا ذكر للأكراد فيها. ثم عن تشرشل الذي أراد أن يمنحهم الاستقلال لكنه ذهب إلى ضربهم في نهاية المطاف. ومحاولة البريطانيين إخضاع الأكراد بواسطة الشيخ محمود الحفيد لكنه قاد انتفاضة ضدهم في النهاية.

ثم قال طالباني إن لدى حزبه بالفعل ما يقرب من 7 آلاف عربي على قوائم دفع الرواتب الشهرية، وهم من العرب «الصالحين» الذين لا يُنكرون حقوق الأكراد القومية. وقال: «هل تعلمين بم يسمونك؟»... «يسمونك جيرترود بيل»، لكنه - على العكس من الطريقة التي كان يلفظها بها الشيخ عكار - لم يعنِ المديح بها، بل إنه يضع اللوم على المس بيل كونها ألحقت الأكراد بالعراق، ثم صاح بصوت عال: «أنتِ معادية للأكراد».

عاد بريمر بكرسيه إلى الوراء متعجباً من كلام طالباني. ثم شرعنا أنا وطالباني في «مناقشة» تاريخية، بينما انسحب بريمر بهدوء ووقف عند طاولة وأخذ يعدّ لنفسه طبقاً من الحلويات والفاكهة. كان بريمر يفقد صبره بسرعة حينما يسمع العراقيين يتحدثون في التاريخ، فقد كان يطلب منهم دائماً النظر إلى المستقبل بدلاً من ذلك.

ثم استمر طالباني يتذمر ويتشكى من البعثيين في الأجهزة الأمنية، ومن التحالف الذي كونه مقتدى الصدر وأنصاره مع التركمان وعرب التعريب في كركوك بالضد من الأكراد. لكنه أصرّ على ترحيل العرب الذين قدموا في عملية التعريب، وأقرّ بوجود مُطرفين أكراد يحاولون وضع العلم الكردستاني في كل مكان وهؤلاء يصيبونه بالجنون. كان

مستعداً للمساومة على حل وسيط بأن تترك كركوك حالياً لتكون «محافظة مستقلة»، لكنه أكد أنها ستطالب بالانفصال خلال خمسة أو ستة أعوام.

وبعد أن ذكر طالباني كل تلك النقاط وأزاحها عن صدره، أحسست بأنه صار الآن مرتاحاً أكثر. وحين غادرت طاولة الاجتماع اقترب مني ووضع يده على كتفي وقال: «إيما... إيما... ماذا كان اسمك؟... إيما بيل؟». وكانت إجابتي مكتومة وأنا أنظر إليه باندهاش وشك، وأضاف: «نعم... اسمك إيما بيل». وقبل العشاء، خرجت أنا، وبرهم صالح، وبلاك ول إلى شرفة الفندق، وكنا مأخوذين بمشهد بحيرة دوكان. والتفت إليّ برهم صالح وقال إن عليّ أن أوافق على تمكين الأكراد من كركوك، وقال: «عبر التاريخ كانت دائماً الأمور والصفقات تجري بهذه الطريقة، عند مائدة الشراب، وعند الشرفات الجميلة».

خلال العشاء جلسنا أنا وبرهم وبريمر إلى جانب مقابل لطالباني وبلاك ول وميغان. كان طالباني في مزاج متوثب وكأنه مُتهىء للقتال، وكنت أنا هدفه. وقال: «يجب أن تمنحونا كركوك»، ثم عاد إلى سرد الحوادث التاريخية، وعاد إلى ما ذكره سي.جي. أيدموند وطريقة الكلام باستعمال التفافات الدراويش، «كركوك تعود لنا، ويتوجب عليكم منحها لنا». ومع حلول الليل أكثر، كانت كمية أكبر من الكحول قد تم تقديمها واستهلكت في الجلسة. حتى بريمر، الذي لم يسبق لي أن رأيته يشرب الكحول، فقد منح لنفسه مجالاً أن ينال قسطاً من الاسترخاء مع الشراب.

وقال لي برهم: «أنتم البريطانيون، منحنوني الدرجة العلمية، وجواز السفر... حان الآن الوقت كي تمنحوني كركوك». وأطلق بلاك

ول على سبيل النكتة ما قاله بأنه لمحني أنا وبرهم نتصافح في الشرفة وقد أبرمنا الصفقة مسبقاً. ثم أبدى برهم ملاحظة قال فيها إن الجميع توقعوا أن تنحدر كركوك باتجاه الحرب الأهلية، لكن هذا لم يحصل، وقال: «إن إيما منعت الحرب الأهلية من الوقوع في كركوك»، في عبارة وكأنه يعيد الفضل إليّ في هذا. وفي ختام الجلسة، وقف طالباني واقترح أن نشرب نخباً يتمنى فيه للرئيس جورج بوش الفوز في الانتخابات، فصاح كل الموجودين «نعم... هنا... هنا»، لكنني التفتُ إلى برهم صالح ورأيتُ في عينيه نظرة تعجب، وهمس لي: «علينا ألا نتدخل في شؤون بلد آخر، تعالي نشرب بصحّة صاحبة الجلالة»، وبالفعل كان هذا نخبنا. وفي النهاية قلت لطالباني: «مام جلال، باسم حكومة صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا أريد أن أعتذر عن المساهمة السابقة بتشكيل العراق كدولة، وأعتذر أيضاً عن حشر الأكراد فيها»، فابتسم ابتسامة عريضة، واحتضنني، ثم أهداني لعبة شطرنج جميلة جداً.

وفي أمسية من أواخر أيار 2004، عدت فيها إلى كركوك. واتصل بي إسماعيل عبودي للقائي في شركة نفط الشمال حيث كنت أقضي الليلة. وجلسنا معاً للحديث على سطح المبنى. تذكرنا المرة الأولى التي التقينا فيها وقال لي إنني منحته فقط ثلاث دقائق كي أستمع له. في الحقيقة لم أتذكر هذه التفصيلة، لكنني أفترض أنها كانت في وقت كنت أستقبل فيه العشرات يومياً في مبنى الحكومة المحلية، بعضهم يريد أن يبلغ عن مكان وجود صدام، والبعض الآخر لديه معلومات عن أسلحة الدمار الشامل، والآخرين كانوا يتحدثون عن بعثيين ناشطين. وذكرته كيف أنه كان في تلك الأيام ليس أكثر من راديكالي شيعي غاضب من كل شيء، ويتوجه باللائمة على كل شيء، مجلس المحافظة، والأكراد، وحتى قوات التحالف التي كانت تريد القبض عليه كما كان يتصور.

ثم حكى لي عن أحد أصحابه، وكان صحفياً حين استعار سيارة إسماعيل فهاجمه مسلحون بوابل من الرصاص ظناً منهم أنه إسماعيل، فقتل على الفور. كانت قوات التحالف قد داهمت مؤخراً اثني عشر موقعاً في المدينة من بينها المسجد الحسيني الذي يتخذه عبد الفتاح الموسوي مقراً له. كان الموسوي ساعة المداهمة غير موجود في المسجد، لكن قوات التحالف استخرجت بنادق كلاشنكوف آلية وبعض الرمانات اليدوية والمقذوفات من مخابئ المسجد. إسماعيل كرر عليّ أن من الضروري إطلاق سراح الصدرين المعتقلين في هذه المداهمات إذ إنهم لا يشكلون خطراً على قوات التحالف وتلك الأسلحة معدة بالأصل لحمايتهم من هجمات متوقعة. كان مظفر ياس، الرسول الذي يتواصل بيني وبين عبد الفتاح الموسوي قد اعتقل أيضاً في هذه المداهمات. وحدثني إسماعيل وقتها عن عمله في مكتب التوظيف، وقال إن المحافظة فيها 35 ألفاً من العاطلين عن العمل، وقد جرى تعيين 10 آلاف منهم بالفعل. أما مكتب التدريب المهني الذي يعمل على تدريبهم فيشهد إقبالاً كبيراً من الشباب. وأخبرته عن موعد 30 حزيران القادم ونهاية الاحتلال وأني أنا أيضاً سأغادر، فقال: «لا...قولي لي إن هذا ليس صحيحاً». فأكدت له الموعد. وسادت بيننا لحظات من الصمت والحزن، وقلت له إن هذه السنة من عمري قد غيرت حياتي إلى الأبد، وهو أيضاً قد أكد الشيء نفسه عن حياته. قال لي إنه لم يسبق أن كانت له صديقة أثى في حياته، وأكدت له أننا سنتواصل ونلتقي ونتصل هاتفياً ببعضنا.

وفي اليوم التالي، وفي الثامنة صباحاً، عرج إسماعيل الحديدي، نائب المحافظ السنّي عليّ ليقلني بسيارته في زيارة إلى المناطق السنّية في المحافظة. مرّة أخرى كنت أكسر كل القواعد الأمنية. وكان

يرافقنا مساعد إسماعيل وهو تركماني سنّي، بالإضافة إلى مسؤول الكهرباء في المحافظة (أبو الكهرباء)، وخلفنا يسير عدد من حراس المباني الحكومية في سيارة أخرى، حيث كنّا نتواصل معهم عبر جهاز الاتصال. وحشنا المسير نقطع الحقول والمناطق الشاسعة باتجاه بلدة الحويجة. وكلّمّا مررنا بأناس يعرفهم إسماعيل الحديدي، كنّا نتوقف لتحيتهم. كنت أرى أحوالهم من خلال عيونهم المترقبة، لم يكن هناك أيّ وجود لقوات التحالف، فقط كان هناك عدد من نقاط التفتيش وفيها رجال شرطة عراقيون. وفي المجلس البلدي لبلدة الحويجة، جلسنا في قاعة الاجتماعات. وجلس قائم مقام القضاء وكان اسمه (أبو صدام) إلى جانب إسماعيل الحديدي على رأس مقعد تشريفي خصص له. قلت للموجودين: «الله بالخير»... وردّ الجميع عليّ بالكلمة نفسها، «هلو إيما سكاي». وكان يتعيّن عليّ أن أردّ برفع يدي إلى جبهتي ثم وضعها على صدري كتحيّة لهم.

ثم افتتح نائب المحافظ الجلسة بالقول: «تعرفون، في العراق الجديد، فإن للجميع دوراً كي يؤديه. ولن يكون هناك مجال لتهميش أحد. اليوم لدينا ضيفة هي إيما سكاي، كلّمكم تعرفونها، وهي قد عملت بجدّ من أجل منفعتكم جميعاً». فردد الجميع كلمة «أهلاً وسهلاً... شكراً لجهودك». وسار الاجتماع بعد ذلك. واستمر النقاش حول الكهرباء، وأسعار المحاصيل. لم يكن هناك من ذكر لقوات التحالف،... وكل شيء سار طبيعياً.

بعد الاجتماع ذهبنا لنرى ملعباً أنجزته إحدى منظمات المجتمع المدني، ومعملاً للإسفلت كان يعمل بصورة جيدة، بالإضافة إلى مشروع للمجاري ممول من الوكالة الأميركية للتنمية والمساعدات. وبعدها خرجنا من الحويجة، وكان هناك حديث عن المباريات التي

سيلعبها فريق الحويجة بالضد من بقية الفرق من البلدات العربية الأخرى، وقال إسماعيل إنهم سيلعبون أيضاً ضد البلدات الكردية، الدبس والتون كوبري.

بعد ذلك خرجنا بعيداً عن الحويجة ودرنا في الطريق عدة دورات، كنا نضحك على بعض القفشات، لكننا جميعاً نعلم أنني كنت لحظتها هدفاً مرجحاً جداً للاغتيال. وسلكنا طريقنا إلى ناحية الرياض، وفي الطريق كان الراديو يطربنا ببعض الأغاني، كنا نضحك من الخلطة الإثنية الموجودة في السيارة، قال لي أحدهم: «أنت شيعية أم سنية؟». فأجبت بمزاح: «أنا يهودية!»، وصاح السائق: «ياه... جماعة شارون!»، واستمر الضحك بيننا، وذكر لي إسماعيل بعض النكات التي كانت رائجة حينها والتي يتداولها الناس بينهم. وفي الرياض جلسنا مع المجلس البلدي للناحية واستمعنا إلى احتياجاتهم.

وحين وصلنا إلى منزل الشيخ غسان، عرفنا أنه مع شقيقه الشيخ برهان، لم يكونا في المنزل، وأنهما يقضيان شؤوناً تتعلق بافتتاح مقر جديد للكتلة العربية في مجلس محافظة كركوك. قال لنا شقيقهما قيس بأنهما سيعودان «هسة» (الآن)، وإننا يجب أن نشاركهم طعام الغداء. وبالفعل جلسنا ننتظر، ومرّت ساعة ونحن ننتظر، ثم شعرنا بالنعاس واحداً على أثر الآخر. وحين عاد الشيخ غسان وجدني وقد تكوّرت نائمة على إحدى الفرش. وابتدأ دخوله بالقول: «إيما سكاي عندنا... ما هذه المفاجأة الحلوة». وحضر الطعام وبدأنا الأكل، وقد غفل كل واحد منا عن الآخرين. جلس الشيخ غسان أمامي، كانت آخر مرّة التقيته فيها قبل ثلاثة شهور في اجتماع لأعضاء مجلس المحافظة العرب (الشيعية والسنة)، في هذه الغرفة تحديداً. وسألته عن أحواله فأجابني: «موزين!» (لست على ما يرام)، وكان يبدو عليه القلق بالفعل.

كرر الشيخ غسان شكواه من أن لا أحد في بغداد يمثل عرب كركوك، بينما الأكراد لديهم هناك طالباني وبارزاني. لكنني أكدت له بأن صوت العرب في كركوك قد سُمع، وأن مطالبهم قد فهمت. ودعوته إلى تشكيل حزب سياسي جديد في كركوك يضم كلّ الإثنيات، ويقدم رؤية مشتركة لمستقبل المدينة. كان هناك العديد من التركمان المستقلين، والعرب، والأكراد والمسيحيين كذلك، وهؤلاء يمكن أن يمثلوا قاعدة جيدة للانطلاق. ثم حدثني الشيخ غسان بأن طالباني كان قد دعاه للتباحث، وشجّعته وقلت له إنه يجب أن يلبي الدعوة. قلت له إن هناك العديد من «الأخوة» الأكراد قد نزحوا من المحافظة، وهم راغبون بالعودة إليها الآن. وإن عليه أن يرحب بهم وبعودتهم، وأن يساعدهم على إعادة بناء قراهم واستئناف العمل في مزارعهم. فهزّ رأسه موافقاً وقال غسان: «ليس لدينا أي ضغينة تجاههم». ثم سألتني الشيخ غسان عن أخبار العقيد مايفيل. ونقلت له أن العقيد مرتاح بعودته إلى بيته وعائلته في إيطاليا، وأني قد كلمته مؤخراً وهو بدوره كان يسأل عن الشيخ غسان وأخبار كركوك. فأجاب الشيخ غسان وقد ميّزت التماعة في عينيه: «العقيد مايفيل كان صديقاً لي... في الحقيقة أنا أحبه جداً»، وقلنا سوية أنا وهو كلمة «جداً» في وقت واحد.

كان بالإمكان تمضية وقتٍ أطول مع الشيخ غسان لولا أن رفاقي في تلك الرحلة سحبوني سحباً وقالوا إننا يجب أن نذهب. ووعدني الشيخ غسان أن يأتي إلى زيارتي في بغداد قبل أن يحين موعد رحيلي. كنّا قد أخذنا قسطاً من الراحة وتناولنا طعاماً ممتازاً وعلى استعداد تام أن نذهب إلى الجهة الجنوبية حيث يقع منزل الشيخ أنور العاصي، الشيخ الأعلى لقبيلة العبيد. وفي الطريق مررنا بنقطة لشرطة المرور كان كل من فيها نيام، فالوقت كان وقتاً للقيولة. وحين اقتربنا من مدى جبال

حميرين بدا المشهد لنا أكثر صحراوية. كنّا نسير على طريق تكريت حيث لم يسبق أن مرّت من هنا أي دورية لقوات التحالف منذ شهور. وبعد مسيرة أربعين دقيقة، انحرفنا عن الطريق باتجاه قرية (رمل)، وكنّا في قبالة المنزل الرئيس فيها في حوالي الساعة الخامسة بعد الظهر، وكان الجميع نيام. دخل إسماعيل الحديدي وأعلن أن إيما سكاي قد جاءت لزيارة المنزل. وخلعت حذائي ووقفت في المدخل أنتظر، فخرج إليّ الشيخ أنور العاصي وهو يضحك ويرحب «أهلاً وسهلاً إيما سكاي... أهلاً وسهلاً». وسألني عمّا أفعله في تلك الأصقاع وما الذي دفعني إلى تلك الزيارة، فقلت له إنني هنا كسائحة ولست جزءاً من الاحتلال. فسأل متعجباً: «سائحة؟... وماذا تجدين هنا غير الرمل؟».

ثم دخل الشيخ وصفي علينا إلى الغرفة، ونهضتُ لتحيّته، وأخبرته بجولتي في ذلك اليوم. وظهر أنه قد عرف بمجيئي، وأنني لم أقتل بالرغم من مصاحبتي لإسماعيل الحديدي المعروف عنه أنه مقرب من الأكراد وصديق لهم. الشيخ أنور قال إنني بإمكانني أن أتقل أينما أريد ومثلما يحلو لي، لكنني لو كنت أميركية فإن القصة ستبدو مختلفة. كنت في الحقيقة أتقل بأمان لأنني بصحبة أصدقاء عراقيين، ولم يكن أحد ليتصور أن أجنبية معهم في السيارة. وعلى الأقل فإنني أعرف أن اثنين من الدبلوماسيين اليابانيين قد قتلوا الشهر الماضي، حيث كانا يسافران بعجلتهما الخاصّة. ثم عُدنا إلى مناقشة الفوارق بين البريطانيين والأميركيين، وقال الشيخ أنور إن البريطانيين فهموا العراق وطبيعته، وتعاملوا مع القبائل بصورة مناسبة ولائقة، أما الأميركيون فهم لا يفهمون شيئاً. لكنني أبدت ملاحظة بأن أبناء بلدي البريطانيين لم يبلوا بلاءً حسناً أيضاً في العراق، وأن الأميركيين سرعان ما صاروا يعرفون مداخل القضايا ومخارجها، وصاروا أكثر خبرة في التعامل مع العراق،

لكن يبقى العراق بلداً صعباً للغاية في كل القضايا التي لامسناها فيه. كانت ردّة فعل الحضور أنهم استنكروا ذلك ولم يوافقوني: «رجاء لا تقولي هذا... هذا ليس صحيحاً». في ذلك الوقت، مضى على الاحتلال ما يقرب من سنة كاملة، وسألته عن آرائهم، فأجابوني بدعواهم المتكررة عن أخطاء قوات التحالف. وسألوني عن رأيي فأخبرتهم بأنني لا أظن أن أيّ احتلال أجنبي لبلد ما يمكن أن ينجح في إدارته، على الأقل ليس في عصرنا الحديث هذا.

لكن الأمل يبقى في أن يحوز العراقيون حياة أفضل مما كانوا عليه، وسألوني عن الحياة في بغداد، فقلت إنها: «موزينة!» (ليست جيّدة)، ووصفت لهم معيشتي في مقصورة وضعت في قبو. واستذكر الشيخ أنور لقائي الأول بهم بحضور العقيد مايفيل، وكيف أنني لم أنطق بكلمة خلال اللقاء، لكنه لم يذكر لي أن ذلك اللقاء كان بخصوص اعتقال ابني أخيه، لقمان وحاتم.

تكلم إسماعيل الحديدي مادحاً أداء العقيد مايفيل، واصفاً إياه بأنه قائد مُحَنّك. وأوماً الشيخ غسان موافقاً، لكنه أضاف أن العقيد كان يمثل له (صُداً مزمناً) في الرأس، وانبرى الجميع ضاحكين.

في الحقيقة كان العقيد مايفيل يسلّط بالفعل ضغطاً كبيراً على الشيخ أنور، بما في ذلك أنه جعل الطائرات تحلّق فوق منزله عدّة مرّات. كان الضغط يهدف إلى دفع الشيخ أنور كي يقدم المساعدة في كفّ الهجمات التي تتعرض لها قوات التحالف. وقال الشيخ أنور إنه ممتن عن إحدى المناسبات التي منع فيها العقيد مايفيل أحد ضبّاطه من تدمير القرية بأكملها. ويّين أن العلاقة الآن صارت أخف وطأة مع قوات التحالف وأن بصماتهم صارت خفيفة في الأوضاع، وكان الشيخ أنور قد تلقى

دعوة من العقيد مايفيل لزيارة الولايات المتحدة، وفرصة لرؤية «كيف تعمل الديمقراطية»، الشيخ أنور أجابه بأنه ممتن لتلك الدعوة، لكن إن كانت الديمقراطية تعني ما يحدث في العراق من فوضى فهم قد رأوا ما فيه الكفاية لحد الآن، وليست هناك حاجة لرؤية المزيد.

ثم وقف الجميع لتحياتي، وحين خرجت وانتعلت حذائي العسكري، قال الشيخ أنور: «إنها صديقة وجاءت كضيفة، لكنها ما تزال ترتدي أحذية قوات الاحتلال». وضحك الجميع وقلت للشيخ: «حتى هذه ستختفي بعد الثلاثين من حزيران، وسيتم حلّ سلطة الائتلاف»، وكرر الشيخ بأنني مرحّب بي كي أزورهم متى ما أشاء. وخلال طريق عودتنا عرجنا على ناحية الرشاد، ووقفنا نتابع مباراة لفريقين شعبيين يلعبان كرة القدم. لاعبو الفريقين كانوا يرتدون قمصاناً زاهية وكلّ فريق بلون مميز. كما توقفنا عند محطة لنقل الطاقة الكهربائية، واستمع (أبو الكهرباء) إلى إيجاز عن مشكلة كانت تواجههم ويعملون على حلها. وخلال ما كنّا نقطع المساحات الشاسعة باتجاه كركوك، سمعته يقول: «إن أهم شيء يتوافر عليه الإنسان هو أن يكون آمناً على نفسه وأمواله، أما باقي الخدمات من الكهرباء وغيرها ستتوفر حالما يتوفر الأمن». وقال: «الحمد لله... إن هذه المناطق تنعم بالأمن في حدّه المعقول».

لكن هذا لم يكن بالضبط ما حصل بعد ذلك. فقد تمكن عدد قليل من السنّة المتطرفين من تعكير صفو الأمن، وجعلوا المنطقة بأكملها غير آمنة. ولم تنج هذه المنطقة، كما باقي مناطق العراق من عاصفة العنف التي ضربتها.

في اليوم التالي كان هناك اجتماع في مبنى الحكومة المحلية ضمّ ما يقرب من مئة شخص للقاء كارلوس فينيزويلا (Carlos Venezuela)

الممثل الخاص للأمم المتحدة لمناقشة إجراء الانتخابات. لم أحضر من الاجتماع سوى نصف ساعته الأولى، ثم خرجنا لتفقد الأسر الكردية العائدة والتي كانت مرحلة من كركوك، وتفقد أوضاعهم المعيشية. كانت هذه الأسر قد اتخذت من ملعب المدينة مقراً مؤقتاً لإقامتها في خيام. وقرر المحافظ أن يأتي معنا برفقة نائب المحافظ أيضاً. وخرجنا في قافلة. كان معي في السيارة كل من (أبو الكهرياء)، و(أبو البلدية)، وكلاهما من الاتحاد الوطني الكردستاني. كانت هناك لافتة كبيرة على الملعب كتب عليها «ملعب كردستان»، وبدأنا أنا والمحافظ رحلة استكشافية بين الخيام والعوائل لتقييم حالتهم المعيشية والصحية. ووجدت أن حالتهم قد ساءت منذ آخر مرّة زرتهم فيها. انتشر عدد كبير من الأطفال يجلسون في كل مكان، معظمهم غير مسجلين ويحملون أمراضاً عدّة. مياه المجاري كريهة الرائحة تحيط بهم من كل مكان، والذباب يغطي أجسادهم. كان المحافظ بصحبتني ونحن نتنقل من صف من الخيام إلى آخر، وكان (أبو البلدية) هو من يترجم لي ما يقولون. المحافظ يسأل كل عائلة عن المكان الذي أتوا منه. كانت سلطة الائتلاف قد طلبت من المرحلين أن يستقروا مؤقتاً لسنة واحدة، وأنها ستضعهم على برنامج لإعادة التوطين، ثم ستدخلهم في برنامج لإعادة بناء قراهم التي هُدمت في عهد صدام. لكنّي الآن أعلم تمام اليقين بأننا لن نتمكن من فعل ذلك مطلقاً.

وبعد ذلك زُرنا قرية (قره هنجير)، كانت قرية واقعة على الحدود بين محافظتي السليمانية وكركوك، وكان الأكراد يشرعون فيها بعملية بناء واسعة. التقينا بمدير الناحية، وكانت عيناى متسمة على خارطة كردستان التي تغطي نصف الجدار. تمتد فيها كردستان جنوباً حتى جبال حميرين، وفيها أجزاء كبيرة من تركيا وسوريا. ثم ودّعنا رجال الشرطة

الذين كانوا بصحبتنا، وقال إسماعيل الحديدي عنهم إنهم في الحقيقة كلهم كانوا من «البيشمركة»، فقلت لهم: «زور سوباس بيشمركة»، وودّعتهم بكلمات بالكردية، ورفعت يدي إلى جبهتي وأعدتها إلى صدري كما يفعل العراقيون. وحان وقت وداعي لإسماعيل نفسه وقلت له وداعاً، فصافحني بحرارة وهو يكرر «هلو، هلة، هلو». إن العراق هو المكان الوحيد الذي تقال فيه كلمة «أهلاً» في لحظات الوداع أيضاً.

الفصل السابع

وداعاً لكل ذلك

من أطراف الجنوب تأتيني ريح النساء
ومن أطراف الغرب تأتيني ريح النزاع
ومن أطراف الشمال يأتيني قمع الإعصار
ومن أطراف الشرق يأتيني عصف المُحاربين
وبين هذا وذاك، أشعر وكأنّ سكيناً تمزقني

جيمس فينتون - شاعر إنكليزي.

* * *

مع تدهور الوضع الأمني في العراق واستمراره في الانحدار نحو الأسوأ، بدت الصورة تظهر وكأننا نقف بلا حيلة إزاء هذا الفشل. ولم نعد قادرين على توجيه دفة الأمور في بغداد، ولم نكن نعلم بالأصل إلى أين يتجه العراق.

وفي المنطقة الخضراء، كان البعض يمضي وقته بمعاقرة الشراب، بينما الآخرون يعدّون الأيام قبل المغادرة. واتجهت أفكاري إلى التفكير بحياتي الشخصية ما بعد مغادرة العراق. سأعود للاستقرار في منزلي بدلاً من المكوث في مقصورة. ومرّ بخاطري شريط الأصدقاء القدامى ووجبات السوشي. أعلم أنني لن أجد من يرحّب بي في بلادي ترحيب الأبطال العائدين. بل إنني خشيت أن يتكرر معي ما حدث مع قدامى المحاربين العائدين من فيتنام إلى مدّنتهم وقراهم، حيث عادوا من حرب لم يكن لها شعبية بين صفوف مواطنيهم.

كانت حفلة الوداع التي أقامتها سلطة الائتلاف قد رُتّب لها مبكراً، حيث إننا سنغادر تباعاً ومتفرّقين وفي مواعيد مختلفة. وأعد للحفلة قرب حوض السباحة في القصر الجمهوري. حاولت أن أستمتع بجوّ الحفلة وأعددت لنفسني طبقاً من المشويات التي تم تقديمها بغزارة. وحضر ديفيد ريتشموند وألقى كلمة أرسلها توني بلير إلى العاملين البريطانيين في سلطة الائتلاف.

ثم جرى عرض تسجيل فيديو أرسله الرئيس الأميركي جورج بوش، امتدح فيه عمل موظفي سلطة الائتلاف. ثم اعتلى بريمر المنصة وبدأ يقرأ كلمة مكتوبة، كان قد كتبها بنفسه بكل تأكيد. وابتدأ كلمته بأن وجه الشكر للبريطانيين، فبرزت صيحة تحية من جزء من الجمهور الحاضر. ثم شكر فينا كلّ ما تحمّلناه أثناء وجودنا وعملنا في العراق، بدءاً من

الطعام وانتهاء بالتعرض للقصف اليومي. وقال إننا جميعاً سنتذكر لباقي أيام حياتنا مساهمتنا الفاعلة في بناء الديمقراطية في العراق.

كانت أصوات الإطلاقات النارية والتفجيرات يمكن سماعها، تصل خفيفة إلى أسماعنا أثناء الحفلة، وكان لديّ الكثير مما يمكن أن أتذكره عن أيام عملي في العراق، لكن ليس من بينها المساهمة في بناء الديمقراطية.

وسبق لمجلس الحكم أن أصرّ (بالرغم من خلافات أعضائه الحادة) على أن يكون الشيخ غازي الياور رئيساً مؤقتاً للعراق، بدلاً من الاختيار الأميركي الذي وقع على عدنان الباجه جي. يومها، كان أحمد الجلبي قد أسقط تماماً من الحسابات الأميركية. كانت الأخبار تتحدث أن المخابرات الإيرانية كانت قد تلاعبت بالأميركيين عبر تمرير معلومات خاطئة لهم عن امتلاك صدام لأسلحة الدمار الشامل. كانت تلك المعلومات على ما يفترض قد وصلت عن طريق أحمد الجلبي. وكان نشاط الجلبي المعلوماتي يتضمن أيضاً نقل معلومات غاية في السرية إلى الجانب الإيراني، فقطعت وزارة الدفاع عنه الدفعات الشهرية التي كان يتقاضاها بمعدل 340 ألف دولار في الشهر، كما لم يجر اختياره لأي منصبٍ مهم في الحكومة المؤقتة.

وفي الأول من حزيران، حان موعد ترديد القسم للحكومة العراقية المؤقتة. كنت يومها قد كلّفت بمرافقة المسؤولين العراقيين القادمين من المحافظات لحضور المراسم، وكانت أماكنهم قد أقيمت سراً حتى اللحظة الأخيرة. والتقيت بإسماعيل الحديدي، نائب محافظ كركوك، و(تحسين) الذي كان رئيساً لمجلس المحافظة، واندمجنا في حوار معمق. وفجأة سمعنا انفجاراً كبيراً، ربما يكون في منطقة قريبة.

وساد جو من الهلع. كُنّا قد اعتدنا على هذه الأصوات داخل المنطقة الخضراء، لكن هذا الانفجار كان قوياً بما يكفي أنه جعل مُمثلي بعض البعثات الدبلوماسية يغادرون الحفل، إذ صار واضحاً لديهم أن قوات التحالف لم تؤمّن المراسم بما يكفي. لكن مشاهدة العراقيين وهم يتولون المسؤولية منحنا شعوراً بالراحة والاطمئنان. ولم نكن نبعد سوى أقل من شهر على موعد حلّ سلطة الائتلاف.

بعدها ذهبت إلى اجتماع برفقة بريمر للقاء الشيخ غازي الياور. قبلها ببضعة أسابيع كُنّا في زيارة إلى الموصل، وحين عُدنا بصحبة الشيخ غازي، كانت سيارة بريمر تنتظرنا في المطار. في الطائرة، قلت للشيخ غازي إننا يجب أن نستوقف سيارة في المطار لتقلّنا، فلم يدر بخلده أن سيارة بريمر كانت بالانتظار، وحين نزلت من الطائرة في بغداد وصعدت إلى سيارة بريمر لم يكن هناك أي أثر للشيخ غازي، وبحسنا عنه فلم نجده. وانطلقت السيارة بنا وإذا بنا نتفاجأ أن الشيخ يقف أمامها ويلوح بإبهام يده من أجل (توصيلة)؛ الموقف ملأنا بالضحك في وقت كُنّا بأمس الحاجة له. الآن غازي الياور صار رئيساً للعراق.

وفي الاجتماع مع بريمر والشيخ غازي، افتتح بريمر الحوار بالإشارة إلى مشاركة الشيخ القريبة في اجتماع رؤساء دول (G-8)، فقال الشيخ غازي بأنه قد متّع نفسه تماماً بهذه المشاركة، وإنه لم يكن في تصوره ليوم ما أنه سيكون رئيساً للعراق، وأنه سيجلس إلى الرئيس الأميركي في واشنطن.

ثم طرح بريمر فكرة تأسيس (مؤسسة كركوك)، وطلب من الشيخ غازي مرافقته إلى المدينة ليعلنا من هناك تأسيسها. وافق الشيخ على الفور، وأدرك بسرعة أن بإمكانه أن يلعب دوراً في الشؤون المحلية على

الأقل في مجال المصالحة التي تبدأ من كركوك. هو نفسه يعود بأصوله إلى الموصل، وهو مدرك تماماً لطبيعة التعقيدات التي تشملها المحافظة.

وبعد ذلك تركت الاجتماع لأرحب بإياد علاوي، الذي أصبح رئيساً للوزراء، وتلقاني بابتسامة وتحيّة حارة. قبل أيام كنت مدعوة في منزله وسط بغداد وخارج المنطقة الخضراء، كنّا نأكل ونشرب بينما الرصاص يلعلع في سماء العاصمة ابتهاجاً بفوز فريق المنتخب العراقي لكرة القدم.

وفي 23 حزيران، طرنا إلى كركوك، أنا وبريمر والشيخ غازي. ونزلنا في أرض المطار، ثم ذهبنا إلى إحدى الحاويات التي تم تهيئتها لتكون غرفة للاجتماعات. كانت الاحتياطات الأمنية قد نصحت بريمر بعدم الذهاب إلى مبنى الحكومة المحلية. للحظة تصوّرت أن الحدث يختزل محاولتنا إظهار الأفضل والأحسن لكركوك، التي يكتنف غموضها مجموعة من الأسرار التي ليس بالسهولة حلّها. ثم وقف بريمر على منصبه يلقي كلمة في المناسبة. كنت قد عملت مع الشخص الذي يكتب خطابات بريمر قبل أسبوع، وحرصت أن تكون مقارباته للقضايا التي تخصّ كركوك واضحة ومباشرة. كما سعيْتُ أن يتفادى ذكر كلمة (الأشرار)، التي صارت مثل الملح في خطاباتهِ وتصريحاته.

ووصف كيف أن كل المكونات التي خلقت فسيفساء الشعب العراقي إنما تتواجد في كركوك؛ العرب والأكراد والتركمان والآشوريون. وإن أبناء كركوك سيكونون هم الشعلة الأبدية التي تبقي هذه المدينة حيّة. ثم أعلن عن تأسيس (مؤسسة كركوك)، برأس مال قدره 100 مليون دولار من الموازنة العراقية. ثم أنهى خطابه بشعاره الذي طالما رددته بالعربية: «مبروك لكم العراق الجديد، عاش العراق».

وبعد أن أنهى بريمر كلمته، خرج هو وحاشيته، في حركة رمزية للدلالة على وجود حكومة عراقية استلمت المهام. بعدها وقف الشيخ غازي يلقي كلمة غير مكتوبة، ثم ردّ على أسئلة الحاضرين وتفاعل معهم لمدة ساعة في أقل تقدير. ودفع في كلمته باتجاه إشاعة السلم الأهلي في المدينة المتعددة الإثنيات. كانت تلك آخر فرصة لي كي أودّع الأشخاص الذين أعرفهم في كركوك، لم أكن أقدر أين ومتى سألتقيهم مرة ثانية، لكنني وعدت نفسي بأنني سأعود في يوم ما لأقيم وأستذكر تلك الأيام التي كانت فيها أرواحنا في مهب الريح.

وعدنا إلى بغداد في طائرتين مروحيتين منفصلتين، وحين هبطنا وظهر الشيخ غازي من مروحيته، استدعانا أنا وجون سينور المتحدث باسم سلطة الائتلاف. وحين اقتربنا منه بدا وكأنه قد بصق سمّاً من فمه. لقد كانت المروحية تطير مفتوحة الأبواب، وقد ضربه الهواء بشدة ونفخ غطاء الرأس عنه بعيداً. وقد اضطربت ملابسه وطار عباؤه. بدأ بالصراخ في وجهنا وقال إنه لن يسكت عن هذه الإهانة ليس بوصفه الشيخ غازي وإنما بوصفه رئيس جمهورية العراق. كان يبدو غاضباً بشكل كبير. قدمت له اعتذاري وبيّنت أن الأمر بالتأكيد لم يكن مقصوداً. بعدها ذهبت إلى مكتبه، وقيل لي إنه كنتيجة لما حدث فقد أصيبت قدمه، وتأذّت أذناه، كما التهبت لديه الجيوب الأنفية، وهو الآن يرفض تلقي الاتصالات.

وبعد بضعة أيام من التعافي، دعا الرئيس إلى الاجتماع الأول واستضافه، وحضر مجلس إدارة مؤسسة كركوك. كان على مجلس الإدارة أن يسرع بتأسيس المؤسسة وتسجيلها في ديلاوير (الولايات المتحدة)، وأن ينقل مبلغ 100 مليون دولار إلى حساب خاص في

مصرف بريطاني قبل نقل السلطات في 30 حزيران. لكنني عرفتُ بعد أسابيع من مغادرتي العراق أن المبلغ لم يجر تحويله، وأن المؤسسة لم تر النور، كانت مجرد مشروع آخر من مشاريع النوايا الحسنة التي شهدت فشلاً في العراق.

وفي إحدى الأمسيات اتصل بي الشيخ غازي وأجبتُه: «أهلاً بالسيد الرئيس»، لكنه أجاب بسرعة: «رجاء توقفي عن مناداتي بهذا، قولي غازي فقط». وكان هناك ضحك بيننا. مع ذلك فقد بان الاستياء عليه، فقد تعرّض حرّاسه الشخصيون (الذين سبق تدريبهم من قبل وحدة خاصة في مشاة البحرية الأميركية) إلى إهانة وطُرحوا أرضاً من قبل جنود أميركيين. لذلك كررت اعتذاري له، وكررت اعتذاري عن حادثة الطائرة المروحية. ثم تحدثت عن القصر الجمهوري، وقال إن سلطة الائتلاف ستسلم القصر إلى السفارة الأميركية وليس إلى العراقيين، «وهذا يشكل الكثير من الإهانات بما لا يمكن تحمله»، هكذا عبر الشيخ غازي. فقلت له إن الأمر مجرد أيام وسيجري نقل السلطة وستنتهي هذه الأمور.

كان موعد 30 حزيران يقترب بسرعة، والهجمات على المنطقة الخضراء متواصلة بقذائف المورتر بين حين وآخر، لم نتمكن دائماً من تحديد مصدر الإطلاق. لكن القوات العراقية باتت الآن مرئية داخل المنطقة الخضراء وخارجها. ووضعت المطاعم خارج المحيط الأمني، وحتى التنقل داخل المنطقة الخضراء قد جرى تحديده واشترط أن يكون بواسطة عربة مدرعة.

وفي يوم الأحد 27 حزيران، كنت أحزم حقائبي. كانت التذكارات من اللواء 173 قد رُصّت إلى جنب الحقائب الكردية المصنوعة من الجلد. ومعها سيت لعبة الشطرنج الذي أهداني إياها جلال طالباني، ومعها

عدد من الهدايا التي استلمتها من وجوه كثيرة التقيت بها. كانت شركة خدمات (DHL) للبريد قد أخبرتنا مسبقاً بأن هذا اليوم سيكون آخر يوم عمل لها، وبعدها ستغلق مكاتبها. كان الجميع يتوقعون هجمات صاروخية على المنطقة الخضراء في يوم تسليم السيادة.

في تلك الليلة أخبرت همساً بأنني سأغادر مع بريمر في رحلة خاصة ومعنا طاقم خاص متقن لهذه الرحلة. كان يوم مغادرتنا قد تم تقديمه ليومين، فاندفعت إلى القصر، كانت هناك فايلات عليّ أن أنسخها، وأخرى في (الفلاش ميموري)، وجب تفريغها، كما عليّ أن أحيي بعض الأصدقاء وأودعهم. لكن كيف يمكن أن تودع شخصاً إن كان موعد مغادرتك أمراً سرّياً؟!.

وقفنا عند مهبط الطائرات حيث تنتظر إحدى طائرات الشينوك المروحية لتقل الصحفيين، وأخرى لبريمر ومجموعته. وحضر برهم صالح لتوديعنا (يومها كان نائباً لرئيس الوزراء)، قبل أن نتوّدع بحرارة سألني: «هل أنت مغادرة أيضاً؟» فأجبت بإيماءة من رأسي، وقال: «سنتفدك كثيراً».

وخلال ربع ساعة، كان كل من بريمر وريتشموند وطاقمهما على متن المروحية، لكنني كنت أغادر دامعة العينين. لقد سألت دموعي لأنني سأفارق بلاد الرافدين دون أن أحقق لها شيئاً يذكر، وانحدرت على خدي وأنا أفكر في العراقيين الذين عانوا من ظلم نظام صدام ليجدوا أنفسهم قد سقطوا في الفوضى وفي بلد يعاني الانهيار.

وسألت دموعي على ذكرى أصدقائي في كركوك الذين كنت أمل منحهم حياة أفضل، والآن هم يعيشون في ظل الاغتيالات. كما تذكرت وجوه كل الذين سقطوا قتلى منهم، الشيخ عكار، والشيخ

نايف، ويحيى الحديدي، كلهم اغتيلوا. بالإضافة إلى نظام الدين غالي، ومصطفى كمال.

كان برهم صالح قد أخذ ورقة صغيرة وكتب عليها ملاحظة، بأن: «المحتلون يغادرون اليوم بصحبة أسيادهم السابقين»، (كما كان يعبر جلال طالباني عن البريطانيين)، وأعطاني الورقة فابتسمت. ثم عرضت الورقة على بريمر الذي انفجر ضاحكاً من لوزعية التعليق. ثم هبطت بنا المروحية في مطار بغداد، كانت تلك الفرصة الأخيرة لوداع الجنرال سانشيز الذي وقف ينتظرنا هناك. وقفنا تبادل الأحاديث والقششات، قلت لهم: «إننا الآن مثل عائلة فون ترامب في فيلم صوت الموسيقى». في النهاية ينتظر الجميع إنجاز شيء مهم ما (مثل عائلة فون ترامب) لكن لا شيء سيحدث، لأننا جميعاً هربنا.

ثم التفت إليّ بريمر وبدأ يوجه عبارات الشكر لي نظير ما قدّمته له من معونة، وخاصة فيما يتعلق بكركوك. لم أجد عبارة تسعفني لحظتها سوى أنني عبّرت عن سعادتي بانضمامي إلى فريقه من أجل أن أقدم شيئاً حقيقياً وتصافحنا وانتهى وداعي له. ثم شاهدته يتجه مع برهم صالح إلى الطائرة المخصصة له، وودعه بمصافحة وارتقى سلم الطائرة. كان هذا ما شاهدته العالم، لكن ما شاهدته أنا، كان نزول بريمر مرة ثانية من الطائرة نفسها وتوجهه إلى طائرة أخرى كانت بانتظاره. كانت تلك حيلة لزيادة إجراءات الأمان حوله.

طرنا بواسطة طائرة (C-130) إلى الكويت، وحالما ارتفعت بنا الطائرة وصرنا في مأمن من أن نتعرض إلى إصابة، بدأت أتأمل وأفكر بالوقت الذي أمضيته وكنت فيه جزءاً من قوات التحالف. كان هذا التحالف نوعاً من صليبية حداثوية مدعومة بالأيدولوجيات والمثاليين،

خليط من الجهل والخطورة والسذاجة؛ ولأما ماذا نسمي أناساً يؤمنون بأنهم قادرون على جلب الديمقراطية الليبرالية إلى العراق بالقوة؟. بل إنهم يؤمنون بفرضها بالطريقة نفسها على كل الشرق الأوسط.

أناس يؤمنون بوجود ربط بين صدام وابن لادن، ويؤمنون بأن هذه الحرب (حرب احتلال العراق) هي جزء رئيس من الحرب العالمية على الإرهاب. ويؤمنون بأن العراقيين سيكونون ممتنين لتخليصهم من الاستبداد عبر هذه الحرب، وأنهم سيقعون في حب أميركا في النهاية.

لقد أقبل عدد كبير من الشباب الأميركي على المجيء إلى العراق تحت تأثير أحداث 11 أيلول. واعتبروا أن مجيئهم ومشاركتهم في الحرب هي عين الصواب في ما يجب أن يقدموه من حماية لبلادهم، وأنها إسهام في جعلها مكاناً أكثر أمناً. وأنهم بمشاركتهم في الحرب سيمنعون إراقة الدماء مرة أخرى على أرض وطنهم. عندها بدأت أبكي من أجل أولئك الذين فقدوا حياتهم في هذا الصراع.

بعد ساعات من ذلك، كنت أجلس في غرفة فاخرة في فندق الشيراتون بالكويت. لقد انتهى عهد أيامي مع السكن في المقطورات، والسفر مع طائرات الشحن العسكرية. في اليوم التالي كنت أجلس في درجة رجال الأعمال على متن طائرة الخطوط الجوية البريطانية المتجهة إلى لندن.

والتقطت جريدة، كانت الصفحة الأولى منها تحمل صورة لصدام وهو يقف في المحكمة التي تحاكمه. كان يرتدي بدلة قاتمة وله لحية مشدبة، ويبدو في حال أفضل بكثير من الحال التي كان عليها لحظة القبض عليه من قبل قوات التحالف.

تأملت صورته وأنا أتساءل عن القدرة التي تدفع إنساناً ما إلى ارتكاب مذابح لعشرات الآلاف، الضحايا الذين بدأت الآن تظهر مقابرهم

الجماعية في كل مكان. كيف سيكون وقع هذه المحاكمة على العراقيين وحتى على سكان الشرق الأوسط؟. هل ستكون عاملاً يساعد العراقيين الذين تعاملوا مع عهد إرهاب صدام في وقت بقي الآخرون صامتين؟. هل ستوسع هذه المحاكمة الهوة بين العرب والأكراد؟ أو بين السنة والشيعة؟ لقد أريق الكثير من الدم في هذه البلاد وأتصور أن الوقت قد حان ليتوقف هذا السيل. لا يهم عدد التماثيل التي أزيلت لصدام من العراق، ولا يهم عدد الصور التي تم تمزيقها، لأن سطوته وأثره القاسي سيبقى ملازماً للعراقيين لفترة طويلة جداً بعد موته.

وأخيراً وصلت إلى منزلي في مانشستر. عندما غادرته وذهبت إلى العراق في بادئ الأمر، كان في تصوّري أنني سأغيب لثلاثة شهور فقط، وهي كل الفترة المطلوبة لتسليم السلطة إلى العراقيين. لكن الأمر تطلب أكثر من سنة كي تحلّ سلطة الائتلاف نفسها وتسلم السلطة. وفي النهاية بقيت قوات التحالف بتعداد قوامه عشرات الآلاف في العراق، منعاً لانهيار الحكومة المؤقتة، ولأجل التعامل مع العنف المتصاعد.

في البيت غيّرت ملابسني وارتديت سروالاً قصيراً من سراويل الجيش وتي شيرت بتيّاً وخرجت أمارس رياضة الجري على طول الأرصفة، حتى أخذتني قدماي إلى جوار نهر ميرسي، وأستنشق الهواء المنعش، وظهرت الأعشاب بلون أخضر ساحر، كما كانت أسراب البط تقطع المياه بحريتها. أنا الآن حرّة، لقد نجوت وأنا الآن في الديار.

القسم الثاني

عمليات الموجة

كانون الأول - كانون الثاني، 2007

الفصل الثامن

العودة إلى بغداد

«نحن الحجيح، سيدي؛ دائماً ما نذهب أبعد قليلاً من المدى. وقد نرحل إلى ما وراء آخر السلاسل الجبلية الزرق، تلك التي ما زالت منطمة تحت الجليد».

جيمس إيلروي فليكر

* * *

مع نهاية حزيران من عام 2006، عدتُ إلى عملي السابق - وإلى مكنتي القديم نفسه - في المجلس الثقافي البريطاني في مانشستر. لكن تعذر عليّ العودة إلى الاستقرار الذي يفترض أن أشعر به في العمل. لم يصادفني أحد يرغب بالاستماع لأيّ شيء عن العراق، أو حتى من يرغب بمعرفة تجربتي هناك. ومع استمرار الحرب نحو الأسوأ في أفغانستان والعراق، كان أيّ شيء آخر سيبدو غير ذي صلة، وغير مهم على الإطلاق. ثم وافق المجلس البريطاني على إعارتي للعمل مع (PCRU)، وهو مكتب (وحدة إعادة الإعمار لمناطق النزاعات) ومقرّها لندن.

كان هذا المكتب عبارة عن وحدة إدارية حكومية أُسست حديثاً تربط بين الوزارات، وتعمل بالتنسيق مع وزارة الخارجية البريطانية، ووزارة الدفاع، بالإضافة إلى وزارة التعاون والتنمية الدولية. كان الغرض من التأسيس هو لأجل ضمان تهيئة وتدريب كادر مدني قادر على الانتشار في مناطق النزاع والعمل جنباً إلى جنب مع القوات العسكرية في إدارة المناطق المدنية. ولكي لا تتكرر مشكلة تهيئة الكوادر التي واجهتها سلطة الائتلاف في العراق. كان الشيء الجيد في الموضوع هو أنني سأعمل مع أناس سبق لهم العمل في العراق، ويهتمون بالفعل لما يرد في الأخبار عنه. لكنني سرعان ما أصبت بخيبة الأمل نتيجة التنافس والمماحكات البيروقراطية بين الوزارات الثلاث، وهو أمر أحبط أيّ أمل قد يعلّق على عمل هذا المكتب.

وطُلب من المكتب أن يوظف مستشاراً للعمل في أورشليم القدس لمدة ستة أسابيع، في مشروع تشارك فيه بريطانيا وتقوده الولايات المتحدة يتعلّق بالسلام في الشرق الأوسط. ومن اللحظة الأولى،

تهياً للمعهد أنني الشخص المناسب لهذه المهمة، فقد عشت هناك أكثر من عشرة أعوام، كما أنني عملت مع الجيش الأميركي. وعلى أثر وفاة ياسر عرفات، قررت الولايات المتحدة أن تعيد تواصلها مع الفلسطينيين، وعيّنت لها منسقاً أمنياً لعملية السلام في الشرق الأوسط هو الجنرال كيب وارد (Kip Ward)، وانتهى بي المطاف أن أعمل لتسعة أشهر كمستشارة سياسية للجنرال وارد-أو(بول آد) وفقاً للتعبير العسكري المختصر- حيث كنّا نراقب فكّ الاشتباك الإسرائيلي عن قطاع غزة، وتفكيك المستوطنات وإخلائها. ثمّ جاء قرار إسرائيل بالآلّا تنسحب فعلياً وكليّاً من قطاع غزة، الأمر الذي استخدم كذريعة من قبل الفصائل المسلحة كي تهيمن على القطاع وتعيد عمليات ضرب القوات الإسرائيلية إلى الواجهة.

وعندما شارفت مهمّة الجنرال وارد على الانتهاء، ذهبت إلى أفغانستان مع بدايات عام 2006 لأعمل كمستشارة للتنمية مع الجنرال ديل فيكيو (Del-Vecchio)، وهو يومئذ القائد الإيطالي لقوات حفظ الأمن الدولية (إيساف) في أفغانستان. كانت وزارة التعاون قد أصرت على توظيف مستشار في مقر حلف الناتو هناك، حيث يقود الإيطاليون القوّة الموجودة. وكان هؤلاء قد استلموا قيادة العملية من الأتراك وسيسلمونها لاحقاً إلى البريطانيين. وفي هذه المرحلة تحديداً قرر البريطانيون أن يرموا عقوداً قصيرة الأجل مع العاملين هناك. كان عليّ أن أترك عملي الدائم والمناسب من أجل شيء يشبه المقامرة. ولم يكن لديّ أيّ فكرة عما سأفعله غداً انتهاء عملي في أفغانستان والذي استمر لستة شهور.

كانت تلك أول مرّة لي أزور فيها أفغانستان. ووصلتها في جو متجمد يقترب من 13 مئوية تحت الصفر. وفي المطار، استقبلني عقيد إيطالي

بابتسامة عريضة وقال: «نحن هنا خمسمئة إيطالي، وليس لدينا ولا حتى امرأة واحدة نراقصها». وكان صديقي القديم العقيد مايفيل متواجداً في قاعدة باغرام، حيث يشغل منصب رئيس أركان القوة القتالية المتواجدة وقد أصبح جنرالاً بنجمتين (لواء). وأرسل لي على الفور سيارة تقلني إلى حيث سألتقي مرةً بـ (جنود سكاي)، وهم مقاتلو اللواء 173، حيث كانوا ينتشرون وقتها في قندهار. وبانت عليّ ملامح الاضطراب والضياع لحظة ارتقيت الطائرة المروحية، ثم هبطت وحملتني عربة الهامفي، ورأيت الوجوه السابقة نفسها. كان جنود اللواء سعداء وهم يقدمون لي إيجازاً عن المناطق الجغرافية الواقعة في قطاع مسؤوليتهم. ثم طرت مرةً أخرى بواسطة مروحية (بلاك هوك)، لأصل إلى (لشكر كار) عاصمة إقليم هلمندت، كان الطيار يحلق بارتفاعات منخفضة فوق الحقول، فهنا -والحال ليس كما في العراق- إذ لا توجد أعمدة وأبراج للكهرباء تجبرنا على الارتفاع كلما صادفناها. ففي أفغانستان تتمتع فقط 6% من المناطق بالطاقة الكهربائية وتمديداتها. كنت أنظر إلى الحقول من تحتي وأتساءل إن كانت غنيّة بنبات الخشخاش. كنت أرتدي الجوارب الطويلة التي تغطي كل الساق والقدم، ومعها بلوزة صوفية مُحكمة، وفوقها سترة شمالية من الفرو الداخلي، وفوق هذا أرتدي قبعة وغطاء للرأس، رغم كل هذا كنت أتجمد من البرد وبعدها كنت على حافة الإصابة بانخفاض درجات الحرارة.

أخذني جنود اللواء 173 للقاء محافظي أقاليم هلمندت وزابور وقندهار. وبعد الترحاب الأولي وشرب الشاي الأخضر، تقدم مسؤول الأمن وقدم إيجازاً عن الحالة الأمنية في الأقاليم المختلفة. ثم اشتكى المحافظون من قلة ما لديهم من السلاح والعتاد لمواجهة (العدو)، وعندها سألت من تقصدون بالعدو؟ بما أننا كنّا نقاتل القاعدة، ومهربي

بابتسامة عريضة وقال: «نحن هنا خمسمئة إيطالي، وليس لدينا ولا حتى امرأة واحدة نراقصها». وكان صديقي القديم العقيد مايفيل متواجداً في قاعدة باغرام، حيث يشغل منصب رئيس أركان القوة القتالية المتواجدة وقد أصبح جنرالاً بنجمتين (لواء). وأرسل لي على الفور سيارة تقلني إلى حيث سألتقي مرةً بـ (جنود سكاي)، وهم مقاتلو اللواء 173، حيث كانوا ينتشرون وقتها في قندهار. وبانت عليّ ملامح الاضطراب والضياع لحظة ارتقيت الطائرة المروحية، ثم هبطت وحملتني عربة الهامفي، ورأيت الوجوه السابقة نفسها. كان جنود اللواء سعداء وهم يقدمون لي إيجازاً عن المناطق الجغرافية الواقعة في قطاع مسؤوليتهم. ثم طرت مرةً أخرى بواسطة مروحية (بلاك هوك)، لأصل إلى (لشكر كار) عاصمة إقليم هلمندت، كان الطيار يحلق بارتفاعات منخفضة فوق الحقول، فهنا -والحال ليس كما في العراق- إذ لا توجد أعمدة وأبراج للكهرباء تجبرنا على الارتفاع كلما صادفناها. ففي أفغانستان تتمتع فقط 6% من المناطق بالطاقة الكهربائية وتمديداتها. كنت أنظر إلى الحقول من تحتي وأتساءل إن كانت غنيّة بنبات الخشخاش. كنت أرتدي الجوارب الطويلة التي تغطي كل الساق والقدم، ومعها بلوزة صوفية مُحكمة، وفوقها سترة شمالية من الفرو الداخلي، وفوق هذا أرتدي قبعة وغطاء للرأس، رغم كل هذا كنت أتجمد من البرد وبعدها كنت على حافة الإصابة بانخفاض درجات الحرارة.

أخذني جنود اللواء 173 للقاء محافظي أقاليم هلمندت وزابور وقندهار. وبعد الترحاب الأولي وشرب الشاي الأخضر، تقدم مسؤول الأمن وقدم إيجازاً عن الحالة الأمنية في الأقاليم المختلفة. ثم اشتكى المحافظون من قلة ما لديهم من السلاح والعتاد لمواجهة (العدو)، وعندها سألت من تقصدون بالعدو؟ بما أننا كنّا نقاتل القاعدة، ومهربي

المخدرات، ومقاتلي طالبان، والمجرمين، والفقر، وأمراض ضعف الحكومة. ومع هذا، فقد أمضيت الشهور اللاحقة وأنا أحاول أن أجد إجابة وافية لسؤالي ذاك.

لا أظن أن الجنود الإيطاليين يستحقون أيّ تمييز كونهم جنوداً، لكن بالتأكيد كانوا متميزين نظراً لما هو متوفر لهم من رفاهية، وكذلك نظير حالتهم المعنوية وأخلاقيات العمل لديهم. كان طعامهم متميزاً بشكل استثنائي، المعكرونة ولحم الخنزير هي أكثر الأطباق شيوعاً ووفرة. كما تتوفر في القاعدة أكشاك تباع الكابوتشينو والبيتزا. ويتوفر لديهم قاعة رياضية من أفضل ما يكون، ويمكن أن تراهم يتمشون وهم يرتدون جاكيتات من ماركة (غوتشي)، أو أن ترى بعضهم وقد شذب لحيته بطريقة كوميدية. كانت لغة التفاهم معهم هي الإنكليزية، أو أن نستخدم نسخة إيطالية من اللغة الإنكليزية. ثم تم استبدال الإيطاليين بـ(قوات التحالف للرد السريع)، والتي كانت تقاد من قبل البريطانيين وتحديداً تحت قيادة الجنرال ديفيد ريتشاردز (David Richards)، وفي ليلتي الأخيرة، دعاني الجنرال ريتشاردز إلى العشاء مع قادة الوحدات وقادة قوات (إيساف) في المنطقة. واقترح الجنرال بحفاوة أن يرفع الجميع نخباً ترحيباً بي، ونظرت في الوجوه لم يكن هناك أيّ شيء غريب بالمرّة. كان الضباط من إيطاليا وفرنسا وبريطانيا وألمانيا يتشاركون المهام العسكرية نفسها. لكن لو دققنا في الأمر، سنجد أن قبل جيلين فقط، كنّا سنجد أمثال هؤلاء الجالسين في هذه الغرفة ضباطاً من البلدان نفسها، لكن في خنادق متقاتلة ومتقابلة. والقلّة منهم يمكن أن يحلموا بأن جنود الولايات المتحدة وأوروبا يمكن أن يعملوا سوياً لحفظ السلام حول العالم. لن يكون هناك شيء أكثر إلهاماً للعمل من جنود كانت أمهم تتقاتل، والآن يعملون معاً في نشر السلام وحفظه، وفي الخندق نفسه.

بعد أن أكملت موسم العمل مع (إيساف)، عدت لأعمل لمدة شهر رائع مع روي ستيوارت (Roe Stewart) ومؤسسته، (مؤسسة جبل الفيروز). ومكثت في القلعة التي استأجرها في كابول، وكنا نساfer و تنتقل حول البلاد. لقد منحني هذا الشهر من العمل رؤية جديدة كلياً عن تلك التي كنت أرى بها أفغانستان من خلال المنظور العسكري. لقد قابلت روي لأول مرة في العراق، حيث كان وقتها محبطاً من المتاهة التي يمكن أن تضع فيها جهود سلطة الائتلاف المؤقتة هناك. وتصور نتيجة للتجربة العراقية، أن من المستحيل أن تنجح جهود بناء الدولة والأمة بالطريقة التي سارت عليها الأمور في العراق. لكنه الآن مؤمن بأن التغيير بات ممكناً. كانت مؤسسته تعمل على إعادة إحياء الجزء التاريخي من العاصمة كابول، وإعادة إحياء الحرف الشعبية والفنون الوطنية في أفغانستان.

وخلال الفترة التي عدت بها إلى بريطانيا في آب من ذلك العام، اشتريت منزلاً صغيراً في لندن يعود إلى العصر الفيكتوري من ريع بيع منزلي في مانشستر. وشغلت نفسي بترميمه. ابتدأت بتلميع الأرضية، ونصب مطبخ يمثل تزياناً لما قد نشاهده في الحروب من قلة معدات الطبخ. وكنت أزور الأصدقاء، وأتمرّن بانتظام، وأمارس الطبخ. ثم التحقت بدراسة في قسم دراسات الحروب في كينغز كوليذج في لندن. لقد بدأت أندمج في الحياة ما بعد الحرب، أو هكذا تهيأ لي. وفي هذا الظرف استلمت رسالة من الجنرال أوديرنو: «عزيزتي إيما... أنا سأتوجه إلى بغداد، هل يمكن أن تكوني مستشارتي السياسية (بول أد.)؟».

كان ذلك آخر شيء قد يخطر في بالي، وخرجت أتمشى على نهر التايمس كي أفكر في أفضل طريقة أردّ بها على طلب الجنرال. كانت

تشخص أمامي قائمة طويلة من الأسباب التي تدعوني لرفض عرض الجنرال، ليس أقلها أنني لم أمض سوى شهر واحد منذ عودتي من أفغانستان، ولست مستعدة أن أمضي سنة أخرى في العمل بعيداً. وعلى خلاف العاملين في السلك العسكري الذين يؤمرون أن يتوجهوا إلى أيّ وجهة فيطيعون، فقد كان أمامي متسع للرفض. ولماذا يمكن لشخص ما أن يقبل بعرض التوجه إلى العراق بينما كل شيء يتحوّل هناك إلى كارثة؟.

لكن أوديرنو طلب منّي بصورة مباشرة أن التحق به، لو كان الطلب قد وصلني من أيّ شخص آخر، فعلى الأرجح كنت سأرفض. لم أشأ أن أخيب ظنه حين طلب مساعدتي، وبالإمكان مساعدته كي يجعل العراق مكاناً أقل سوءاً مما آلت إليه الأحوال. تطلب الأمر منّي يومين كي أردّ على طلب أوديرنو، بعدها بأسابيع قليلة توجهت إلى العراق فقط لمدة ثلاثة شهور. قبلها طلبت من وزارة التعاون الدولي أن تبدي رأيها إن كانت ستمانع بأن أتولّى هذه الوظيفة في العراق، وكانت إجابتهم أن لا مانع لديهم. في المرّة الأولى التي ذهبت فيها إلى العراق، كنت أتوي أن أقدم اعتذاري للشعب العراقي، وأن أقدم يد المساعدة لبناء البلد، فكانت النتيجة أن وقعت في حب العراق، وأمضيت مهامي بالعمل مع الجيش الأميركي. هذه المرّة وافقت على الذهاب، ليس لأنني متفائلة بأن الأمور يمكن أن تصبح أفضل، إنما لأن رجلاً أكنّ له كل الاحترام طلب منّي مباشرة أن أمدّ يد العون. أتيحت لي الفرصة خلال السنوات التي عملت فيها أن أتعرف عن قرب على أفراد الجيش الأميركي، طبائعهم وعاداتهم وأولوياتهم، بالإضافة إلى فهم الطريقة التي ينظرون بها لأنفسهم ودورهم، وكيف ينظرون إلى العالم.

ثم فتشت في قائمة الكتب التي يوصي العسكري الأميركي بأن

يقرأها، ودققت في الكتب التي تتحدث عن مكافحة التمرد عموماً. وقرأت سيرة حياة أهم القادة العسكريين الأميركيين المعاصرين، مثل كولن باول وأنتوني زيني (Anthony Zinni)، حتى إنني قرأت بعض ما يفضلون قراءته، مثل رواية «وانس أن إيغل» لأنطون ميرر (Anton Myrer).

وفي مطلع كانون الثاني من عام 2007، وجدت نفسي مجدداً في قاعدة برايز نورتن التابعة للقوة الجوية الملكية البريطانية. كانت الرحلة تابعة للخطوط الملكية، تقلّ ثلاثمئة جندي لتوصلهم إلى قطر، وراكب واحد إلى العراق، وهو أنا. وخلال الرحلة، كانت هناك عروض لبعض السلع من السوق الحرة، في نهاية الرحلة تمنى لنا الطيار رحلات قادمة أفضل، وشكرنا على التنقل برفقة الخطوط الملكية. كان كل شيء طبيعياً، ولو كانت هذه الرحلة يستقلها جنود أميركيون وينظمها الجيش الأميركي لكانت تعج بالرتب العالية والأفلام السينمائية، وستختتم بتمنيات الطاقم للجنود بسلامة العودة إلى أرض الوطن. ومن قطر، ركبنا رحلة عسكرية في طائرة (C-130) إلى البصرة، ومن هناك بطائرة أخرى إلى بغداد التي وصلتها مساءً برفقة الجنرال البريطاني بيراجان (Berragan)، نائب القائد الجديد لقيادة العمليات للقوات المشتركة. وهي قيادة تشمل القوات العراقية والقوات المتعددة الجنسيات، ويرمز لها بالرمز (MNC-I).

وفي معسكر فيكتوري الذي وصلت إليه بعد توصيلة استغرقت نصف ساعة من المطار، قطعت الدقائق العشر الأخيرة أمشي على الطين باتجاه المقصورة المخصصة لي. كنت قد نسيت شأن الطين والأحوال في العراق. وفي اليوم التالي كنت عند مكثبي، ومرّ بي الجنرال أوديرنو ورحب بي عبر احتضاني بقوة. مضى على آخر مرة التقينا بها ما يقرب

الأثناء في العراق، فقد كان أوديرنو ممتناً لعودتي لأجل العمل معه. لكنّ
الولاء كان يعني كل شيء للجنرال أوديرنو.

ومع بداية عام 2007، كان العنف في العراق قد خرج عن السيطرة،
آلاف العراقيين فقدوا حياتهم، ومئات الآلاف باتوا نازحين عن ديارهم.
وتجدد العنف في بغداد، وتحولت المدينة إلى قطاعات طائفية منفصلة
عن بعضها. وفي المقابل، فإن الدعم الشعبي للحرب بدأ بالتراجع داخل
الولايات المتحدة. وفي بريطانيا فقدت الحرب أيّ دعم شعبي يذكر.

وبالعودة إلى يوم 30 تشرين الثاني من عام 2006، حين التقى الرئيس
بوش برئيس الوزراء نوري المالكي في عمان بالأردن. إذ أبلغ بوش
المالكي عن نيّته باتّباع استراتيجية جديدة كلياً لمواجهة العنف في العراق،
وأنه سيدفع بالمزيد من القوات الأميركية لتتخبط في هذه الاستراتيجية
الجديدة. كان ذلك معاكساً لكل التوصيات والاستشارات التي وضعت
بشأن سير الحرب في العراق، بما في ذلك توصيات (مجموعة دراسة
العراق)، التي قاد أعمالها وزير الخارجية الأسبق، جيمس بيكر. لكن
بوش رأى أن نقل السلطات الأمنية للقوات العراقية كان هو السبب في
الفشل الأمني، والآن هو يبحث عن أداء جديد.

وخلال المؤتمر الصحفي الذي أعقب اجتماع الزعيمين، قال بوش
إن المالكي أكّد له عزمه وتصميمه على تقديم من يكسر القانون إلى
العدالة، سواء كان من القاعدة، أو من المجرمين أو من المليشيات، أيّاً
كان من يخرق القانون. ثم ذهب بوش بعيداً في مخاطبة المالكي وقال
عنه: «إنه الرجل المناسب للحظة التي يحتاجها العراق». ثم قال عنه:
«إن المالكي أمضى في الحكم ستة شهور ومع هذا، أستطيع أن ألاحظ
فيه قائداً يزداد بروزاً».

كان المالكي عضواً في حزب الدعوة، وقد تم اختياره كمرشح تسوية بين مرشحين آخرين. كان يعود بجذوره إلى الفرات الأوسط، وقد أمضى فترة طويلة في المنفى بين إيران وسوريا، وعاد إلى العراق بعد عام 2003.

وقد وعد المالكي بأنه لن يكون هناك أي تدخل سياسي في العمليات العسكرية التي تجريها القوات العراقية، وأن من يزعم الأمن من المتطرفين سيجري استهدافهم بصرف النظر عن أسباب حملهم للسلاح.

وبعد ان أعدم صدام، تصوّر المالكي أنه قد رسّخ سلطته. ووفقاً للدستور العراقي فإن رئيس الوزراء هو المسؤول التنفيذي الأول في الحكومة، وهو القائد العام للقوات المسلحة في الوقت نفسه. كانت وجهة نظر المالكي في العنف تنحصر في أن البعثيين يرفضون حكم الشيعة. كما يعتقد بأن الكلام حول قوة الميليشيات الشيعية كان يحتوي على مبالغ غير واقعية. كما أنه بحاجة إلى الأميركيين من أجل تسليح وتدريب القوات المسلحة العراقية، لكنه لا يرغب بالوجود العسكري الأميركي لأن هذا الوجود يؤثر على «التفاهم المتبادل» بين العراق وإيران. لذا فإن موجة زيادة عديد القوات الأميركية ستكون أمراً مؤقتاً فقط، وهي تأتي على طريق إتمام الانسحاب الكامل من العراق لاحقاً.

وفي اليوم العاشر من كانون الثاني عام 2007، أعلن بوش بدء خطة زيادة عديد القوات الأميركية في العراق (عمليات الموجة)، والبدء بإرسال عشرين ألف جندي إضافي إلى هناك، وبدأ التغيير الاستراتيجي بالظهور. وكان موقف الجنرال أوديرنو داعماً لهذه الخطة كلياً، على العكس مما نصح به معظم الضباط الكبار في الجيش الأميركي، الذين

كانوا يرون أن الوجود العسكري الأجنبي على الأرض العراقية هو السبب الرئيس للمشكلة، وأن الولايات المتحدة يجب أن تستمر في نقل السلطات الأمنية للقوات العراقية.

كانت قيادة الفيلق الخامس (V) للجيش الأميركي هي أولى القوات الواصلة إلى العراق عام 2003، واتخذت من قصر الفاو مقراً لها. وقد أطلق على المكان اسم (معسكر فيكتور)، وقد التصق الاسم بذلك المكان منذ تلك الساعة، وحتى بعد أن بدأت الأوضاع في العراق بالانهيار، فقد بقي الاسم دون تعمد استخدامه على سبيل السخرية، الاسم قد بقي وانتهى. كان صدام قد أطلق اسم شبه الجزيرة الصغيرة (الفاو) على القصر بعد أن تمت استعادتها عسكرياً أثناء الحرب العراقية الإيرانية.

كان قصر الفاو قصراً مواتاً، لا ينتج الحياة. فلم يحدث أن سمعت فيه زقزقة عصفور، أو ضحكة طفل، كما لم تكن فيه أي زهور، وتحيطه بحيرة اصطناعية. يملأ سمك الشبوط تلك البحيرة، لكنه تحوّل إلى ما يشبه أسماك البيرانا المتوحشة، وقد تمكّن أحد الجنود من التقاط تسجيل فيديو لسرب صغير من البط يسبح في البحيرة، قبل أن تهاجمه الأسماك وتفترس منه إحدى البطات الصغيرة. وإلى جانب الأسماك، كانت البحيرة تتراكم فيها فضلات الطعام التي يرميها الجنود، وتمدد فيها أعمدة الكهرباء العاطلة. وعند أفق القصر وعلى مسافة منه، تتوزع مجموعة من الفيلات التي كانت مخصصة كمنازل بديلة للنخبة الحاكمة العراقية، الآن أصبحت مقرات للجنرالات الأميركيين. أما باقي الرتب العسكرية الأدنى فقد خصصت لهم مقصورات للسكن. وخصصت لي مقصورة مزدوجة الغرف، واحدة لي والأخرى لأحد الضباط الذي

يشاركني استخدام الحمام نفسه. لكن لم يحدث أن لمحتة مطلقاً خلال فترة مكوثي في المقصورة.

أما الرتب الأدنى فقد كانت تشارك في حمامات عمومية، وتشارك أيضاً في الغرف نفسها. لقد تحوّل معسكر فيكتوري إلى مدينة قائمة بذاتها، مع سكان يبلغون 20 ألف عسكري، ويضاف إليهم المتعاقدون. كان القليلون منهم فقط من يخرج خارج نطاق الأسلاك الشائكة ويرى ماذا يحصل في العراق. كان المعسكر يبعد 25 دقيقة بالسيارة عن المنطقة الخضراء، أو 5 دقائق بواسطة المروحية. بعبارة أخرى، كان المعسكر يشبه سجنًا كبيراً بوجود نقاط التفتيش والأسلاك الشائكة التي تضمن ألا يدخل أو يخرج أحد إلا المسموح لهم. وربما أنه يشبه مركزاً لإعادة التأهيل حيث كانت كل احتياجاتنا يجري العناية بها داخل المعسكر. كانت هناك خدمة الغسيل المتوفرة، بحيث نسلّم الملابس ثم تعود إلينا بعد أيام مغسولة ومكويّة. كما توفرت قاعة ضخمة للطعام، يستفيد منها الآلاف من الجنود وتم تزويدها بأجواء وإكسسوارات لتبدو ضمن الأجواء الأميركية. جرى توفير كميات هائلة من الطعام، وبأنواع متعددة. وبالإضافة إلى الهامبركر والمقليات والمشويات الأميركية، فقد توافرت السلطات المتنوعة. كما توافرت أنواع الطعام (الشرق أوسطية)، في الحقيقة لقد كانت أطباقاً هندية. وتوافرت أيضاً قاعة للرياضة، كانت طوال الوقت ملأى بالجنود الذين يمارسون تدريباتهم للحفاظ على لياقتهم، وآخرين يمارسون الركض على أجهزة المشي. ويرتبط بمعسكر فيكتوري معسكر آخر وهو (ليبرتي)، والاسم أيضاً قد التصق من تسمية أميركية وبقي مستمراً. في معسكر ليبرتي يمكن أن تشاهد منافذ لبارات (بي أكس)، أو منفذاً لبيع (بيتزا هت)، أو (بيرغر كنغ). بالإضافة إلى سوبر ماركت (الحجّي). كان قد صدر أمر يمنع الجنود من الإشارة إلى

العراقيين بكلمة (حجّتي)، لكنها كلمة التصقت على ألسنتهم وصارت تشير إلى العراقيين المحليين عموماً. وعلى الدوام استمرت شبكة إذاعة وتلفزيون القوات الأميركية (AFN) بثها الذي نستلمه، وكانت توصياتها تبدو وكأنها مخصصة لأولئك الذين يعانون من مستوى الذكاء الواطي؛ لا تقد السيارة وأنت ثمل، لا تقدم على الانتحار. القيادة بسرعة تؤدي إلى الموت، التزم بالتعليمات العسكرية. لا تترك رفيقك الذي سقط في أرض المعركة أبداً. الأمة ممتنة لما تقدمه دفاعاً عن الحرية. أعظم الجيوش هي تلك التي تتبع أعظم الأمم. أميركا هي الأعظم، أميركا هي الأجمل. والكثير من هذه الرسائل المليئة بالطنطنة والاستعلاء. وتخلطها بالدعايات الرياضية.

كانت تلك الإملاءات مثل صورة امرأة جميلة مصنوعة من البلاستيك وبتنورة قصيرة، تقدّم لنا صورة محدودة التفكير عن العالم، ومصابة بجنون العظمة. وتوجب على الجنود أن يخضعوا لعدد ضخم من قواعد السلوك. وكانت هذه التعليمات والقواعد استحواذية تماماً في ما يتعلق بالمحتويات الإباحية، والجنس وتعاطي الكحول، كلّها كانت ممنوعة بالأمر العام رقم (1). لكن لم يكن هناك أيّ منع للقتل، وباعتبارهم (محاربين) فإن أولى مهام تخصصهم هو القتل. كانت هناك قائمة طويلة من التعليمات التي تضبط عملية إطلاق النار والسماح بالقتل، يجمعها كتيب (قواعد الاشتباك)، وهو يحتوي عبارات ملطّفة للإشارة إلى القتل مثل كلمة (حركة)، أو كلمة (التماس). كان العسكر يمشون عادة في نسق حول المعسكر. كانوا يرتدون زيهم الفضفاض الأشبه بالبيجاما. ولو تمنع أحد في مظهرهم عن قرب، ستكون الرتب العسكرية ظاهرة على الياقات. وكانت هناك شارة على الكم الأيسر تعبّر عن الوحدة التي ينتمي لها العسكري، أو تعبّر عن تخصصه

(الجوالة، المدفعية، المحمولة جواً، المارينز، الدروع)، وشارة أخرى على الكمّ الأيمن تعبّر عن الوحدة السابقة. كان العسكر يحيّون بعضهم خلال تجوالهم داخل المعسكر، لكنهم معفوون من واجب أداء التحية إن كانوا داخل الأماكن المسقفة. وفي بعض الأحيان كانوا يعرفون أنفسهم بترديد شعارات تعبّر عن وحداتهم؛ «صوّب في الوجه، سيدي»، أو «نرتقي للمجد، سيدي». كانت شعارات مصممة على ما يبدو لرفع الروح المعنوية والرفاقية بين الجنود.

كان المستوى الأوطأ في المعيشة والخدمات داخل المعسكر هو ما يناله المتعاقدون. لم يكونوا مضطرين إلى أن يرتدوا زيّاً رسمياً، وكانوا يلبسون في العادة بنطالاً من النوع العملي، وقمصاناً بأكمام قصيرة (تي شيرت). كانوا يستقرون عند حافات المعسكر، ومن بينهم خبراء ومتخصصون ومحللو معلومات استخبارية، مثلما نجد بينهم عاملي المقاهي والمطاعم والغسيل.

وتتناثر في المعسكر ملاجئ كونكريتية يمكن الاختباء تحتها لو حدث هجوم صاروخي أو عبر قذائف الهاون. كانت التعليمات تقتضي أن نغادر أماكننا لحظة سماعنا أصوات الإنذار والاتجاه إلى هذه الملاجئ، لكن لم يحدث لي أن فعلت ذلك، لأن النوم كان شيئاً ذا قيمة كبرى بالنسبة لي.

وفي إحدى الليالي فزعتُ من نومي، وصحوت على أصوات ضربات متواصلة لا تشبه أيّ صوت قذيفة هاون تسقط، لقد كانت أصوات إطلاق منظومة (C-RAM)⁽¹⁾ وهي المنظومة المضادة للصواريخ والقذائف التي

(1) وهي منظومة متطورة مضادة للقذائف، تعمل على مقاطعة القذيفة القادمة إلى المكان بمقذوف آخر وتفجيره في الجو. نشرت في أماكن محددة في العراق عام 2004، وفي عام 2006 تم نشر نسخ متطورة ترصد القذائف باستخدام تقنية

يفترض بها أن تحمي المعسكر، لكن نظراً لعدد القذائف التي كانت تتساقط، فلم يكن هناك أي جدوى من استخدامها.

كنت أنظر حولي فلا أرى أحداً من جنود اللواء 173 الذين أعرفهم. كل من في المعسكر كان إما من جنود المشاة، أو المدفعية، أو جنود المدرعات والدبابات. كنت قد حصلت على فكرة خضراء اللون من تلك التي يحملها الضباط معهم لكتابة الملاحظات. ثم حصلت على الحافظة التي تحفظ فيها المفكرة. كان الجميع يكتبون أسماءهم مطرزة على الحافظة من الخارج. ورأيت أن ذلك أمر مفيد فأحييت أن أقتبسه. كنت أرغب بأن أظهر للآخرين لاحقاً بأنني قد خدمت في العراق، ومع ألمع قوات النخبة في الجيش الأميركي. وطلبت من العقيد فوليسكي (Volesky)، وهو نائب رئيس الأركان أن يمنحني إحدى شارات اسمه. وقطعت كل حروف اسمه وأبقيت على الحروف الثلاثة الأخيرة (Sky)، لتعبر عن اسمي. وأتخيل أن أحد المهاجرين البريطانيين حقيقة قد فعل ذلك في الماضي لاسم عائلتي حين هاجرت إلى بريطانيا وأصبحت عائلة (سكاي) فقط. ثم طلبت من الرائد أوستلند (Ostlund) أن يرسل لي شارة اللواء 173، وقد فعل وأرسل لي ذلك مع ملاحظة تقول: «اللواء دائماً سيكون مستعداً ومؤهلاً كقوة جواله جاهزة للتحرك»، وكان ذلك هو شعارهم. أخذت الشارة إلى أحد المتاجر الموجودة في المعسكر، ووضعوا لي الشارة مع الاسم على الدرع الذي أرتديه، وعلى الخوذة ومعها الرمز (+B) وهو صنف دمي. لاحظت أن سكان هذا العالم الجديد الصغير كانوا يأتلفون جداً لو أنني التزمت بالتعليمات واللباقات الأدبية معهم. كان ذلك معيارهم المناظر للاحترام. معظم الجنود

ليزرية. لكن الجيش الأميركي تراجع عن استخدامها لاحقاً لارتفاع كلفتها وقلة فاعليتها - المترجم.

يخاطبونني بكلمة «سيدتي» رغم أنني أصر عليهم أن ينادوني باسمي (إيما)، وكان الأمر صعباً على بعض الجنود القادمين من تكساس خصوصاً. وكانوا بدلاً من ذلك ينادونني بـ«الآنسة إيما»، حتى حين قلت لهم إن ذلك يجعلني أبدو طاعنة في السن فأجابوني بأن ذلك هو تقليدهم وعاداتهم الجنوبية التي لا يتخلّون عنها.

كنت نادراً ما أكسر إحدى القواعد المتبعة في المعسكر، لكنني كسرت قاعدة منع ارتداء سماعات الأذن أثناء الركض. كنت أضع سماعات الأذن وأستمع إلى مقطوعات موسيقية أثناء ممارسة رياضة الركض، وأتخيل نفسي قرب بحيرة ما حتى استوقفني أحد العرفاء، ومنعني من الركض مع ارتدائي للسماعات، قلت له: «لكنها تعليمات سخيفة، كنت أركض في شوارع لندن وأنا أرتدي السماعات، ولم يحدث أن تغافلت عن أصوات التنبيه أو التحذيرات»، فأصرّ العريف على أن ذلك كان من أجل حمايتي الشخصية، وحين جادلته أنهى الجدل بالقول: «رجاء سيدتي، افعلي ذلك من أجلي، لا تركضي وأنت تضعين السماعات، هذه تعليمات نهائية!».

وفي كل صباح كنت أخرج من مقصورتي باتجاه قاعة الطعام، أحمل علبة من البلاستيك وأملؤها بالفواكه واللحم المقدد، ثم أتجه إلى قصر الفاو، وفي الطريق أبرز الباج التعريفي لمجموعتين من نقاط التفتيش ثم أجلس إلى مكتبي أتناول الفطور وأراجع الرسائل الإلكترونية.

كان الجنرال أوديرنو يخرج من مكتبه صباحاً بعد أن يتلقى الإيجاز الاستخباراتي، ويقطع بهو القصر باتجاه مركز قيادة العمليات المشتركة (JOC)، ويقع في قاعة كبيرة. كنت أستمع إلى صوت حركته خارج مكتبي، فالحق به إلى هناك، وأجلس ضمن الصفوف، صفّاً

بعد صف، مع ضباط الارتباط والأركان من كل الصنوف التي تشكل بالمجمل (القوة المتعددة الجنسيات - العراقية)، وهي القوة التي يقودها بالعموم الجنرال أوديرنو. لقد كان هناك المئات بعد المئات من الأركان والضباط في معسكر فيكتور، وليس لدي أي فكرة عن كامل عملهم وتخصصهم. كانت القوة تشتمل على عدد من الفرق العسكرية، فرقة الجنوب الشرقي وهي المقادة من قبل البريطانيين، وفرقة الوسط التي يقودها البولنديون، وفرقة بغداد والشمال التي يقودها الجيش الأميركي. وفرقة الجهة الغربية التي يقودها مشاة البحرية (المارينز). ولكل فرقة عدد من الأولوية التي ترتبط بها.

حينما كان الجنرال أوديرنو يدخل إلى مركز قيادة العمليات المشتركة، يقف الجميع في وضع الاستعداد حتى يجلس في مقعده. وكان مساعده الرائد جيرمي ويلسن يعاجله بكوب من القهوة حالما يجلس. كان الجنرال يتمتع بقدرة فائقة على تلقي دفعة كبيرة من المعلومات من مختلف الجهات، أنا في الحقيقة لم أكن أتلقى بهذه المقدرة أبداً. كانت التقارير تعني لي الشيء القليل، لقد تمرّست على تلقي التقارير والمعلومات على مستوى قيادة اللواء (حينما كنت مع العقيد مايفيل في كركوك)، لكني الآن أواجه مصطلحات جديدة، وكمية أكبر من المعلومات، فضلاً عن وجبة جديدة من المختصرات. لقد كانوا يطلقون على الأماكن أسماء من اختيارهم لا تمتّ للأسماء الأصلية بصلة، فشارع المطار كان يسمى «الدائري الآيرلندي». وكانوا يلفظون أسماء المناطق بطريقة لا تشبه ما يعرفه الساكنون فيها، فمدينة الموصل كانوا يلفظونها: «موزوول»، و«التقدم» صار مختصره (تي.كيو). وكان هناك كم لا ينتهي من التقارير عن إصابات الأعداء والعمليات التي تنفذ أو التي تم تنفيذها بالفعل، بالإضافة إلى تقارير الخسائر.

على جانبي الطاولة فقد كان يجلس أمراء الفروع العسكرية، وخلفهم صف آخر من الكراسي لجلوس التخصصات الأخرى. كان هذا الاجتماع يحدث في العادة بصفحتين، الأولى تجري بحضور الجميع، بينما تجري الصفحة الثانية ببقاء أصحاب العلاقة المباشرة فقط. وكنت أحضر الصفحتين من الاجتماعات. في هذا العالم المجزأ والمصنّف بصورة دقيقة، مُنحت مقعداً ثابتاً إلى جانب رئيس الأركان. وكنت أحضر حتى الاجتماعات الشخصية التي تنتهي بأداء التحية العسكرية ونقل المعلومات إلى القيادة العامة في تكساس.

بعد الاجتماع والاستماع إلى الإيجازات أعود إلى مكثبي في العادة، لكنني أبقى أذنيّ مفتوحتين لمتابعة حركة الجنرال أوديرنو. وفي العادة تصل رسالة مختصرة من الجنرال أندرسون تقول بأن: «القائد العام يتحرّك». هذه الرسالة تعني أن على القوّة المرافقة لحركة الجنرال أن تستعد تماماً، وأن يستعد فصيل الحماية الخاص بأمن الجنرال، وأن تتهيأ العربات والسيارات المرافقة. بالنسبة لي فإنها تعني أن أضع الخوذة والدرع الواقى وأتجه مباشرة إلى سيارة القائد وأجلس في المقعد الخلفي البعيد بانتظار قدومه، ويأتي معه الجنرال أندرسون. وإذا كانت الجولة تتضمن استخدام الطائرة فإن السيارة ستأخذنا في العادة إلى مهبط الطائرات. كنت أنا أول من يرتقي الطائرة وأجلس في مقعد يقابل الجنرال بصورة قُطرية، حيث إن المقعد الذي يقابله تماماً قد أُزيل كي يمنح الجنرال مجالاً أكبر لمُدّرجليه.

كلّ ساعة من ساعات الأسبوع كانت محجوزة بالكامل لأداء مهمّة محددة، من طلوع الشمس ولغاية الغروب. كان الجنرال يبلغ الأركان بالمكان الذي يريد أن يذهب إليه، وهم سيتكفلون بتهيئة «خطة مسار

ميدانية»، ترسم وتفصل حركة موكب الجنرال. كانت الوحدات المرافقة تمنح ما يكفي من الوقت كي تتهيأ وتستطلع المسار، وهناك ما يسمى بإيجاز الاستخبارات والعمليات (I&O) الذي يعطي للقوة الخاصة المرافقة لأوديرنو صورة عن الوضع الأمني في المكان الذي يروم الذهاب إليه. كما كنّا نذهب في مرّات عديدة إلى المنطقة الخضراء لمقابلة العراقيين. وعند المساء كنّا نعود إلى قصر الفاو لاستلام الإيجاز الميداني، بعدها كنت أتوجّه إلى قاعة الطعام وأملأ حاوية بلاستيكية بالفواكه والمأكولات وأعود إلى مكتبي، أجيب على الرسائل الإلكترونية وأدوّن ملاحظات اليوم التي أحصيتها خلال تواجدي مع الجنرال. وبعدها أترك القصر وأمشي باتجاه مقصورتني، عادة يكون ذلك في العاشرة ليلاً. وعادة ما كنت أهوي إلى فراشي متعبة ومستنفدة الطاقة، كان ذلك المنوال اليومي الذي أعمل به كلّ يوم. ويندر أن يأتي يوم جديد في العراق دون أن يحمل مفاجأة من نوع ما، ولا يمكن أن يوصف أبداً بأنه يوم عادي.

في تلك الأسابيع الأولى كنت أقضي بعض الوقت في المساء مع الجنرال في القصر، أو عند الشرفة حيث يدخن السيكار. وفي إحدى الأماسي قلت له: «سيدي، ربما يكون هذا الحال هو أكبر خطأ استراتيجي تمرّ به الولايات المتحدة منذ تأسيسها». فأجابني: «وماذا يمكن أن نفعل تجاه هذا الوضع؟، لا يمكن أن نترك الأحوال على ما هي عليه ونمضي».

في الحقيقة لم يكن يجري بيننا أيّ من تلك الأحاديث المرححة التي كنّا نجريها سابقاً أيام عملي في كركوك. لقد بدأت أعرف الجنرال عن قرب، وبدأ هو كذلك يعرفني. واقع الأمر يظهر بأنه لم يكن بيننا الكثير

من المشتركات، ولولا العراق لما أمكن لعالمينا أن يتقاطعا ويلتقيا بأي وجه من الوجوه. كنّا مثل مخلوقين قادمين من كوكبين مختلفين، لكن يجمعنا الكثير من الأشياء التي يمكن أن نضحك بسببها معاً. كان الجنرال أوديرنو قد انحدر من نيوجيرسي، من عائلة متماسكة من الطبقة الوسطى ذات أصول إيطالية. والتحق بأكاديمية ويست بوينت العسكرية مدفوعاً بحبه لممارسة كرة القدم، واستمر لاعباً فيها لغاية أن تعرّض إلى جرح بليغ. وأنهى الدراسة في الأكاديمية عام 1976، وغادر بعدها إلى ألمانيا لأداء خدمته ضمن انتشار الجيش الأميركي أيام الحرب الباردة. لم يدُر في خلده أنه سيمضي كل هذه السنوات في المهنة العسكرية. وكان قد تزوّج حبيبته التي صادفها أثناء الدراسة الإعدادية. ولم يكن يجيد أي لغة أجنبية، ولم يسافر كثيراً خارج الولايات المتحدة باستثناء مقتضيات عمله العسكري، ولم يكن قارئاً جيداً، كما كان يحبُّ شرب البيرة ويتابع المباريات الرياضية بشغف.

سألني عن نفسي، فأخبرته عن أوكسفورد وعن رحلاتي إلى الشرق الأوسط وأفريقيا، وعن عقد من الزمان قضيته بين الفلسطينيين والإسرائيليين. وفي حرب الخليج 1991 خدم الجنرال في سلاح الدبابات يقطع صحراء السعودية، بينما كنت أنا أنشط كمتطوعة في المظاهرات التي تناهض الحرب، وقد سجّلت نفسي لأذهب إلى العراق فأكون درعاً بشرياً (رغم أن ذلك لم يحدث لاحقاً). ونظر إليّ نظرة تعلوها الدهشة والاستغراب، فلم يكن قد التقى بأحد يضع نفسه درعاً بشرياً لمنع الحرب. بينما كان هو في دبابته «يقتل» العدو، كنت أنا متسمّرة أمام التلفزيون أذرف الدموع على مشهد المجندين العراقيين وقد تحولوا إلى أشلاء متناثرة على طريق البصرة، شمال الكويت.

قلت له: «انظر إليّ الآن، لقد تحوّلت لأعمل كمستشارة عند قائد لقوّات الاحتلال، جنكيز خان الجديد!». لقد شخّصنا في أنفسنا بأننا كنّا من المثاليين، لكن وفقاً لمنطلقات مختلفة تماماً. لقد كان الجنرال يؤمن تماماً بأميركا. ويؤمن بالنظام الحاكم للحياة فيها، كما يؤمن باستعداده لخدمة بلاده عبر هزيمة أعدائها (سواء كانوا خارج الولايات المتحدة أم داخلها). بينما كنت أرى في نفسي إنسانة عالمية خصصت حياتها لمحاربة الظلم ونشر السلام. كنت أحدثه عن الإرهاب الذي ترعاه الدولة (إرهاب الدولة)، وأحدثه عن السياسة الخارجية الأميركية والغربية عموماً. كنت مؤمنة بأن هذه السياسات كانت تخلق الأعداء بالفعل.

قال لي يوماً: «إن سياسيينهم يكذبون».

فأجبتة بسؤال: «وهل إن السياسيين الأميركيين لا يفعلون؟ ماذا عن أسلحة صدام للدمار الشامل؟».

قال الجنرال: «لا...سياسيونا لا يكذبون، ليس بشكل متعمّد، أمّا أسلحة الدمار الشامل فلم تكن كذبة. لقد كانت تقديراً خاطئاً من جانب الأميركيين».

فأجبتة في محاولة لإقناعه: «ما رأيك في السيدة مريم العذراء؟».

- «ماذا تعنين؟».

- «هل تظنّ أنها كذبت على يوسف؟ هل سمعت من قبل بسيدة تحمل من دون ممارسة الجنس؟».

- فوضع رأسه بين يديه وصاح: «من أين تأتين بهذه الأفكار!».

لقد كان الجنرال أوديرنو واقعاً في عشق الجيش، ويعتبر الحياة العسكرية هي عائلته الثانية، بل إنه كان يتصرّف على أنها عائلته الأولى.

وكان شغوفاً بتكساس، حيث مقر قيادة فرقة المشاة الرابعة، ومقر قيادة الفيلق في فورت هوود. بالنسبة لي لم يسبق أن زرت تكساس. كنت أرى فيها ولاية لرعاة البقر، الولاية التي يجري الإعدام فيها بالكرسي الكهربائي، وموطن المُتَعَصِّبين الذين يمضون عطلة نهاية الأسبوع في قنص المكسيكيين من الذين يحاولون عبور حدود الولايات المتحدة بشكل غير قانوني. كنت قد شاهدت فيلماً وثائقياً عن هذا، وقد علقت هذه الصورة في ذهني.

اعترف الجنرال أوديرنو بأنه أدرك منذ الجولة الأولى له في العراق محدودية الصورة التي تمنحها الرؤية العسكرية للواقع، وأنه بحاجة حقيقية إلى النصائح والخبرات من خارج أفق الرؤية العسكرية. كان قد تمعّن في تجربتي مع العقيد مايفيل، وأقرّ بأنه لم يحظَ بمستشارٍ يمكن أن يقول له في اللحظة الحرجة إنه قد ذهب بعيداً في الأحكام أو التصرفات. وقال لي إن هذا هو السبب الذي دعاه إلى أن يطلب منّي الالتحاق به للعمل في العراق. وبينما كنّا أنا والعقيد مايفيل نعمل مثل أندادٍ لبعضنا، وبيننا الكثير من المشتركات، لم يكن هذا الحال نفسه مع الجنرال.

كان الجنرال أوديرنو هو رئيسي في العمل بوضوح، وإن من واجبي تقديم الدعم له، وأن أكون محلّ ثقته، وأن أصدقه القول «الصدق في مواجهة القوة»، بمعنى آخر أن أكون «ضميراً» له.

في عام 2006، تصدر كتاب (ال فشل؛ مغامرة القوات الأميركية في العراق) للكاتب توم ريكس⁽¹⁾ مبيعات الكتب، وكان يحمل رؤية لاذعة

(1) Thomas.E.Ricks, "Fiasco- The American military adventure in Iraq"- The Penguin Press-2006.

لما حصل للجيش الأميركي في العراق بين عامي 2003 _ 2004. كان ريكس متشدداً حيال الجنرال أوديرنو، واتّهمه بأنه قد تسبب في إثارة التمرد عبر التكتيكات الخاطئة للوحدات التابعة له، من اعتقال جماعي واقتحام المنازل والتعامل بخشونة مع الأهالي. ومع المبيعات الهائلة لكتاب ريكس، كانت سُمعة الجنرال أوديرنو قد خُدشت، ووجدت هذه الادعاءات طريقها إلى الرأي العام.

وتحدثت معه عن ابنه الذي فقد ذراعه في العراق أثناء إحدى المواجهات في بغداد عام 2004، ابن الجنرال هو النقيب (توني أوديرنو). لقد كان العسكريون يخشون الإصابات بالبتر أكثر من أي شيء آخر، أما إصابة ابن الجنرال فقد نقلت حقائق الحرب إلى منزل أوديرنو الخاص وإلى عائلته. عانى الجنرال كثيراً من هذا الحدث وتبعاته؛ ابتداءً من الاتصال الهاتفي الذي أخبره بما حدث، والخشية من فقدان ابنه، والزيارات المتكررة التي لا تنتهي للمستشفى، وفترة النقاهة الطويلة، والجلوس مع باقي عوائل المُصابين كأب وليس كجنرال يقود المعركة. كل الأحداث هذه لم تتركه بلا تأثير بكل تأكيد. سألته، إن كان يشعر بالذنب لأنه ترك ابنه يمضي في مهنته العسكرية، فأجاب بالنفي، وقال إن توني قد أحب الانتماء للجيش وقد حاز على سمعة مرموقة خلال سنوات خدمته. وبعد أن فقد ذراعه اليسرى، قال توني إنه الآن يعيش بفضل سائقه الذي قتل في ذلك الهجوم، حيث تلقت العربية التي كان يركبها توني قذيفة آر بي جي.

وفي إحدى الليالي تبادلنا الآراء، أنا والجنرال أوديرنو حول مقالة كتبها أحد الجنود الأميركيين. الجندي ندّد في مقالته بأولئك الذين يتظاهرون بالضد من الحرب في العراق، ودعا إلى أن تقف الأمة

الأميركية كلّها خلف الرئيس وخلف القوات المسلحة والجنود الأميركيين من أجل «هزيمة قوى الشر». وهنا كان لنا مفهومان مختلفان عن قوى الشر، فما أقدره في المجتمع الغربي والأميركي هو قدرته على نقل النقاش إلى الشارع والتظاهر بوجه السياسيين. أمّا ما كان الجنرال أوديرنو يقدره في تلك القصّة هي رغبة الجنود الأميركيين على أن يجوبوا العالم كي يقاتلوا من أجل مصالح الولايات المتحدة وما يراه هو على أنه الحرية الحقّة.

وقال لي الجنرال: «لقد وجدت أن عدداً قليلاً من الناس يخوضون الحروب بحثاً عن المجد أو لأنهم يقعون في غرام الحروب، بل إن عدداً كبيراً من الناس نراهم لا يتحدثون عن الحرب مطلقاً. أمّا أولئك الذين يمجّدونها فهم أكثر الناس بعداً عن اختبارها ومعاشتها. اليوم باستطاعة الإنترنت والميديا أن تنقل لنا صخب المعارك لحظة بلحظة. في المقابل نجد خصومنا، وبلا أيّ رادع أو التزام قانوني، فإنهم يستخدمون هذه الوسائل لشحن الكراهية والترويج للموت والدمار. على الناس أن تتذكر هذا الفرق حينما يتكلمون، الأمر لا علاقة له بالحرية قدر تعلقه بفهم وإدراك المسؤولية التي ترافق الحرية. ليس هناك من يفهم الحرية بأكثر من أولئك الجنود الذين يجوبون العالم من أجل الدفاع عنها».

فأجبت: «في يوم من الأيام سأثبت لك ان الحرب هي فكرة غير منتجة، وستكتشف بنفسك أن الإدارة الأميركية تقودها مجموعة من المحافظين الجدد الراديكاليين، وأن مكانة الولايات المتحدة في العالم قد تراجعت بسببهم، وأنا الآن أقل أمناً مما كنّا عليه قبل هجمات 11 أيلول...».

فقاطعني بقوله: «هذا لن يحدث ما دمت أنا القائد لقواتنا في

العراق»، فمن أجل أن تقود الجنود في المعركة، وجب على القائد أن يؤمن بالقضية.

انتشر العنف حولنا في كل مكان، وارتفع عدد القتلى إلى مستويات غير مسبوقة. كان الأمر يؤثر في كل حواشي؛ وقع التفجيرات المستمرة، وإطلاق النار المستمر باتجاه دوريات الجيش الأميركي، رائحة السيارات المحترقة، والأسوأ رائحة الجثث المحترقة، الشوارع المقفرة ونباح الكلاب فيها، والتغطيات الإعلامية المريعة للأحداث.

كان عدد القتلى من جنودنا قد برز كمعطى جديد على خارطة الأحداث ويقاس يومياً. وفي كانون الثاني من عام 2007، ارتفع عدد القتلى من قوات التحالف إلى 86 قتيلاً، وكل واحد منهم تجري له مراسم عسكرية ومراسم التحية تمهيداً لإرسال جثمانه إلى بلاده. كانت تلك الرحلات التي تحمل جثامين تسمى «رحلة الملائكة». وتنقل إلى قاعدة دوفر الجوية في ولاية ديلاوير. وكل جثة جندي يجري تطهيرها بدقة عالية، كما يجري إلباسها الزي الرسمي بأفضل ما يكون، قبل أن تجري مرافقتها إلى مثواها الأخير.

كنّا نقف لدقائق بعد نهاية الإيجاز اليومي لتعرض على الحاضرين صورة كل قتيل من الجنود القتلى وهو يقف بالقرب من العلم الأميركي، بعد ذلك يتلو أحد رجال الدين بضع كلمات تأبينية، ويذكر أسماء القتلى ويعدد فضائلهم وإخلاصهم للولايات المتحدة وحبهم لذويهم وللرب. لكن قلماً يقال شيء عن موتهم أو عن العائلات التي فجعت بهذا الموت. بعدها نصلي لأرواحهم وأرواحنا راجين السلامة والأمان، وأن يكون موتهم دافعاً لنا لإنهاء «المهمة»!

في 20 كانون الثاني 2007، قتل خمسة جنود أميركيين في كربلاء بحادثة

مروعة وملأتنا بالشعور بالصدمة. فقد قام بضعة أفراد من الميليشيات الشيعية بالتنكر بزي الجنود الأميركيين واقتحموا مركز التنسيق الأمني المشترك، وتخطوا الحراس في البوابة وقتلوا أحدهم وجرحوا ثلاثة. ثم دخلوا إلى النطاق الداخلي واختطفوا 4 جنود أميركيين. وجدت جثثهم لاحقاً في سيارة متروكة في مكان مقفر. وفي اليوم نفسه، قتل 13 جندياً أميركياً في حادثة تعرض مروحية إلى إطلاق نار، حيث أجبرتها النيران على الهبوط الاضطراري، ثم تعرضت إلى قذيفة آر بي جي فقتل كل من كان على متنها.

كان القتلى الذين يفترض أنهم متمردون ويقتلون أثناء المواجهات يشار إليهم بالرمز (EKIA) (إيكيا)، وهو رمز مختصر لعبارة «قتلى الأعداء الذين سقطوا أثناء العمليات». وفي أحد الأيام تلقى الجنرال أوديرنو الإيجاز التالي:

- «سيدي، لقد قتلنا خمسة أشخاص مواجهة، خمسة أشخاص من نوع (إيكيا).»

- «عمل جيد، كيف قتلتموهم؟»

- «كان أحدهم يزرع عبوة ناسفة، فقتلناه. وكان المناخ العام إيجابياً، فالمحليون كانوا بالضد من الذين يزرعون العبوات.»

- «والأربعة الباقون؟»

- «كانوا أربعة أطفال، سيدي، وقفوا يتفرجون عليه وهو يزرع العبوة.»

وساد الصمت في المكان، وبقي الجنرال صامتاً لبرهة من الزمن. إلى أن قطعت أنا الصمت وقلت: «سيدي، لقد لاحظت أن الذي قدم إليك الإيجاز أشار إلى المناخ الإيجابي، هل تظن أن هؤلاء الأطفال كانوا أطفالاً بُدناء؟ أو أنهم كانوا سيئين ومشاغبين في المدرسة؟»

فهز الجنرال رأسه معبراً عن رفضه، لكنه لم يقل شيئاً. كانت الكوميديا السوداء هي الطريقة المثلى للتعامل مع هذا النوع من الأداء الفوضوي. كنّا قد قتلنا شخصاً ربما قبض 100 \$ دولار فقط ليزرع عبوة ناسفة في طريق قواتنا، وأثناء الاشتباك، قتلنا أربعة أطفال. فكم عدو كسبنا في هذه الحسبة؟. في كل إيجاز كنّا نتلقى إحصائية عن عراقيين يقتلون في العمليات. قتل في ذلك الشهر ما يقرب من 3000 عراقي، لكن العدد الحقيقي لن يُعرف أبداً، كما لم يُتَح للعديد أن يدفنوا أحباءهم من القتلى بشكل لائق.

إن الأرقام الواقعية الأكثر دقة لأعداد الضحايا هي تلك التي تصدرها منظمة (IBC)⁽¹⁾، وهي منظمة غير حكومية تتعقب أعداد القتلى من المصادر الأميركية والمصادر العراقية والمستشفيات، ومن مصادر القوات المتعددة الجنسيات. في حرب فيتنام، كانت القوات الأميركية تعمي أعداد القتلى من الفيتناميين بصورة كبيرة، أما في هذه الحرب فلم يجر الإحصاء بالأصل من قبل الجهات الرسمية الأميركية. أما العراقيون من القتلى فإن غالبيتهم قد سقطوا نتيجة التفجيرات، ونتيجة عمليات الاغتيال المباشر.

وفي يوم 22 كانون الثاني، انفجرت سيارتان ملغومتان في سوق الباب الشرقي وسط بغداد، الانفجار ترك 88 قتيلاً، ورد ذكرهم في الإيجاز بصورة (88 قتيلاً من المحليين العراقيين)، هؤلاء كانوا مجرد مدنيين صادف خروجهم للتسوق، أو لقضاء أعمالهم.

كان عدد كبير من الجثث قد وُجدت طافية في نهر دجلة، حتى إن البعض من العراقيين قد امتنع عن أكل السمك، وقالوا إن طعم السمك

(1) www.iraqbodycount.org. منظمة ضحايا حرب العراق

بدأ يتغير. ووجدت دوريات الجيش الأميركي أن جثث الحيوانات النافقة كانت تستعمل لنصب الكمائن للتفخيخ وحشوها بالمتفجرات. كما استعملت جثث المخطوفين كغطاء للمتفجرات، وللإيقاع بأقربائهم الذين يقتربون منهم لاستردادهم. وسُجّلت حالات استعمال المتمردون فيها الأطفال المُعاقين عقلياً كانتحاريين بعد أن يحيطوا أجسامهم بالمتفجرات. كانت المآتم هدفاً معتاداً للهجمات، وامتلات المشارح بالجثث المجهولة؛ إن كان الرأس قد قُطع فعلى الأرجح أن صاحب الجثة شيعي، وإن كان الرأس فيه ثقب فعلى الأرجح سيكون صاحب الجثة سني. كان العراق في غمرة الحرب الأهلية، لكن لم يكن مسموحاً لنا أن نقول ذلك، لأن هذا لم يكن ما ترغب واشنطن بسماعه. كنت قد قضيت وقتاً طويلاً في محاولة فهم العنف في العراق، علله البعض بأنه يحدث نتيجة لعداوات قديمة وتاريخية بين الشيعة والسنة، وهو الخلاف الذي يعود في أصله إلى الخلاف في من يتولى أمور الناس بعد موت النبي محمد، وهل كان عليهم أن يولوا الحاكم وفقاً لخط الدم وصلة القرابة، أم أن يعتمدوا على الأصلح للمنصب؟.

وصار الذين يؤمنون بأن علياً (وهو ابن عم محمد وزوج ابنته) هو الأنسب للخلافة، صاروا يعرفون باسم (شيعة علي). أما أولئك الذين خالفوهم فقد أطلق عليهم وصف (السنة). وبعد أن تم رفض خلافته لثلاث مرّات، أصبح علي بعدها الخليفة، وانتقل بخلافته إلى الكوفة في العراق. لكن علياً اغتيل في عام 661، وادعى بعد موته عدوّه معاوية بأنه هو الخليفة، وانتقل بالخلافة إلى دمشق حيث بدأت السلالة الأموية الحاكمة. وتمكن ابنه يزيد من قتل ولدي علي، وهم الحسين والعباس في كربلاء عام 680.

ورغم هذا الخلاف التاريخي الطويل، فقد تمتع الشيعة والسنة بوجود وتعايش مشتركين في معظم أنحاء العراق، مع حد أدنى من دورات العنف الطائفية بين الطائفتين. لكن قيام الثورة الإسلامية في إيران عام 1979، أطلق مجدداً الخوف من انتشار الراديكالية الإسلامية الشيعية في العالم العربي. وكان زوال نظام صدام قد جلب الشيعة إلى موقع الصدارة والقوة، ومنح السنة ما يشبه الشعور بالخسارة. لكن التقديرات تشير إلى أن 30% من سكان مدينة بغداد هم مختلطون بين الطائفتين بالزواج.

والسؤال هنا: هل كان العراقيون بالفعل شعب يتبنى العنف؟، جادل البعض بالقول إن حكم العراق لا يمكن أن يستقر إلا بوجود حاكم من مثل صدام يستخدم البطش والقوة بأبعد مدياتها. لقد شاع تراث صدام في الكراهية والانتقام في العراق، وخلال ثلاثة عقود خاض العراقيون ثلاثة حروب، وتعززت روح العسكرية في المجتمع، كما انسحق المجتمع تحت وطأة الفقر ونقص الخدمات في ظل العقوبات الدولية. لقد بدأ صدام عهده بتطهير حزبه السياسي، وقتل العديد من الأعضاء فيه من أجل ضمان ولاء الباقين. وفي أعقاب حرب الخليج الثانية، وعلى أثر خطاب الرئيس جورج بوش الذي حث العراقيين فيه على الإطاحة بصدام، خرج العراقيون في تظاهرات وتمرد مسلح على سلطة النظام. لكن صداماً تمكن في النهاية من إخضاع الناس، وقتل الآلاف من الشيعة، وقمع التمرد بقوة. بينما لم توفر الولايات المتحدة الحماية سوى للأكراد في الشمال بواسطة فرض منطقة حظر الطيران. لقد خلق صدام أمة من المُخبرين، وجلب إلى الطاعة كل من يشكك في حكمه، جاعلاً الخوف أساساً لإبقائهم تحت هيمنة السلطة. وبعد غزو عام 2003، انهارت الدولة عبر قراري قوات التحالف باجتماع

حزب البعث وحلّ الجيش العراقي، وخلقت فجوة السلطة عالمياً يكون كل شخص فيه هو سيد نفسه. علاوة على أن النخبة التي استعانت بها قوات التحالف لتأسيس سلطة الائتلاف لم تكن نخبة حقيقية، كما لم تمثل كل شرائح المجتمع العراقي. وعمل مجلس الحكم الضعيف على محاباة الرابحين في موازين القوة، واستبعدوا الصدرين وأهم القوى السنيّة، كما وزّعوا المناصب وفقاً للإثنيات، والإقطاعات الحزبية. وظهرت العملية السياسية في جو من العنف ووجود القوات الأجنبية المحتملة. وهذه العوامل بإمكانها أن تهدم أي نجاح قد يتحقق في عملية بناء «الأمة»، وأسهمت في مأسسة الطائفية بدلاً من تعزيز التعددية. وقد جرى التركيز على تمثيل المجتمعات بفردانية بدلاً من تجسير العلاقة بينها. وأما أولئك الذين جرى استبعادهم، فقد رفعوا السلاح، وصارت مطالبهم هي إخراج قوات التحالف. وأما السياسيون العائدون من المنافي فلم يكن لديهم قواعد شعبية، وصاروا يستخدمون الطائفية والعنف الطائفي لتحشيد الأنصار لهم.

واكتسح الشيعة انتخابات كانون الثاني عام 2005، بقائمة تضم كل القوى الشيعية (أصبحت الآن تضم الصدرين أيضاً)، وحظيت بمباركة آية الله السيستاني. ثم بعد ذلك شكلوا تحالفاً مع الحزبين الكرديين (الاتحاد الوطني الكردستاني، والديمقراطي الكردستاني)، وكانا من حلفائهم منذ فترة المعارضة لنظام صدام. وأفرز نظام الانتخابات الذي عدّ العراق كلّ دائرة انتخابية واحدة بـ 275 مقعداً، نتائج لصالح الحزب الأكبر والأكثر تنظيماً. أمّا الليبراليون والعلمانيون، فلم تتوفر لديهم الإمكانيات أو الميليشيا التي تفرض رؤيتهم لعراق عابر للطائفية. كان الحزب السني الوحيد المشارك في العملية السياسية هو (الحزب الإسلامي)، وقد شارك أنصاره على أساس الدعوة لتشكيل قوة رافضة

للدستور، وأن يتمكنوا من وضع (فيتو) أمام تمريره. وحين تم تمرير الدستور، وأجريت الانتخابات شارك الحزب الإسلامي بينما قاطع السنة الانتخابات، وكان الوقت قد فات حيث إن الشيعة والأكراد قد أمسكوا بالسلطة بالفعل.

كان التمرّد بالضد من الوجود الأجنبي قد استحال وتخفى بشكل صراع بين الشيعة والسنة. ودخل الجهاديون الأجانب إلى العراق من أجل محاربة القوات الأميركية (الكافرة)، وقلب نظام الدولة، وإقامة الخلافة الإسلامية. وشخص أبو مصعب الزرقاوي الشيعة في العراق على أنهم (روافض)، عملاء صفويون لإيران، ومتعاونون مع الاحتلال الأمريكي. وبدأ يستهدف مراقدهم المقدسة وجوامعهم، وأسواقهم، بدا أبو مصعب الزرقاوي وكأنه يدفع الشيعة دفعاً للانتقام من السنة.

ومع ازدياد أعمال العنف، وعدم توفر ما يكفي من القوات الأميركية لحفظ الأمن، فقد عوّلت قوات التحالف على نتيجة الإسراع بتجنيد المزيد من العراقيين لتشكيل القوات الأمنية الوطنية. وكانت تلك القوات ضعيفة الإعداد، وسيئة التدريب، بعد أن تلقت الحد الأدنى من الخبرات فقط. ونظر السنة إلى هذه القوات باعتبارها أداة جديدة من أدوات القوة بيد الشيعة والأكراد. وبينما اندمجت الميليشيات الشيعية التي سبق أن حاربت إلى جانب إيران أيام الحرب العراقية الإيرانية، اندمجت في أجهزة الأمن والجيش الجديد. في ذلك الوقت، راح السنة ينخرطون أكثر فأكثر في التمرّد.

وفي شباط من عام 2006، جاء تفجير تنظيم القاعدة للقبة الذهبية في ضريح مسجد الإمام العسكري بسامراء ليزيد من دوامة القتل الطائفي. كان هذا المسجد واحداً من أهم المقدسات في الإسلام الشيعي.

وزادت إيران من دعمها للمليشيات الشيعية من أجل أن تهزم السنة، وتطرد قوات التحالف من العراق.

لقد عقدت إيران العزم على إفشال (المشروع) الأميركي في العراق تحت وطأة الشعور بالتهديد من التواجد العسكري الأميركي على حدودها الغربية في العراق، وعلى حدودها الشرقية في أفغانستان. وبمعمونة من إيران، بدأت مجاميع (بدر) باغتيال أولئك الذين كانوا على علاقة بالنظام السابق. أمّا الصدرىون فقد استهدفوا الكتلة السكانية السنية في بغداد، وأفرغوا مناطق بأكملها منهم. وأمّا القوات الأميركية فقد تخصصت في مواجهتها مجموعات معينة تسمى «المجاميع الخاصة».

وفي إحدى ليالي كانون الثاني وضعتُ ترتيباً للأفكار تمهيداً لعرضها على الجنرال أوديرنو، وأسميته تقديراً «بلا لعنات!». اقترحت أولاً أن نبدأ بمغادرة تصنيف مصادر العنف على أنها «العدو»، وأن نترك تشخيص الأفعال العنيفة العدائية على أنها واحدة من اثنتين، إما قوى مضادة لقوات التحالف، أو قوى مضادة للقوات الأمنية العراقية.

والمطلوب أن نبدأ بمعرفة كل المجاميع التي تمارس العنف وتحمل السلاح، ومعرفة دوافعها وأسبابها في انتخاب الأهداف. كما علينا أن ندرك أن القوات الأمنية العراقية هي الأخرى صارت طرفاً في النزاع وبسط العنف الطائفي. واقترحت أن يكون الهدف هو بسط الاستقرار، حتى لو اضطررنا هذا الهدف أن نتبع استراتيجيات مختلفة في التعامل مع محرّكات زعزعة الاستقرار في كل مكان بشكل منفرد، وبصورة خاصة. وأن نبني أهدافنا المرحلية على حماية السكّان، وإحباط العوامل المسببة للعنف، وكسر الاتفاقات والتخادم بين المجاميع المختلفة.

في مقر مركز العمليات المشتركة، كان أحد الأستراليين يجلس قربي، وقد همس لي في يوم ما قائلاً: «هؤلاء اليانكيز ليسوا مثلنا نحن الأستراليين والبريطانيين، إنهم يصلّون أكثر مما نفعل نحن، بل إنهم يصلّون حتى أكثر من المسلمين»، كنت أعرف ماذا يقصد بقوله هذا. كانت هناك صلاة تتلى قبل الإيجاز الصباحي، وأخرى تتلى في المكان نفسه بعد الظهر، وأخرى تتلى طلباً للبركة في قاعة الطعام. وكان هناك رجال دين وأبرشيات في كل مقر عسكري. وكانت هناك صلوات جماعية أيام الأحاد، كما كان هناك ممثلون عن مختلف الكنائس. حتى إن (الله) الذي يدعونه يختلف عن مفهوم (الله) الذي نشأت معه، لأن مفهومي عن الربوبية يمثل شيئاً قديماً أكثر مما يمكن للأميركيين أن يتحملوه. كان رجال الدين يصلّون من أجل تحقيق النصر في المعركة على الأعداء، بدلاً من الصلاة لأجل تحقيق السلام.

وفي إحدى المناسبات حضر الجنرال أوديرنو إلى مركز العمليات المشتركة وكانت هناك لطخة سوداء على جبهته، كنتُ على وشك أن أتناول منديلاً وأبصق فيه لأمسح جبهته. لكنني لاحظت أن عدداً آخر من الضباط يحمل اللطخة نفسها على الجبين!، في الحقيقة لقد صُغت من مظهرهم، وتساءلت ما الذي يجري؟. هل هذا نوع من أنواع المحافظ الماسونية؟. هل هؤلاء أعضاء في صليبية معينة؟. إلى أن أخبرني أحد الضباط بأن ذلك كانت علامة لـ (أربعاء الرماد)!)، وأن ذلك كان تقليداً كاثوليكياً أميركياً.

وحدث ذات مرّة في الإيجاز الصباحي أن مرر بعض الجنود منشوراً فيه صورة لمقتدى الصدر مثل تلك المطبوعات التي تنشر للإبلاغ عن طفل مفقود. الصورة مكتوب عليها «آية الله الأحق!»، وهو مطلوب للعثور عليه، وكان مقتدى الصدر قد اختفى منذ أسابيع ولا أحد يعرف

مكانه. وأخبرني الأسترالي: «فقط انتظري ردّة فعلهم حين سي شاهدون هذا الفيديو». كان الفيديو مأخوذاً من إحدى كاميرات المراقبة ويظهر أحدهم وهو يزرع قنبلة على جانب الطريق فتنفجر فيه، فيتطاير الشخص إلى أشلاء، وكانت ردّة فعلهم بأنهم قفزوا في صيحة فرح واحدة وكأن فريق بلادهم بكرة القدم قد أحرز كأس العالم، وليس ما يشاهدوه هو مقتل إنسان. وفي اجتماع القيادة العامة، ذكر الجنرال أوديرنو الفيديو وقال إنه سيطلق إلى وسائل الإعلام، فأجابه أحد الضباط الكبار: «إنّه بالفعل جيد يا سيدي، فهو سيكشف العدو، وسيكون هناك الكثير من هذه المقاطع في الإعلام»، ووافقه الجميع بصورة سريعة.

لكنني اعترضت على هذا، ولم أستطع تمرير هذا الموضوع. فقلت: «إن هذا الشريط يظهر جهاديين يقاتلون ضد الوجود الأميركي، وهو لا يختلف عمّا تبثه القاعدة من أفلام تسجيلية لأعضائها قبل مقتلهم في عمليات انتحارية. أليس المفروض أن نكون على نقیض أخلاقي من أعدائنا؟. أليس المفروض أن تكون التزاماتنا واحترامنا لحياة الإنسان تختلف عمّا تفعله القاعدة؟».

وما كان ردّ الفعل سوى أن الجميع ضحكوا وقهقهوا وسخروا مما قلت، فأجبتهم: «إنني أشعر بنفسي وكأنني في معسكر للجهاديين الأميركيين، ومحاطة بمتطرفين أميركيين، هذا أمر مخز». وخرجت لأعود إلى مكّتي، كنت محبطة وأتساءل، ما الذي أفعله هنا؟.

وفي المساء زارني رئيس العرفاء سيوتولا، وحين رأته احتضنتني بشدّة وقال: «آنسة إيما، لقد أمضينا وقتاً طويلاً نناقش ما قلته مع الجنرال أوديرنو من كل الوجوه، وأخيراً قرر الجنرال بأننا لن نطلق المزيد من هذه الأشرطة إلى وسائل الإعلام».

الفصل التاسع

فرض القانون

كان حجر الزاوية لعملية الموجة العسكرية وزيادة عديد القوات الأميركية في العراق، يتمثل في وضع ترتيب أمني خاص لمدينة بغداد. ومن أجل كسب التأييد الكردي لصالح خطط الجنرال أوديرنو، فقد طار إلى أربيل للقاء مسعود بارزاني. كان بارزاني قد سُمّي رئيساً للإقليم على أثر انتخابات محلية في صيف 2005. ومضيت مع أوديرنو إلى كردستان، وغمرتني مشاعر جميلة أن أعود إليها مرة أخرى. استقبلنا بارزاني وهو يرتدي زيّه الكردي المعهود. وهناك التقيت بكمال كركوكي، حيث عانقني وكان قد مضى أكثر من عام على آخر مرة التقينا فيها. وأقام بارزاني مأدبة على شرف الجنرال أوديرنو، المائدة كانت حافلة بالكباب وضلوع الحملان المشوية، بالإضافة إلى الخبز التقليدي الطازج. أوجز الجنرال لبارزاني أهم الخطوط العامة لخطة أمن بغداد، وفصل له في الترتيبات الأمنية. لقد تم توجيه الخطة بطريقة تنفذ وتقاد من قبل العراقيين أنفسهم، وكان الجنرال يعمل على تقديم المساعدة في تنفيذها. كانت الخطة تشتمل على توفير العدد الكافي من أفراد القوات الأمنية العراقية، وسيعمل الجنرال أوديرنو على جلب بعض الوحدات من أماكن أخرى في العراق.

على الورق، كان عديد القوات الأمنية العراقية يبلغ قرابة 600 ألف عنصر، لكن لا أحد يعلم في الحقيقة كم كان تعدادها المتوفر فعلاً وهو عدد أقل من ذلك حتماً.

وخاطب أوديرنو بارزاني قائلاً: «إن الولايات المتحدة بدأ صبرها ينفذ تجاه الوضع في العراق، لكن الرئيس بوش مصمم على تحقيق النجاح في العراق»، كان أوديرنو يحدث بارزاني بهذا باعتباره من القيادات التي يستمع لها الآخرون، ويمكن أن يكون مؤثراً في الساحة.

وكشف بارزاني أنه سبق له وأن أمضى الشهر الماضي كله في بغداد، وأنه طلب من المالكي أن يتحرك من منطلق كونه رئيساً للوزراء لكل العراقيين، وليس لطائفة محددة. وأنه اقترح أن يجمع المعتدلين من كل الأحزاب السياسية لتقوية الحكومة، فالوضع العراقي لا يتحمل وجود من يساهم في العمل السياسي في النهار بينما يخلو في الليل للمتمردين. لكن الخلافات استمرت بين مختلف قادة المكونات والمجتمعات مع انعدام الثقة المستفحل بينهم. في الوقت الذي كانت فيه قطاعات الشعب العراقي تعاني يومياً من سوء الأوضاع الأمنية. وقال بارزاني إنه قد ذهب إلى بغداد ليثبت للآخرين أن الأكراد يحملون همّاً، ويهمهم ما يجري في العراق، ليس لأسباب إنسانية فقط، إنما لأنهم قد اتخذوا قراراً بالبقاء ضمن إطار الدولة العراقية. لكنه يئن أن الأكراد لا يمكنهم البقاء ضمن حكومة متأثرة بالمليشيات وتدافع عنها بقوة، لقد كان جيش المهدي مركزاً للأعمال الإرهابية، ويستقطب المجرمين من كافة الأماكن.

وقال بارزاني: «إنني قلت للمالكي؛ إنه لم يحدث في تاريخ العراق أن حظي حاكم بكل هذا الدعم والإسناد الذي يتاح له، سواء من الداخل العراقي، أو من المجتمع الدولي. وبيّنت له أن بعض الزعماء يمضون أوقاتاً طويلة فقط من أجل لقاء الرئيس الأميركي، بينما نرى أن الرئيس بنفسه يحضر إلى الأردن لمقابلة المالكي». وقال بارزاني إنه يتفهم خيبة الأمل الأميركية من الصراع السنّي-الشيوعي، خاصة بعد كل التوضيحات التي بذلتها الولايات المتحدة. لقد وافق الأكراد على إرسال البيشمركة إلى بغداد، لكن ماذا سيقاتلون في بغداد؟. إن كانوا يقاتلون الإرهاب، فلا مشكلة في الموضوع، لكن ماذا سيكون متاحاً لهم إزاء القتال الطائفي؟. ما الذي يفترض أن يفعلوه إزاء الصراع السنّي - الشيوعي؟.

ووصف بارزاني الأوضاع بعد أحداث 1991، وكيف أن الأكراد تعاملوا مع أولئك الذين تعاونوا مع نظام صدام بكثير من التسامح، وحتى المقاتلين العراقيين العرب الذين ألقوا القوات الكردية القبض عليهم، تمت معاملتهم بالحسنى. ولهذا فهو يشعر بالفخر - حسب قوله - أن يكون منتمياً إلى البيشمركة. وفي مؤتمر لندن 2003، كان البارزاني قد حث الجميع على التفكير بعملية المصالحة بعد سقوط نظام صدام الوشيك آنذاك، ضارباً لهم مثلاً بالتجربة الكردستانية. لكن ملاحظاته لم تلق الصدى المطلوب، «فالشيعة لهم مخاوفهم من الماضي وعقدتهم أيضاً المتعلقة به، بينما يخشى السنة على مستقبلهم. أما بالنسبة للأكراد فإنهم يخشون الماضي والمستقبل سوياً»، على حد وصف بارزاني.

أسس الجنرال أوديرنو مجموعة أسماها (مجموعة المبادرات)، كي تساعد على تعريف التهديدات التي تواجه قوات التحالف، والطريقة المثلى التي على هذه القوات أن تردّ بها. كانت هذه المجموعة تضم أربعة أشخاص؛ ديريك هارفي (Harvey)، مايك ميس (Meese)، روبرت تايلور (Taylor)، وأنا.

كنّا نلتقي الجنرال أوديرنو كل مساء لمدة اسبوعين. وكنّا نعمل على تعريف وتشخيص (النجاح) على أنه تحقيق لـ (مزيد من الاستقرار) على الأرض. كما شخصنا منابع الاضطراب التي تزعزع الاستقرار في قائمة من تسعة عوامل وهي كالآتي:

- العنف الطائفي.

- نشاط تنظيم القاعدة في العراق.

- التمرد السني.

- التطرف الشيعي.

- التوسعية الكردية.

- العنف الشيعي - الشيعي.

- التخريب الخارجي.

- الجريمة الجنائية.

- ضعف مؤسسات الدولة.

جمعت مجموعة المبادرات هذه التهديدات، ودوّنتها، ورسمت خارطة لوجودها وانتشارها عبر البلاد. ثم بدأت بتقييم كل واحدة منها، كما بدأت بتأشير التكتيكات المطلوبة للتعامل مع كل واحدة منها في محيطها الجغرافي.

كنّا نعلم أن الإخفاق في تعريف أو تشخيص كل نوع من أنواع بواعث عدم الاستقرار التي ذكرناها، سيؤدي إلى استجابة غير مناسبة من جانب قوات التحالف، وبالتالي ستقود إلى المزيد من عدم الاستقرار كنتيجة معاكسة.

أنيّ كنّا نواجه مشكلة تتمثل في أن فعل قوات التحالف قد يُستغل أو تستفيد منه إحدى المجموعات لإزاحة أخرى منافسة لها، أو أن تؤدي العمليات العسكرية إلى قتل بعض القادة الميدانيين الذين كنّا سنحتاج إلى وجودهم من أجل إبرام وقف إطلاق النار وتوسيطهم لاحقاً. لقد شخّصنا أن الصراع في العراق هو مواجهة بين مكوّنات مختلفة تتنازع على السلطة والموارد وليس مجرد تمرّد مسلح. كما ثبتنا وصار معلوماً لدينا أن الحكومة هي نفسها كانت جزءاً من المشكلة. كان العراق يومها دولة هشة، مع شرعية ضعيفة. لذلك بدأنا نبحث في وسائل تقليل العنف باستخدام تكتيكات مختلفة، وفي الوقت نفسه نحقق الاستفادة من عملية المواجهة وزيادة عديد القوات في العراق.

ووسط الكثير من الضوضاء، تولّى الجنرال بيترايوس في 10 شباط من عام 2007، قيادة القوات المشتركة المتعددة الجنسيات في العراق خلفاً للجنرال كيسبي. وأصبح شعار (مكافحة التمرد) بمثابة دين جديد بين القيادات العسكرية، هذه الاستراتيجية يطلق عليها استراتيجية (كوين-COIN)، وكانت شفرتها العسكرية هي (FM-3-24). يختصر كتيب استراتيجية مكافحة التمرد الذي شارك بيترايوس في وضعه الأهداف النهائية للعملية بأنه يستهدف كسب ولاء الناس وتأيدهم، ويصوغها على شكل الشعار التالي: «السكان هم جأزتنا».

لقد اختار الرئيس بوش الجنرال بيترايوس لقيادة عمليات الموجه وزيادة عديد القوات في العراق. وتحديث الإعلام عن تفاصيل بشأن هذا التعيين، وكشف أن بيترايوس جلب معه ضباطاً بـ(عقول واثقة) لتغيير مسار الأمن في العراق، ضباطاً يحملون شهادات دكتوراه، وكانوا متفوقين في دراساتهم الأكاديمية في ويست بوينت. كان بيترايوس يسبق الجنرال أوديرنو بسنتين، وقد حصل على ترقية وصار جنرالاً بأربع نجوم ليتولّى هذه المهمة في العراق، وأصبح المسؤول المباشر للجنرال أوديرنو. لكن أوديرنو لم يكن في واقعه يتطلع إلى هذا المنصب، مثلما لم يكن سير عمله سهلاً مع الجنرال كيسبي الذي لم يكن بدوره مؤيداً لعملية الموجه وزيادة عديد القوات في العراق. 'والآن أضيف سبب آخر سبب له الإزعاج وهو الهالة الإعلامية والشعبية التي ترافق قدوم الجنرال بيترايوس.

اختار بيترايوس مكتب الجنرال أوديرنو لأول لقاء عمل معه. وحضر معه ضابطه التنفيذي بيتر منصور، بالإضافة إلى الضابط بيل راب وهو مسؤول مجموعة المبادرات الخاصة به. وحين لمحني أقف إلى جانب

الجنرال أوديرنو وقف متفاجئاً قباليتي وقال: «إيما سكاي!، كم من المفاجيء أن أراك هنا» وصافحني بحرارة، لقد تذكر لقاءنا منذ أن عملت في سلطة الائتلاف عام 2003.

أوجز الجنرال أوديرنو تحليلاته عن الوضع في العراق لبيترايوس، وشرح مفاهيمه لإدارة عملية الموجهة وفقاً لما أعدته مجموعة المبادرات التي شكلها. كان إيجاز أوديرنو يُعرض بصيغته المفضلة ببرنامج (باور بوينت) على شكل شرائح. وكان يشرح ما أسماه (استعراض شرائح الثغرة)، التي يبين بموجبها الفراغ الذي حصل في السلطة بعد سقوط النظام عام 2003، وشرح تعقيد الوضع وترباط هذه التعقيدات، وكيف أن هذا الفراغ قد ملأته مجاميع مسلحة مختلفة. وأشار إلى أن من واجب قوات التحالف أن تؤمن الوقت اللازم للسلطات العراقية كي تتمكن من ملء هذا الفراغ في السلطة، وتزيح المجاميع المسلحة. أما نحن فعلى أن ندفع بالمصالحة والخدمات العامة إلى الأمام من أجل أن نعزز تأمين الوقت اللازم للحكومة العراقية.

في نهاية الإيجاز بدا أن بيترايوس قد تفهم النقاط التي أثارناها، وكانت لنا معه مناقشة بناة وسأل بضعة أسئلة تفصيلية. ثم طلب من الجنرال أوديرنو أن يمضي قدماً في الخطة. في الحقيقة كنا ندرك أنها آخر فرصة لنا كي نقصم ظهر التمرد. على الرغم من أننا لم نذكر هذا صراحة، لكننا كنا نعرف ما ستكون عليه العواقب لو حدث وفشلنا. لكن العسكر كانوا يرددون دائماً: «إن الفشل ليس خياراً بالنسبة لنا».

بعد ذلك انصرفت مجموعة المبادرات ودخلت مجموعة المخططين يقودهم العقيد مايك موراي (Murray) لأجل وضع المفاهيم التي أوجزها الجنرال أوديرنو موضع التنفيذ، ورسم التفاصيل الدقيقة للخطة

التنفيذية. وابتدأت الخطّة. وشهدت ساعات طويلة من المناقشات في كل أسبوع لتقرير أي من الوحدات يجب تحريكها، وإلى أية جهة يجب أن تذهب. كنت أقف وأتفرّج منذهلة. كان حجم المساعي والتحركات كبيراً جداً. عشرات الكتائب والألوية جرى فصلها عن فرقها العسكرية الأم، وجرى استتباعها بقيادات جديدة، لم تكن قد خدمت معها سابقاً، كما لم تمارس أيّ تدريب مسبق معها. هل يا ترى كانت وحدات منسجمة؟. كيف نعلم أن أيّاً منها لم يكن كذلك؟ هل كانت ستعمل بتنسيق عالٍ كوحدات مدفعية أم وحدات مدرّعة أم وحدات المشاة؟. أيّ الوحدات كانت تناسب أيّ المهام؟. وأيّ الوحدات كانت عرباتها أكبر من شوارع المدينة؟. كنت أراقب الجنرال أوديرنو وهو يحسب اختياراته للوحدات، ويقدر قابليّاتها القتالية. كان الأمر يتطلب شيئاً من الحدس والمهارة، مثلما يتطلب الإلمام بالجوانب العلمية والرقمية.

ثم وضعنا مخططاً نرسم فيه توقعاتنا لمحاولات القاعدة تنفيذ الهجمات على المدينة انطلاقاً من المناطق المحيطة بها. ثم درسنا الطريقة التي اتبعها صدام وتكتيكه في محاولة الدفاع عن المدينة، وكيفية نشر الوحدات سابقاً.

ثم اقترح الجنرال أوديرنو أن يجري جلب لواءين إضافيين إلى داخل المدينة، وثلاثة ألوية إضافية لنشرها حول حزامها لأجل خلق مجال آمن لها، وتعيين مناطق للدعم اللوجستي، ومنصّات للانطلاق في تنفيذ المهام حول بغداد.

كما سيجري إرسال المزيد من القوات إلى الغرب في محافظة الأنبار لتعزيز مواجهة العشائر هناك مع تنظيم القاعدة. كان يتعيّن على القوات أن تخرج من القواعد لتنتشر بين السكّان المحليين في الأحياء والشوارع.

واشتملت الخطة أن تعمل القوات العراقية الأمنية بالتوازي مع قوات التحالف لإنشاء قيادات أمنية مشتركة في مختلف المناطق الجغرافية. ويجري تحصين الأسواق، ونشر نقاط تفتيش عند مداخل الأحياء، وقطع تلك الأحياء عن بعضها لجعلها مجتمعات تحدها بوابات محددة للدخول والخروج. وبدأت بالفعل الجهود لرفع قدرات القوات الأمنية العراقية، ومساعدتها في التدريب والتنسيق والاتصال. كما بدأت عملية تداخل مجموعة من المستشارين بين الصفوف العراقية لأجل تقديم الدعم والمشورة، ووضع ضوابط للعمل العسكري. كان الهدف أن تحوز هذه القوات القدرة على تنفيذ المهام وحدها.

وعبر تسيير دوريات مشتركة مع العراقيين، سيكون بمقدور قوات التحالف والقوات العراقية معاً أن يطوروا تفاهمات أوثق. كما يمكن أن تعزز العلاقة مع السكان المحليين، والقادة المحليين خصوصاً لتقديم المساعدة.

وفي اللحظة التي سيشعر بها السكان بأنهم محميون جيداً، فسيقدمون على تزويد القوات بمعلومات عن المتشددین والمجرمين. وفي مرة كنا نتجول فيها في دورية، وكنت إلى جوار الجنرال أوديرنو فإذا به يلتفت إليّ ويسألني: «إيما...هل حلمت يوماً بأن المطاف سيتهي بك إلى العمل في حملة عسكرية مخطط لها؟».

- «لا سيدي».

- «إذن، كيف يبدو الأمر بالنسبة لك؟».

- «سأرجو من الرب أن يغفر لي الأشياء التي أجبرتني أنت على أن أكون جزءاً منها». وانتهى بضحكة مجلجلة.

وخلال أسابيع أثبت نفسي وأدائي كمستشارة سياسية للجنرال أوديرنو، وكانت عنصراً دائماً. بل إنني بعبارة أخرى أصبحت جزءاً مستداماً من القيادة عموماً. في النظام الأميركي، عادة ما يكون المستشار السياسي موظفاً من الخارجية الأميركية، وبالعادة لا تذهب به مهنته إلى أي مكان. أما في النظام البريطاني، فيكون المستشار السياسي في العادة موظفاً مدنياً من وزارة الدفاع. لكنني لم أكن ملزمة برفع أي تقارير لأي جهة عليا أو منظمة باستثناء ما يطلبه الجنرال أوديرنو.

كان الجنرال أوديرنو يصحبني معه إلى كل مكان، بغض النظر عن مدى خطورته. كنّا نجمع المعطيات والملاحظات، ثم نجلس لنحلل المعلومات ونتناقش في التفاصيل. ثم يطلب مني أن أعد نفسي للقاءات ستشهد جدلاً بشأن معين. كان أوديرنو يساعد نفسه عبر هذه المحادثات للبقاء ضمن استراتيجيته التي يعتمد عليها.

كنّا نحمل نظرتين مختلفتين عمّا يجول حولنا. بالتأكيد ستختلف نظرة عسكري طوله 190 سنتيمتراً، وقد كان متواجداً دائماً في أشد مواقع الصدامات، عن نظرة امرأة مدنية طولها 160 سنتيمتراً ارتحلت بمفردها حول العالم. أذكر مرة أن رجلاً فلسطينياً حدثني قائلاً: «ليس لديك أي فكرة كيف يكون حالك وأنت في الشارع ومن حولك 11 شقيقاً». لقد كان على حق، لقد كنت طفلة وحيدة في عائلة فقيرة. تذكرت ذلك وأنا أمشي مع الجنرال أوديرنو في الشوارع، كان الجنود من حولنا يشكلون أطواقاً للحماية. وأعرف أنهم يغطون كل زاوية تحيط بنا. وأنهم سيطلقون النار ويتحركون بلا أدنى تردد إذا ما تعرّضنا لخطر، وسيحاولون كل ما بوسعهم من أجل حمايته وحمايتي.

لقد تسنى لي أن أراقب طريقة الجنرال أوديرنو في القيادة عن كثب.

لقد كان يستمع للنصائح ويستمع للجميع ويُعلم من حوله بنواياه. ثم يحدد (أقصى اليمين وأقصى اليسار) لأهدافه. لكنّه كان قاسياً مع تابعيه. كما تعود أن يقرّع أسماعهم بنقدٍ لاذع في بعض الأحيان. ومع هذا، فقد كان متمكناً جداً من قيادته. كان يضع ثقته في تابعيه وضباطه، ولا يتدخل أو يتابعهم في التفاصيل الصغيرة. وكثيراً ما يشجعهم على خوض المخاطرة المحسوبة. وكان ينتهز الزيارات الميدانية إلى الوحدات ليتحدث مباشرة إلى الجنود، ويسمع منهم ما يحدث على الأرض مباشرة، وبذلك يحقق لنفسه بعض الصفاء الذهني، بالإضافة إلى نقل الإحساس لهم بمتابعته الشخصية. لم يكن أوديرنو يجيد الكتابة، ويواجه صعوبات في الطباعة. وكانت الهوامش التي يخطها على المذكرات غير مفهومة من قبل الجميع، باستثناء العريف إيريك سترونغ، الذي تعلم كيف يفك ألغازها بعد سنوات من المران بصحبة الجنرال. لكنه في المقابل، كان ممتازاً في التواصل الكلامي، ولديه ملكة واضحة في هذا المجال. ويمكن للجميع الإحساس بقوة شخصيته وحضوره الطاغي من خلال حديثه. لقد كانت المهمة شيئاً أكبر منّا جميعاً كأفراد. لكن الجنرال أوديرنو كان رئيسنا الذي لا جدال في رئاسته، مسؤولاً بشكل كبير، وواثقاً من نفسه، وعاقداً العزم بطريقة نادرة. كنت أرتعب منه، وكنت أظنه شخصاً لا يمكن قهره، وبما أنني كنت أتصور أنه جندي لا يمكن أن يُقتل، فقد كنت أشعر بأمان كبير وأنا معه، مهما كانت خطورة الأوضاع من حولنا.

في العالم المدني الذي أتيت منه، كانت الأمور تتمحور كلها حول الطريقة التي تدار بها الأشياء، والبيروقراطية التي تصادفها، بالإضافة إلى التنافس. وفي مثل هذا المحيط، لا مجال لظهور القيادات القاهرة والقوية. أما في العالم العسكري، فقد كانت قيادة الجنود لها مكانتها وقيمتها، وينظر

لها على أنها امتياز كبير، لذلك فإن القوة والخبرة فيها تؤدي إلى خلق القيادة الكاريزماتية. وشدد انتباهي بأن القيادات السياسية الأميركية كثيراً ما تمتدح القوات العسكرية، وتسعى إلى التقاط صور وسط الجنود، لأن الأمر سينعكس جيداً هناك لدى الرأي العام. لكنني لم أتصور أبداً أنهم يعرفون عن قرب مدى قدرات الجنود، وما هي كلف القتال. والقليل فقط من تلك القيادات المدنية السياسية قد خدم بالفعل في الجيش، وبالتالي فهم يجهلون معنى الوجع الذي يتغشى الجندي لحظة الالتحام في المعركة، ووقع ما يرتكبه أثناء الحرب على مشاعره فيما بعد.

وحتى نفرّق خطة تأمين بغداد عن سابقاتها اللاتي فشلن، ولأجل أن نغطي انطباعاً للجميع بأنها خطة عراقية فقد استعملنا اسمها باللغة العربية، وأسميناها (خطة فرض القانون). وسرعان ما صار يُرمز لها بالرمز (FAQ). وكان يتعين على قوات التحالف أن تبني علاقة وأواصر مع القوات الأمنية العراقية على كل المستويات. وكان نظير الجنرال أوديرنو العراقي هو الجنرال عبود قنبر، الذي اختاره المالكي لرأس (قيادة عمليات بغداد). واتخذت هذه القيادة من قصر عدنان مقراً لها داخل المنطقة الخضراء. وكانت جميع القطاعات الأمنية العراقية، من الجيش والشرطة في العاصمة بغداد تابعة لهذه القيادة، لذلك تمت تسمية ضباط من قوات التحالف للعمل داخل هذه القيادة لغرض التنسيق المشترك، والسبب هو أن آخر شيء نرغب في حدوثه لقواتنا أن تطلق النار على القوات العراقية أو تتلقى نيرانها عن طريق الخطأ.

كانت عملية إيجاد مترجم ماهر ومتمكّن يرافق الجنرال أوديرنو تحدياً من نوع خاص. لأن عدداً قليلاً من المتعلمين الأميركيين من أصل عربي أو عراقي يرغبون بالفعل بالعمل مع القوات الأميركية

في العراق. كانت المشكلة تتعلق بأمن المحليين الذين قد نوظفهم كمتترجمين، فقد تتعرض عوائلهم للترهيب. كما قد يكونوا على علاقة ببعض الأحزاب السياسية.

لكنني كنت معجبة جداً بالمترجم المرافق للجنرال كيسي، كان قادراً على نقل الحوار من العربية إلى الإنكليزية وبالعكس بلا أدنى تعثر. كان المترجم مايك جويدي أميركياً من أصل فلسطيني، واستطلعت رأيه إن لم يكن لديه مانع في العمل لدى الجنرال أوديرنو في حال مغادرة الجنرال كيسي، فوافق. وصار جزءاً من المصاحبة الدائمة التي ترافق الجنرال أوديرنو أينما ذهب.

تعود الجنرال أوديرنو على زيارة مقر قيادة عمليات بغداد على الأقل مرتين في الأسبوع، ويلتقي هناك بالجنرال العراقي قنبر. في عام 2003 كان قنبر قد طرد من الجيش العراقي، وجلس بلا عمل حتى بدأت الأواصر القريبة منه تحاول إعادته إلى الجيش الجديد مرة أخرى، وكان الأمر واضحاً بالنسبة لنا بأنه مقرب من المالكي لكنه أثبت في الحقيقة أنه اختيار جيد. كان لقنبر وجه طويل وجاد الملامح. وفي مجال العمل، أثبت أنه مهني ومخلص لعمله. أما مسؤولية الشرطة الوطنية فقد أنيطت إلى الجنرال العراقي حسين العوادي، وكان ضابطاً عراقياً لامعاً وأفضل من في القوات الأمنية العراقية. كان قد أجرى عملية جراحية اقتطعت جزءاً من أمعائه، ولذلك كان نحيفاً بشكل مفرط. أما عن علاقته بعبود قنبر، فلم يكن يرى فيه شخصاً مؤهلاً لقيادة عمليات بغداد، ولا يرى فيه من يمتلك الخبرة اللازمة لذلك. لكن ضباط الارتباط عملوا جهدهم كي يؤمنوا التعاون التام بين الاثنين. وجرى تعيين الفريق علي غيدان قائداً للقوات البرية

العراقية، لكن الجنرال أوديرنو لم يكثر له على الإطلاق، وكان يرى فيه شخصاً مزعجاً بالنسبة له. ودأب الجنرال بيراجان (Berragane)، وهو الوكيل البريطاني للجنرال أوديرنو، على استثمار كل جهده من أجل بناء علاقة قوية مع الجنرالات العراقيين. وكذلك فعل الجنرال جاي. سي. كامبل (Campbell)، الذي كانت مهمته التواجد باستمرار في مقر قيادة عمليات بغداد، وتوجيه الضباط العراقيين هناك، كامبل حظي باحترام وتقدير استثنائي من الضباط العراقيين الذين لمسوا فيه الخبرة والحنكة العسكريتين. كان بالأصل وكيلاً لقائد الفرقة المدرعة الأميركية الأولى التي تنتشر قطعاتها في بغداد. وكنت أحضر مع الجنرال أوديرنو إلى مقر قيادة عمليات بغداد عدة مرات في الأسبوع، وأجلس في مقعد إلى الخلف منه، وأراقب ما يجري، وقد أتلقى منه بعض الملاحظات، أو أحول له بعض الرسائل من الجنرال بيترايوس الذي قد يتواجد بنفسه في بعض الأحيان. كانت تلك اللقاءات طويلة جداً بالنسبة لي ومُضجرة. وفي أحد اجتماعات اللجنة الوزارية للأمن الوطني، تقرر أن يجري إدخال الخدمات البلدية والمدنية إلى المناطق التي تُخليها القوات العسكرية. وأن يجري الإدخال على الفور لكي يلمس الجمهور جدية في متابعة الاحتياجات المدنية له. كان هذا الأمر سهلاً في القول وصعباً في التطبيق إلى درجة بعيدة. فالقدرات الحكومية كانت ضعيفة، وأصحاب الخبرة الإدارية قد جرى استبعادهم تحت طائلة اجتثاث البعث، وهم بين من قتل أو ترك البلاد، أو اعتزل الوظيفة العامة.

في أحد الاجتماعات أبدى برهم صالح، الذي كان نائباً لرئيس الوزراء ملاحظة مهمة مفادها: «إننا يجب أن ننجح، وإذا لم نفلح هذه المرة فكلنا سنصطلي بنار الأوضاع». أما أحمد الجلبي الذي عاد إلى

اللعبة السياسية بعد الخلاف مع الأميركيين الذي أطاح به في 2004، فقد تولّى مهام التحشيد الشعبي لخطة فرض القانون⁽¹⁾، وبصورة معيبة أخذ يستغل هذا المنصب لتدعيم نفسه.

كانت التحذيرات الخدمية عملية معقدة وضخمة، فعلى سبيل المثال، كانت بغداد تغرق في العتمة مساءً، ولكم أن تتخيلوا الظروف التي يجري فيها في الليل رمي الجثث على الطرقات لتكتشف في الصباح، أو ليُعثر عليها وهي تطفو في نهر دجلة. كانت الكهرباء ونقص الطاقة قضية تطرح للنقاش في كل اجتماع تقريباً. وعرض مسؤولو الكهرباء مشاكلهم، وقالوا إنهم ما إن يصلحوا خطأً من الخطوط، حتى يجري التجاوز عليه من قبل الأهالي، ويستنزف الخط الناقل للطاقة. واقترحوا أن نزود الشوارع بوحدات إنارة تعمل على الطاقة الشمسية، وتطلب جلبها ونصبها أربعة شهور كاملة. وطلبوا منا مساعدتهم في توفير 7000 وحدة إنارة من هذا النوع.

أما المستشفيات فقد كانت عبارة عن كابوس. حكومياً فقد آلت وزارة الصحة إلى الصديين وهم من يديرها، وقد وصلتنا عشرات التقارير التي تشير إلى أن حراس المستشفيات كانوا من عناصر مليشيا جيش المهدي. وأن سكان العاصمة من السنة يخشون الدخول إلى المستشفيات بعد أن قتل العديد منهم وهم على أسرة العلاج.

كانت خلية الأزمة تجتمع كل اثنين في قصر عدنان برئاسة مستشار الأمن الوطني موفق الربيعي، ويحضر كذلك وزير الداخلية جواد

(1) تولى الجلبي وقتها ما سُمي باللجان السائدة لخطة فرض القانون، وهي شبكة من منظومات =العلاقات العامة مع الوجوه الاجتماعية المحلية وشيوخ العشائر في الأحياء التي تجري فيها عمليات (فرض القانون) العسكرية - المترجم.

البولاني، ووزير الدفاع عبد القادر العبيدي، بالإضافة إلى جنرالات عراقيين. ويحضر الاجتماعات الجنرال بيترايوس، والجنرال أوديرنو، بالإضافة إلى الجنرال جوزيف فيل (Fil) بصفته قائد الفرقة المدرعة الأولى المنتشرة في بغداد، ونائبه الجنرال كامبل.

كان وزير الداخلية البولاني شخصاً مهذباً ومُحترماً، ويقيم في قصر عدنان ويعمل من خلاله. يومها كان الذهاب إلى وزارة الداخلية أمراً خطراً بالنسبة له، فضلاً عن أن كل طابق من طوابق الوزارة تديره ميليشيا مختلفة. أما وزير الدفاع عبد القادر العبيدي، فقد كان جنرالاً في الجيش العراقي السابق، وجرى سجنه من قبل نظام صدام. وقد نال هذا المنصب على أثر ترشيحه من الأحزاب السنيّة، لكن هذه الأحزاب سرعان ما فقدت الثقة به وطالبت باستبداله. اشتكى العبيدي أكثر من مرّة من أن الجلي كان يعرضه لضغوط، ويطلب الإفراج عن بعض المعتقلين، كما كان يتدخل في الخطّة بالرغم من الاتفاق مع المالكي على إبعاد السياسيين عن تفاصيل تنفيذ خطّة فرض القانون.

وواجهتنا مشكلة التبادل المستمر لإطلاق النار أو القذائف عبر نهر دجلة بين ضاحيتي الأعظمية والكاظمية. الأعظمية التي تعد معقلاً سابقاً للقوميين وللمتمرّد السنيّ وقتها، وتضم مرقد ومسجد الإمام أبي حنيفة النعمان صاحب المدرسة الحنفية في الشقّ السنيّ من الإسلام. بينما كانت الكاظمية، حيث مسجد وضريح الإمامين موسى الكاظم وحفيده محمد التقي، مرتعاً للمقاتلين الشيعة. كنّا نخشى العواقب التي قد تنتج لو أن أحد هذه المساجد أصيب بقذيفة أو تعرّض لأذى أثناء القصف.

وتعودنا أن نلتقي السفير دومينيك أسكويث (Asquith) مرّة في الشهر على الأقل. أسكويث كان السفير البريطاني في العراق، وحفيداً

لرئيس الوزراء البريطاني الأسبق هيربرت آسكويث. وفي الفيلا التي كانت داخل المنطقة الخضراء وقرب مقر الأمم المتحدة، كان آسكويث يستقبلنا أنا والجنرال أوديرنو بترحاب كبير. وبلباقة التي تتناسب مع وسامته وطوله الفارع، كان لقاءنا به يمثل كسراً للروتين الذي نعاني من وطأته، وفسحة لنا لأجل الراحة.

كنّا في كثير من الأحيان نزوره وقد رجعنا للتو من جولة ميدانية، مُتعبين ومُتسخين. لكننا كنّا نلقى في منزله استرخاءً استثنائياً. نجلس وتحيط بنا اللوحات الجميلة والأعمال الفنية الرائعة المنتقاة بذوق. كما نتمتع بأطباق شهية على ثلاثة أصناف، ويقدم الطعام في أطباق من الصيني الفاخر وأدوات المائدة المعدنية، وهو ما يخلصنا من عادة الأكل في الأطباق البلاستيكية أو علب الفلين التي مللناها. وهناك كنت أمتع نفسي بالشراب القوي والواين، لأخرق الأمر العسكري رقم 1- الذي يمنع تناول الكحول في المعسكرات وأثناء العمليات الميدانية. كنّا نجلس إلى المائدة التي كانت يوماً تجلس إليها المس جيرترود بيل. لكنها كانت فرصة للجنرال أوديرنو ليطلع على رؤية السفير دومينيك آسكويث السياسية لما يجري في العراق. كانت لقاءاتي الأولى مع السفير آسكويث تعود إلى الفترة الأولى لي في العراق والتي تجاوزنا فيها في مقصورتنا في كراج للسيارات عام 2003 قرب مبنى مجلس النواب الحالي. كانت رؤيته واضحة وعميقة لما يجري، ولم يكن مضللاً بالاندفاع الأولى التي جلبت الولايات المتحدة للعراق، لكنه كموظف يكرّس ولاءه للتاج البريطاني مضى في مهمته آنذاك، حتى وإن كان سير الأحداث بالضد من رأيه الشخصي وقناعاته.

وقارب العقد الذي أعمل بموجبه كمستشارة سياسية على الانتهاء،

حيث انتهت تقريباً الأشهر الثلاثة التي يغطيها العقد. فأخبرت الجنرال أوديرنو بأنني كنت على وشك الرحيل، حيث إن وزارة التعاون الدولي البريطانية صار معلوماً لديها أن العقد سينتهي، وهي ستطالبني بالعودة بكل تأكيد. أخبرت الجنرال أوديرنو بذلك، فواجهني بوجه لا يعبر عن شيء ويقول يشبه الأمر: «أنت لن تغادري. أنا ما زلت محتاجاً لخدماتك». فقلت له: «سيدي هل تعاني من مرض ما، هل ستبقيني فقط لأنني أجعلك تضحك في بعض الأحيان، إن الجهات البريطانية ستطالبني بالعودة بلا شك». لكنه كرر جملة واحدة وحازمة وبلا مشاعر: «لن تغادري!».

وخلال العشاء مع السفير البريطاني، طلب أوديرنو من آسكويث أن يفتح وزارة التعاون الدولي البريطاني لغرض تمديد عقدي مع القوات الأميركية لسنة كاملة، فوعد آسكويث بإجراء اللازم، لكنني علّقت قائلة: «أنا سأوافق على البقاء بشرط، أن يأمر الجنرال بتزويدي بجهاز ساتلايت وتلفزيون، وبشرط أن لا تكون من ضمن محطاته (شبكة القوات الأميركية AFN)».

فأجاب الجنرال أوديرنو بحزم وبوجه بلا مشاعر أيضاً: «أنت تحلمين، لن يكون لك أيّ تلفاز أو جهاز ساتلايت ما لم تكن فيه قناة (شبكة القوات الأميركية AFN)».

كانت المنافسة والمشاحنة بين الجنرال أوديرنو والجنرال بيترايوس تعود إلى عام 2003، حين كان كل منهما يقود فرقة عسكرية في العراق، لكن الأركان العامة سعت إلى تقليل هذا التنافس والاحتكاك بعد أن أصبح بيترايوس هو القائد العام، وذلك عن طريق إعلام القائد العام بكل صغيرة وكبيرة فيما يحدث أولاً بأول.

كان هذا الموضوع يطرح على المحك في كل صباح خلال عملية

الإيجاز اليومي الصباحي الذي يقدم إلى بيترايوس، وخلال الدائرة التلفزيونية المغلقة التي يظهر فيها بيترايوس على الشاشة قبل أن يظهر أوديرنو ليجيب عن أسئلته في شاشة أصغر تظهر في ركن الشاشة الكبيرة التي يبدو فيها القائد العام. كان من الطبيعي أن نشاهد أوديرنو وهو يصرخ في من حوله طالباً المعلومات الكاملة عن الإيجاز قبل أن يهدأ بسرعة لحظة ظهوره أمام القائد العام. وقد يحدث أن يطلب بيترايوس معلومة غير متوفرة لدى أوديرنو فيمهل به بضع دقائق يعمل فيها أوديرنو على تجييش الأركان كلها سعياً لتوفير الإجابة. كان هذا يحدث قبل أن أدرك أن بيترايوس يجلس على مبعدة خطوات منّا في غرفة أخرى داخل قصر الفاو نفسه.

كان بيترايوس يدرك أهمية نقل الأفكار الأساسية ونشرها، ليس فقط إلى قادة الجيش، إنما إلى الرأي العام أيضاً. لقد استطاع أن يخلق حساً بالنجاح لدى الأركان التي تعمل تحت إمرته، كان يخاطبهم بالقول دائماً: «إن الوضع في العراق صعب، وصعب جداً، لكن كلمة صعب لا تعني المستحيل». كما كان يحفز الضباط والقادة بأن يتحروا الحقيقة في البداية حين يخاطبون الرأي العام والجمهور. حيث ستكون الكارثة أكبر لو أنكروا شيئاً ثم اكتشفته الصحافة فيما بعد. كان يعلم ويقدر الحاجة إلى استعادة ثقة الجمهور التي أفقدتها في السابق التقارير المفرطة في التفاؤل.

وفي منتصف آذار من عام 2007، كلف بيترايوس فريقاً للتقييم الاستراتيجي يُطلعه ويُطلع السفير رايان كروكر على تطورات الأوضاع في المجال الاستراتيجي وما ينبغي تنفيذه. كان كروكر قد تسلّم للتو منصبه الجديد كسفير للولايات المتحدة في العراق. كان الفريق

يتكون من عشرين شخصاً، ويقوده العقيد الموهوب أتش.آر.ماك ماستر (McMaster)، ويضم خبراء عسكريين، ومدنيين، ودبلوماسيين، وباحثين. كانت مهمة الفريق تنطوي على التخطيط ورسم السياسة الاستراتيجية الأكبر التي يجب تنفيذها. وقد عمل الفريق على التنسيق بين الخارجية الأميركية والجيش الأميركي، وأخذ على عاتقه وضع السياسة في المقدمة، ثم الالتفات إلى متطلبات تنمية الاقتصاد، وتطوير قدرات الحكومة، وعملية نقل المعلومات بصورة أكثر دقة وأوسع شمولاً.

لكن العراقيين كانوا خارج هذه الخطة والتحركات، وكانوا لا يمتلكون أدنى فكرة عما يجري بهدف تطوير عملهم. كان هذا الفريق يفترض في نفسه أنه على علم بما يريده العراقيون، ويفترض أيضاً في نفسه بأنه يعرف الأفضل لهم، وستكون النتائج بالضبط مثلما يرغب به العراقيون أيضاً.

وفي مطلع نيسان من عام 2007، اصطحب الجنرال أوديرنو السفير كروكر في جولة ببغداد. وطرنا إلى قاعدة الصقر (جنوب العاصمة) لتتلقى إيجازاً من العميد ستيف مايكل، الذي كنت قد عملت معه ضمن فريق الجنرال وارد في أورشليم القدس. كان من المفرح أن أراه مجدداً ؛ كان متمكناً ويحب عمله، لكن زيارتنا تصادفت مع فقدانه لاثنين من جنوده في الليلة الماضية، وكان ذلك قاسياً عليه.

بعد ذلك أخذنا عربات الهامفي واتجهنا إلى حي الدّورة جنوب بغداد. كانت فرصة حسنة للسفير كروكر كي يرى بنفسه أحد الأحياء وقد تمكّنت قوات التحالف من تأمينه والسيطرة عليه. وزرنا المباني الحكومية التي كانت محاطة بالدعائم الكونكريتية لحمايتها، كما غُطيت

بالأغطية المشبكة التي تمنع القناصة من استهداف من في داخلها. ورأى السفير الجنود الأميركيين وهم يتشرون في الأسواق والأزقة. كان السوق الشعبي مُحاطاً بالدعائم الكونكريتية أيضاً ومسيطر عليه بمدخل محددة، كي تجعل من الصعب على تنظيم القاعدة استهدافه بالانتحاريين، كما سيمنع هذا الإجراء عناصر جيش المهدي من الهيمنة على المكان وترحيل السكان السنة.

كان الجنود يتندرون فيما بينهم حول عدد الدعائم الكونكريتية التي جرى نشرها، وكانوا يقولون إن عملية موجة زيادة عديد القوات الأميركية في العراق قد صاحبته «موجة» أخرى من جيوش الإسمنت تفوق الجنود عدداً.

بعد ذلك خرجنا بجولة راجلة في السوق، كان كروكر يحثي الناس ويسألهم عن أحوال العمل والتجارة ورواجها. أحد أصحاب المحلات أبدى تدمره من كثرة نشر الدعائم الكونكريتية وأنها تمنعه من عرض بضائعه، فسأله كروكر: «ألا تخاف من التفجيرات؟». فأجابه صاحب المحل: «أخاف أكثر من أن أفقد زبائني ولا أبيع شيئاً!». بعد ذلك جلسنا في مقهى وشربنا الشاي العربي المُحبب والحلو المذاق.

ودأب الجنرال أوديرنو على إجراء زيارات لمعسكر التاجي (20 ميلاً إلى الشمال من بغداد). في ذلك المعسكر كانت الوحدات القادمة تحط رحالها، ويجري تدريبها على طرق مكافحة التمرد. أتذكر أنه تحدث مرة عن الأوضاع العامة قائلاً: «لا يهم ما نفعله، الأهم هو أن نكون أخلاقياً على الطريق الصحيح. ربما ستواجهنا أشياء، لو فعلناها فستقودنا إلى الغضب. لكن أبداً علينا ألا نسمح للجنود بفقدان البوصلة المعنوية والأخلاقية». ذلك كان جزءاً من حديثه للضباط القادمين مع الوحدات

الجديدة. كان يحثهم باستمرار على اتباع التعليمات والسياقات العسكرية: «السياقات تنقذ الأرواح، ابتدئ من الصباح الباكر واتبع التعليمات والسياقات، فبدونها ستنهار المنظومة العسكرية، وستدهور الأمور وستجد أن الحوادث يزداد وقوعها».

يرافق الجنرال أوديرنو في كل تجواله شخصية خاصة، تحولت بمرور الوقت إلى أسطورة بين أفراد الجيش الأميركي. إنه رئيس العرفاء سيوتولا. كان يجوب العراق طويلاً وعرضاً في عربة الهامفي ويدقق في كل شيء يتعلّق بالجنود. يتحدث إليهم، ويرفع الروح المعنوية بطريقة متميزة. ويتأكد من اتباع السياقات العسكرية بحذافيرها.

كان سيوتولا يحث الجنود على ارتداء النظارات الواقية في كل الأوقات، كان يصيح بهم: «هل تحبّون النظر إلى صدور النساء؟»، فيأتيه الرد الجماعي: «نعم عريفي!»، فيجيبهم: «إذن ارتدوا النظارات الواقية، فتحافظوا على عيونكم وتعودوا بها سليمة إلى دياركم». لكنّه كان يشدد على أن تكون نظارات الوقاية نظيفة، خاصة حين تتعاملون مع العراقيين. فالأفضل أن يروا أعينكم أثناء الكلام معكم. «العيون هي مفاتيح الأرواح، أريدكم أن تصافحوهم بحرارة، وترحبون بهم وتنظرون إلى أعينهم بثقة، يوجد في العراق الكثير من الناس الطيبين، ومع هذا، يتوجّب عليكم الاستعداد لإطلاق النار».

ولجعل الجنود يواظبون على ارتداء القفازات أثناء الجولات الميدانية، كان يسألهم: «هل تحبّون أن تتحسسوا بأيديكم صدور النساء؟»، فيأتيه الرد العاصف من الجميع: «نعم عريفي!». فيجيبهم بسرعة: «إذن ارتدوا القفازات، فلا تحترق راحة أيديكم أو تصيبها الخدوش. فلا توجد امرأة في العالم ترغب بأن تتحسس صدرها يدّ خشنة أو متقرّحة».

ولاحظ رئيس العرفاء سيوتولا أنني لا أرتدي القفازات، فناولني زوجاً وأنا أركب المروحية فارتديتها بسرعة قبل أن يُسمعي شرحاً لأجزاء جسد الرجل التي لن أكون قادرة على تحسسها إن كانت راحة يدي متقرحة.

كانت الرحلات والجولات تسعدني بصحبة الجنرال أوديرنو ورئيس العرفاء سيوتولا، ونشأت بيننا علاقة دافئة نحن الثلاثة، أساسها هي احترام مهمة كل واحد منّا. كنّا نتبادل الحديث عن الأوضاع العامة مع الجنرال أوديرنو بينما يُنصت لنا رئيس العرفاء ويحاول أن يترجم ما نقول إلى أوامر تعطى للجنود. ودأب في كل الأحوال على إسماعنا حكايات اكتشفها خلال جولاته الميدانية التفتيشية. مرّة التفت لي وقال: «حينما يتكلم القائد العام ألحظ شيئاً مّني في كلامه، وشيئاً منك. أليس هذا عظيماً؟».

وتوجهنا إلى محافظة الأنبار، المحافظة الشاسعة التي تشكل الجزء الغربي من العراق. وهناك تمكنت العشائر المحليّة من قلب المعادلة وأصبحت تطارد تنظيم القاعدة.

وقبل أن نغادر القاعدة، يتوجب على قادة الرتل الآلي الاجتماع والإنصات للإيجاز الأمني الذي يجب أن يطلعوا عليه قبل التحرك. ومن ملاحظات الإيجاز كانت التعليمات التي تشرح أين موقع الوحدات الطبية، وما يجب فعله إذا وقع هجوم. وإذا حدث وأصيب إحدى عربات الهامفي، ولم يتمكن الجنود من فتح بابها فعليهم أن يرفسوا الشبابيك ويتسلّقوا للخروج منها. وهنا رفعت حاجبي تعجباً ونظرت إلى الجنرال أوديرنو، فكتّم ضحكته وسكت وأشاح بوجهه بعيداً عني، فلم تكن هناك أي فرصة له للخروج من شباك عربة هامفي نظراً لحجمه الكبير.

كنا نشق طريقنا في الرمادي ونمرّ على المباني التي تعرّضت للقصف، وأرى الجدران التي ملأتها ثقوب الرصاصات. ومع وجود الدعامات الكونكريتية في كل مكان وتحيط بها الأسلاك الشائكة ملأني شعور بالاستغراب وأنا كنت في مكان ليس مكاني على الإطلاق. كان أحد الشعارات على الجدران «عاش المجاهدون»، لكن لم يكن هناك في الشوارع أحد ليعيش فعلياً. ثم وصلنا إلى مركز القيادة المشتركة وتعرّفنا على قائد الكتيبة القتالية من مشاة البحرية هناك، كما تم تقديم الضابط العراقي المسؤول عن الشرطة المحلية هناك لنا. وسنحت لي الفرصة أن أحادث الجنود العراقيين، لم يكن أيّاً منهم من أهل الرمادي، وقالوا إن كل العوائل قد نزحت من منازلها بسبب مقاتلي تنظيم القاعدة.

وحين انتقلنا إلى موضع قتالي آخر قرب مدينة الفلوجة، لاحظت أن كل عربة عسكرية عراقية نمرّ بها فإنها تتوقف تماماً عن الحركة، لاحقاً فسر لي رئيس العرفاء سيوتولا هذا الإجراء؛ إنهم يخشون التعرّض لنيران القوات الأميركية بالخطأ، حيث يصدف كثيراً أن يظنّ الجنود الأميركيون أن عربات الشرطة العراقية ستهاجمهم فيطلقون النار عن طريق الخطأ، ولهذا فقد اتبع العراقيون هذا الإجراء تفادياً لإطلاق النار العرضي من قبل الأميركيين. وسمعت أن بعض الدوريات الأميركية كانت تقذف كرات البيسبول على الدوريات العراقية كي تطلب منها الابتعاد، لذلك جرى وضع لافتة على آخر عربة من كل قافلة أو دورية أميركية، تطلب الابتعاد بمسافة 50 متراً، أو إن من يقترب أقل من هذه المسافة سيتعرّض للقتل. لكن هذه اللافتة لا يمكن قراءتها إلا من مسافة 20 متراً.

كانت تلك الإجراءات لا تعمل على تقريبنا أبداً من المحليين أو المجندين العراقيين. كان من الشائع جداً أن تطلق المروحيات مشاعل

حرارية كي تزغل وتعمي المقذوفات الحرارية التي قد تستهدف المروحية، لكنّ معظم العراقيين كانوا يظنّون أن المروحيات إنما كانت تطلق النار وتقصّف أهدافاً داخل المدن.

ما كان التمرّد سيسمح لقوات التحالف أن تتحرك بحريّتها بين السكّان. وفي الخامس من آذار استهدفت عبوة ناسفة كبيرة شارع المتنبي (شاعر عربي شهير عاش في القرن العاشر الميلادي)، وهو سوق الكتب الرئيس في بغداد، ومقصد المثقفين العراقيين، بل هو روح الثقافة العراقية. سمعت أحد رواد الشارع يصيح «إنهم يبتغون قتل كل شيء، حتى الكتب». تبع ذلك التفجير بيومين مقتل ما يقرب من مئة من حجاج كربلاء الذين كانوا يحيون مناسبة دينية مهمة للشيعة وهي أربعينية الإمام الحسين (الحسين الشهيد)، ومن المهم أن نتذكر بأن هذه المناسبة كانت من ضمن المناسبات التي يمنع الاحتفال بها في عهد صدام.

ثم واجهت خطّة فرض القانون تحدياً آخر أشد وطأة، ففي 12 نيسان تفجّرت شاحنة على جسر الصرافية على نهر دجلة وسط بغداد، وقتل 10 مدنيين وسقطت عدّة سيارات في الماء، كما انهار جزء كبير من الجسر. كان الجسر قد شيّد من قبل البريطانيين في الأربعينيات من القرن الماضي، وكان يعدّ معلماً مهماً من معالم بغداد. كان جسراً مزدحماً جداً يربط بين حيي الوزيرية والعطيفية وسط العاصمة. وفي اليوم نفسه وعند موعد تقديم طعام الغداء، فجّر انتحاري نفسه في كافيتيريا مجلس النواب. وقتل الهجوم برلمانياً وجرح عشرين شخصاً آخرين.

وحين ذهب الجنرال أوديرنو للقاء وزير الدفاع العراقي عبد القادر العبيدي وجده محبطاً ويشعر بأسفٍ كبير. لقد كان يخشى أن تعود أيادي التمرّد وتُفشّل خُطّة فرض القانون كما أفشلت باقي الإجراءات الأمنية السابقة.

كان تأثير هذه الهجمات كبيراً من الناحية السايكولوجية على الرأي العام، لكن الجنرال أوديرنو رفض نبرة التشاؤم هذه، وأكد له بأننا لن نهزم. في شهر نيسان من ذلك العام فقدت قوات التحالف 117 قتيلًا، وفي كل مكان كنا نذهب إليه للاجتماع أو اللقاء، فقد كان الرائد ويلسون يدخل علينا ويمرر ورقة للجنرال يُعلمه فيها بأن هجومًا قد حدث، ويخبره بأعداد القتلى والإصابات وموقع الهجوم. لقد كان وقتاً عصياً للغاية، فقد كانت خطته التي أقرّها والتي زجّ القوات بها، وها هو يستلم خبر مقتلهم بالعشرات.

وتلقى كبار الضباط أيضاً نصيبهم من الإصابات، فقد تلقينا نبأ إصابة العقيد بيلي دون فarris (Don Farris)، حين كان يتفقد أعمال بناء الجدار الكونكريتي الذي يبلغ طوله خمسة كيلومترات، والذي يفترض به أن يحمي حيّ الأعظمية السنّي شمال بغداد. كانت إصابته نتيجة ضربة قنّاص تمكّن من قنصه، وهرعنا على الفور للمستشفى. وترثت في خطواتي بينما كان الجنرال أوديرنو يحدث رئيس عرفاء اللواء الذي يقوده العقيد فarris. كانوا قد جلبوه بسرعة واندفاعاً سريعة خشية أن يموت جرّاء النزيف. وتم نقل العقيد فarris إلى الولايات المتحدة لأغراض العلاج، لكنه عاد إلى العراق بعد بضعة شهور ليتولى ثانية قيادة اللواء الذي كان تحت إمرته.

وفي يوم 7 أيار، وبينما كان المقدّم كريغ غادسون⁽¹⁾ عائداً من مراسم تأبين اثنين من جنود كتيبته، انفجرت عبوة ناسفة وضعت بجانب الطريق

(1) المقدّم (العقيد لاحقاً) غريغوري. د. غادسون؛ أصبح فيما بعد أول عسكري أميركي يجري تركيب أطراف ذكيّة له تمكّنه من المشي، وتقلل اعتماده على العكازات أو على الآخرين. وقد أصرّ على العودة إلى الخدمة في الجيش وتولى مهام لجنة رعاية مصابي الحرب في الجيش الأميركي لستين لاحقين. وشارك كضيف شرف في بضعة أفلام سينمائية روائية عن الحرب أنتجتها هوليوود - المترجم.

أسفل عربته. وأدى الهجوم إلى بتر ساقي المقدّم والى إصابة شديده أخرى في ذراعه.

وفي إحدى الجولات بالطائرة المروحية فوق بغداد، شاهد الجنرال أوديرنو عربة عسكرية تحترق فأمر الطيار بأن يهبط في وسط الشارع قرب العربة. وترجّل على الفور من الطائرة مصحوباً ببضعة جنود من حرّاسه. وبقيت أنا في الطائرة مع الطيار فقط. وبعد لحظات تجمّع حولنا المئات من العراقيين، وأخذوا بالاقتراب شيئاً فشيئاً من الطائرة. وسمعت الطيار يخاطب الآخرين عبر الحاكية بصيحات: «باتجاه الساعة الثالثة، باتجاه الساعة الثالثة... إنهم قادمون من الزقاق!»، فالتفت يميناً لأرى ما كان يجري، ثم أخذ يصيح: «باتجاه الساعة التاسعة، باتجاه الساعة التاسعة...». وازدت في توتر، وبدأ أن قلبي سيخرج من مكانه، في الحقيقة لم أكن أعرف إن كنّا نتواجد في منطقة أمينة أم لا. وقد تخيلت مشهد تجمع الناس المحليين حول المروحية في فيلم (بلاك هوك داون) في الصومال، فازداد شعوري بالرعب. كنت أفضل أن أكون على الأرض مع الجنرال على أن أكون محتجزة في طائرة مروحية ومحاطة بمحليين يُبدون علامات العداء. وفي النهاية ظهر الجنرال أوديرنو بعد أن اهتمّت وحدة أرضية أخرى بالعربة التي تعرّضت للهجوم. وحين صعد إلى المروحية وانطلقنا قلت له: «سيدي، يجب ألا تتركني وحدي مرّة ثانية»، لكنه لم يجب بكلمة، وانطلقت الطائرة.

أحسست أن مقتل كل جندي إنما يزيد من عزيمة الجنرال أوديرنو، وكأنه يغدو أكثر إصراراً على ألا تذهب تضحياتهم سدى. كنّا نمضي معظم أوقات النهار في جولة على الوحدات العسكرية المتواجدة في كل مكان. كان الجنرال يقابل الجنود ويصافحهم ويمنحهم المكافآت،

كما يمنح وسام القلب القرمزي لأولئك الذين أصيبوا في الميدان. كان وجوده يرفع من الروح المعنوية للقطعات، ويحسن نفسياتهم بكلماته التي يخاطبهم بها؛ «تأكدوا أننا سننتصر، إن وجودكم يحدث فرقاً مهماً، وكل نجاح تكتيكي تنفذونه هنا فإنه سيخدم نجاح استراتيجيتنا الأكبر»، كان يحدثهم بما يؤمن به، وكان يبدو مؤمناً جداً بتحقيق النصر.

لكنني كنت أشعر بالشكوك وهي تمزقني. وحين أنظر في وجوه الشباب وهم يتحلّقون حول الجنرال أوديرنو، كنت أتساءل هل إن وجودهم ودورياتهم المستمرة، فضلاً عن تضحياتهم، هل يمكن لها أن توقف دولاب العنف الدائر في العراق؟. في الحقيقة كنت أخشى أن ما يصنعونه إنما سيتسبب في النهاية في تصعيد العنف بدلاً من إخماده. إن الأمر لا يتعلّق بزيادة عديد القوات في العراق قدر تعلّقه بتغيير التكتيكات المتبعة. وهل سينظر لنا العراقيون على أننا قوات أتت لحمايتهم بدلاً من قتلهم؟. أما فيما يخصّ الجنرال أوديرنو، وحتى عندما كنّا وحدنا، فلم يحدث ولا مرّة أن توقع الفشل. لقد أوجب على نفسه وعلى قواته أن تنجح الخطة، رغم شكواه من عظم المسؤولية التي تتعلّق بأرواح الجنود على عاتقه، لكنه لم يفترض أبداً وجود احتمال ثانٍ سوى النجاح.

الفصل العاشر

الصحوّة لأجل المصالحة

«لا يمكن لك أن تبدد أيّ فرصة متاحة للتخلّص من التمرد»

الجنرال بيطرايوس

* * *

أخيراً، أصبح مفهوماً لدى الجيش الأميركي بأنه لا يمكن له أن يحقق الانتصار بالقوة وحدها. وأن الاستقرار الدائم سيتحقق فقط إذا قرر العراقيون أن يكفوا عن القتال. وبالعودة إلى تجربة محافظة الأنبار في عام 2007، حين انقلبت العشائر، بقيادة الشيخ عبد الستار أبو ريشة⁽¹⁾ على القاعدة، وتطلعت إلى تلقي الدعم من القوّات الأميركية.

لقد فتحت «الصحوة» أملاً جديداً، وكشفت فرصة ممكنة للعمل مع العراقيين الذين سبق لهم أن قاتلونا. ومن بين كل ضباط الاستخبارات الذين كانوا بإمرة الجنرال أوديرنو، كانت واحدة منهم قد تميّزت بشكل ملفت للنظر. إنها المُقدّم نيكى بروكس (Brooks)، كانت امرأة طويلة، بوجه نحيف فيه بعض الندب، وكان وجهها يبرز أكثر مع تصفيفة شعرها المشدود إلى الخلف. لقد كانت تتكلم بسرعة فائقة، مما يعكس طريقتها في التفكير. وكانت ذات معرفة موسوعية بالجماعات المسلحة، وبشكل خاص الشيعة منها. إن ما يميز بروكس عن باقي ضباط الاستخبارات في الوحدات العاملة بالعراق هو مستوى وعيها المتقدم بالدوافع التي تحرّك الجماعات المسلحة في العراق. خلال جلسات الإيجاز المتتالية، كانت تقدم للجنرال أوديرنو يوماً بعد آخر مرتسماً يزداد وضوحاً عن الجماعات المسلحة العاملة على الأرض، كما حددت القيادات لكل جماعة، وبمن ترتبط كل جماعة على أفراد. وتوفرت لها مساعدة مهمة من قبل امرأتين أخريين هما؛ الرائد كيتي دايفسون (Davison) والمقدم مونيكا ميلر (Miller). وكن جميعهن يعملن تحت إمرة العقيد جيري تاي (Tait). وكنا جميعنا نشعر بنوع من الإخوائية كوننا من النساء، وندعم بعضنا خلال عرض الإيجازات التي تحتوي أفكاراً شخصية.

(1) قتل في 13 أيلول 2007 (35 سنة)، بواسطة قبيلة زرعها ابن عمّه وهو أحد حراسه الشخصيين، وقد تبّنى تنظيم القاعدة عملية مقتله - المترجم.

رغم أنني لا أعرف سوى القليل عن حياتهم خارج العسكرية. وضع الجنرال أوديرنو تصورات عن الجماعات المسلحة بأنها تساهم في رفع مستويات الحشد الطائفي؛ كانت الجماعات السنية تعمل من البلدات المحيطة بالعاصمة وداخل العاصمة نفسها. بينما تعمل الجماعات الشيعية على تفرغ مناطق محددة من بغداد من سكانها السنة. وتتصرف بشكل يشابه عمل وحدات المافيا، كما تموّل نفسها عبر الهيمنة على محطات الوقود في المدينة.

لكن السؤال الذي كان مطروحاً هو: كيف يتوجب علينا أن نتعامل مع هؤلاء المقاتلين؟.

كانت عمليات الاعتقال الجماعية قد جلبت العديد من العراقيين الأبرياء إلى معتقلاتنا، والأشهر منها بسوء السمعة كان معتقل بوكا (Bucca) قرب مدينة البصرة في الجنوب. والعديد منهم بدأ في سلوك مسلك متشدد نتيجة عدم علمه بالأسباب التي أدّت إلى اعتقاله، كما كان معظمهم لا يدركون المدة التي يتعيّن عليهم البقاء فيها في المعتقل قبل أن يُفرج عنهم.

وأنيطت مهمة صعبة بالجنرال غريم لامب (Lamb) وهي استكشاف إمكانية فتح منفذ للتواصل مع المتمرّدين. كان الجنرال لامب هو النائب البريطاني للجنرال بيترايوس. وكانت مهمة شاقة وليست بالسهلة، حيث إنها تعني التعامل مع أناس سبق لهم أن اشتركوا في قتل جنودنا. كان الجنرال لامبو (كما يعرف باسم الشهرة)، قد سبق له وأن خدم في القوات الخاصة التابعة للقوة الجوية الملكية، كما تعامل مع المشاكل العسكرية في إيرلندا، وكان بعيداً جداً عن أن يُتهم بالتعامل اللطيف مع الإرهابيين. بالنسبة للضباط الكبار الذين أشاروا بأن على قوات التحالف ألا تتعاطى

مع أولئك الذين تتلطح أيديهم بدماء رفاقنا، هؤلاء ردّ عليهم الجنرال لامبو بأن يديه تحملان بالأصل الكثير من الدماء.

كل لقاء أو احتكاك بالجنرال لامبو كان حدثاً فريداً من نوعه ولا يمكن أن ينسى. كان لامبو خارجاً من باب قصر الفاو فالتقى بالمرجم مايك جويدي الذي انتقل مؤخراً من المنطقة الخضراء إلى معسكر فيكتوري، وسأله: «كيف حالك يا مايك؟»، وصافحه.

فأجابه مايك: «أنا بخير، لكنني لم أحصل لنفسي على سيارة بعد، لكن المقصورة التي خصصت لي هنا أفضل من تلك التي كانت في المنطقة الخضراء». وهنا قاطعه الجنرال لامبو بجفاء قائلاً:

«هل أبدولك مثل أحرق يهتم لأمورك الشخصية؟».

حين حدثني مايك بطريقة لامبو في الردّ عليه، كانت عيناه تدمع نتيجة إحساسه بالإهانة غير المسبوقة. في الحقيقة كان هناك جنرال واحد اسمه لامبو وهذا ما هو متوقع منه.

ما كان الجنرال لامبو ليتمكن من البقاء والاستمرار والتعايش مع ثقافة الجيش الأميركي الساعية إلى التصحيح السياسي. لقد كنت أستلم منه على الدوام رسائل بريدية من نوع متطرف.

وكل ستة أسابيع، كان يعلن أنه سيتوجه في إجازة كي «يصفع زوجته ويعود»، بالتأكيد لم يكن مسموحاً له سوى بإجازة لأسبوع واحد خلال كل جولة تستغرق خمسة عشر شهراً. مثل باقي الأميركيين. وبمشيته المتبختر، وأكمامه المطوية إلى الأعلى، كان الجنرال لامبو يبدو كسفاح في أرض المعركة. لكنني أدركت أن هذا كله كان مجرد تمثيل، مجرد فعل مسرحي. ليجعل من الأميركيين يقدمون على مخاطرات

محسوبة، ويستجيبون للحاجة إلى تغيير مقارباتهم للتحديات الرئيسة. وبهذه الشخصية الطاغية، تمكن الجنرال لامبو من تحقيق أهدافه.

أصبحنا الآن نسمي عملية كف المتمردين عن القتال باسم «المصالحة»، وقد استغل الجنرال لامبو إقامته في منزل مود بالمنطقة الخضراء كي يتحرك على هذا الأساس. ودعا الجنرال أوديرنو للعشاء، ودعا أيضاً الجنرال ديمبسي (Dwmpsey) الذي كان مسؤولاً عن تدريب وتسليح الجيش العراقي الجديد، كما دعا الجنرال ستان ماك كريستال المسؤول عن القوات الخاصة. لقد كان يشملني دائماً بدعواته وحتى الرسائل الإلكترونية التي يرسلها. ولأنه كان يحظى بكادر قليل العدد، فقد اعتقد أنني سأوفر له عوناً وأكون داعمة للأفكار التي يطرحها. كان يريد التركيز على التفريق بين أولئك الذين نرغب فيهم أن يكفوا عن القتال، في مقابل أولئك الذين لا يمكن التصالح معهم على الإطلاق. السؤال كان، كيف يمكن لنا أن نفرّق بين النوعين؟.

وبعد يومين ذهبنا إلى قاعدة بلد شمال بغداد للقاء الجنرال ماك كريستال للحديث معه حول وسائل إقناع المتمردين بالقبول بالمصالحة. كان فريق الجنرال ماك كريستال قد وضع نفسه في وسط عملية المصالحة، مقترحاً أن يكون العرض للمتمردين بالشكل التالي: «اقبل بالمصالحة أو إنك ستقتل!»، فلم يوافق الجنرال أوديرنو على هذا التكتيك. فقد كانت قواته هي التي ستحمل المواجهة والمخاطرة وعليه، فإنه كان يرى بأن المصالحة يجب أن تتم بين الإقناع والإكراه. وأن أولئك الذين يرفضون انتهاز الفرصة للمصالحة فسيجري تركهم لقوات ماك كريستال كي تتعامل معهم بعنف شديد.

وطرح الجنرال لامبو فكرة أن يجري إطلاق سراح المعتقلين الذين

يوافقون على أن يتدخلوا لإقناع المتمردين بالكفّ عن القتال. بالتأكيد كان هذا الخيار ينطوي على مخاطرة كبيرة، فكيف يمكن لنا أن نقيّم بأننا بالفعل قد قلّبنا حال المتمردين؟.

لقد كان الجنرال أوديرنو منذهلاً من فكرة إطلاق سراح معتقلين شاركوا بالفعل في قتل جنود أميركيين، ويخشى أن يؤدي ذلك إلى المزيد من عمليات القتل التي تستهدف قواته.

كما خشي أن يفهم الجنود بأن ما نفعله هو برنامج (للقبض وإطلاق السراح لاحقاً)، وهذا سيؤدي بهم إلى تفضيل قتلهم في الميدان بدلاً من القبض عليهم كي يطلق سراحهم لاحقاً، وقال في هذا الشأن: «لم يسبق لي أن قابلت أحداً في العراق تمكّن من الإيفاء بعهده لاحقاً، وأجد من الصعب جداً إطلاق سراح عراقيين شاركوا بالفعل في قتل جنود أميركيين». ثم انتقلت للعمل مع طاقم الجنرال لامبو لغرض شرح مخاوف الجنرال أوديرنو. كان الفرق في مفاهيم الجنرالين، أوديرنو ولامبو يكمن في وجهة نظر كل منهما لرواية القصة نفسها. كان أوديرنو يبحث عن استراتيجية عامة وشاملة يجري معاملة المعتقلين وفقاً لها، وتعرّف خطوطنا الحمراء في إطلاق السراح للذين اشتركوا بقتل الجنود الأميركيين. أما لامبو فكان يرى في إطلاق السراح وسيلة لبناء الثقة وتعزيز خطوة المصالحة.

رغب أوديرنو في أن يرى تراجعاً في مستوى العنف، وتشيداً لمراكز الأمن المشتركة مع العراقيين قبل أن يطلق سراح أيّ معتقل. وفي رسائله الإلكترونية، رجوت فريق الجنرال لامبو أن يقدموا مقترحهم في ظل التكامل مع الجهود الأخرى، بدلاً من عرضه وكأنه مبادرة بريطانية مستقلة. وكتبت لهم: «هذه المقترحات تبدو استعراضاً لأفكار رجل

واحد هو الجنرال لامبو، لا تجعلوها تبدو وكأنها مقترحات بريطانية (ارفعوا على سبيل المثال الراية البريطانية عن المغلف)».

فأجابني الجنرال لامبو: «إيما، كيف لك أن تقترحي أن نحذف الراية البريطانية عن عناوين عملنا؟. هذا يثبت أنك عملت وقتاً طويلاً مع هؤلاء الأميركيين. لكنني أعلم مدى تحسس الجنس الناعم من أي رسالة مزعجة، فإننا سنرفع العلامات المزعجة، لكن لتتذكر أنها راية بريطانيا العظمى، حيث لا تغيب الشمس عن أراضيها».

وأجبت: «عزيزي الجنرال لامبو، أعرف مدى صعوبة تقبلك للحقائق، لكن بريطانيا العظمى قد خسرت بالفعل إمبراطوريتها، مثلما خسرت صفة (العظمى) قبل عدة أعوام. ويجب أن نتحلى بالذكاء والفتنة، ونحكم العالم عن طريق أبناء عمومتنا، ونعتنق راية النجوم والأشرطة الحمراء كما لو أنها رايتنا نحن».

وفي وليمة أقامها الجنرال لامبو، كان الحضور من كبار الضباط البريطانيين، إضافة إلى الجنرال بيترايوس والجنرال أوديرنو. جلس أمامي على المائدة الجنرال ماك كريستال، وكانت المرة الأولى التي يتاح لي تبادل الحوار بشكل مفتوح معه. لقد اكتشفت فيه شخصاً متعلماً ومثقفاً جداً بالنسبة لرجل يمتهن صيد البشر. وسألني متعجباً كيف أنني لا أؤمن بأهداف الحرب الكونية على الإرهاب بينما أعمل هنا مع الجيش الأميركي في حربه ضد الإرهاب. فأجبت: «بأنني أنتقد فعل الحرب بالأصل، وكان بإمكانني البقاء كناقدة من على كرسي مريح في بريطانيا، لكنني فضّلت أن أتابع تفاصيل التأثير اليومي للحرب على حياة العراقيين، والعمل على تحسين مخرجات هذه الحرب. ولا أنكر أن عملي مع العسكر قد بدأ يغير في أشياء كثيرة، لكن على المرء أن يستعد لتغيير أفكاره إن كان ينوي إقناع الآخرين».

وتوجّهنا بعد ذلك إلى تكريت، وقصدنا مبنى المحافظة بعربات الهامفي. وعند مدخل المبنى ترجّلنا من العربات وخلعت الدرع الواقي فإذا بأحدهم يصرخ في وجهي ويطلب منّي أن أعيد ارتدائه، لأن البوابة يجري استهدافها من قبل القناصة. في مبنى المحافظة، اجتمعنا بالمحافظ، ونائبه، والمفتي، بالإضافة إلى الشيخ جمال الدبان وهو أحد الشيوخ المهمّين في مجتمع تكريت. الشيخ جمال كان قد اعتقل من قبل القوات الأميركية العام الماضي تحت ظرف اشتباه بالهويّة.

وخلال اللقاء أشار المفتي إلى أن عدداً كبيراً من مقاتلي المجموعات المسلحة يمكن أن نجلبهم إلى الجانب السياسي ويكفّوا عن القتال فيما لو توفّرت لهم فرص للعمل. كما طلب أن يعاد النظر في قانون اجتثاث البعث الذي رأى فيه أنه يوفر الرجال للتنظيمات المسلحة، لكنّه استثنى تنظيم القاعدة بالقول إن هؤلاء غير مشمولين بهذه المقترحات. ثم سلّمنا ورقة تضمنت هذه المطالب. ادعى المفتي بأنّه لا يعرف جميع الفصائل المسلحة لكنه التقى ببعضهم وكانت هذه هي مطالبهم. وحين خرجنا قلت للجنرال أوديرنو بأننا استلمنا للتو مطالب محددة من المجموعات المسلحة.

وعلى الجدران الخارجية، قرأت شعاراتٍ تمجّد صداماً وتعدّه شهيداً. في الطائرة أخبرت الجنرال أوديرنو بأن هناك من يعدّ صداماً شهيداً في هذه المدينة. فقال لي: لقد كان مجرد سفاح وقتل العراقيين بعشرات الآلاف.

فقلت له: «سيدي، لا يمكن لنا أن نفصل الآن فيمن قتل أكثر من العراقيين، أنت أم صدام!».

فرمقني بنظرة بلا مشاعر، وقال للطيار: «أيها الطيّار، افتح باب الطائرة وارمها خارجاً!».

وبمناسبة عيد القديس باتريك، دعانا الجنرال لامبو إلى منزل مود. وجلسنا في الحديقة نحتسي الشاي بينما كانت موسيقى القرب تعزف ألحاناً، فيما أخذ الجنرال أوديرنو يتمدد ويدخن سيكاراً. وخلال العشاء، أخبرنا بأن التواصل مع الصدرين لم يكن يسير على ما يرام، فقد «ضربوا (سكيني)، وأصيب المسؤول البلدي لضاحية مدينة الصدر بجروح بالغة». كان الجنرال لامبو غير قادر على لفظ الأسماء العربية، لذلك كان يتحدث عنها بالرموز أو الألقاب التي يختارها هو. وكان دائم الشكوى من أن طاقمه ليس كبيراً، مجرد، أربعة أو خمسة أشخاص يعملون معه.

وبعد يومين، كان الجنرال أوديرنو قد استنفر مكتبه بحثاً عني، فقد وصلته إشارة إلى أن قوات التحالف قد اعتقلت للتو ليث الخزعلي، شقيق قيس الخزعلي في البصرة. كان قيس الخزعلي على قائمة الذين يرغب رئيس الوزراء بعدم المساس بهم. لكننا اعتقلناه إلى أجل غير مسمى، ولم تكن هناك نية للإفراج عنه. كان المالكي يرتبط بعلاقة شخصية مع قيس الخزعلي. وقد كان يروج له أمامنا على أنه بديل عن مقتدى الصدر، وأنه في الحقيقة يعمل بالضد من خطط الإيرانيين في العراق. كما ادعى المالكي مراراً بأن جماعة قيس الخزعلي في الحقيقة لا تستهدف قوات التحالف.

كانت لدينا قرائن تدفعنا للشك بأن الخزعلي وأخاه يقفان خلف الهجوم الذي حصل في كربلاء وأدى إلى مقتل خمسة من الجنود الأميركيين، فضلاً عن مقتل عراقيين. ومضت أسابيع قبل أن تنكشف لنا كل جهات التنظيم الذي يقوده الخزعلي - عصابات أهل الحق - وانكشفت معه كل الخيوط التي تربطه بإيران، وكان أحد المعتقلين

قد استمر لشهر كامل بالادعاء بأنه لا يسمع وأبكم، حتى إنهم لقبوه باسم (حميد الأطرش)، ليتبين لنا بعد ذلك أنه ليس سوى، علي موسى دقدوق⁽¹⁾، القيادي في حزب الله اللبناني.

وخلال تنقلنا في أنحاء العراق كافة، بدأ يتضح لنا جلياً أن هناك تغييراً في موقف العراقيين السنة. وصار الذين قاتلونا في السابق يأتون إلينا من أجل التحالف ومحاربة القاعدة. لقد أثّرت عملية الموجة وزيادة عدد القوات الأميركية في العراق سايكولوجياً في العراقيين السنة، وصار معلوماً لديهم أنهم لا يمكن لهم أن يهزموا الولايات المتحدة عسكرياً مهما توفر لهم من دعم بالسلاح أو غيره. وبدلاً من ذلك، طلبوا الحماية من تأثيرات الميليشيات الشيعية، كما طلبوا المساعدة للتخلص من هيمنة ما يرونه على أنه التهديد الأكبر لهم؛ إيران.

كان الفعل الذي بدأه الشيخ ستار أبو ريشة يشبه ظاهرة انقلابية حدثت بضغطة زر. لقد جلب معه قبيلة بأكملها في لحظة واحدة، وفي بعض الأماكن جلب الشيوخ معهم مئات الرجال الذين كانوا يعرضون التعاون بدلاً من العداء. وكانت أولى حالات التواصل تلك التي أرساها العقيد شين ماك فارلند (McFarland)، وتبعه في ذلك عدد من الضباط المنتشرين في الأنبار.

(1) علي موسى دقدوق (الحاج ساجد). جهادي لبناني منتم لحزب الله اللبناني، وألقي القبض عليه في آذار 2007 في العراق. وكان هو العقل المدبر لعملية خطف جنود أميركيين انتهت بقتلهم وقتل جنود عراقيين أيضاً. وربطت القوات الأميركية بينه وبين عدد من الهجمات التي طالت وحدات أميركية في العراق. وكان مشرفاً ومدرباً لعناصر من المجموعات الخاصة التي تورطت أيضاً بمقتل ضباط عراقيين في القوات الأمنية العراقية. أفرجت عنه محكمة عراقية في تشرين ثاني من عام 2012 بعد أن كان محل نزاع مع واشنطن التي أرادت الاحتفاظ به - المترجم.

كانت (الصحوة)، من وجهة النظر الأميركية عملية إنقاذ لا تقدر بثمن، مجموعة من المتمرّدين يقفون إلى جانبنا لأجل قتال مجموعة أخرى من المتمرّدين. وصار الآلاف منهم على القوائم الأميركية لدفع الرواتب. لكن أهميّة خاصة حازتها منطقة (أبو غريب)، القرية جداً من العاصمة. وهي بوابة محافظة الأنبار. وتشهد نزاعاً شديداً للهيمنة عليها. وهناك، التقينا الشيوخ الذين سبق أن أعلنوا أن (أبو غريب) قد سقطت بيد عناصر القاعدة، لأن تصرفات الجيش العراقي، والقوات المتعددة الجنسيات كانت سيئة هناك، فالجميع يعدّون أن سكّان (أبو غريب) كلهم إرهابيون. وبالرغم من هذا، فقد ادعوا بأن مجموعة قتالية من أبنائهم بقيادة أبي عزّام⁽¹⁾ تمكنت من طرد القاعدة، حتى دون معونة القوات العراقية أو قوات التحالف. وأنهم بالفعل قد فقدوا عدداً من أبنائهم في قتال تنظيم القاعدة، وحين لمس أحد الشيوخ اهتمامنا الحقيقي لسماعهم قال بالحرف: «إننا لا نكرهكم، بل نحبكم... فقط لا نريد أن نكون تحت الاحتلال». بدا لي كلامه منطقياً جداً، وأن هؤلاء الناس بالإمكان كسبهم إلى جانبنا.

كان المقدم كورت بينكيرتون (Pinkerton)، هو قائد الكتيبة المسؤولة عن (أبو غريب). وزرناه عدداً لا يحصى من المرّات، وشرح لنا كيف بدأ بالعمل مع أبي عزّام، في البداية منحه أفضوية وأحزمة بعلامات فسفورية، كي يتمكن الجنود الأميركيون من تمييزهم حين يقيمون نقاطاً للتفتيش.

(1) ثامر زيدان خلف التميمي المعروف بأبي عزّام، كان ضابط صف في الجيش العراقي قبل عام 2003، وعمل في محافظة ديالى - قضاء بلدروز - مع المجاميع المسلحة، ثم انتقل إلى منطقة (أبو غريب) وشكل مليشيات هناك سيطرت على أراض شاسعة، ثم أصبح مستشاراً لرئيس الوزراء لشؤون الصحوات، والآن يعمل ضمن صفوف هيئة الحشد الشعبي - المترجم.

وفي المقابل، فقد حصل منهم على معلومات تفصيلية عن عناصر القاعدة وأماكن صنع العبوات الناسفة.

وفي أيار من عام 2007، زار الجنرال أوديرنو رئيس الوزراء نوري المالكي، وحاول إقناعه بقبول مجموعة المقاتلين مع أبي عزام في صفوف الجيش العراقي. وقال له: «أعرف أن من الصعب التعامل مع أولئك الذين كانوا يحملون السلاح بوجه الحكومة، لكننا الآن إزاء فرصة للمصالحة». وذكر للمالكي أن منطقة (أبو غريب) شهدت بالكاد هجمة أو هجمتين خلال فترة الثلاثين يوماً الماضية. كان المالكي يخشى أن يشكّل أبو عزام (كتيبة سنّية) داخل الجيش العراقي، فقط ليخيف الآخرين بها ويهددهم. ورأى أن أبا عزام ليس أكثر من ماهر، أو حرباء تغيّر لونها وفقاً للمصالح.

لقد كانت الحكومة العراقية تزداد حساسيتها كلما بدأنا بتسليح أي مجموعة لأجل قتال القاعدة.

ازداد الأمر وضوحاً لدى القيادات العسكرية الأميركية، بأن المالكي ودائرته الداخلية بدؤوا بالسعي إلى تخريب أي مسعى أميركي لسحب السنّة بعيداً عن التمرد، وإعاقة تجنيدهم لحماية مناطقهم الخاصة. واطلعنا على الأسوأ، وهي المخاوف من تدخل مكتب رئيس الوزراء لإعاقة بناء القوات الأمنية العراقية، والتواطؤ مع الميليشيات الشيعية بدلاً من ذلك.

وبدأ الضباط الأميركيون يرفعون تقارير سلبية عمّا يعرف بمكتب القائد العام للقوات المسلحة. كنت أخشى بأننا لو سرنا في هذا الطريق - أي في معارضة مستشاري المالكي ومخالفتهم - فإننا سنكون إزاء حزمة جديدة كلياً من المشاكل. لذلك عرضت على الجنرال أوديرنو أن أرى

ما يحصل في مكتب القائد العام للقوات المسلحة من الداخل، وأستطلع إمكانية التوصل إلى حلول وسيطة.

ومع وصول الجنرال جي.تي. ثومسن، وتوليّه منصب الضابط التنفيذي⁽¹⁾ للجنرال أوديرنو، فقد أزيح عني الكثير من الواجبات؛ من بينها كتابة التقرير اليومي الذي يرفعه إلى الجنرال بيترايوس، وأعمال يومية أخرى.

لم يكن هناك الكثير من التفاعل بين الجنرال أوديرنو وضابطه التنفيذي السابق، ولذلك فقد تركه للبقاء في معسكر فيكتوري وتمشية الأمور هناك دون أن يغادر المعسكر. وأصبح لديّ الكثير من الوقت والجهد الذي يمكن أن أدخره لإدارة بعض مقابلاتي الخاصة.

كانت أولى مقابلاتي مع د. طارق نجم، وهو كبير موظفي مكتب رئيس الوزراء، وهو إسلامي ينتمي إلى حزب الدعوة، وسبق له أن درس في مصر، وعاش لفترة من حياته في إنكلترا. في الحقيقة كنت قد التقيته سابقاً، وشكّل لي ما يشبه اللغز حينها. المهم أنني تواصلت معه، ودعاني إلى الغداء في مكتبه. حيث كانوا يطلقون اسم (البيت الأبيض) على مكتب رئيس الوزراء.

وسألته عن رأيه بالأميركيين عموماً، فأجاب بأن الناس كانوا إلى غاية السبعينيات من القرن الماضي يؤمنون بأن الأميركيين يقفون مع الحق في الديمقراطية والحرية للشعوب. لكن هذا الأمر تغير على أثر الموقف الأميركي من القضية الفلسطينية، ومساندة واشنطن لإسرائيل بشكل مطلق. وفي العراق، كان الكثيرون يرون في أميركا بأنها مساندة وداعمة لصدام ضد إيران، وتعزز هذا الموقف مع نشوء الجمهورية الإسلامية،

(1) هو منصب ضابط الركن الأقدم في السياقات العسكرية العراقية - المترجم.

وأيضاً خلال الحرب العراقية الإيرانية. لكن الأمور تغيّرت حين أسقط
الأمير كيون صداماً. الآن عاد الناس إلى الظن مرة أخرى بأن أميركا تستند
إلى موقفها القديم. ومع كل هذا القتل الذي يتعرّض له الشيعة، فهناك رأي
عام يؤمن بأن الولايات المتحدة تساند السنة على حساب الشيعة. إن قتل
الشيعة على أيدي المجاميع الإرهابية السنية يعطي الفرصة للصّدرين أن
ينتقموا، وأن يدّعوا حمايتهم للمجتمع الشيعي، لكن هؤلاء الناس (وأكد
د. طارق هذا) ليسوا سوى مجرمين وخارجين عن القانون.

وأعلنت د. طارق بأننا فقدنا خلال الأيام القليلة الماضية 11 جندياً في
العراق، 9 منهم قتلهم جيش المهدي، وكان ذلك أمراً لا يمكن قبوله أو
السكوت عنه. ورجوته أن يفهم الصدرين أن الشيعة لا يشكلون عدوّاً
لقوات التحالف، وأن يكفّوا عن القصف. وقال لي: «إن الدعم الإيراني
لجيش المهدي يهدد بتقويض سلطة الحكومة العراقية ورئيس الوزراء
على الدولة». وقال إن الصواريخ التي كانت تسقط على المنطقة الخضراء
لها تأثير نفسي كبير على سكّان بغداد؛ إذا كانت الحكومة غير قادرة على
حماية مقرّاتها الرئيسية، فكيف ستمكن من حماية المدنيين، لو كان صدام
موجوداً لأوقفها خلال ساعات»، هذا ما قاله طارق نجم يومها.

وحدثته عن احتفال أقيم مؤخراً في معسكر فيكتوري لتكريم الراحل
جيم غانت بوسام النجمة الفضية، وتكلم غانت بعاطفة كبيرة عن رفاقه
وعن العراقيين الذين رافقهم وأشرف على تدريبهم، ثم قرأت له مقطعاً
من كلمة غانت قال فيها:

«... لقد حظيت بشرف مزاملة أصدقاء عراقيين لن أعرف مثلهم أبداً،
لو كنتم تعرفون العقيد ضاحي، وهو آمر وقائد عظيم... لو كنتم تعرفون
الرائد فاضل، الذي سحبنى من عربة هامفي كانت تحترق. ولو تعرفون

النقيب قيس، أو سلام.. أو عباس، أو علي، وكلهم أصدقاء شجعان ومقاتلون أبطال. وإنني وبلا أي تردد، أضع حياتي بين أيديهم وأنا مدين لهم بها».

قلت له بعد هذا الاقتباس، لم يكن ليخطر على بال أحد أن العراقيين والأميركيين يمكن لهم أن يُنشئوا بينهم مثل هذه الروابط. ورأيت أن د. طارق قد تأثر فيما قلته، وردّ عليّ بالقول: «في الحقيقة لقد اختلطت دماء أبناء الأميركيين بدماء أبنائنا».

* * *

كانت الدكتورة باسمه الجادري⁽¹⁾ على رأس القائمة التي شخّصتها القيادة العسكرية الأميركية، والتي تضم أسماء أهم المساهمين في إذكاء العنف الطائفي.

كانت د. باسمه متديّنة شيعية في أواخر الثلاثينيات من العمر. وشغلت منصب مستشار رئيس الوزراء للشؤون الأمنية. كان التقييم الأميركي يشخّصها على أنها مؤثر طائفي يتسبب بالضرر، وعلى أنها شخصية شيطانية. لكنني قررت أن أبنّي تقييمي الشخصي لها بدلاً من تقييمات تقارير الاستخبارات، واستغرق الأمر منّا عدّة أيام لمقابلتها، حيث إنها لا تجيب على الهاتف. وذهبنا إلى مكتبها، وتطلب الأمر 30 دقيقة للدخول إلى الجزء الخارجي من مكتبها. كنّا أنا والمترجم مايك، رغم أن متسبي قوات التحالف يمكن لهم أن يدخلوا أي بناية عراقية بسهولة.

كانت في أول لقاء لنا بها تجلس إلى مائدة طويلة، وحولها مجموعة من الشيوخ. وكانت تحدثهم بنبرة أمرة، وبصوت عالٍ. الحديث كان

(1) د. باسمه لؤي حسون الساعدي، عضو مجلس النواب عن ائتلاف دولة القانون - المترجم.

يدور عن الفلوجة، ومن الواضح أنها كانت صاحبة السلطة في ذلك الاجتماع. جلسنا أنا ومايك إلى جنب مع عراقيين آخرين ننتظر دورنا. وحين انتهت، عرّفتها بنفسي وأني مستشارة الجنرال أوديرنو. ووددت أن ألاحظها فقلت إن المشتركات بيننا كثيرة، حيث إن كلتينا نساء مدنيات نعمل مع العسكر، وإن العمل مع العسكر ليس بالأمر السهل. كانت د. باسمه ترتدي الحجاب والجلباب الطويل بدلاً من العباءة الشيعية المعروفة. بالإضافة إلى الكعب العالي.

ضحكت من مقاربتني لها ودعتني للجلوس. وقالت: «بالفعل... هذه مأساة». لكن أحد الشيوخ تطفل وقال: «إن الفرق بينك وبينها هو أنها تمتلك سلطة حقيقية... فهي تحكم!».

ونقلت لها ما نقلته وسائل الإعلام عنها مؤخراً من أنها تدير فرقاً للموت، وتستهدف الضباط السنّة. كان ذلك على لسان أحد الضباط الأميركيين الذين تحدّثوا إلى مراسل صحيفة واشنطن بوست، لذلك بادرتها بنقل اعتذار الجنرال أوديرنو عن ذلك. فردّت بالقول: «لقد ظلمتني واشنطن بوست كثيراً». وقالت إنها الآن ترغب بمقابلة الجنرال أوديرنو فهو يبدو شخصاً لطيفاً للغاية، فأجبتها بابتسامة صامتة.

وفي نهاية اللقاء الذي استمر لعشرين دقيقة فقط، دعتني إلى الحضور إلى مكتبها متى ما أحببت، وأنها ستعطي تعليمات إلى الحراس بأن يسمحوا بدخولي بسرعة في المستقبل.

في اللقاء الثاني، حضر معها شخص واحد فقط هو الجنرال أبو محمد⁽¹⁾، وكان مسؤولاً عن الأمن والاستخبارات في مكتب القائد العام للقوات المسلحة.

(1) لم أتوصّل على وجه اليقين إلى الاسم الصحيح لهذا الجنرال، لكنه ضابط برتبة لواء في مكتب القائد العام للقوات المسلحة - المترجم.

كان الجنرال أبو محمد قويّ البنية وله مصافحة عنيفة، ويدخن بطريقة مفرطة. وأبدت د.باسمة سعادتها للقائي مجدداً، وتمنت أن تخرج هذه الاجتماعات بنتائج طيبة، وقالت إن الدماء الأميركية الآن تنزف سوية مع الدماء العراقية.

وشرحت لي بأنها لا تنتمي إلى حزب سياسي معيّن، وكذلك الجنرال أبو محمد، وبالتالي فليس لديهما أيّ غطاء سياسي يحميهما. وبما أنهما يعملان على ملف الأمن والمخابرات في مكتب القائد العام للقوات المسلحة، فهذا يجعلهما على تماسٍ وعُرضة لاتهامات الضباط الذين تشربوا سلوكيات النظام السابق.

ثم اشتكت من أن أغلب المستشارين الأميركيين العاملين مع الضباط العراقيين يعانون من داء (المحسوبية)، وبالتالي يستمعون لأكاذيب يرددها بعض الضباط العراقيين، ويرفعونها في تقاريرهم. ولهذا فمن الطبيعي أن تتشكل نظرة سلبية لديهم عن مكتب القائد العام للقوات المسلحة.

وسألتها عن خلفيتهما التأهيلية، فأجاب الجنرال أبو محمد متحدثاً عن خدمته خلال الحرب العراقية الإيرانية. ثم بعد عام 2003 التحق بالأمن الوطني، ولأنه لا ينتمي إلى حزب سياسي فقد دخلت الأحزاب إلى الأمن الوطني وتغيّرت الأمور وبدأ البعض يعمل لحساب إيران، وقال: «بما أنني عراقي وطني، فلم يعد لي مكان هناك، فانتقلت إلى مكتب القائد العام في 2006».

أما د.باسمة فقد وُلدت في مدينة الصدر، وكانت إحدى المتفوقات على صفّها الدراسي في جامعة الموصل حيث درست علم الإحصاء. ثم انتقلت إلى جامعة بغداد لاستكمال دراستها في الإدارة والاقتصاد.

لكنها درست أحد المواضيع الإحصائية متأثرة بدراسات البروفيسور بار شالوم من جامعة حيفا، عن دقة الصواريخ. لذلك فقد درست إحصائيات منصات الإطلاق، والصواريخ، والمقذوفات نحو الأجواء. لكن، بعد أحداث 11 أيلول، الاحتلال الأميركي لأفغانستان، استدعى صدام جميع الخبراء في هذا المجال للعمل في التصنيع العسكري وهي من بينهم. وكانت قد تخصصت في شبكات الرادار. وتمكنت من إنهاء بحثها وتقدمت لنيل درجة الدكتوراه في عام 2004.

وفي عام 2005، قرر الصديرون أن يشاركوا في العملية السياسية، وطلبوا منها (باعتبارها مقلدة لوالد مقتدى) أن تنخرط في قائمتهم ضمن الكوتا النسوية للقوائم الانتخابية. وفي الجمعية الوطنية، كانت هي المرأة الوحيدة العضو في لجنة الأمن والدفاع. وهناك التقت بنوري المالكي الذي تصفه بـ «الشجاع، والوطني، والقادر على اتخاذ القرارات».

ثم اشتكى الصديرون من أن المالكي قد أثر على انتمائها لهم، وكانت تصف المالكي بأنه «مرشدها»، وقالت عنه: «إنه قائد حقيقي،... قائد على طراز نيلسون مانديلا».

كنت أتصور أن مانديلا قد وصف القائد بأنه الشخص الذي يعرف كيف يقرر ما هو في صالح الجميع، وليس اتباع أهواء الميول الشعبية. في الحقيقة لم أجد أحداً يشاطرها هذا الرأي في المالكي.

وحين نهضت لأغادر، صاح الجنرال أبو محمد: «هذا ليس عدلاً، لقد استحوذت د. باسمه على كل اللقاء، إنها دكتاتورية!». فأجبت: «إذن، ذكر الدكتور باسمه بما حصل للدكتاتور»، فضحكت بصوت عالٍ. على الأقل خرجت من اللقاء بأن الاثنين أرادا تعريف نفسيهما لي، وأنهما يريدان أن نعجب بهما وبأهمية عملهما.

وبعد لقاءات عديدة، وشرب عشرات الأكواب من الشاي في مكتب د.باسمة، صار واضحاً لديّ أنهما يحملان شكوكاً وتخوفات من النوايا الأميركية. ولم يسبق لهما أن غادرا العراق قبل عام 2003، وهما اليوم يؤمنان بأن الولايات المتحدة لم ترغب فقط في إزاحة صدام، إنما تعمل على تحطيم العراق. هذا إذا أخذنا بنظر الاعتبار مراقبتهما للسلوك الأميركي منذ عام 2003.

حاولت أن أشرح لهما، بأن مرحلة ما بعد الحرب الباردة شهدت ظهور المحافظين الجدد في الولايات المتحدة. وهؤلاء قرروا أن يستعرضوا عضلاتهم في تقرير مصير الشرق الأوسط عبر البدء بالعراق. وكانوا يؤمنون بأن مجرد إزاحة صدام ستجلب الديمقراطية للعراق، وقد فعلوا ذلك تحت تأثير من استشارات العراقيين في المنفى. وتهيأ لهم أن وجود الديمقراطية في العراق، سيجرّ الشرق الأوسط بأكمله إلى أن يتحوّل إلى دول ديمقراطية، وبالتالي ليس لها مشاكل مع إسرائيل..

وبعد فوزه في الانتخابات، جلب الرئيس بوش المحافظين الجدد إلى الحكم. وهؤلاء صوّروا على أثر أحداث 11 أيلول، صداماً مع أسلحة الدمار الشامل على أنه تهديد محتمل للولايات المتحدة ومصالحها.

وعلى أثر غزو العراق، صار البلد من حصّة مسؤولية وزير الدفاع دونالد رامسفيلد، الذي كان يرغب بنفض يده سريعاً وتسليم العراق إلى أحمد الجلبي. ورفض تحليلات وزارة الخارجية تحت ذريعة أن الولايات المتحدة عليها ألا تتدخل في عملية (بناء أمة).

وشخصت د.باسمة إليّ بنظرها وقد ملأها التعجب: «كيف يمكن لدولة عظيمة مثل الولايات المتحدة أن تتصرف على هذا الأساس؟».

كيف يمكن للدولة التي تضع بسهولة إنساناً على القمر ألا تكون لديها خطط لمرحلة ما بعد صدام؟ هل هذا معقول؟».

كان واضحاً صعوبة إقناعها بوجود عجز أميركي في هذا المجال، لكنّها كانت سعيدة بمعرفة أن القرار الأميركي لا يستند إلى شكل موحد من الآراء، وأن هناك صراعات وتنازعات داخلية أميركية تتعلق باتخاذ القرار.

بعد ذلك كانت لدينا نقاشات مطوّلة، خاصة بشأن الاتجاه الطائفي الذي برز في المجتمع العراقي بعد غزو العراق، وظهور الفوارق الطائفية بشكل غير مسبوق. قالت د. باسمة: «إن قوات التحالف لم تف بتعهداتها والتزاماتها وفقاً لاتفاقيات جنيف، فقد وقفت تتفرج على السكّان الشيعة وهم يتعرّضون للقتل وأدى بهم ذلك إلى الاستنجاد بالمليشيات، بينما بحث السنّة عن ملجأ لهم مع تنظيم القاعدة».

أما الجنرال أبو محمد فقد علّق بالقول: «إن المعركة مع القاعدة هي معركة استخبارية بالدرجة الأولى. وحتى مع قدوم خمس فرق أخرى إلى العراق، لن تتمكن من تغيير واقع الحال. هناك الآلاف من المعتقلين لدى القوات الأميركية، وهؤلاء يخضعون للتدريب مع معتقلي القاعدة في المعتقلات، هل يعقل أن القوات الأميركية غير واعية لهذا الخطر؟». لكنني أكّدت له أننا على إدراك تام بهذه المخاطر.

ثم أخذت الحوار إلى موضوع جيش المهدي، فقال أبو محمد: «إن جيش المهدي هو بالأصل مجموعة من الشباب العاطلين عن العمل، وقد اخترقوا من قبل المجرمين مثلما اخترقتهم إيران كذلك. ويمكن تفكيكه عبر توظيف هؤلاء الشباب، لكن ليس في القطاع الأمني. وقد بدأ الناس يتذمرون من جيش المهدي مثلما بدأ السنّة يتذمرون من تنظيم القاعدة».

وسرعان ما أدركت أن هناك خندقين في مكتب القائد العام للقوات المسلحة، الأول تتزعمه د.باسمة، والثاني يتزعمه الفريق فاروق الأعرجي. لكنني لم أكن متأكدة من أن الخلافات بينهما كانت خلافات شخصية أم تتعلق بالسياسات المتبعة لكل منهما.

وسعيت للقاء بالفريق فاروق كي أكون على اطلاع ومعرفة بآراء الطرفين. وخلال اللقاء شرح لي مهام مكتب القائد العام كما يلي: «إن مكتب القائد العام يشرف على تقديم النصائح للقائد العام للقوات المسلحة، ونقل أوامره إلى الجيش وإلى الوزراء الأمنيين، كما يتابع تنفيذ هذه الأوامر. أما المكتب نفسه فليس لديه صلاحيات تنفيذية أبداً».

وقال إن د.باسمة تشغل منصب المستشارية الأمنية لرئيس الوزراء، وهي لم تكن أبداً جزءاً من مكتب القائد العام. نعم إن لديها مكتباً داخل مكتب القائد العام، لكنها هنا كضيفة، ولم تكن موظفة فيه أبداً. ثم بين استغرابه من أن البعض يسميها (المرأة الحديدية)، بينما هي تتمتع بشخصية منبسطة وكريمة وتؤدي مهامها بأمانة.

وحيث إن الجميع يعرف مزاج د.باسمة، فقد كنت أركز على وجهه وسحته وهو يقيّمها، كان من الواضح جداً أنه يكذب!

وأكد بالقول: «لم يكن هناك أي سوء فهم بين الجيش العراقي وقوات التحالف، إننا جميعاً نعمل معاً على بناء العراق الجديد ومحاربة الإرهاب في العراق وفي كل مكان»، كان هناك على الدوام شيء مصطنع فيما يقوله، وقد دأب على تكرار جملة: «أنت بمثابة ابنتي، وإن الباب مفتوح لك متى ما جئت»، لكن كان هناك شيء من عدم الصدق فيما يقوله.

وبعد أن تمكنت من إقناع د.باسمة بأن قوات التحالف ليس لديها نوايا

مسبقة بتشجيع الحرب الأهلية في العراق، بدأنا الحديث عن المصالحة. واقترحنا أن نعمل معاً في هذا الجانب. وشرحت لي ما جرى تنفيذه في هذا الجانب من قبل العراقيين. لقد أرسلت استثمارات إلى ضباط الجيش السابق، عبر نظام الرواتب التي يستلمونها من المصارف، أو عبر الإنترنت، أو عبر السفارات في الخارج. الاستثمارات تخيرهم بين العودة إلى الخدمة برتبهم، أو الإحالة على التقاعد براتب يوازي راتب أقرانهم في الخدمة.

قلت لها: «باسمة، هذا عمل رائع، لماذا لم تشاركونا المعلومات حوله؟». فأخبرتني بأن عدائية قوات التحالف تجاه مكتب القائد العام، والفوضى التي أثارها الصحافة الأميركية عنها، قادت إلى الاعتقاد بأن الأميركيين لا يؤيدون المصالحة. فأجبتها: «هذا جنون، إننا ملتزمون كلياً بهدف المصالحة، وإن عملك مهم جداً لنا».

وأخبرتني بأن التركيز يجري الآن على إعادة موظفي التصنيع العسكري، والبالغ عددهم 110 آلاف موظف. وقالت إن هؤلاء هم الذين ساهموا بشكل أساسي في إعمار العراق بعد عام 1991. تمكن صدام بهؤلاء من إعادة إعمار 103 جسر في العراق تم قصفها، والآن هي تشتكي من مرور 5 أسابيع على تفجير جسر الصرافية ولم يجر سوى تقدّم بسيط في إعادة إعماره. كما أطلعتني على أن هناك محاولات للتواصل مع ضباط المخابرات السابقين، خاصة أولئك الذين عملوا في الشرق الأوسط وأوروبا وإيران.

وطرحت قضية أبي عزام ومجموعته، وسبيل التحاقهم بالجيش العراقي، كونهم قد أمضوا وقتاً وهم يقاتلون القاعدة. فقالت د. باسمة إنها ترى هؤلاء جزءاً من مجموعة (كتائب ثورة العشرين)، التي تنقاد

لحارث الضاري. وأكدت: «أن بعض هؤلاء يلعب دوراً مزدوجاً، مرّة تجاه القبائل ومرّة تجاه قوات التحالف».

وقالت إن بعض القادة القبائليين طلبوا الاستعانة بالحكومة كي تحميهم من هؤلاء الذين يبحثون اليوم عن سبل للانضمام إلى القوات المسلحة العراقية الرسمية. لكنني قلت لها إن طبيعة المجتمع العراقي القبائلي تدفعنا إلى التعاون مع الشيوخ لأجل تحقيق الأهداف الأمنية على الأرض. قالت لي باسمّة: «عندما يحدث شد سياسي بين السياسيين الشيعة والسنة في البرلمان، فقد لاحظنا أن ذلك ينعكس على أعداد القتلى في الشارع والمواجهات، هذا يعني أن هناك ربط بين شيوخ العشائر والعنف من جهة، وبين السياسيين في البرلمان من جهة أخرى، فهل هذا هو البرلمان الذي نريده؟».

وكررت جملة: «إننا بحاجة إلى عملية تنظيف تبدأ من الأعلى إلى الأسفل، فبعض السياسيين لديهم ميليشيات تعمل على استدامة القتل، وتتخفى بثوب العملية السياسية».

وشرحت لي رأيها قائلة: «في الحقيقة لا تتواجد القاعدة في العراق كما نتصورها، صحيح أنهم يرفعون هذا الاسم ويستخدمونه، لكنهم لا يحملون الولاء المطلق لتنظيم القاعدة. هناك مجاميع تمارس العنف، وقد اعتاد أفرادها الانتقال باستمرار من مجموعة إلى أخرى تبعاً للجماعة الأقوى».

ثم تابعت محاولاتي، وكنت أجد على الدوام خلال جولاتي في العراق عدداً من العراقيين السنّة الراغبين بالالتحاق بالقوات الأمنية العراقية، لكن تمنعهم في العادة البيروقراطية الكسولة التي تتحرك بها أجهزة الحكومة، أو ربما يكون السبب مجرد دوافع طائفية.

وفي تلك الأسابيع شهدت منطقة (أبو غريب) تراجعاً في حوادث القتل والاعتداءات، ربما لو أن أبناء (أبو غريب)، (المجموعة التي حاربت القاعدة) لم يجدوا مكاناً في القوات المسلحة، فمن المحتمل أن يعودوا مرة أخرى إلى العنف لكن هذه المرة إلى جانب خندق القاعدة. أما ردّ الدكتورة باسمه فقد انطوى على انتقاد لقوات التحالف، وأنها تفكر فقط في أمنها ولا تهتم لمصير الأمن في العراق بعد أن تغادره.

ثم حاولت أن أطرح مقاربة أخرى لها، وقلت: «تعرفين أن الملوك يدققون جداً في زواج بناتهم، وهم بالعادة يستهدفون المزيد من الاستقرار عبر هذه الزيجات، فلماذا لا يزوّجك رئيس الوزراء المالكي من أحد قيادات التمرد؟». فانفجرت ضاحكة وأكملت أنا قولي: «ربما عزت الدوري، أو محمد يونس الأحمد، أو حارث الضاري!». فاختارت باسمه حارث الضاري، وقالت لي أن أطرح الموضوع على رئيس الوزراء عندما ألتقيه في المرة القادمة.

وفي إحدى المرّات قالت لي د. باسمه، إن المالكي سألها مرة عن الأسماء التي تظهر في بعض الفضائيات عبر شريط أسفل الشاشة، ويفصح أن امرأة تبحث عن رجل مناسب مثلاً، أو أن رجلاً يبحث عن امرأة مناسبة، وسألها كيف يجري هذا الأمر؟.

فأجبتها بأنها وسيلة من وسائل التواصل التي أملتها الحداثة علينا، وقد تتيح للرجال والنساء التعرف ببعضهم والبحث عما يناسبهم، وأثار ذلك الأمر فضول باسمه، وأخبرتها أنني قد جرّبت هذا الأمر بنفسني، فاستشارها الفضول بشدة أن تعرف النتائج.

أخبرتها أنني نشرت اسمي ووسيلة التواصل معي عبر البريد الإلكتروني، ومواصفات الشخص الذي أرغب بمقابلته. وبالفعل فقد

استلمت العديد من الرسائل، وبدأت أستبعد الرسائل المكتوبة بصورة
ركيكة أو تلك التي تحمل نصوصها أخطاء إملائية. وفي النهاية اخترت
واحداً وأرسلت له ردّاً.

كانت باسمه، ومعها الجنرال أبو محمد، متلهفة جداً لمعرفة نتيجة
الموضوع، «ثم ماذا حصل؟».

قابلته، لكنّه كان غير مناسب لي، فقد كان قصيراً... قصيراً جداً.

فقلت د. باسمه: «هل كان قزماً؟». فأجبتها نعم، وفي الحقيقة كان
مرحاً للغاية ويعمل في سيرك ما. فصاحت د. باسمه: «إيما، أنت لم
يكتب لك الزواج!». وانطلقنا كلنا ضاحكين.

كان التعامل مع د. باسمه على الدوام أمراً شائكاً. لأن الأمر يعتمد
كلياً على مزاجها، وكانت تتخذ بين حين وآخر موقفاً عدائياً تجاه قوات
التحالف في أوقات لا مبرر لها. لكنها كانت ذات كلمة مسموعة عند
رئيس الوزراء، ومن الواضح أنه يثق بها. كانت تزوره في مكتبه في
معظم الأيام، وتستمر بإرسال الرسائل النصّية له بلا انقطاع. كانت
طبيعة العلاقة بينهما غير واضحة. وكان العراقيون يتندرون ويحكون
نكتاً حول (زواج المتعة)، وهو زواج مؤقت، الذي يفترضه مزاحهم
بأنه يجمعها برئيس الوزراء.

لكن مهما قيل عن د. باسمه، فقد كانت قادرة على إنجاز الأمور،
وليس لأحد آخر في كابينة الحكومة العراقية يمكنه الادعاء بذلك. لكنني
كنت أشعر على الدوام بأن من الممكن لنا أن نعمل معاً. كان مصدر
التوتر بيننا مع مكتب القائد العام للقوات المسلحة مرده إلى أننا كنّا دائماً
نفهم الأفعال بأسوأ الصور عنها.

كنت أواجه بالجدل دائماً كبار الضباط الأميركيين الذين لا يثقون بمستشاري رئيس الوزراء، وكنت أدفعهم دائماً إلى أننا يجب أن نمضي إلى الأمام في اتفاقاتنا للمصالحة مهما كان رأي مكتب رئيس الوزراء.

كان الاستمرار في دعم السنة الذين يدعون بأنهم يحاربون القاعدة، بصرف النظر عن رأي الحكومة العراقية، كفيل بأن يغذي شكوك المالكي بأننا كنا نعمل على إزاحته. وهذا الأمر سيخلق المزيد من المليشيات. وسيؤدي إلى إضعاف الدولة ومؤسساتها. علينا أن نتعلم من المبادرات التي أطلقتها الحكومة الأميركية في أفغانستان، وأن نتجنب الوقوع في المنزلات.

لقد بذلت جهدي كي نتقدم في بحثنا عن حلّ وسط، لكنني كنت أخسر الجدل باستمرار. حتى جاء يوم عاصف من النقاش في اجتماع كبار الضباط. وكانوا يناقشون مسألة تسليح القبائل التي يفترض أنها ستقاتل القاعدة. فقلت لهم: «إنها خطة مبنية على مبدأ (إن شاء الله!)، وفكرتها تعتمد على الأمنيات».

وبعد الاجتماع استدعاني الجنرال أوديرنو إلى مكتبه، كان جالساً على كرسيه، وحين دخلت بدأ في تقريعي بطريقة غير مسبقة. وزجرني بأشد العبارات، وبصراخ لم يوجهه لي أحد في حياتي. كان يصرخ في وجهي ويلومني كوني قد تصرفت بسلبية، وأنني غير مؤمنة بما نحن بصدد إنجازه.

ثم اتهمني بأنني أصبحت أميل إلى الجانب العراقي منذ أن بدأت أجتمع بمكتب القائد العام للقوات المسلحة العراقية. وقفت بلا حراك أمامه وهو يصبّ عليّ غضبه بطريقة غير مسبقة. وأنهى كلامه بالقول: «سيكون لنا كلام كثير بهذا الشأن»، فأجبت: «نعم...»، وانصرفت خارجة من مكتبه.

كنت أردد اللعنات مع نفسي وأنا أمشي معه باتجاه السيارة التي أخذتنا إلى مهبط الطائرات، وحين ركبنا الطائرة المروحية، قدّم الجنرال أوديرنو غصن زيتون وبدأ بمحاورة معي. فبادرته بالقول: أنا آسفة. أظن أنني كنت غاضبة ومحبطة.

لقد عرفت خطئي بأنني كنت على صواب في الجانب المنطقي من طرح رؤيتي، لكنني كنت مخطئة في طريقة مقاربتني لطروحاتي.

وفي المساء أرسلت إلى الجنرال أوديرنو عدداً من رؤوس النقاط التي لخصت فيها أهم المقترحات للتعامل مع التمرد، وقضية استمالة القبائل كي تحارب القاعدة.

علينا أن نفهم الدوافع الحقيقية التي تقف خلف كل مجموعة راغبة بأن تتواصل مع الأميركيين تحت مسمى مناهضة التمرد. فالبعض كان تواقاً فقط إلى استلام رواتب من قوات التحالف، ولا يريد أن تفوته هذه الفرصة. والبعض الآخر يرى في قتال القاعدة فرصة للتواصل مع الأميركيين والتحضير لما يراه بأنها حربها الأكبر بالضد من إيران، ومواجهة الحكومة التي يرى فيها حكومة شيعية مدعومة من طهران.

بإمكاننا أن ندمج المجاميع المسلحة في القوات الأمنية. لكن، ما لم ينخرط هؤلاء في العملية السياسية فإن الخطر يبقى قائماً بأن تتحول القوات الأمنية إلى ميليشيات تابعة للأحزاب أكثر من كونها قوات وطنية. مع تجهيز وتدريب مسبق من قبلنا. وستصبح سبباً محتملاً لعدم الاستقرار. لهذا فإننا بحاجة إلى تأثير من القيادات العليا لدول قوات التحالف كي تدفع الحكومة العراقية نحو تحقيق مصالحة وطنية وحوار وطني حقيقي. وعلينا أن نضع جدولاً زمنياً لهذا الحوار، وجدولاً آخر للمجاميع المسلحة كي تتخلى عن سلاحها.

في الأيام التالية، تركزت مناقشاتنا على الكيفية التي نحقق بها أقصى درجات الاستفادة من حركة الصحوة السنّية، وأن نجلب الحكومة العراقية إلى جانبنا. وصار التفاهم بيني وبين الجنرال أوديرنو أفضل من ذي قبل. في الحقيقة إنني أدركت أكثر مكاني كعضو في فريق الجنرال أوديرنو. كنّا مثل عائلة لا يكسرهما الاختلاف في وجهات النظر، ولا يؤثر على طبيعة الروابط العائلية فيها.

وفي منتصف أيار، زار رئيس الوزراء البريطاني توني بلير العراق في زيارة وداعية. ودعاني الجنرال لامبو مع مجموعة صغيرة للقاء رئيس الوزراء في منزل مود. وكتبت له رداً على الدعوة: «إنني جاهزة بعدد من حبّات الطماطم كي أرميها تجاه رئيس الوزراء»، فردّ عليّ: «من جانبي قد أبلغت الحراس أن يطلقوا النار تجاهك، ثم يدّعون أنهم شكوا في نظراتك وحركاتك تجاه رئيس الوزراء!».

وتعرّضت السفارة البريطانية في ذلك اليوم إلى صاروخين. كان موكب توني بلير متأخراً عشر دقائق عن الوصول، وتحطّمت عربتين بالكامل. وفي داخل منزل مود، وقفت في صفّ لتحيّة بلير. وتولّى الجنرال لامبو تقديمي له قائلاً إنني كنت نجمة! من ناحية الأداء، وإنني أهتم بالرجل الكبير. كان واضحاً من هو المقصود بالرجل الكبير، حيث إن الجنرال أوديرنو كان واقفاً إلى جانب رئيس الوزراء توني بلير.

أما الجنرال بيترايوس فقد أخبر بلير بأنني كنت أمثل لهم «ثروة وطنية»، أمّا أوديرنو فقال بأنني كنت أعمل مع قوات التحالف منذ عام 2003. وهنا اختلط الأمر على بلير وسألني: «هل أنت بريطانية؟». فأكدت له بأنني ولدت ونشأت في بريطانيا، ثم سألني: «ماذا تفعلين هنا مع العساكر الأميركيين؟». فأجبت بهزّة من كتفي وقلت: «ربما هي متلازمة ستوكهولم!».

وفي تلك اللحظة بدأ الحراس بتلقي تنبيهات عبر الأجهزة تقول لهم أن يتخذوا أقصى درجات الحماية، ثم سقطت قذيفة قريباً جداً من مكاننا. وأخذوا توني بلير إلى مكان آمن، كان «العدو» على معرفة تامة بتحركات بلير وجدول زيارته. وقد عرفنا ذلك لاحقاً حين اعتذر الرئيس جلال طالباني هاتفياً منه قائلاً إنها كانت غلطته حيث أخبر السفير الإيراني بمقدم بلير إلى العراق. ولهذا، كان لقائي الأول والوحيد مع بلير حالياً من أي مناقشة معه حول قراره بالتوجه نحو الحرب في العراق.

ثم أرسلني الجنرال أوديرنو لأوكد د. باسمه بأن قوات التحالف لا تسلح القبائل السنية، وهو الأمر الذي لاقتة بارتياح كبير وقالت: «هذا ما كنت أود سماعه من قبل». لكنني أخبرتها بالحاجة إلى مزيد من الشرطة المحلية في ديالى وعرب جبور. كنا في الحقيقة قد توصلنا في بعض المناطق إلى اتفاقات مع المجاميع المسلحة بأن توجه أسلحتها باتجاه تنظيم القاعدة.

كانت لحظة وداع الجنرال لامبو متميزة وتشبهه، فقد وقف في اجتماع العمليات وصعد فوق كرسي وخلع قميصه ليعرض لنا الحزام المصنوع في تكساس الذي يحيط بخصره، وهذا كان هدية من الجنرال أوديرنو. ثم صاح ملوحاً بالإبهام في وجه الحضور؛ «فريق واحد!». بعد ذلك خرج من الاجتماع مودعاً الجميع.

كان العمل الذي شرع به الجنرال لامبو قد لاقى استحساناً. وقد تحول إلى عمل مؤسساتي، وقد تولته خلية د. باسمه (خلية التواصل الاستراتيجي). وصار لها لجنة مناظرة عراقية تضم د. باسمه والجنرال أبا محمد. وقد أناط بها المالكي عملية قبول المتقدمين الجدد للانتماء إلى القوات المسلحة.

وواظبتُ على زيارة د. باسمه في مكتبها كي أتابع ما أنجزته مع

الجنرال أبي محمد، وقالت في إحدى الزيارات: «إن العلاقة مع قوات التحالف صارت أكثر وضوحاً، وشفافية، وفيها الكثير من الثقة»، لكنها أخبرتني أن المالكي كان غاضباً من كثرة لقاءاتها بعناصر قوات التحالف (من الرجال تحديداً)١.

بعد ذلك استدعاني الجنرال أوديرنو إلى مكتبه، وبدأ عليه الانزعاج الشديد من مسألة (أبو غريب) وانخراط جماعة أبي عزام في الجيش العراقي، كان من المفترض قبول 1700 عنصر منهم، في حين قبلت لجنة باسمه 700 فقط، وحذفت الباقي. لم يكن من بين المقبولين أي شخص من أتباع تنظيم (الجيش الإسلامي)، وهذا الأمر سيجعلهم يعودون إلى حمل السلاح في إطار التمرد على الفور.

قال أوديرنو إن هذا الموضوع يمثل خطأ أحمر بالنسبة له. وإن كانت الحكومة العراقية غير قادرة على المضي قدماً في المصالحة مع المجموعات المسلحة فإن قوات التحالف ستغادر.

كان أوديرنو يعلم بأن على بيترايوس وكروكر أن يثبتا في شهادتهما أمام الكونغرس في أيلول القادم بأن ملف المصالحة قد شهد تقدماً، وإذا لم يحدث هذا الأمر فإن الكونغرس سيسحب تمويل قوات التحالف في العراق وسيطالب بانسحابها من العراق.

وأخبرني أوديرنو أن كلاً من السفير كروكر وبيترايوس كان لديهما موعد مع المالكي في اليوم التالي من أجل أن يسحبا دعمهما له على خلفية عدم جدية الحكومة العراقية في موضوع المصالحة وعملية تجنيد صحوة (أبو غريب) كانت مثلاً أخيراً. وطلب منّي أن أزور مكتب القائد العام للقوات المسلحة في صباح اليوم التالي في محاولة أخيرة لحل مسألة (أبو غريب).

وبالفعل توجهت في صباح اليوم التالي إلى مكتب د.باسمة.
واستقبلتني بغضب واضح وقالت: «لا أريد التحدث في مسألة (أبو
غريب)...لقد واجهت ما يكفي في هذا الملف».

وقلت لها: «في الحقيقة نحن نشعر بالأسف حيال عدم قبول جماعة
أبي عزّام في القوات المسلحة، إنهم مجموعة مهمة و-»، فقاطعتني
د.باسمة: «قلت إنني لا أريد أن أتحدث بالموضوع مرّة أخرى رجاء».

وفي خلفيات الأمر، فقد سمعت بأن اجتماعاً صახباً جمعها بضباط
من قوات التحالف الذين دفعوها دفعاً إلى القبول بجماعة أبي عزّام
لكنّها رفضت طلبهم تماماً. وهنا تدخل الجنرال أبو محمد وقال: «في
الحقيقة لقد قبلنا 1738 شخصاً من مجموعة (أبو غريب)، لقد كانت
تجربة مهمة».

وهنا وقفت ساكنة بلا حراك، كان من الواضح أن د.باسمة ما زالت
غاضبة، وسألتها إن كانت قد أخبرت رئيس الوزراء بذلك فهزّت رأسها
نفياً. والتفتُ إلى الجنرال أبي محمد وسألته: «هل أنت جاد بهذا
الرقم؟». فأكد لي أن ملفاتهم كلهم موجودة هنا.

وهنا قلت لباسمة: «باسمة اسمعيني، بيترايوس وكروكر سيلتقيان
رئيس الوزراء نوري المالكي عند الساعة الثانية عشرة، والآن الساعة
هي الحادية عشرة والنصف. إنهما يظنّان بأن اللجنة لم توافق على أيّ
شخص من جماعة (أبي عزّام). أرجوك إنهم سيخبرون المالكي بأنهم
لا ثقة لديهم في جدّيته في عملية المصالحة مع السّنة، إن الموضوع
جاد للغاية».

(في الواقع قد قيل لي إن بيترايوس سيرمي المالكي تحت عجلات
الباص!)

وسألته إن كان بإمكانها التواصل مع المالكي بينما سأصل
بيترايوس؟، ومن نبرة صوتي ونظرة عيني أدركت باسمه أن الأمر خطير
للغاية. فأرسلت رسالة نصية للمالكي ثم كلمته على الهاتف. فيما شرعتُ
بدوري بمحاولة الاتصال بسعدي عثمان، وهو المترجم والمستشار
الخاص المرافق لبيترايوس والذي أتوقع أن يكون قريباً منه باستمرار.
وأخبرته بأن مكتب القائد العام قد وافق على مجموعة (أبي عزام) أن
تكون جزءاً من القوات المسلحة، 1738 عنصراً. هنا التقط الهاتف
بيترايوس بنفسه وسألني: «إيما هل أنت متأكدة من أن مكتب القائد العام
وافق على 1738 عنصراً أن يلتحقوا بالقوات الأمنية العراقية؟». فأجبت: «نعم
سيدي، أنا الآن في مكتب الدكتورة باسمه وقد تأكد لي ذلك».

كانت د. باسمه مشغولة في تلك الأثناء في تقطيع الورق في ماكينة
التقطيع، فكان عليّ أن أرفع صوتي في الهاتف.

وعاد بيترايوس ليسألني: «هل أنت متأكدة أن من بين هذه الأسماء
عناصر مجموعة الجيش الإسلامي في (أبو غريب)؟». فأجبت: بالتأكيد.
«رجاء أبلغني تحياتي للدكتورة باسمه وأجمل تمنياتي لها، ماذا
عساني أن أتحدث الآن لرئيس الوزراء!». وأغلق الهاتف.

عدتُ إلى د. باسمه التي كررت عليّ: «لا أريد أن نتحدث مرة أخرى
في قضية عناصر (أبو غريب) بعد الآن، فوافقتها الرأي».

في تلك الليلة دعانا بيترايوس للعشاء في مقر إقامته في معسكر
فيكتوري، وكانت المرة الأولى التي أبادل فيها معه الحديث مطولاً.
سألني عن اهتماماتي وعن اللغات التي أجيدها، وقد أبهرته دراستي في
أوكسفورد. وقال إنه يحب الحياة الأكاديمية، ويرغب بالعمل كأستاذ
جامعي بعد تقاعده.

وبعد أن تكلمت معه بشكل مباشر، اكتشفت أنه كان شخصاً ذكياً بشكل استثنائي. وقال لي إنه بعد أن تأمل في الطريقة التي تواصلت بها مع العراقيين، أدرك كيف أن البريطانيين تمكنوا من حكم نصف العالم عبر موظفين منتقنين من وزارة الخارجية، يساعدهم بضعة ضباط صف. فأجبت بـأن الموضوع كله يتمحور حول بناء الثقة، وتعزيز التواصل والعلاقات العامة مع الآخرين.

في اليوم التالي استمع الآلاف من الجنود إلى كلمة من الجنرال بيترايوس يشكر فيها موقف المالكي وقراره (الشجاع) في قبول مجموعة (أبي عزام) ضمن القوات الأمنية العراقية.

وتوجه بيترايوس في لقاء لاحق بالحديث إلى أوديرنو وقال له: «مستشارتك السياسية أنقذتنا بالأمس». فكانت إجابة أوديرنو: «سيدي إنها ليست مستشارتي السياسية... إنها جزء من المتمردين!».

كانت مسألة إصدار بطاقات الدخول (الباجات) إلى المنطقة الخضراء، واحدة من أهم العقبات التي كانت تحول بيننا وبين العراقيين. وكانت د.باسمة قد طلبت البطاقة منذ شهور. ثم سألتها: «لقد تلقيت رسالة إلكترونية من الجنرال بيترايوس يسأل فيها إن كانت د.باسمة قد استلمت باجها الخاص». فأجبتني: «لا أريد الحديث في هذا الموضوع، من الواضح أن الأميركيين لا يرغبون بمنحي باج الدخول إلى المنطقة الخضراء، ولا يرغبون بدخولي إلى هناك بحرية».

ومن جانبي أكدت لها بأنه كان إهمالاً غير متعمد، وأني أنا أيضاً قد تعطل إصدار الباج الخاص بي، وكان الباج السابق قد انتهت صلاحيته، ولدى دخولي إلى السفارة الأميركية جرى احتجاجي لساعتين قبل أن يتم تعريفني وتعريف عملي، وكنت سأتهم بمحاولة دخول السفارة بطريقة «غير شرعية». واسترعت القصة انتباه د.باسمة.

في الحقيقة كانت لدي شكوكي بأن هناك جهة ما تعتمد عدم تنفيذ أوامر الجنرال بيترايوس في إصدار باجات الدخول لأشخاص معينين، ومنهم كانت د.باسمة، وقد يكون الأمر مجرد روتين ويروقراطية.

بعد ذلك عملت على أن أجلب وحدة إصدار الباجات المتنقلة إلى مكتب د.باسمة في معاملة خاصة لها وللجنرال أبي محمد، وجرى أخذ مسح بصمة العين لهما، وبصمات أصابعهما على بضع أوراق.

وحين صدر الباج الخاص، أرسلت نسخة منه إلى الجنرال بيترايوس كي أوكد صدوره، فأجابني مازحاً برسالة يقول فيها بأن «وجهها يكفي لعشاء 1000 سنّي!»، وسألتنني لاحقاً دباسمة عن ردّة فعل بيترايوس حين أخبرته بإصدار الباج لها، في الحقيقة لم أكن واثقة بأنها ستقبل مُزاح بيترايوس، لذلك ارتجلت لها جملة وقلت: «لقد فرك يديه وقال أرسلوها إلى سجن بوكا»، وانفجرت د.باسمة في نوبة ضحك وقهقهة.

الفصل الحادي عشر

عمليات الموجة في الصيف

«ستيليو: إنه لمن دواعي الشرف أن أموت إلى جانبك.
الملك ليونيداس: وإنه لمن دواعي الشرف لي أنني عشت إلى جانبك».

حوار من فيلم 300 محارب إسبارطي.

* * *

حلّ صيف عام 2007 ساخناً للغاية. ساخناً حتى بالنسبة للعراقيين الذين ولدوا وترعرعوا في بلاد ما بين النهرين. وكان ساخناً بالنسبة لنا نحن المُحتلّين الذين لا نخلع بزّاتنا المدرّعة وخوذات الرأس أبداً.

كان العراقيون يفضّلون البقاء داخل المنازل خلال الأوقات الأشد حرارة من النهار، بينما يتمكنون من الخروج قليلاً في الليل. يحدث ذلك وهم لا يحصلون في بغداد سوى على ساعتين أو ثلاث من تجهيز الطاقة الكهربائية.

لكن دأب الجنرال أوديرنو لم يفتّر أبداً. وفي كل اجتماع كان يحدث ضباطه على أن يكونوا جسورين، ويبادروا إلى انتزاع الفرصة، وأن يباغتوا عدوّهم، حتى لو كان في الأمر قدر من المخاطرة المحسوبة. لقد مرّت علينا أوقات تأكد لي فيها أن دورة العنف لن تنتهي أبداً في العراق.

أمّا الجنرال أوديرنو فلم يكن في شك أبداً - حتى في الأوقات التي أنفرد معه - من قدرات جنوده، وما يمكن لهم أن يفعلوه في الميدان. لقد كان رجلاً يعي مهمته، وهذا الوعي انسحب على جنوده. أما ما كان يخشاه بالفعل، فهو أن يقوم الكونغرس بسحب تمويل عملية الموجة، وألا يتاح له الوقت الكافي لإظهار النتائج.

استعمل الجنرال القوات الإضافية الأساسية في تأمين مدينة بغداد، بينما لم يُتَح له فعلياً نشر وحدات إضافية في حزام العاصمة إلا مع منتصف حزيران من ذلك العام. وأطلق عملية (الإعصار الشبح) بواسطة نشر سبعة ألوية كاملة في مناطق حزام بغداد. وأدّت العمليات في بغداد والأنبار إلى انحسار التمرد باتجاه محافظة ديالى في الشرق، التي كانت قد شهدت مقتل الزرقاوي حيث وجد حاضنة له. وجاء مقتله عام 2006 على أيدي رجال الجنرال ماك كريستال في وقتها. وغدت محافظة

ديالى أكثر مناطق العراق سخونة واضطراباً. وخيم عليها الظلام، تلك المحافظة التي كانت حتى ذلك الوقت معروفة فقط بأشجار النخيل الباسقة التي تنتشر فيها على شكل بساتين شاسعة. هيمن تنظيم القاعدة على المحافظة، ومنع عناصرها التدخين العلني، وأصدروا بضع تعليمات كان البعض منها مثيراً للسخرية، وقيل إنهم منعوا بيع الخيار والطماطم سوية منعاً لاختلاط الأجناس!.

وهناك اصطحبنا العقيد ساذرلاند (Sutherland)، وهو قائد اللواء القتالي الثالث من فرقة الفرسان الأولى، في جولة بالمروحية على طول وادي نهر ديالى. لقد كان واضحاً أننا لا نمتلك العدد الكافي من الوحدات العسكرية كي نمسك بالأراضي الشاسعة والمتنوعة تلك. وأتذكر أننا زرنا قرية السعدية في نيسان من ذلك العام، بعد أيام من فقدان الفرقة 82 المحمولة جواً لتسعة من جنودها في هجوم هناك. ورافقنا حينها النقيب جيسي ستوارت، وشرح لنا كيف أن شاحنة اخترقت الحاجز الأمامي للوحدة الميدانية التي كانت تتمركز في مدرسة مهجورة. ثم تلتها شاحنة أخرى تفجرت في الداخل، وتسببت بانهدام المبنى ما أدى إلى مقتل تسعة من الجنود الذين كانوا في الداخل. وشرح لنا النقيب ستوارت كيف أن فرقته وعدت السكان المحليين بإعادة بناء ما تهدم من أجل إظهار التزامنا، لكنهم طلبوا من شيوخ العشائر التوقيع على وثيقة تلزمهم بالإخبار عن أي قنابل يجري تخزينها أو إخفاؤها في بساتينهم.

وأما مدينة بعقوبة فقد جرى إخراج عناصر التمرد منها، وأزيحوا باتجاه وادي نهر ديالى، وشرح لنا المقدم روباس كيف أنهم حاولوا الرجوع مرة ثانية عبر استهداف القاعدة العسكرية بسيارة ملغومة انفجرت

عند الحاجز الأمامي. وبعد ذلك جرى تطهير المدينة والمناطق المحيطة بها، لكن المقدم روباس قال: «إن كل منطقة يجري تأمينها من سيطرة المتمرّدين، فإن جيش المهدي يبدأ بالظهور فيها، خاصة إذا تواجد عدد كاف من عناصر الشرطة العراقية. كان الجنرال أوديرنو يعتمد على وجود اللواء الثالث من فرقة المشاة الثانية كقوة احتياطية. وقائد ذلك اللواء كان العقيد تاونسيند (Twonsend). في بادئ الأمر جرى نشر هذه القوة القتالية في نينوى في الشمال، ثم أمرت بعد خمسة شهور أن تتحرك نحو العاصمة بغداد. وبدأت عمليات الالتحام مع الخطط الموضوعة لمكافحة التمرّد. وانتشرت عربات هذا اللواء ذات الثماني عجلات في العاصمة. وبدأت بمطاردة الكمائن، ومداهمة أوكار المجاميع التي تزرع القنابل على جوانب الطرق. والآن، وجّه الجنرال أوديرنو هذا اللواء القتالي بالانتشار في بعقوبة كي يتفرّغ العقيد ساذرلاند واللواء القتالي الثالث لمطاردة المتمرّدين على طول قرى وادي نهر ديالى. كان القتال يجري في ديالى بلا هوادة.

التقينا بالعقيد بروس أنتونيا (Antonia) في مستوصف صحي مهجور جرى تفجيره من قبل عناصر تنظيم القاعدة، ووقف يشرح لنا على الخارطة انتشار قطعاته جنوب بعقوبة، ويؤشر خطوط التماس مع العدو. كانت وحداته تتلقى نيراناً بشكل يومي، كما تتعرض للتفجيرات على طول الطرق الضيقة التي تسلكها الدوريات. وحاول أن يشرح مكامن قوة التمرّد ومواطن ضعفه، كما بيّن أن الهدف الأول له هو منع انتقال التمرّد من بغداد إلى بعقوبة. وتفصّل العقيد أنتونيا في شرح تكتيكات العدو، حتى إنه شرح لنا كيف توجّب عليه رمي بضع قنابل إلى جانب الطريق كي يفجّر العبوات التي سبق أن زرعها المتمرّدون. كان العقيد مظلماً بالأصل، ويمتلك روح الدعابة، لكنني التفت إلى باقي

غرف المستوصف، فوجدت فيها عدداً من الجنود يتكئون على بعضهم البعض لأجل الحصول على غفوة سريعة نتيجة الإرهاق الكبير الذي كانوا يعانون منه. وعرفت أننا في ديارى نواجه نوعاً آخر من المعركة التي تكاد تشبه الهجوم على المواضع الثابتة، وأخذ الجنرال يعبئ مسدسه الشخصي، ويجهز إطلاقاته. ثم صعد إلى عربة مدرّعة واعتلى الرشاش الآلي في أعلاها، بينما انكفأت أنا في الداخل، حيث لا أتمكن من رؤية أيّ شيء سوى ساقى الجنرال.

والتقينا في ديارى برئيس العرفاء سيوتولا، حيث كان في جولة على القطعات التي تتواجد هناك. وأخبرني أن القفز لأجل عبور الجدران وسط المعركة وفي حرارة منتصف النهار كاد أن يتسبب بمقتله. لقد كان يتمتع بلياقة بدنية عالية، لكنه لم يعد كما كان في الثامنة عشرة. سيوتولا دأب على تزويد الجنرال أوديرنو بتقارير واقعية عن أحوال الجنود، ومعنوياتهم، والطريقة التي يتصرفون بها.

كان العقيد ساذرلاند يمضي وقتاً كبيراً مع القادة العراقيين، ضباطاً ومسؤولين محليين، كي يتأكد من مقدرتهم فيما بعد على تولي الأمور بأنفسهم. لكن كتيبته الآلية المدرّعة كانت تتلقى إصابات كبيرة، ومع سقوط كل ضحية من بين جنوده، فقد كان يشعر بأن شيئاً منه هو يموت أيضاً. وكانت تبدو عليه مظاهر التدين، فقد أحاط مكتبه بمقتبسات من الإنجيل. وقصّ علينا كيف ألقى القبض على أحد الانتحاريين بعد أن هجم على مقدمة العربة التي كان يستقلها.

أما كتيبة المقدم مارك لانديز فقد أرسلت في مهمة لتطهير قرى نهر ديارى ابتداءً من المقدادية نزولاً إلى بعقوبة كي تلتحم مع الفقاعة الأمنية الآمنة التي جرى تأمينها في المدينة.

بعد ذلك توجهنا إلى المستشفى الميداني في قاعدة بلد، وهناك زار الجنرال أوديرنو الجنود الجرحى. البعض منهم حيّوه بابتسامات ومعنويات عالية، حتى إن أحدهم طلب منه ألا يتم إعادته إلى الولايات المتحدة طالما أن جرحه بدأ بالتعافي. وخلال تلك الأثناء، حدثت جلبة قوية في أروقة المستشفى، وهبطت مروحية قادمة من ديبالى تحمل جنوداً جرحى. واندفع الكادر الطبي يؤمن لهم مستلزمات الإنقاذ، بينما التصقنا بالجدران كي نسمح لهم بالعمل بلا معوّقات. كان البعض منهم مُغطى بالدماء وفاقداً للوعي، بينما تمكّن آخرون من السير على أقدامهم. ووقفت أنا في ركن منزوٍ أتلو صلاة لأجل سلامتهم، وأن يعودوا معافين إلى أوطانهم، وألا تذهب تضحياتهم سدى.

كنّا نجري زيارات منتظمة للوحدات العسكرية في بغداد وحولها. وكبادة لإظهار حسن النوايا، دعا الجنرال أوديرنو د. باسمه كي ترافقنا في زيارة لإحدى مقرات الصّحوة في ضاحية العامرية غرب بغداد. كان ذلك الموقع يقوده (أبو العبد)⁽¹⁾. كان أبو العبد ضابطاً في الجيش العراقي السابق، وقد فقد اثنين من أشقائه قتلاً على يد ميليشيات شيعية، ورمّت جثتيهما قرب الحدود الإيرانية العراقية وعليها آثار التعذيب.

وجاء مقتل أحد الوجهاء المحترمين من القادة المحليين ليدفع أبا العبد إلى الانقلاب على القاعدة والبدء بمقاتلتهم. وعندما همّت

(1) سعد عريبي العبيدي، المعروف بـ (أبو العبد)، هو قائد صحوة العامرية. تعرّض لمحاولة اغتيال (أيار 2008) أدت إلى إصابته وانتقاله إلى العاصمة الأردنية للعلاج. وحين وصل إليها صدرت بحقه مذكرة اعتقال تتهمه بقتل مجموعة من المدنيين وإخفاء جثثهم في العامرية. انتهت قصة أبي العبد بأن طلب اللجوء إلى دولة أوروبية ومكّن من ذلك. لكن مصادر أميركية وعراقية تؤكد أنه كان على علاقة مباشرة بعدّة جرائم ارتكبتها التنظيمات المسلحة وعناصر القاعدة في العامرية- المترجم.

القاعدة بالثأر منه، استنجد بقائد الكتيبة المتواجدة في الجوار، المقدم كويل (Kuehl)، فاستجاب له. ثم نشأ تعاون بين الاثنين وتمكنوا من طرد عناصر تنظيم القاعدة من منطقة العامرية. كانت د.باسمة قد حضرت في عربة هامفي وهي ترتدي الكعب العالي، وشرح لنا أبو العبد كيف أنه تمكن من طرد عناصر القاعدة. لكنّه اشتكى من أنه لم يحصل على أيّ تعاون يذكر من جانب الحكومة العراقية، كما أن القوات الأمنية العراقية تردد في التعامل معه وتقديم العون له. وامتدحت د.باسمة عمل أبي العبد وأثنت عليه، ووصفته بأنه ينجز المهام بأفضل مما تتمكن منه القوات العراقية، حتى إنها عرضت عليه أن تطهو له الطعام بنفسها!، ولم تكن لديّ أي فكرة بأنها تجيد الطبخ.

بعد ذلك توجّهنا إلى الموصل، وحالما أقلعت طائرة (C-130)، تعرّضنا إلى إطلاق نار، وتمكّن الطيار من تفادي خط الإطلاق عبر انعطافة قوية وحادة، لكن البوابة الخلفية بدأت تنفتح من تلقاء نفسها، فأسرع الجنود إلى إصلاح الأمر وتأمينها. لو كانت هذه طائرة مدنية، لرأينا الجميع وهم يصرخون فيها، لكن العسكر كانوا يمتلكون زمام مشاعرهم. والتفت إلى الجنرال أوديرنو فإذا هو صامت، ولم تخرج منه أيّ إشارة للتوتر، ثم منحني ابتسامة تطمين. وهناك في الموصل، تحرّكنا في قافلة من عربات الهامفي، وفي إحدى الطرقات انفجرت عبوة ناسفة قرب العربة التي كنت أستقلها وأدّت إلى نثر سخام النيران على جانب الهامفي، فقد انفجرت أبكر قليلاً عن موعدها بثانية أو ثانيتين. وتمكّن الجنود من تحديد الشخص الذي سدد تفجير العبوة.

لم أشعر بالارتياح إلا بعد أن عدنا إلى بغداد، صحيح أنني كنت أشعر بالأمان في رفقة الجنرال أوديرنو، لكن هذه الرحلة قد وضعت ثقتي بهذا الأمان على المحك.

وفي يوم آخر زرنا منطقة جرف الصخر، كانت قرية صغيرة ومضطربة على نهر الفرات، تبعد خمسين كيلومتراً إلى الجنوب من بغداد. هبطت بنا المروحية في مكان ترابي، وأسرعنا نزولاً منها باتجاه الموضع الدفاعي الذي تتحصّن فيه القوات هناك. كان أمر الوحدة هناك نقيباً شاباً، وشرح في شرح طبيعة المكان المحاط بأجمات من أشجار النخيل. كما شرح الهجمات التي يتلقاها منذ أيام ويضطر إلى الرّد عليها بقوة وباستخدام قذائف الهاون. وعلى أثر كلامه، كنت أتوقع جداً أن نتعرّض إلى كمين لحظة الإقلاع بالطائرة، لكن ذلك لم يحدث لحسن الحظ.

وفي تموز زرنا مصفى بيجي، وهو واحد من أكبر مصافي النفط في العراق، ويقع إلى الشمال من بغداد بـ300 كيلومتر. واستقبلنا هناك النقيب كولمان (Kuhlman) المسؤول عن أمن المصفى وحمايته والإشراف عليه. وشرح لنا أن أكبر مشاكله كانت مع الفساد في المصفى وفي توزيع المشتقات النفطية. ويّين لنا أن أعضاء في الميليشيات كانوا يقودون شاحناتهم ليملئوها بالوقود، ويأخذوها للبيع في السوق السوداء لحساب مسؤولين عراقيين، كانوا يمتلكون محطات خاصة للوقود. وحين بدأنا بالتواجد بين العراقيين، كانت العلاقات تنمو بشكل أحسن. ولم يكن نادراً أن يقترب منّا أحد المحليين ليطلب تمديد وجود أحد الضباط أو أحد المنسّقين المدنيين الأميركيين تعبيراً عن الارتياح لوجودهم.

وفي إحدى الجولات التي أخذتنا إلى الطارمية، وهي بلدة صغيرة إلى الشمال من بغداد، كنت أتناول (الصمون) العراقي ذا شكل المعين. كان مايك جويدي قد اشترى لي كيساً للتو. وإذا بي ألمح طفلة صغيرة من بين مجموعة من الأطفال تجمّعوا واتجهوا نحونا وسط سوق البلدة.

كانت الطفلة تلوّح لي بيدها، وتنظر إليّ من دون الجميع، وقال لي الجنرال أوديرنو: «إنها ترغب بلمس شعرك». وحملتها بيدي، كانت ذات عينيّن زرقاوين جميلتين وشعر متسخ من الغبار. سألتها عن اسمها، وعن عُمرها، فأجابتنني بخجل. كنتُ أرغب بشدّة أن أعطني بها، وأن أقدم لها شيئاً، أو أن أصحبها في السوق وأنا ممسكة بيدها. لكن كان يتعيّن عليّ الذهاب، وحين تركتها بقيت تلوّح لي بيدها في مشهد وداع مؤثر. كنت أرغب بالاعتذار منها وأن أقول لها إن لديّ جنرالات يجب أن أراهم، بدلاً من رعاية الأطفال.

وفي أحد أيام شهر آب، كنّا نتنقل بالمروحية في محافظة الأنبار، ونزور القطعات العسكرية المنتشرة في المحافظة. وحين هبطنا قرب إحدى الوحدات العسكرية شعرت بالإعياء التام، وكنت قد فقدت الكثير من السوائل. فاستلقيت على الأرض وقلت إنه لم يعد بإمكانني التحرك على الإطلاق. واستغربت أن أياً من الجنود لم يتعاطف معي. وتركوني ممددة على الأرض. واقترب منّي أحد الرقباء ورمى لي بقنينة من مشروب الطاقة، شربت بعدها كمّيّة من الماء وتمكنت من استعادة وعيي. وحين عدنا إلى معسكر فيكتوري، أبلغني الجنرال أوديرنو بأنه يتوقع حضوري مساء اليوم إلى عشاء سيحضر إليه مجموعة من الصحفيين. فقلت له إنني كنت على وشك الموت ظهر اليوم، لكنه لم يُلق بالاً لما أقول وقال بلهجة أمرّة: «ستحضرين!». ورفضت مراراً، لكنه قال بكل برود وإصرار: «ستحضرين، انتهى الموضوع!».

كانت رفقة الصحفيين ممتعة، كما هي دائماً. وتحدثوا عمّا يشاهدونه ويلاقونه من حوادث حول البلاد وخلال جولاتهم الصحفية. في المقابل بدأ الجنرال أوديرنو بتقييم الأوضاع لهم، وأخذ يشرح الوضع العسكري

في العراق بعد عملية الموجة وزيادة عديد القوات الأميركية في العراق. كان عدد قتلى القوات الأميركية قد بدأ بالانخفاض لأول مرة. ففي أيار فقدنا 131 عسكرياً، وفي حزيران 108، وفي تموز 89.

وقال أوديرنو: «لقد تمكنت قواتنا من دفع التمرد وحصره في محافظة ديالى، الآن كل قوات الزيادة تعمل على الأرض في العراق. والآن بدأنا نتعاقد مع السكان المحليين لإقامة نقاط سيطرة في المناطق التي لا تتوافر فيها قوات أمنية عراقية بالعدد الكافي».

وبحلول منتصف الصيف، كانت أكثر الإصابات والخسائر في قوات التحالف تتسبب بها الميليشيات الشيعية، وهي تستخدم مقذوفات متفجرة التي صارت بمثابة التوقيع لها. كان هذا السلاح قادراً على استهداف العربات الأميركية المدرعة. وكانت إيران قد رفعت من مستوى دعمها وتسليحها للميليشيات الشيعية خلال العام الماضي. وكنا نعلم أن بعض الوحدات في القوات الأمنية العراقية كانت مُخرقة بشكل كبير من قبل الميليشيات الشيعية. وفي أحد الأيام دخل علينا إلى مكتب القائد العام العميد فلاح وهو ضابط عراقي متقدم، يرافقه المقدم ستيف ميسكا (Miska)، وشرح العميد فلاح يشرح لنا كيف أنه نجا للتو من محاولة اغتيال دبرها له (حازم الأعرجي) وهو شقيق أحد أعضاء البرلمان، وقتل خلال العملية عدد من الجنود العراقيين. كان العميد فلاح متوجهاً إلى وحدته في معسكر العدالة في الكاظمية. وقال إن من الواضح له وبناء على المعلومات التي تلقاها أن أحد الضباط من أمراء الكتائب مشترك في هذه العملية. ورسم العميد فلاح خارطة للمنطقة المحيطة بالضريح المقدس في الكاظمية، وكيف أن مدير مكتب الصدر هناك ادعى بأنه قد كلم كوندليزا رايس بنفسه كي تنسحب القوات من

محيط الضريح. كانت مجموعات جيش المهدي ترغب بأن تبدو للناس هناك وكأنها أقوى من قوات التحالف، أو قوات الجيش العراقي. كما أدلى بمعلومات عن أمر الكتيبة المتورّط في عملية اغتياله وبأنه قد نقل حديثاً قادماً من البصرة، وأنه قد تسبب هناك بفقدان عدد كبير من الأسلحة والمعدّات. في الحقيقة إن هذا الضابط يجب أن يُحاكم ويسجن نتيجة علاقته بعناصر جيش المهدي، كما أيّد ذلك المقدم ميسكا.

وفي إحدى زيارتنا إلى ناحية الرشيد، إلى الجنوب الغربي من بغداد، استلمنا إيجازاً عن كتيبة عراقية تابعة لقوات الشرطة تعرف باسم (لواء الذئب). اشتركت في ترحيل السكّان السنّة من تلك المناطق. وتعاصدت مع ميليشيات جيش المهدي، وامتنعت عن صدّ هجماتهم تجاه قوات التحالف أو كشف عمليات إطلاقهم للمقذوفات تجاه وحدات قوات التحالف. والتقى الجنرال أوديرنو بقائد ذلك اللواء، وحذّره من عواقب ما يجري في داخل لوائه. وقال له إن العواقب ستكون وخيمة ما لم يتوجه لتنظيف أعمال وحدته العسكرية.

ولحسن الحظ، كان قائد الشرطة الوطنية وقتها، الجنرال حسين العوادي شخصاً شجاعاً وضابطاً محنكاً. فقد عمل على استبدال عدد كبير من قادة الأفواج والألوية والكتائب داخل الشرطة الوطنية، وجلب محلّهم ضباطاً حسني التدريب، سبق أن درّبتهم الشرطة الإيطالية. وبذلك شهدنا تغييراً ملموساً في أداء قوات الشرطة.

وفي أيلول من عام 2007، وقبل أن يدلي كل من كروكر وبيترايوس بشهادتيهما أمام الكونغرس بأيام قليلة، عملنا على إقامة مؤتمر موسّع في الأنبار يشترك فيه ممثلون عن الحكومة العراقية وشيوخ العشائر لأجل إبراز التزاماتهم بإعادة إعمار المحافظة. كانت الأنبار قد شهدت

تغييراً كبيراً في جانبها الأمني، والفضل يعود في ذلك إلى مساندة القبائل التي وجهت سلاحها إلى عناصر القاعدة وطردهم.

لم يحضر المالكي إلى المؤتمر، لكن حضر نائبه برهم صالح، وطارق الهاشمي، وعادل عبد المهدي. كما حضر السيناتور جو بايدن الذي كان وقتها عضواً في بعثة من الكونغرس وصلت للتو إلى العراق.

انعقد المؤتمر في المقر الجديد الذي جرى تشطيه حديثاً لمجلس محافظة الأنبار. وكان العشرات من الشيوخ حاضرين في الجلسة. وافتتح المحافظ مأمون سامي الجلسة، وبدأ الشيوخ كلماتهم كما هو معتاد بتحية بعضهم البعض وبالبلاغات الكلامية. لكن أكثرهم اختصاراً وتركيزاً في كلمته كان الشيخ عبد الستار أبو ريشة، الذي حمل السلاح بالضد من القاعدة بعد أن فقد والده وأخويه في المواجهات معهم. صحيح أن الاتهامات كانت تلاحقه بالمشاركة في تهريب المنتجات النفطية، لكنّها أمور يصعب إثباتها ويصعب القطع فيها.

وخلال المؤتمر تعهد كبار المسؤولين العراقيين بتأمين مبلغ 70 مليون دولار لإعادة إعمار المحافظة. ومبلغ 50 مليون دولار أخرى لإعمار المنازل المتضررة. وكانت هناك وعود بتوفير 6 آلاف درجة وظيفية لأبناء المحافظة. وأشار كروكر إلى أن انعقاد المؤتمر في الأنبار، بلا احتياطات أمنية إضافية كان أمراً يدعو للشعور بالنجاح. أما بايدن فقد بيّن أن صبر الأميركيين بدأ ينفذ تجاه الحكومة العراقية، التي لو استمرت بالتنصل من التزاماتها فإن قوات التحالف ستسحب في النهاية.

وعلى الرغم من أن الحكومة العراقية فشلت في تحقيق النقاط الثماني عشرة التي وضعتها الحكومة الأميركية كمعيار للنجاح في العراق، فقد

تمكن كل من بيترايوس وكروكر في شهادتيهما أمام الكونغرس من توفير بعض أسباب النجاح المقنعة، وعرضها هناك.

وجاء في شهادة بيترايوس: «الحالة ما زالت معقدة في العراق، ومع هذا فما زلت مؤمناً بأن أهدافنا يمكن لها أن تنجز في العراق، وذلك لن يكون أمراً سريعاً ولا سهلاً». أما شهادة كروكر فقد جاء فيها: «إن القادة العراقيين قادرون على العمل سوية، وتخطي المضاعفات بطريقة جادة ومدرسة».

شكل ما تعرّض له بيترايوس في واشنطن صدمة لنا، لقد كان الجنرال مُبجلاً ويحظى بالتقييم العالي هنا في العراق بين جنوده، لكن الصحافة في واشنطن ونيويورك استقبلته بشتى التهم، ليس أقلها اتهامه بالخيانة والإيهام عمّا يجري في العراق.

لكن بيترايوس كان قادراً على تقديم أدلة على أن المصالحة في العراق تحقق تقدماً. وأن تجنيد عناصر الجيش السابق قد تم احتواء العديد منهم في الجيش العراقي الجديد، وقد جرى أيضاً ضمّ عدد من المقاتلين السابقين في المجاميع المتمردة. ومنهم عناصر صحوة (أبو غريب).

وفي بغداد، كان مكتب القائد العام مشغولاً باستقبال كادر جديد سيلتحق لتقديم العون في مسألة ضمّ العناصر الجديدة إلى القوات الأمنية العراقية، وكانت الدكتورة باسمه مندهشة من حجم التأثير الذي وصل إليه عملها هي والجنرال أبو محمد. وأخبرتني بأنها كانت تتابع تطورات الأخبار من واشنطن. وفي النهاية طلبت منّي أن أساعدها باختيار ورق مناسب للجدران في المكاتب الجديدة!

لقد تمكّن كل من بيترايوس وكروكر من إقناع الكونغرس بأن خطة

الموجة وزيادة عديد القوات الأميركية في العراق قد أثبتت فاعليتها،
وأنها كانت تسير بالاتجاه الصحيح. لقد نجحنا في توفير المزيد من
الوقت أمام العراقيين. لكن العراق لن يكون موضوعاً سهلاً على
الإطلاق. وبعد أيام من تلك الشهادة أمام الكونغرس، وفي 13 أيلول،
تمكن عناصر من القاعدة من اغتيال الشيخ عبد الستار أبو ريشة بعبوة
ناسفة استهدفت سيارته. كانت جهوده هي التي أثبتت أن رمال وادي
الرافدين تستمر بالحركة دائماً. لقد أنجز الشيخ أبو ريشة أكثر من غيره
بكثير حين أسس الصحوة، وقاتل القاعدة. ووفر للسنة خلاصاً مشرفاً
من التمرّد، وبوابة للمشاركة القوية في مستقبل العراق.

الفصل الثاني عشر

الصدريون يوقضون إطلاق النار

«لإنجاز هذه المهمة، علينا ألا نكتفي بما يحمله الجندي العادي من
روح تبشيرية»

براين دو كوت/

نقيب في الجيش الأميركي.

* * *

في نهاية شهر آب، كنّا مأخوذين تماماً بالدهشة التي غمرتنا جراء إعلان مقتدى الصدر تجميد الميليشيا التابعة له والمسمّاة «جيش المهدي». وتحت وطأة الإدراك بأن عدداً من المجاميع المسلحة تنشط تحت هذا المسمى، فقد أعلن الصدر بأن أيّ شخص ينشط ويرتكب عملاً عسكرياً أو هجوماً فهو ليس من جيش المهدي. جاء أمر الصدر بعد شهر كان حافلاً بتصاعد العداء بين الميليشيات الشيعية. وقد شهد مقتل كل من محافظ المثنى، ومحافظ القادسية⁽¹⁾، وكانا عضوين في حزب المجلس الأعلى الإسلامي، في حادثين منفصلين لا يفصل بينهما سوى أيام في التوقيت.

ثم تصاعد التوتر حين اندلعت المواجهات بين الصدرين وجماعة بدر في كربلاء وخلفت 50 قتيلاً. لقد أصابت تلك المواجهات المجتمع الشيعي بالصدمة.

كان استهدافنا لمتشددى الشيعة قد بدأ يثمر، وجادل البعض بأن استهدافنا لجيش المهدي يجب أن يستمر، وأن نلحق أكبر الأذى به. لكن في النهاية قرر كل من كروكر وبيترايوس أن يرحبا بإعلان مقتدى الصدر، وأنهما يراقبان الأوضاع عن كثب. بل إن بيترايوس بدأ يشير إلى (السيد) مقتدى الصدر علناً، ويستعمل اسم التبجيل له.

لكن المصالحة مع الفصائل الشيعية كانت أمراً مختلفاً تماماً عن المصالحة مع السنّة. كان الذي جمعنا مع السنّة في النهاية هي رؤية

(1) قتل محافظ المثنى محمد علي الحساني في 20 آب 2007، فيما قتل محافظ الديوانية خليل جليل حمزة يوم 11 آب 2007 ومعه قائد شرطة المحافظة اللواء خالد حسين. وكانا يستقلان سيارة مصفحة إلا أن العبوة الناسفة التي استهدفت سيارتهما بدقة كانت خارقة للدروع، وتشكلت لجنة تحقيقية بأمر رئيس الوزراء لكنها لم تعلن شيئاً لاحقاً - المترجم.

مشاركة لقتال القاعدة، ويمكن للمقاتلين السنة أن يجدوا المأوى مع قوات التحالف على أمل أن تتحرك هذه القوات ضد المصالح الإيرانية. لكن قوات التحالف كانت تشعر بأن على الشيعة أن يكونوا ممتنين لتخليصهم من صدام ونظامه، وبدلاً من ذلك فقد كانت الفصائل الشيعية تستهدف قوات التحالف.

كانت قناعاتهم مبنية على أساس عدم توفر قضية مشتركة يمكن أن نجتمع عليها، ولذا كانوا تواقين لرحيلنا.

تعرفت لأول مرة إلى صفاء الشيخ في آب من ذلك العام، كان قد جرى تعيينه رئيساً لهيئة متابعة وتنفيذ المصالحة الوطنية. هذا يعني أنه قد أصبح مسؤولاً عن عمل الدكتوراة باسمه والجنرال أبي محمد. كان صفاء الشيخ يتمتع بأخلاق وآداب رائعة في السلوك، وكنت معجبة بطريقته الماهرة في التعامل وتدبير الأمور مع دكتوراة باسمه، وهذا وحده كان أمراً صعباً للغاية. كان صفاء مسلماً شيعياً ملتزماً، وعاش كل عمره في العراق. وتلقى تعليمه في كلية بغداد، المدرسة التي أسسها آباء يسوعيون قدموا إلى العراق من بوسطن، وخرجت عدداً كبيراً من رجالات الصفوة في المجتمع العراقي.

كان صفاء قد سلك مسلك التدوين منذ شبابه، وانتفى إلى العالم السري لحزب الدعوة تحت تأثير الإعجاب بمؤسسه محمد باقر الصدر (وهو قريب من جهة الأب لمقتدى الصدر)، وقرأ أعمال الصدر في الفلسفة والاقتصاد. وانتهى الأمر بباقر الصدر أن يُعدم على يد نظام صدام هو وشقيقته بنت الهدى. وانتهى صفاء إلى أن يُصبح ضابطاً طياراً، واقتصرت علاقاته بحزبه المحظور على خليته، فيما أعدم النظام السابق معظم أفراد الخلايا الأخرى. وفي هذا الظرف انتهى صفاء إلى أن

يكون عضواً في حزب البعث طلباً للسلامة، وبعد الغزو صار عضواً في لجنة اجتثاث البعث، وعارض طريقة إدارة هذه الهيئة على النمط الذي مُرست به عملية اجتثاث النازية.

كان لصفاء زوجتين، كلاهما من السنّة. واحدة منهما تشيّعت وذهبت هي وأطفالها للعيش في السويد، بينما الأخرى بقيت معه هنا في العراق. قدّم لي صفاء مساعدة قيّمة كي أفهم طبيعة تفكير رئيس الوزراء المالكي ودائرته الضيّقة المقرّبة منه.

كان صفاء يشتكي من أن قوات التحالف ليس لديها استراتيجية معيّنة في تنفيذ المصالحة، ولا تدرك أن المصالحة تستلزم وقتاً طويلاً. كما وجّه انتقادات إلى تصنيف الأخطار من جانب قوات التحالف بأنّها تنحصر في القاعدة وجيش المهدي. وقال إن التحالف كان يؤمن بالثنائيات في طريقة التفكير، بينما كان الواقع معقداً للغاية. كان صفاء يقول إن المصالحة أمر أكثر عمقاً من مجرد وقف لإطلاق النار وإقامة علاقة مع عدد من الشيوخ. كما انتقد قدرات مخططي السياسة الأميركيين على فهم واقع حال الميليشيات الشيعية في العراق، إنهم يجهلون ما يمكن للأطفال في المجتمع العراقي أن يميزوه. لقد كانوا يطلقون مصطلح جيش المهدي على عدد كبير من الفصائل الشيعية المقاتلة وقد اختلط الأمر تماماً على الأميركيين.

وفي أعقاب إعلان مقتدى الصدر تجميد جيش المهدي، بدأ صفاء يستكشف إمكانية الشروع في حوار مع قاداته. كانوا يثقون به، فهو لم يغادر العراق في حياته، ولم يكن من رواد المنافي. كان صفاء يصر على أن أكثر أعضاء جيش المهدي يحملون روحاً عدائية تجاه إيران، على الرغم من كونهم مُخترقين من أطراف إيرانية. كان مقتدى الصدر

يدّعي تمثيل الشيعة المسحوقين والفقراء، وهذا واحد من أسرار العداء مع عائلة الحكيم التي تقود المجلس الإسلامي الأعلى، والذي يتكون من نخب شيعية أكثر رقيّاً، وقد استقر لفترة طويلة في إيران. لكن وقف إطلاق النار من جانب جيش المهدي لم يكن أمراً مفهوماً من الجميع. فقد كان يمثل لبعضهم فرصة للمصالحة، بينما مثل للبعض الآخر فرصة لإعادة التعبئة والاستعداد مجدداً.

ومن خلال صفاء تعرّفت على اثنين من الصدريين اللذين يسكنان في ضاحية الصدر شرق بغداد (كانوا موظفين حكوميين). واشتكيالي من أن قوات التحالف ما زالت تنفذ مطاردات ومداهمات في ضاحيتهم، وفي كل مرة تصيب عدداً من المنازل بالضرر وتروّع الأهالي، على الرغم من الإعلان بتجميد جيش المهدي. وأخبرتهم بأن هناك الكثير مما يقال في الإعلام وينسب خطأً إلى قوات التحالف. ومنذ تجميد جيش المهدي لم تنفذ قوات التحالف سوى مداهمة واحدة فقط في مدينة الصدر. وقلت لهم: «إن قوات التحالف رحّبت علناً بتجميد جيش المهدي، وقد طلبت الحكومة العراقية منّا تقليص المداهمات في مدينة الصدر». وأعطيتهم رقم هاتفي وطلبت منهم الاتصال بي متى ما كانت هناك مداهمة عسكرية كي أتحرى الأمر وأعاود إخبارهم بالتفاصيل. وحدثوني بأن جيش المهدي يعمل الآن مع الشرطة العراقية (في مدينة الصدر على أقل تقدير) على حفظ الأمن، وعلى حماية المناسبات الدينية. مثلما يساهم في حملات التنظيف. فأجبتهم بأن هناك الكثير من سوء الفهم بين قوات التحالف وجيش المهدي، فالولايات المتحدة قد بنيت من قبل أناس هربوا من الظلم، ولا نيّة لديه في احتلال البلدان الأخرى، كما أكّدت لهم بأن قوات التحالف ستغادر حالما تتأكد من قدرة الحكومة العراقية على إدارة الأمور والسيطرة على القوات. فأجابوني بأنهم يطمحون لو أن

هذه المحادثة جرت قبل أربع سنوات، حتى إن أحدهم قال لي إنني أمتلك كل المشاعر والمسؤولية الإنسانية التي تؤهلني أن أكون عضواً في جيش المهدي!. طبعاً هذه المجاملة لم أكن لأنقلها إلى الجنرال أوديرنو في تقريره.

وخلال تواجد الجنرال بيترايوس في الولايات المتحدة في مواجهته مع الكونغرس، قرر الجنرال أوديرنو أن يزور الرئيس طالباني كي يناقشه في قرار تجميد جيش المهدي.

واستقبلنا طالباني عند باب المقر الرئاسي وقبّلني من وجنتي وهو يقول: «أهلاً وسهلاً بالمس بيل».

ادعى طالباني قبل ذلك بأن لديه علاقة جيّدة بجيش المهدي. وقبل أن يوجّه مقتدى الصدر بتجميد الميليشيا، أجرى طالباني لقاء مع السفير الإيراني في العراق. وشرح له بأن السياسة الإيرانية في العراق باتت تقوّض عملية بناء الدولة، واقترح عليهم أن تتوقف الميليشيا لمدة عام على الأقل. وقد تلقى رسالة من الإيرانيين يعدّون فيها بإيقاف نشاط جيش المهدي وأن يستبقوا على مقتدى الصدر في إيران. ثم شرع طالباني في شرح طبيعة الشد بين الشيعة في العراق والشيعة في إيران، وبينما يرى شيعة العراق في النجف والحوزة فيها على أنها بمثابة (الفاتيكان)، يرى الإيرانيون بأن هذه المكانة تنافس مدينة قم الإيرانية. كما شرح طبيعة الاختلافات بين مرجعية آية الله السيستاني في النجف ومرجعية ولاية الفقيه المتمثلة في الخامنئي والثورة الإسلامية لآية الله الخميني.

في الحقيقة لم يكن هناك سبيل لاختصار اللقاءات مع الرئيس طالباني. ثم أخذنا إلى غرفة جانبية حيث كانت فيها مائدة مشحونة بالطعام. وبدأ يغرف الطعام إلى صحنه وهو يقول: «خذي المزيد من

الكباب مس بيل». كان واضحاً أن الرئيس طالباني يرى ضرورة بأن أكسب المزيد من الوزن. وهو نفسه قد اكتسب المزيد من الوزن خلال السنوات القليلة الماضية. كان يقف إلى الخلف منه شاب كردي يراقب صحن الرئيس وهو يمتلئ بالطعام، وكان الأطباء المشرفون على صحته قلقين للغاية من نظامه الغذائي.

بعد ذلك ذهبنا للقاء المالكي، وهناك كشف له أوديرنو أن قوات التحالف قد حدثت عملياتها في مدينة الصدر بنسبة كبيرة. لكن وحدات قوات التحالف ما زالت تتلقى الهجمات بواسطة المتفجرات الإيرانية الصنع، وتسقط عليها صواريخ 240 ملم، كذلك إيرانية الصنع. وقال أوديرنو: «نحن نتفهم أن تلك الهجمات تأتي من جانب عناصر إجرامية، وليست من الجزء الأكبر من جيش المهدي، لكن بينما تراجعت الهجمات على المنطقة الخضراء، فقد ازدادت على معسكر فيكتوري، وكلها كانت تنطلق من أحياء يهيمن عليها الصديرون بقوة».

وبين أوديرنو للمالكي بأن قوات التحالف ستكون مضطرة أن تطلق النار وهي في حالة دفاع عن النفس إذا ما واجهتها نيران معادية. فأجاب المالكي: «نعم، لكن حتى في هذه الحالة، يتوجب على قوات التحالف ألا تفرط في استعمال القوة. يعني ما فائدة اصطیاد عنصر مطلوب وقتل خمسة أو عشرة أبرياء عرضاً؟». ثم شرح المالكي وجهة نظره بأن هذه الخسائر في جانب المدنيين ستؤدي إلى إثارة غضب الشارع العراقي تجاه الحكومة العراقية وتجاه قوات التحالف على حد سواء. ثم اقترح أن تزود قوات التحالف الجانب العراقي بأسماء المطلوبين، ربما ستمكن القوات الأمنية العراقية من إلقاء القبض عليهم دون أن تقتل أحداً من المدنيين.

لكن الذي حدث للأسف كان غير ذلك. ففي يوم 20 تشرين الأول 2007، وقعت وحدات من قوات التحالف تحت مرمى النيران وسط مدينة الصدر، وقد استدعت المروحيات لتتدخل بإطلاق النار مما تسبب في مقتل 49 شخصاً، ادعت قوات التحالف أنهم كانوا يطلقون النار باتجاه وحداتها، لكن التلفزيون العراقي عرض صوراً لنساء وأطفال قتلى. وكان هناك صخب كبير في البرلمان حول الحادثة. وليس بعيداً بعد تلك الحادثة، وقع إطلاق النار من قبل حراس شركة بلاك ووتر الأمنية في ساحة النصور، الأمر الذي أدى إلى مقتل 17 مدنياً عراقياً. وصار المالكي في شكٍّ وريبة من أن تلك الأحداث كلها مدبرة. وهدد بعدم توقيع اتفاقية الشراكة الاستراتيجية مع الولايات المتحدة، وبعدم تجديد قرار مجلس الأمن الذي يحدد شكل التواجد العسكري الأجنبي في العراق.

كانت الأوضاع تنذر بالمزيد من الفوضى والإرباك. ولم تتقدم المفاوضات مع الصدرين، وبقي صفاء هو الوسيط الأساس. كان يطلعنا باستمرار على سير محادثاته. ونتيجة لتعرقل هذه المحادثات، قال أحد العقلاء الأميركيين بأنه يرى أن صفاء نفسه كان عضواً في جيش المهدي، لم يصدر مني أي رد فعل سوى أن أرمي برأسي إلى الحائط.

كان الجنرال أوديرنو متحوطاً جداً تجاه المحادثات مع الصدرين، صحيح أنه كان يؤكد أن علينا فتح الحوار مع الجميع، لكنه شدد على ألا نمنح الممثلين الصدرين أي شرعية، أو ضمانات، ما لم يظهروا أكثر من مجرد وعود. لقد مرت قوات التحالف بهذه اللعبة مع مقتدى الصدر في مناسبات كثيرة. وكثيراً ما كان يتدخل زعماء قبائل أو زعماء دينيون من أجل تحقيق انفراج في الأوضاع، وكل ما كان يسعى إليه مقتدى الصدر

هو فسحة من الراحة والتقاط الأنفاس. الآن نحن في الموضع الأقوى، وقد خسر مقتدى الصدر الدعم الشعبي. وفي الأسبوع الأول من تشرين الأول تعرّضت قوات التحالف إلى 14 هجمة بالعبوات الناسفة الإيرانية الصنع، وكانت تنفذ من قبل المجاميع الخاصة المرتبطة بإيران. وبدأ أن المطاردات التي تنفذها قوات التحالف في مدينة الصدر لن تفضي إلى أي نتيجة، فليس لدى الصدرين في مدينة الصدر الرغبة في التوصل إلى حلول وسط.

لكن صفاء وجد فرصة ممكنة للمصالحة في مكان آخر. كان حي الجهاد (جنوب غرب بغداد) مكاناً مختلطاً فيه من السكّان الشيعة والسنة. وهناك كان الصدريون يرغبون بالحصول على الحماية تجاه المجاميع السنية. ولقد أدركوا أن عليهم التوجّه نحو المصالحة لو أرادوا البقاء. وبحث في الأمر، فوجدت أن المقدم باتريك فرانك (Frank)، وهو آمر الكتيبة 28 (الأسود السوداء)، من الفرقة الأولى والتي تنتشر في جنوب غرب بغداد قد توّصل بالفعل إلى تحقيق لقاء للمصالحة وجهاً لوجه. كان الأمر مهماً للغاية، لكن المعلومات لم تصل عبر سلسلة المراجع صعوداً إلى الجنرال نظير أوديرنو حيث تم اعتبارها غير مهمة.

واستدعى الجنرال أوديرنو المقدم فرانك، بالإضافة إلى قائد فرقته من أجل أن يطلع على التجربة. كان المقدم فرانك متكلماً شديداً الوضوح، وشرح بالتفصيل ما أقدم عليه. وكيف أن جنود كتيبته كانوا يتمتعون بصلات جيدة مع الناس في حي الجهاد، واكتسبوا ثقتهم هناك. قبل ذلك بشهر أو شهرين، كان الجنرال أوديرنو قد وجّه سؤالاً إلى ضباطه يسألهم إن كان أحد منهم قد تواصل مع المتمرّدين، أو أن أحدهم

قد تواصل مع جيش المهدي. وعلى أثر ذلك، كتب المقدم فرانك رسالة إلى (أبو دوما)، وهو قائد جيش المهدي في منطقته يدعو فيه إلى الحوار والتباحث. وقد صار اللقاء حقيقياً واستجاب له أبو دوما بعد أن حضره عدد من شيوخ العشائر والوجهاء الشيعة في المنطقة وبرعاية المقدم نفسه. كان واضحاً بجلاء أن المقدم فرانك أكثر جرأة من كل أعضاء سلسلة القيادة التي تعلوه. ومنحني الجنرال أوديرنو الإذن بأن أنسق عملي بشكل مباشر مع المقدم فرانك دون المرور بسلسلة الضباط الأعلى منه رتبة.

لقد أمضيت وقتاً مع المقدم فرانك في حي الجهاد، فوجدت فيه رجلاً مثالياً آخر من أولئك الذين أعرفهم. مليء بالطاقة والحيوية، ولديه ذكاء ومستوى متقدم من التعليم. كان يحمل إيماناً بأن جنود الولايات المتحدة بإمكانهم تغيير العالم. كما التقيت عدداً من ضباط وحدته، وحين اكتشفت الطريقة ومستوى الاحترام الذي يعاملون به العراقيين في حي الجهاد، لم يكن مستغرباً لديّ أنهم حازوا ثقة الأهالي هناك وتمكنوا من عقد صفقة للمصالحة ودعم الاستقرار.

وفي أحد الأيام وقفت عند زاوية شارع في حي الجهاد أتحدث إلى النقيب براين دو كوت. وأخذ يحدثني عن أهالي المنطقة، ورغباتهم، وكبريائهم والقضايا التي يرغبون بأن نراعيها ونحترمها، وقال لي: «لإنجاز هذه المهمة، علينا ألا نكتفي بما يحمله الجندي العادي من روح تبشيرية». لقد أكبرت في النقيب دو كوت بأنه بحث عن مواطن تبادل الاحترام مع السكان المحليين قبل أن يفكر في إخضاعهم.

بعد ذلك دعوت المقدم فرانك للحضور إلى المنطقة الخضراء ولقاء د.باسمة. كنّا مندهشين من هذه التجربة الناجحة على الأرض في تحقيق المصالحة. كانت تلك محاولة أيضاً لبناء سمعة صفاء كمحاور ووسيط

في المصالحة. وقد وافق الجنرال أوديرنو على إطلاق سراح عدد من المعتقلين من منطقة حي الجهاد في مقابل أن يكف جيش المهدي عن هجماته هناك. كانت العمليات السابقة لإطلاق سراح المعتقلين، لم تؤد إلى تقليل الهجمات، ولم تحدث أي فرق في التسريع في عملية المصالحة. لهذا، كان الجنرال أوديرنو يؤكد على أن يكون المُطلق سراحهم هذه المرة أن يكونوا من أوطأ درجات المعتقلين خطورة.

كنت أنتظر نتائج الإفراج عن المعتقلين، وحين وصلت الأخبار إلى أهاليهم، أقاموا احتفالاً استعداداً لاستقبالهم. لكن المفاجأة جاءت هذه المرة من قوات التحالف. فقد أطلقت سراح تسعة معتقلين، ثلاثة منهم كانوا من السنة، وواحد فقط كان أهله يسكنون حي الجهاد بالفعل. وفي الحقيقة حتى هذا الفرد لم يكن جزءاً من جيش المهدي على الإطلاق. ووقفنا أنا وصفاء نضحك من هذه النتيجة، لقد كانت خطأ غير مقصود، لكن العوائل تعاملت بحصافة مع الموضوع، فيما كانت قوات التحالف تعمل على تدارك الموضوع.

وحدد المقدم فرانك يوم 18 تشرين الأول، ليكون اليوم الذي ستعقد فيه جلسة المصالحة الكبرى لكل قادة المجتمع الأهلي في حي الجهاد. وذهبنا إلى المنطقة الخضراء كي نقل د.باسمة وصفاء إلى موقع انعقاد اللقاء في مركز رجال الأعمال في مطار بغداد. ووضعنا د.باسمة في عربة هامفي وكانت تقهقه، فقد كانت بوابة العربة صغيرة، فيما يشغل الكراسي الأخرى جنود أميركيون. وحين وصلنا إلى مقر انعقاد الجلسة أخذت هاتف د.باسمة كي تركز على الأحداث القادمة.

تجاوز عدد الحضور خمسين شخصاً كلهم كانوا من قادة المجتمع في حي الجهاد. وألقى كل من صفاء ود.باسمة كلمتين منفصلتين

ركّزاً فيها على اهتمام رئيس الوزراء بمنطقة حي الجهاد، وعلى أهمية المصالحة، وأن يعمل الشيعة مع السنة من أجل مستقبل العراق.

كما ركّز صفاء على أن مقتدى الصدر قد نادى بتجميد جيش المهدي، ولهذا فإن أي شخص لا يلتزم بهذا القرار سيكون بالضرورة غير منتم إلى هذا المسمى. وتوجّه المقدّم فرانك بكلمةٍ حصرية قال فيها: «أنتم تقع عليكم مسؤولية المصالحة، وأن تكونوا نموذجاً للمدينة كلّها وليس فقط منطقة حي الجهاد. أنتم تتحملون مسؤولية 300 ألف من سكّان الحي، لكنكم تحملون آمال 7 ملايين إنسان يسكنون بغداد ويتطلّعون للأمن والسلام». أمّا بعض وجهاء الحي فقالوا إن هذه هي المرّة الأولى التي تهتم بها قوات التحالف في عقد مصالحة محلية بين الأطراف جميعها. وخلال الاجتماع تم اختيار اثنين من السنة واثنين من الشيعة للاجتماع في غرفة منفصلة. وبعد نقاش مطوّل جرى الاتفاق على أن يكون للجيش العراقي وقوات التحالف دوريات مشتركة، وأن يكون الاستهداف فقط لأولئك الذين يمارسون العنف. كما جرى الاتفاق على منح الحصانة المشروطة للذين يتخلّون عن السلاح. وتم توقيع مسوّدّة معدّلة من الاتفاق. وكان هناك الكثير من الضحكات والتقاط الصور.

وأدلت د.باسمة بتصريحات لوسائل الإعلام التي حضرت للتغطية، وأخبرت مراسل (واشنطن بوست) بأنها تؤمن بأن طريق المصالحة هو الطريق الوحيد الذي يمكن أن يجلب السلام والاستقرار. وأنها لاحظت كلّما جرى تنفيذ عملية مصالحة من مثل التي حصلت اليوم، فإن العنف يتراجع. أمّا صفاء فقد صرّح للصحيفة نفسها قائلاً: «إن هؤلاء الحضور اليوم هم من الشيعة والسنة، وقد وقع القتال بينهما فيما سبق لكنهم اليوم يتفقون على إحلال الاستقرار في حيّهم.

كانت مثل تلك الأيام تجلب إلى نفسي الأمل مجدداً. وصرت أظن بإمكانية جلب الأمور في العراق ثانية إلى الاتجاه الصحيح. الأمر محتاج فقط لجهود ضخمة، ولأشخاص مناسبين لأجل دفع الأفعال المطلوبة في وقتها المحدد. ولأن المقدم فرانك كان أنيقاً ولطيفاً مثل الشوكولاتة، فقد أحبته د.باسمة. لقد عاملها بلطف واحترام بينما كان باقي الضباط يحاولون أن يتخطوها بقوة. ولأن المصالحة الوطنية على المستوى الوطني متعطلة، فكان إنجاز بعض الاتفاقات المناطقية لزرع الاستقرار ضرورة ملحة لا تقدر بثمن.

ولإظهار الدعم، وفي محاولة لتغيير الصورة الشعبية عن قوات التحالف بعد حادث إطلاق النار تجاه المدنيين، قرر الجنرال أوديرنو أن يصحب لجنة عراقية لزيارة حي الجهاد والاطلاع عن كثب على ما تمكنت منه المصالحة هناك. كانت اللجنة القادمة من مكتب رئيس الوزراء برئاسة الجنرال أبي محمد. وقد رسم المقدم فرانك خط سير الجنرال واللجنة بدقة عالية. وقمنا بزيارة محطة لضخ مياه المجاري، وكانت في الحقيقة لا تعمل. ثم زرنا الأسواق، وخاطب الجنرال أبو محمد تجمع الناس من وجهاء حي الجهاد قائلاً: «عليكم المحافظة على ما تحقق من استقرار بسبب المصالحة، وكونوا حذرين فإن أي مصالحة ناجحة ستكون مستهدفة، وحتى بعض وسائل الإعلام قد اشتركت في ترويج الإشاعات عن فشل المصالحة في حي الجهاد». وكانت تقارير صحافية قد تحدثت بالفعل عن قتل اثنين من المختطفين من حي الجهاد وقطع رأسيهما، ثم تبين أنهما حيان وقد أطلقت إحدى الميليشيات الشيعية سراحهما.

بعد ذلك زرنا مقر الهلال الأحمر في الحي، وقام الجنرال أبو محمد

بتوزيع 50 كرسيًا مُدولبًا على المعاقين وفاقدي الأطراف (كانت قوات التحالف قد جهّزتها). كان أحدهم شرطياً فقد ساقه في تفجير في منطقة الدورة، وأخبرني بأن أهل خطيبته قد فسخوا خطوبته منها بعد إصابته. والآن سيحاول أن يحصل على أطراف صناعية ويتقدّم لها مجدداً لعلهم يوافقون. خلال تلك الجولة أعجبنا صراحة بطريقة الجنرال أبي محمد في التعامل مع الناس. كان الجنرال أوديرنو يحمل تحفظاً كبيراً تجاهه، سبب ذلك التقارير الاستخبارية التي كانت تصله عنه، لكنه أثبت قدرته على التحرك ميدانياً، وقد جمع ممثلي الوزارات الخدمية وبدأ بالتنسيق لتقديم المزيد من الخدمات.

وخلال إحدى زياراتي إلى مكتب القائد العام، كان ذلك في تشرين الثاني، أطلعني الجنرال أبو محمد على تفاصيل تبين أن مجاميع بدر قد ارتكبت بعض أعمال العنف مدّعية أنها قد اقترفتها جماعات جيش المهدي، ومتخذة من هذا الاسم غطاء لها. وقال إن العنف صار مختلطاً ومُربكاً وهو لا يعرف بالضبط ما يجري. وبين أبو محمد أن أعضاء بدر كانوا قد تعرّضوا إلى عمليات غسيل للدماغ إبان تواجدهم في إيران كأسرى حرب، وأن معظمهم قد تزوج من نسوة إيرانيات هناك. أما د.باسمة فقد أنحت باللائمة على الأميركيين الذين وضعوا المعارضين الذين كانوا في المنافي بمركز القوة. ثم تدمّرت من أن العراق محكوم الآن بالفعل من قبل المجلس الأعلى الإسلامي الذي يتبع إيران، ومن قبل الأكراد الذين لا يريدون البقاء كجزء من العراق.

ثم أجرى صفاء زيارة إلى النجف للقاء الهيئة السياسية للتيار الصدري؛ هؤلاء كان القلق يعتريهم بأن تفهم مواقف تجميد جيش المهدي على أنها علامة ضعف من جانبهم. وكانوا متوجّسين أيضاً من

التقارب بين المجلس الأعلى والمالكي، لكنّ صفاء وجه إليهم اللائمة في ذلك، وألقاها على قرارهم بالانسحاب من الحكومة، وهو الأمر الذي ترك المالكي أمام الأكراد والمجلس الأعلى كحلفاء له، ولا يتوافر على غيرهم. وشرح للصديريين أن التحالف يضمّ بين جنباته تيارات أيضاً -كما هو حال الصديريين أنفسهم- وليس كل من هو ضمن التحالف راغب بقتل العراقيين فبعضهم يرغب حقيقة بإعادة إعمار العراق. كنت أتبسّم لهذه الجزئية، حيث إن العراقيين كانوا على الدوام يجدون صعوبة في فهم قوات التحالف.

وفي إحدى الأمسيات، وبينما كنت عائدة من قاعة الطعام في معسكر فيكتور، وأنا أحمل عشائي، سمعت صوت انفجار قوي، ثم تبعه انفجار آخر، ثم تبعه آخر. كانت هناك صيحات تنادي الجميع بأن يحتموا بالملاجئ. ثم بدأت الأخبار والتفاصيل تأتي شيئاً فشيئاً. وحين اجتمعنا بفرقة بغداد⁽¹⁾، حضر الجنرال فيل (Fil) متأخراً، وشرح لنا كيف أن الصواريخ قد أصابت قاعة الطعام وتركت اثنين من الجنود يعانون من إصابات خطيرة، وكانت هناك مواقف رائعة أبداها بعض الجنود الذين حموا زملاءهم بدلاً من تركهم والبحث عن ملجأ. كان الجنرال فيل يصف الأحداث والدموع معلقة على طرف عينيه.

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم جاءت التفاصيل بأن اثنين من الجنود قد قتلوا نتيجة القصف، وأن 25 جندياً أصيبوا، جراح بعضهم خطيرة.

استمر القصف باتجاه معسكر فيكتور، وكانت الصواريخ تنطلق من مكان في غرب بغداد، وبالتحديد المنطقة التي كنت منشغلة فيها بتحقيق المصالحة المجتمعية.

(1) فرقة الجواله العسكرية الأميركية المنتشرة في بغداد آنذاك - المترجم.

وغداة هجوم آخر، وفي غرفة العمليات، قال الجنرال أوديرنو: «يا مدير العمليات، سلّم إيما كشف نقاط المصدر».

ونفضت من مكاني ومشيت خلف مقاعد الضباط واتجهت إلى مدير العمليات رايان غونزالفيس (Gonsalves) الذي كان يحمل سلايدات خاصة بكشف نقاط مصادر القصف. لكنّه لم يسلمها لي، وبدلاً من ذلك قال لي: «أصدقائك هم من يواظبون على قصفنا، الآن يتوجب علينا قتلهم!».

فأجبت بهدوء: «رجاء!... سلّمني كشف مصادر الانطلاق»، لكنّه لم يُجبني، فقلت للجنرال أوديرنو: «سيدي، رجاء وجه مدير العمليات بأن يسلمني كشف نقاط مصادر الانطلاق».

فالتفت الجنرال كي يرى ما يحدث خلفه، وقال: «يا مدير العمليات، لقد أمرتك بأن تسلمها الكشف!». فرمى مدير العمليات بالكشف تجاهي وهو منزعج. فأخذته وعدت إلى مكاني صامتة.

وحالما انتهى الإيجاز، اتصلت بصفاء وأخبرته بمناطق انطلاق الصواريخ بالضبط. وقلت له إن هذه الصواريخ يجب أن تتوقف، وإن صبر قوات التحالف بدأ بالنفاد. وحذرت من عواقب الأمور. وبعد ذلك بفترة قصيرة أخبرني صفاء أن (أبو علي) وهو قيادي مهم في مجموعات جيش المهدي في حي الجهاد، قد ربّ للقاء مع المقدّم فرانك، من أجل تقديم التعاون له لتحديد الصواريخ ومكان انطلاقها ومنعها أو «تحييدها». هؤلاء الناس في العادة لا يثقون بقوات التحالف، لكنهم هذه المرّة وثقوا بالمقدم فرانك نتيجة سمعته الحسنة بينهم.

وهنا بدأت أطرح قضية المصالحة بقوة مرّة ثانية، الآن لدينا قيادي

مهم في مجموعات جيش المهدي وقد اتصل بنا عن طريق الحكومة وهو راغب بالتعاون. إن المصالحة لا تعني التعاون مع المعتدلين فقط، بل تعني أننا يجب أن نتحاور مع المتطرفين ونحاول إخراجهم من مواقفهم السابقة تجاهنا.

بعد ذلك اقترح علينا صفاء أن نضع (أبو مريم) على لائحة الأهداف المحظورة (هذا يعني أن قوات التحالف لن تعتقله)، والسماح له بالعودة إلى حي الجهاد. كان أبو مريم رجل دين راديكالياً، ويدير منظمة من المنظمات غير الحكومية، لكن المعلومات الاستخبارية تقول إنه ضالع في قيادة عمليات جيش المهدي في مناطق غرب بغداد. وجاء السماح له بالعودة من أجل أن يلعب دوراً إيجابياً في عملية المصالحة.

كان ذلك الأمر بالضد من إرادة فرقة بغداد التي لم تحبذ الفكرة، لكن الجنرال أوديرنو أوكل الموضوع إلى المقدم فرانك وطلب منه المضي قدماً، وألاً يتأثر بآراء مراجعه الأعلى منه رتبة والذين كانوا بالضد من الفكرة.

ثم رتب صفاء لحضور أبي مريم إلى مكتبه في المنطقة الخضراء، وحين التقيته بدا لي مضطرباً جداً، ربما لم يلتق فيما سبق بأي من عناصر التحالف. وأخبرني بأنه قد تعاون فيما سبق مع ضباط التحالف، لكن الضباط الجدد لم يكونوا بقدر التعاون المطلوب. ثم اشتعلت الأحداث الطائفية واضطرابات العنف، ثم جرى تفجير حسينية وجامع في المنطقة. كما ادعى أنه قد وجهت له تهمة بارتكاب أعمال لم يكن على علاقة بها، وفجأة وجد نفسه مطلوباً في مقابل مكافأة 10 آلاف دولار لمن يدلّ قوات التحالف عليه.

وعرضت عليه أن يعود إلى حي الجهاد، ويشارك في عملية بناء

المجتمع المدني، وربما يشارك في عملية إعمار المرقد المقدس. وكان ذلك مشروطاً بالتعاون في بسط الاستقرار في المدينة، وإن كان موافقاً فسنضعه على لائحة الأهداف المحظورة. فوافق على الفور. ثم قال: «إن نجح هذا الأمر فإنه سيتخذ مني زوجة ثانية له!». في الحقيقة لم أكن أعلم الطريقة المناسبة للرد على هذا النوع من المجاملات فاكتفيت بالابتسام. ثم وصل الجنرال أوديرنو إلى المبنى، وذهبت إليه لأوجز له ما حصل من اتفاق. ودخل أوديرنو على (أبو مريم) من أجل إلقاء التحية، كان لقاءً قصيراً جداً من أجل إتمام الاتفاق بينما اهتممت أنا بباقي التفاصيل، لكن (أبو مريم) لم يكف عن التملل. وحين خرج أوديرنو قال لي: «اعذريني، فحينما رأيت حجم الجنرال أوديرنو كنت مرعوباً وتلكأت في طلب يدك منه!».

لكن الأهم من هذا كله، أن تعاوناً مهماً بدأ يصدر من المجتمع الشيعي في حي الجهاد، وقد تراجعت الهجمات على معسكر فيكتوري بدرجة كبيرة.

قصة ما حدث في حي الجهاد ببغداد جعلتني في تماس لوقت طويل مع المقدم فرانك، لقد وجدت فيه إدراكاً استثنائياً لأهمية الحوار والمصالحة مع الأهالي أيما كانت توجهاتهم. لقد فقدت كتيبته 19 جندياً لكنه يصف فقدانهم: «كلما سقط أحد جنودنا قتيلاً فإننا كنا نزداد إصراراً على أن ننهي المهمة بأفضل شكل، لا نريد أن تذهب تضحياته سدى، ومهمتنا أن نغادر هذا المكان وهو أكثر استقراراً». هذا الوعي لم أجده في الكثير من الضباط القداماء الأكبر سنّاً. لقد تشرب هؤلاء الضباط الكبار بعقلية ثنائية ضيقة عن الحرب، فهم يرون أن «العدو»، هو ما يقع دائماً في الخندق الثاني، وهذا ما جعل فهم المصالحة من جانبهم أمراً صعباً. في الحقيقة كانت

مشاريع المصالحة تبدأ دائماً من الضباط الشباب من قادة الكتائب، وقلماً
أمكنني وصف تفاعل الضباط الكبار مع تلك الأفكار. لقد وجدت أمراً
في العقلية الأميركية الكلاسيكية مغروساً بعمق في نفسية الضباط الكبار،
وهي فكرتهم عن الخير والشر (معسكر الأعداء ومعسكر الأصدقاء)،
هذه الثنائية لا تنتج الكثير حين يكون المجال متاحاً أمام الحوار كفرصة
لزرع الاستقرار. وهو أمر مرعب أن نجده لدى ضباط مُهمّين في الجيش
الأميركي، ليس أقلّ رعباً من فكرة أحد الضباط الكبار الذي لا ينام إلا
والمسدس المحشو والإنجيل قرب فراشه.

الفصل الثالث عشر

النصر

«سأتلو صلاة من أجل السلام... من أجل كل شاب سقط صريعاً...
وسأطلب الحرية لروحي، سأصلي كي ألقى السلاح. آه يا أمنا العذراء،
لقد تعبنا؛ لكننا لن نعود إلى الديار حتى نرمي آخر إطلاقاً!».

من أغنية للمغني الأميركي ترايس أدكنز

* * *

الوقت في العراق يبدو في حالة مذّ وجزر. ويجد المرء الكثير من الأحداث قد تحصل في اليوم الواحد، فيصبح وكأنه يوم بلا نهاية. وفجأة انتهى العام، وحان وقت رحيل العديد من الوحدات القتالية، بما في ذلك وحدات الصّاعقة والتدخل السريع التي كانت تحت إمرة الجنرال أوديرنو، وجرى تهيئة وحدات جديدة ستأتي لتحل محلّها. وفي أواخر تشرين الثاني طرنا إلى تكريت لنحضر مراسم التحيّة والوداع للجنرال راندي ميكسون (Mixon)⁽¹⁾، حيث سيغادر هو وفرقته التي كانت تنتشر في شمال العراق.

وفي الاحتفال ألقى الجنرال أوديرنو كلمة أثنى فيها على شجاعة جنود الفرقة، الفرقة كانت قد خسرت 200 جندي، قتل نصفهم في عمليات محافظة ديالى تحت إمرة العقيد ساذرلاند. وأصيب الآلاف غيرهم بشتّى الإصابات، لكنهم الآن يغادرون وقد تركوا محافظة ديالى خلفهم وقد انبسط الاستقرار فيها. وفي طريق العودة توقّف الجنرال مراراً لتكريم جنود بعض الوحدات المتميزين، وهذا كان من أكثر الأشياء التي يتوق الجنرال لتنفيذها بنفسه.

وفي بغداد، استدعى رئيس الوزراء نوري المالكي الجنرال أوديرنو، وأبلغه بأنه يشعر بالصدمة إزاء ما نقل إليه من تقارير من أن مسلّحين بالزي الرسمي الذي يشبه زيّ القوات الأميركية قد نصبوا نقاط تفتيش

(1) كان وقتها قائداً لفرقة المشاة 25، وعُرف ميكسون فيما بعد بمعارضته لسياسة إخفاء المعلومات التي يتبعها البنتاغون، وكتب مقالاً شهيراً لصحيفة (ستار أند ستريب) ركّز فيه على حقّ العائلات في معرفة أسباب مقتل أبنائهم في العمليات العسكرية، وهو الأمر الذي أدخله في نزاع قانوني مع وزير الدفاع روبرت غيتس وقائد الأركان المشتركة الأدميرال مايك مولين، حتى تقاعد في أواخر عام 2011 برتبة فريق (جنرال بثلاث نجوم) - المترجم.

في حي السيدة جنوب غرب بغداد، وهم يستوقفون الناس ويفتشون سياراتهم. كانت وجوههم مغطاة، وحتى إن بعضهم ليسوا من أبناء حي السيدة بالأصل. المالكي اعتبر أن ذلك الأمر يشكل خطراً على أمن العاصمة، وأن وجود أعضاء الصحوة من المسلّحين السنّة (المتطوعين) بهذا الشكل سيثير ردّة فعل طائفية قد نسمع صداها حتى في النجف⁽¹⁾.

لم تكن الحكومة العراقية أو الجنرال عبود كنبر يعرفان أي شيء عن الموضوع. فهل كانت قوات التحالف تخفي الأمر عنهما؟. وكيف يمكن لحكومة مستقلة أن تقبل بوجود مسلّحين في شوارع عاصمتها لا يخضعون لإرادتها؟.

أوديرنو شكر المالكي لوضوحه وصراحته، وقال له بأن الأمر كلّه ينحصر في سوء التواصل. فقد ظنّ ضباط قوات التحالف وقادتهم بأنهم يواصلون إعلام القادة العسكريين العراقيين بأيّ متغيّر، لكن الأوامر والمعلومات لم تصل إليهم عبر سلسلة مراجعهم.

كانت نقاط التفتيش في الشوارع تدار بشكل مشترك من قبل القوات الأمنية العراقية وعدد من المواطنين المحليين المسلّحين المهتمّين (يرمز لهم الجيش الأميركي بمصطلح «CLCs»). وقال إن السيدة ربما تكون المنطقة الأكثر حساسية في بغداد؛ حيث إن القاعدة وعناصر جيش المهدي يتنازعون الهيمنة عليها في الوقت نفسه، وربما هذا ما قاد إلى إساءة تقدير من جانب سكّانها حول حقيقة ما يجري.

لكنّ الجنرال أوديرنو أكد للمالكي بأن الأولوية لدى قوات التحالف تكمن في تحقيق الأمن والاستقرار، وكان المواطنون المسلّحون

(1) المقصود هو أن المالكي هنا يلوّح لأوديرنو برّدّة فعل من جانب مقتدى الصدر وجيش المهدي، وأنه سيكون في حلّ منها - المترجم.

(CLCs) يبلون بلاءً حسناً في هذا الجانب. صحيح أن معظمهم كانوا من السنة، لكنّها كانت طريقة لسحبهم من الانزلاق إلى العنف، وجعلهم يُبدون نوايا حسنة تجاه الحكومة.

كان الجنرال أوديرنو قد قابل بنفسه معظم أعضاء هذه المجموعات المسلحة، وصار معلوماً لديهم بأنهم مُخلصون، رغم أن هذا الإخلاص يحتاج إلى مراقبة دائمة.

لكن المالكي قال له: «جنرال أوديرنو، ربما أنت لا تهتم كثيراً بالجوانب السياسية، كونك رجلاً عسكرياً. إلّا أن هؤلاء المسلحين يتسببون بمشاكل سياسية، وليس فقط بمشاكل أمنية على الأرض».

وبدأت أعداد أفراد الصحوة الذين يستلمون الرواتب من قوات التحالف بالازدياد بصورة متصاعدة. وفي كل إيجاز نسّلمه للحكومة العراقية كانت الأعداد تزداد. 50 ألفاً، 60 ألفاً... حتى وصل العدد النهائي إلى 130 ألفاً من أفراد الصحوة، كلّهم مدرجون على قوائم تسلم الرواتب. حتى إن الجنرال أوديرنو وجّه المشرفين عليهم بأن يزودوه بقصص نجاح عن أدائهم الفردي، ووضع في مقر القيادة صورة إعلامية لإحدى نقاط التفتيش النموذجية التي تديرها الصحوة.

لكن المالكي كان على العكس تماماً من هذه الرؤية، فلم ير فيهم سوى مجموعة من المتمرّدين الذين قد ينقلبون بالضد من القوات الأمنية العراقية في أي لحظة⁽¹⁾.

كان المالكي يتساءل باهتمام وتشخيص عن السبب الذي يدفع قوات

(1) بالفعل حدثت حالات تمرد واسعة بين أفراد الصحوة، وانزلقت بعض المجموعات إلى الجريمة المنظمة وأشهرها مجموعة صحوة الفضل في بغداد التي كان يقودها عادل المشهداني الذي حكم عليه بالإعدام ونفذ فيه الحكم لاحقاً - المترجم.

التحالف إلى تفضيل تجنيد المتمردين السابقين في صفوف الشرطة بدلاً من المواطنين المعتيادين، وعن العلة في منحهم الأولوية. كان يضح لنا باستمرار التقارير عن أفعال شنيعة تورّطت بها بعض مجموعات الصحوة في بغداد، بينما استمرت قوات التحالف في رده بالتقارير الإيجابية عن أدائهم، وهو الأمر الذي رفع مستوى الشكوك لديه.

وفي أحد الأيام وبينما كنت أهمّ بالدخول إلى مكتب القائد العام للقوات المسلحة أخذني الجنرال أبو محمد إلى غرفة جانبية صغيرة، وهناك حدّثني قائلاً إن المالكي وصلته أنباء عن مؤامرة يعدّ لها «المتطوّعون» المنخرطون في الصحوة تستهدف إلى الإطاحة به. ثم كشف لي ورقة تحتوي على ما يفترض بأنه خطة الانقلاب. الخطة تتضمن مهاجمة كل مداخل بغداد في آن واحد بسيّارات مفخخة (المدائن، التاجي، البوعيثة، الدورة، الراشدية، أبو غريب)، ثم تتوجه مجموعات من قوات الصحوة لدخول المنطقة الخضراء، وكان يفترض بقوات التحالف أن تترك لهم المداخل مفتوحة لمدة ساعتين لتسهيل الانقلاب. وهو الآن قد جمع الضبّاط الكبار للتخطيط لكيفية الرد على هذه الخطة وإجراء الاحترازمات الأمنية. وإن من أبلغ المالكي بتفاصيل هذه الخطة هو الفريق فاروق الأعرجي.

فقلت: «إلام يهدف بحق السماء الفريق فاروق الأعرجي من وراء هذا؟!». وأكملت بالقول: «إن الفريق فاروقاً يريد أن يظهر بمظهر المنقذ للبلاد عبر كشف هذه المؤامرة».

أمّا الجنرال أبو محمد فقد بيّن لي أن الفريق فاروقاً يتحرّك مدفوعاً بالعداء تجاه د.باسمة، وهو يحاول أن يزيح ما حققته لجنتها في ملف المصالحة، وعبر اتهام المتطوّعين في الصحوة بهذه المؤامرة، فإنه سيجد المفتاح لتقويض هذه الجهود.

بعد ذلك عدت راجعة مباشرة إلى معسكر فيكتوري لإطلاع الجنرال أوديرنو على الأمر. وكانت أول جملة قالها أوديرنو هي: «كيف يمكن للمالكي أن يصدّق هذه التفاهات؟». وهزّ رأسه وسكت لبرهة ثم قال: «ما يؤلمني فعلاً في المالكي هو أنني مواظب على مساندته في العلن، بينما أشعر في داخلي أنّه في حقيقته شخص طائفي للنخاع».

وحين عدتُ إلى مكّتي، وجدت أن رسالة بالبريد الإلكتروني قد وصلتني من الجنرال البريطاني بول نيوتن (Paul Newton)، وهي موجّهة إلى الجنرال بيترايوس، وإلى الجنرال أوديرنو ونسخة لي منها؛ يشرح فيها كيف أن د.باسمة قد كانت تتعامل بفظاظة وعدائية مع ضباط عراقيين كبار. كنت أعرف أن د.باسمة كانت مُحِبطة من أداء القوات الأمنية العراقية، حيث لم تكن تلك القوات تعرف كيف تتعامل مع متطوعي الصحوة، ولذلك طلبت د.باسمة من قوات التحالف وضع سياقات بهذا الشأن. كانت ترغب بفضح القوات الأمنية من خلال عملها اليومي. وكانت منزعة تماماً من الطريقة التي عومل بها ضباط الجيش السابقين الذين قرروا الالتحاق بالقوات الأمنية، وكانت هناك إشاعات تفيد بأن كل ضابط توجّب عليه دفع رشوة إلى مركز الالتحاق بحدود 500-600 \$ من أجل قبوله.

وافترضتُ من جانبي أن د.باسمة قد قامت بزيارة إلى القوات الأمنية العراقية بحضور الجنرال نيوتن. ثم جاء رد الجنرال بيترايوس على الرسالة الإلكترونية ليقول: «إيما رجاء، حاولي احتواءها... وخذي بنظر الاعتبار أننا نريدها أن تعمل بدبلوماسية، ولا نريدها أن تتحول إلى مقاتل ميداني».

فأجبتّه برسالة وصلت إلى الجميع: «سيدي، ربما تكون قد لاحظت

أنني كنت أعمل على احتواء الجنرال أوديرنو خلال الشهور الماضية،
فهل تحوّل إلى شخص أكثر لطافة ودبلوماسية؟!».

فأجاب بيترايوس: «نعم، تحوّل حقيقي إيما!».

أمّا أوديرنو فأجاب: «هذا شيء لا يصدق!».

تخيّلته وهو يضرب الطاولة أو الكومبيوتر بقبضته، ويحاول أن يطبع
الكلمة الوحيدة بإصبعين، حيث جعلها باللون الأزرق وبحجم حرف 14!.

بعد ذلك دعاني أوديرنو إلى لقاء مع السفير كروكر في قصر الفاو.
وفي اللقاء، طرحت موضوعاً يتعلّق بأعداد أفراد متطوعي الصحوة،
حيث إننا في كلّ خلاصة نقدمها للعراقيين كان الرقم يزداد. والآن
د.باسمة تريد منّي تقديراً نهائياً لأعدادهم، كما تريد تقييماً للتهديدات
والمخاطر. كانت القوات الأمنية العراقية تسقط حثيثاً في فخ التقسيم
الإثني والطائفي.

قلت لـ د.باسمة، إن الجنرال أوديرنو مهتم جداً، ويسهر على ملف
المتطوّعين في الصحوة، فقالت: «لو كان لديه شعر لسقط شعره بسبب
هذا الملف».

وهنا قال لي كروكر: «إيما، نريد أن نمدد لبقائك سنة أخرى، نريد أن
تبقي هنا لمرافقة د.باسمة في إكمال ملفاتها المهمة».

ضحكت حين سمعت ذلك، كان وقتي في العراق قد انتهى، لا
أتصور أنني سأملك مزيداً من الوقت هنا بعد أن يغادر الجنرال أوديرنو.

ثم ذهبنا إلى (البيت الأبيض العراقي) لمقابلة المالكي. وقبلها جلسنا
نتحاور، أوديرنو وكروكر وأنا. في الليلة السابقة كان هناك اجتماع عبر
دائرة تلفزيونية مغلقة مع الرئيس بوش حول خطط المالكي المبكرة

لإعلان النصر، متأثراً بالتراجع الكبير في أعمال العنف، والاستقرار الذي تحقق مؤخراً. وقال بوش مازحاً إنه لا يزال يحتفظ بالعلم الذي رفعه على ظهر حاملة الطائرات أبراهام لينكولن، في خطابه الذي قال فيه: «إن المهمة قد أنجزت»، كان ذلك في أيار من عام 2003. لكن كروكر كان يحمل القليل فقط من الثقة بقدرات المالكي. وأجبت أنا بالقول: «سيتعين عليك أن تسأله عن خططه للاعتزال والتقاعد». فأجابني كروكر: «ربما سيحتاج إلى مساعدة قوية حتى في هذا الشأن».

كان اللقاء مع المالكي متعثراً للغاية، فقد طرح كروكر أهمية الإسراع بتوقيع اتفاقية التعاون والشراكة الاستراتيجية بين العراق والولايات المتحدة، لكن المالكي سارع وتنصّل من الموضوع. وعلّل ذلك بأن توقيع هذه الاتفاقية الآن سيجعل من الصعب تمريرها أمام البرلمان. وأن المحيط العربي والإقليمي سيتساءل عن نوع (التعاون)، ونوع (الشراكة) التي ستجمع العراق بالولايات المتحدة، وعمّا يعنيه في حقيقة التطبيق. لقد كان هناك الكثير من انعدام الثقة في خطط الولايات المتحدة تجاه العراق، وشكوك بأنها تريد تقويض السلطة التي أحرزها الشيعة بعد عام 2003. لم تنته المحادثات إلى نتيجة معيّنة. وبدلاً من ذلك، قدّم العراق طلباً إلى الأمم المتحدة لتمديد فترة التوصيف المذكورة في قرار مجلس الأمن الدولي والتي تسمح ببقاء قوات التحالف في العراق إلى غاية نهاية عام 2008.

وذهبت إلى مكتب الجنرال أبي محمد لأجده منشغلاً في عملية استجواب لأحد متطوعي الصحوة من الذين انتحلوا اسماً وصفة معيّنة. ولأجل أن ينقذ هذا المعتقل نفسه، فقد وافق على تزويدهم بمعلومات عن باقي المتطوعين في الصحوة الذين يعرفهم. كان هذا

المتطوع قد تم تجنيده من قبل مجموعة (الجيش الإسلامي) مقابل المال، ومقابل وعد بتوفير منزل وزوجة له. وقصص على الموجودين كيف أن قيادات الجيش الإسلامي يدعون الناس عبر المقاهي في سوريا من أجل أن «ينفذوا انقلاباً في العراق ضد الحكومة العراقية، ويعيدوا بناء البلد حجراً بعد آخر».

ثم تركته لأبحث عن د.باسمة. ووجدتها وقد ملأها التذمر ممن وصفتهم بالناس المحيطين برئيس الوزراء. وقالت إن الفريق فاروق الأعرجي قد أوقف تمويل العشائر. وكانت تتساءل كيف يمكن لرئيس الوزراء، وهو رجل تكنّ له الاحترام، أن يستخدم رجلاً مثل الفريق فاروق الأعرجي، والذي لا ترى في وجوده أي فائدة.

ثم قالت إن الرجال حول المالكي، وبصفة خاصة مستشاريه من حزب الدعوة، يواصلون تغذيته بالمعلومات الخاطئة خاصة فيما يتعلق بالتخطيط لانقلاب من قبل متطوعي الصحوة ضده. صحيح أن بعض أعضاء الصحوة مخترقون، لكنها قالت إن بالإمكان التعامل معهم وكادت عملية المصالحة تنجح فعلياً. كانت د.باسمة قد التقت على العشاء مؤخراً بصديق من منطقة (أبو غريب). وقال لها: «قبل سنة من اليوم كانت (أبو غريب) كلّها تقريباً خاضعة لكتائب ثورة العشرين (وهي فصيل معروف من فصائل التمرّد السني)، أمّا اليوم فقد تحسّن الوضع الأمني كثيراً، وهناك تغيير نفسي كبير بين أبناء المنطقة». وطالما كان باب المصالحة مفتوحاً، فإننا سنجد أناساً تدخل منه. أمّا الآن فإنها باتت مقتنعة بأن إيران تعرقل عملية المصالحة بتعمّد. وهي الآن سترمي بقبيلة صوتية في هذه الظروف، لقد قررت طلب الإعفاء من مهامها.

الآن اكتمل ملفان أمام الجنرال أوديرنو، الأول يحمل رؤية المخططين

العسكريين (وهي رؤية القيادات العليا للضباط)، ويركز على الحل العسكري وتطوير الملاحظات التي نجحت في إخماد التمرد. أما الملف الثاني فيحمل تفاصيل الحلول التي تطرحها عملية المصالحة الوطنية (وهي الرؤية التي شاركت أنا في طرحها). كان الجنرال أندريسون، وهو رئيس الأركان يرمقني بنظرة من يرغب بقطع حنجرتي، كنت أتمنى أن أختفي تحت الأرض وتبتلعني.

بعد ذلك ذهبت لرؤية صفاء ود. باسمه لمناقشة الإيجاز الذي سيطرحه الجنرال أوديرنو في اجتماع مجلس الأمن الوطني القادم، وقد تمحور هذا الإيجاز حول مسألة أداء متطوعي الصحوة. وقد اقترحوا عدداً من التغييرات؛ يجب على الجنرال أوديرنو أن يبدأ بذكر المشاكل التي واجهها برنامج متطوعي الصحوة، وأن يذكر (التفاحات الفاسدة) التي تم تشخيصها داخل المجموعة، والمخاطر التي تشكلها. بعد ذلك يمكن له أن يعدد النجاحات التي قادت إليها التجربة، وأن يشرح التغيير الذي أدت إليه في مجال تحسين الوضع الأمني. وفي النهاية يطرح تحويل مدفوعات الشهرية من حساب قوات التحالف إلى المدفوعات الحكومية الرسمية. وسيقترح أن يدمج 20% منهم في القوات المسلحة، بينما سيجري استيعاب الباقين في وظائف القطاع العام. وبناء على هذه المشورة، غير الجنرال أوديرنو من تسلسل العرض الذي أعدّه.

وفي يوم 2 كانون الأول من عام 2007، وقف الجنرال أوديرنو ليلقي بالعرض الشامل عن قضية المصالحة في اجتماع مجلس الأمن الوطني. توقع الجميع أن يشهدوا مناقشة حادة مدفوعة بتضارب في الأهداف بين الجانبين (قوات التحالف والعراقيين). لكن الذي حدث، ما إن انتهى الجنرال أوديرنو من تقديم عرضه حتى وقف المالكي وقال: «إنني أؤيد كل ما جاء في تقرير الجنرال أوديرنو».

فيما بعد، أخبرتني د.باسمة بمدى الشعور بالراحة الذي بدا على المالكي، ولأول مرّة كانت الحكومة العراقية وقوات التحالف يعملان وفقاً للأرضية نفسها. كانت قد شرحت للمالكي كيف أنها بالاشتراك مع (صديقتها إيما) قد توصّلتا إلى إعدادات مشتركة ترضي كل الأطراف، ومن جانبه قال المالكي إن علينا الآن أن نعمل على تفاصيل التنفيذ، ووضع الخطة في طور العمل الحقيقي.

كانت د.باسمة مسرورة بنتائج ما آلت إليه الأمور، وعليه قررت البقاء في عملها. وسألتني: «هل ستتذكريني حين تنالين جائزة نوبل للسلام؟». فأجبتها بأن المحيطين بي يلتفتون إليّ كلّما ذكر اسمك. وفي مؤتمر القيادات العسكرية الذي استمر لسبع ساعات، جعلني الجنرال بيترايوس أقف أمام الجميع، وعرّفني لهم بأنني «مرشدة» د.باسمة. وقلت لها: «لن أنساك أبداً». وكيف لي أن أنسى جولتنا في العامرية وهي ترتدي الكعب العالي؟.

في كانون الأول من ذلك العام خسرنا 25 جندياً (مقارنة بـ131 في أيار من ذلك العام). وقدرت منظمة ضحايا العراق⁽¹⁾ أعداد الضحايا العراقيين بأنهم كانوا 963 مقارنة بحصيلة شهرية لم تقل عن 3000 ضحية شهرياً قبل عمليات الموجهة.

بدأ العراقيون يشعرون الآن بأن الأسوأ قد مضى، وأن عدداً أقل من القنابل تنفجر، وأن شوارعهم بدأت تخلو من الميليشيات شيئاً فشيئاً. وحين شاهد المجتمع الشيعي نظيره السنّي وهو يطرد القاعدة، بدأ الشارع الشيعي يرفض وجود الميليشيات التي لم يعد يرى فيها حامياً له من التهديدات. واتجهت تكتيكات الأميركيين خلال عملية الموجهة إلى

(1) Iraqi Body count(IBC) :- (www.iraqbodycount.org).

استهداف المصالحة الوطنية والكتلة السكانية من أجل تحقيق المزيد من الاستقرار.

كان التحدي الثاني هو جعل العملية السياسية قابلة للاستمرار، ومتاحة لجميع المجتمعات والكتل السكانية دون اللجوء إلى العنف. وكنت أخشى أن الامتناع المحلي عن استخدام السلاح لن يدوم ما لم تجر التفاهات السياسية بين النخب.

ورأيت الجنرال أوديرنو وهو في مزاج جيّد. كنّا قد حلّقنا فوق بغداد خلال الليل، وشاهد بعينه أنها لم تعد مدينة مُظلمة. والتفت إليّ الجنرال أوديرنو وقال: «من الرائع أن يجلس المرء ويصدر الفتاوى، أودّ حقاً لو كان بإمكانني أن أصدر الفتاوى». فأجبتّه: «لكنك تفعلها كل يوم..»، وذكرته بالإيجاز اليومي الصباحي للأوامر المتفرقة. «الأوامر المتفرقة هي بمثابة فتاوى يومية، وعلى الجميع أن ينفذوها»، فأعجبه تعليقي.

وفي أحد الصباحات من كانون الأول، خرجنا في جولة حول بغداد في قافلة من 6 عربات هامفي، تتقدمنا عربة رئيس العرفاء سيوتولا ثم عربة الجنرال أوديرنو. وسألت مصوّرنا الفوتوغرافي الرقيب كاشور عن أفضل الأغاني التي سنسمعها اليوم وسيشغلها في العربة، فقال: «سنبداً اليوم بألبوم جيمي هندركس (السنوات الأولى)».

وصلنا شوارع سوق حيّ الدورة جنوب غرب بغداد. أتذكر حين زرناه مطلع العام الحالي، كان سوقاً ميتاً وقتها. وكانت الدوريات الأميركية تجوب الشارع ليل نهار. وتحاول أن توقف هجمات عناصر القاعدة على السكّان. اليوم يبدو السوق مزدهراً، وقد جعلته الأصباغ الوردية والزرقاء على الجدران يبدو كسوق معتنى به، ومرتب ومنظم.

لم يعد هناك دوريات ثابتة للجيش الأميركي، حيث كانت تتمركز قرب المقهى. والتقينا اليوم بالمقدم ستيف مايكل وبعض الجنود العراقيين. وبدأ عليهم كلهم مشاعر التفاخر بما أنجزوه من استقرار. ثم استمرت جولتنا حتى وصلنا إلى الجانب الشرقي من المدينة. ودخلنا إلى شارع أبي نؤاس. كان هناك غاليري يعرض الأعمال الفنية، وأعجبني فيه تمثال لامرأة بغدادية مصنوعة من البرونز، إلا أنني لم أكن أحمل ما يكفي من المال لشرائه. فأعطاني صاحب الغاليري التمثال وقال لي أن أكمل باقي المبلغ متى ما تسنى لي ذلك. وفي سوق حي الشرطة، ترجلنا من العربات وخرجنا في جولة على الأقدام. كان الشارع يطفح بمياه الأمطار، وثمة رجل يدفع امرأة أجلسها على عربة خشبية. وجُلت بنظري على المباني المحيطة بنا، لم يكن هناك أي رجال مسلّحين ولا فوهات مُسددة لنا. كنت أرتدي الدرع الواقي لكنني لا أضع خوذة الرأس.

أما شارع المتنبي فلم يكن بأحسن حال، ما زال يعاني من آثار التفجير الذي أحرقه في آذار الماضي، وما زالت عملية الترميم مستمرة. وبدأ لي شارع حيفا أفضل حالاً، لم يكن يختلف عن أي شارع في عمان أو القاهرة. ورغم أننا كنا في عزّ الشتاء، إلا أن الطقس بدا ربيعياً خالصاً.

والتقينا أخيراً في شرفة قصر الفاو لأداء مراسم التحيّة والوداع. وطلب منّي أن أقف إلى جانبه، كان قد أعطاني حقيبة من حقائب الجيش الأميركي، حيث إن حقيبتَي الحمراء الصغيرة التي أحملها معي، والتي كان يطلق عليها تسمية «حقيبة توصيل البيتزا!»، كانت تسبب له الإحراج.

ثم وقف يلقي كلمة قال فيها: «كأن إيما مزعجة للغاية، لكنها تستحق أن نتحمل منها الإزعاج، لقد قدمت مشورات مهمة ودقيقة في مراحل عصيبة، وكانت ترشدني في المجال السياسي وتتمتع بحب العراقيين

والجنود الأميركيين معاً»، كنت أقف إلى جانبه محرّجة حيث إنه كان يمتدحني بطريقة يمح بها الكلمات وكأنه راع لي. كما أنه تجاوز عن أخطائي ولم يذكرها. ثم قال: «كان بإمكانها أن تحصل على وظيفة أفضل، لكنها هنا لأنني أنا طلبت منها أن تعمل معي».

ثم حان دوري لأتكلّم، وذكرت كيف أني استلمت رسالة إلكترونية من الجنرال أوديرنو يطلبني فيها لأكون مستشارة له في العراق. وكيف أنني تركتها لثلاثة أيام بلا إجابة حتى وصلتني رسالة فيها صورة لبيتي عبر برنامج (غوغل إيرث) تشير فيها إلى البيت وهناك ثمة صواريخ موجهة إليه.

وصارحتهم بأنني كنت قلقة، كامرأة مدنية من العمل مع العساكر وأتساءل إن كانوا سيرحبون بي، لكنني أقول الحق بأنني عملت مع فريق رائع ومنسجم للغاية. ووجهت عرفاني وتقديري لبعض الأسماء المهمة، وفي مقدّمهم رئيس العرفاء سيوتولا، الذي يجب على السينما أن تخلّد دوره، فقد كان ذا همّة عالية في التجوال حول العراق كله، ويلهم كل جندي مفرد أن يكون بطلاً من أبطال الولايات المتحدة، كما حييت دور الجنرال أندريسون، الذي لو لم يكن جنرالاً لظننتُ أن هناك خطأ كبيراً في نظام الجيش الأمريكي. وفي النهاية جئت على ذكر (الوغد الكبير)، الذي يبدو جنكيز خان إلى جانبه وكأنه شخص معتدل، لكن في داخله يكمن إنسان دافئ وعطوف، ويهتم لرفاقه، وتمكّن من قيادة الجيش في أصعب المنعطفات، وتمكّن من العبور والالتفاف على أقسى الظروف في العراق.

كانت الخدمة مع الجنرال أوديرنو قد جعلتني أبذل جهداً لم أعهده في حياتي، كما حرمتني من النوم بطريقة لم أجربها سابقاً. لكنها خدمة

ألهمتني وعوّضتني الرفقة مع الجنود عناء الحرب ووعثائها. كنت أعني ما أقول.

ثم أهداني الجنرال أوديرنو ألبوم صور لأوقاتنا حيث كنّا معاً، وموقع من كل شخص يظهر في صورهِ. وقال الجنرال: «إن هذا دليل لا يمكن دحضه بأنك خدمت في الجيش الأميركي، ولا يمكن لك إنكار هذا الأمر أبداً».

ثم أهداني مجسماً مصغراً لعارضة كونكرتية ووضع توقيعه عليها وكلمتي (الوغد الكبير). أتخيل أن الجنود الأميركيين يحاولون أن يجسّدوا المبادئ التي تحدث عنها الآباء المؤسسون بأن الولايات المتحدة يجب أن تكون مكاناً لأناس مختلفين بصرف النظر عن خلفياتهم وانتماءاتهم التي انحدروا منها. لقد قبلني هؤلاء عضواً جديداً في قبيلتهم. وقد صرت جزءاً من أخويتهم. لقد أشعروني بأن كل حياتي كانت إعداداً وتمريناً لما سأنجزه في العراق. لقد أتاحوا لي فرصة أن أكون على ما أنا عليه في واقعي وفي قرارة نفسي. ومنحوني منصّة أنطلق منها لما أريد أن أكون عليه. لقد حققنا الفوز، وعلى الرغم من الخلافات فقد حققنا النجاح، ووصلنا إلى مفترق الطرق وعلينا أن نتوجه إلى ديارنا.

القسم الثالث:

الانسحاب ...أيار -2008 أيلول 2010.

الفصل الرابع عشر

حوار ميلوسي

«الأقوياء يؤدون أدوارهم بما يتوجب عليهم، أما الضعفاء فسيعانون بما
قدّر لهم من معاناة»

- ثوسيديدوس-

من حوار ميلوس.

* * *

منحتني إجازة قضيتها في نيوزيلاند مع أحد الأصدقاء الاسترخاء الكافي. كانت نيوزيلاند بعيدة كل البعد عن عالم الحرب والعنف، وهي بالكاد تذكر في الأخبار. كما ساعدني المشي لمسافات طويلة بين الجبال على محو الصورة الملازمة لذهني عن الحرب والدمار.

كنت أجذب بالقارب بين صغار البطاريق، وألاحق الدلافين وهي تتقاذف أمامي. وذهبت في مخيمات ورحلات بحرية. واستعدت الثقة بنفسني عبر زوايا لم أكن أعرفها من قبل. كل غريب أراه أو أقابله لم يكن يشكل لي تهديداً، أو مشروعاً لانتحاري. وبدلاً من ذلك، كنت ألاقي الترحاب. واستعدت قدرتي على أن أحدد لنفسني ما أريد وأشتهي من الطعام. ولم يعد ما أتناوله مجرد وقود يساعدني كي أحيأ وأتحرك للعمل. واستمتعت بلمس الفاكهة والخضروات، وعشت مُتعة انتقائها. ببساطة، استعدت حواسي التي سحقتها الحرب وأجواؤها.

كانت لندن أصعب بقليل. كنت أستيقظ باستمرار في الليل، وأعاني من رهاب القلق دون أن أدرك توصيفه. وحين وجدت نفسي أتفرّس في وجوه الناس السائرين على الرصيف في شوارع أوكسفورد بحثاً عن انتحاري محتمل، علمت أنني لست على ما يرام. كانت ترعبي أصوات عوادم السيارات التي تنطلق بقوة وأتخيلها انفجارات، أو أتوقعها أن تكون بداية تفجير لقنبلة ما. وجدت نفسي أرتعش كما لو كنت ما أزال في العراق، لكن بلا حماية.

ثم أصبح بيتي هو ملاذي، هناك فقط كنت أشعر بالأمان. لم تكن لديّ رغبة في التسكّع مع الأصدقاء، كما لم أجد مواضيع أكلّمهم فيها. ولم يكن بمقدورهم التواصل معي، كما لم أحسن أنا هذا التواصل من جانبي. ببساطة، لم يكن بإمكانني استرجاع النقطة التي غادرتها من قبل.

ثم شرعت بقراءة الكتب، وكتابة المقالات، وكلّها تتعلق بخبرة الحرب وتحليلاتها وتجربتها. واكتشفت أن المدنيين العاملين مع الجيوش لم يكن بإمكانهم الاحتفاء بالنصر مثلما يفعل العسكريون عادة. وقليلًا ما يلاقون العرفان نظير عملهم الذي قدموه.

لقد تعاقدت معي وزارة التعاون والتنمية الدولية كي أكون مستشارة سياسية للجنرال أوديرنو، لكن لم تكن في الواقع الوزارة مهتمة بما سأنجز في عملي. لم يطلب مني أحد أيّ تلخيص أو إيجاز عمّا عملته وأنجزته هناك. مثلما لم تكن هناك أيّ رسالة شكر أو تقدير على إنجازي المهمة.

بعد ذلك تلقيت دعوة من الحكومة الأميركية إلى واشنطن كي أتحدّث إلى البنتاغون، وأشارك في ندوات حوارية عن الحرب في العراق. واستقبلوني بحفاوة بالغة وقد عني لي ذلك الكثير.

بعدها عدت إلى بريطانيا، ودُعيت هنا كي أتحدّث عن تجربتي ممثلة عن وجهة نظر الجيش الأميركي في مؤتمر دولي لمكافحة التمرد. وقلت في كلمتي: «ربما كان الأثر الأكبر لعمليات الموجهة، هو الأثر النفسي الذي تركته على العراقيين وعلينا نحن. لقد أثبتنا لأنفسنا في هذه العمليات - مثلما أثبتنا لمنتقدينا - بأننا لم نُهزم، وأنا مكّننا الشعب العراقي من البحث في اختيار طريق آخر غير العنف. وتغيّرت قناعاتنا، وكذلك قناعات العراقيين. وفي عام 2007، أعدنا تعريف النجاح على الأرض بطريقة براغماتية صحيحة؛ لقد عقدنا صفقة مع التمرد السني رغم أن الدماء كانت تغمر أيادي ذلك التمرد. وجعلنا الحكومة العراقية تستهدف المتشدددين الشيعة مثلما تطارد المتمردين السنة. ورحبنا بتجميد جيش المهدي».

وقبل استعراضي هذا بترحاب وتصفيق فاجأني. ثم أجبت عن كم هائل من الأسئلة التي تعلّقت بعدد القوات، والأبعاد اللوجستية لعملية الموجة، والحوارات التي أجريناها مع المتمردين، والطرق التي اتبعناها في التعاطي مع البلدان المجاورة للعراق.

لم يمضِ وقت طويل حتى أعتاد حياتي في فترة ما بعد العمل في ساحة الحرب، حتى وجدت جرس الباب يدق. كان ثمة طرد بالبريد لي. مع أنني لم أكن أتوقع أي طلبية للتسليم. وقرأ الساعي اسم المرسل: «الجنرال ديفيد بيترايوس... القائد العام».

وقعت على الاستلام وأغلقت الباب لأسارع بفتح الطرد كي أرى ما فيه. كان يحتوي على صورة أنيقة ومؤطرة لي مع الجنرال قرب شجرة عيد الميلاد في مقرّه بمعسكر فيكتور. الصورة كانت تحمل توقيع الجنرال ومعها عبارة «من روح ملؤها المحبة».

وأرسلت إلى الجنرال بيترايوس رسالة إلكترونية أشكره فيها على هديته، لأتلقى على الفور ردّاً منه يطلب منّي أن ألتحق به. وأخبرني بأن د.باسمة تواجه مشاكل جمّة. ولم يكن هناك من يدير ملف المصالحة ومجنّدي الصحوة (صار اسمهم الآن «أبناء العراق»). ثم سألني إن كنت سأعود لبضعة شهور من أجل تحريك ملف المصالحة.

أول ما خطر على بالي قبل أن أردّ هو التفكير بما سيظنّه الجنرال أوديرنو، فقد كنت محسوبة عليه في النهاية. وكتبت له فأجابني بمباركة منه. كان على وشك أن يصبح نائباً للقائد العام ونائباً لرئيس هيئة الأركان المشتركة.

وفي مدى بضعة أيام استلمت رسالة أخرى من بيترايوس، كان

الأميرال فالون (Fallon) قد استقال من منصبه كقائد للقيادة الوسطى الأمريكية على أثر مقال (انتحاري!) نشره، ادّعى فيه أنه حاول جاهداً اثني الرئيس بوش عن مهاجمة إيران.

وتولّى بيترايوس القيادة بدلاً منه. وبهذا سيكون مسؤولاً عن العمليات في أفغانستان والعراق في الوقت نفسه. وعليه فإنه سيحتاج إلى بديل عنه في بغداد. وكان خياره الأول قد اتجه إلى الجنرال أوديرنو. ثم سألتني بيترايوس: «كيف يمكن أن أقنع أوديرنو بالعودة إلى العراق عبر ملاحظة صغيرة أرسلها له؟».

ثم بعد ذلك اتبعت التوصيفات والتعليمات التي وصلتني، فاتجهت إلى فندق روتشستر في بارك لان وسط لندن. وهناك على الفور تعرّفت إلى وجوه مألوفة من حاشية الجنرال بيترايوس، وبدأت المصافحات الحميمة. ثم تلقاني السفير كروكر بالترحيب الحار: «إيما، ... أهلاً بك معنا. نحن محتاجون إليك».

وركبنا السيارات متجهين إلى المطار، قبلها أخبرني أحدهم من مكتب الجنرال بيترايوس بأنني سأكون في رفقته في سيارته. وسارت بنا السيارات عبر شوارع لندن، ثم خرجت إلى الضواحي. وخلال ذلك الوقت تبادلنا بعض الأحاديث عن الشعر والحرب، لكن الحديث سرعان ما جذبنا نحو العراق. كنت أتمنى للجولة أن تمتد أكثر، لكننا خلال ساعة أو أقلّ من ذلك وصلنا إلى المطار، وسرعان ما أصبحنا في الجو متجهين إلى العراق... ثانية.

كنت أشعر بالإنارة لحظتها أنني سأعمل لصالح الجنرال بيترايوس خلال شهري أيار وحزيران من ذلك العام (2008). ثم سأعمل مع الجنرال أوديرنو اعتباراً من أيلول حين يأتي لتسلم مهامه.

كل ما كان يشغلني لحظتها أن حياتي عادت في العراق ليكون لها غرض ومعنى. وأن كلا الجنرالين يقدّران بالفعل العمل الذي أؤديه، وما أقدمه لهما من العون.

وخصصت لي غرفة صغيرة في بناء إسمتي يقع خلف مستشفى ابن سينا. كانت الغرفة مزوّدة بحمّام وجهاز للتبريد. كما استلمت سيارة سأستعملها كي أذهب بها إلى السفارة الأميركية التي تبعد 5 دقائق فقط. كانت السفارة تعجّ بالوجوه المألوفة بالنسبة لي. ولقيت ترحاباً كبيراً من فريق العمل الذي يرافق الجنرال بيترايوس. وكان يضم عدداً ضخماً من المستشارين، كنت أعرف البعض منهم فقط.

وساعدني الرائد جول رايبورن (Raybourn)، وهو ضابط استخبارات مقرب جداً من بيترايوس، على أن أندمج في عملي الجديد.

وسرعان ما تواصلت مع د.باسمة والجنرال أبي محمد. وأخبرتتهما عن سبب عودتي مجدداً، وأنني قد علمت بما يواجهانه من مشاكل.

وأخبراني بأنهما يخضعان للتحقيق حالياً. وعلى أثر ذلك، تعطلت لجنة المصالحة التي يقودانها. وجرت إعادة صفاء الشيخ إلى عمله في مجلس الأمن الوطني بعد أن كان يرأس اللجنة. وأخبرتني د.باسمة بأن فاروق الأعرجي كان يخطط إلى اتهامها بالخيانة، ثم سجنها وربما حتى إيقاع الإعدام بها.

وهي بدورها قد خيّرت المالكي بينها وبين الإبقاء على فاروق الأعرجي. كانت تنظر سابقاً إلى فاروق بأنه عامل إزعاج لها، الآن قد أصبح مصدر تهديد واضح لها.

أمّا أبو محمد فقد كان مقتنعاً بأن الإيرانيين يقفون خلف الجهود

العاملة على استبعاده هو ود.باسمة من مكتب القائد العام. وأن هذا الاستهداف جاء بسبب من التحقيق الذي أجراه بشأن الاختراق الإيراني لوزارة الدولة لشؤون الأمن الوطني.

وفي ليلة تالية زرت أبا محمد في شقته داخل المنطقة الخضراء. كانت حياته قد انقلبت رأساً على عقب. ويجري الآن جهد لإخراجه من سكنه. وعلى مائدة الطعام كانت هناك عملة معدنية. أعطاه إياها الجنرال بيترايوس خلال جولة قام بها معه في حي الجهاد. واستذكر كيف أن بيترايوس كان يتجول بدون درع واقية. ويتكلم مع الأطفال في الشارع، وأخرج دنائير عراقية من جيبه واشترى بعض البضائع من الأسواق. وقال لي: «للأسف، ليس لدينا في العراق قادة من هذا النمط».

عندما التقيت الجنرال أبا محمد قبل عام من الآن، كان يحمل شكوكاً كبيرة تجاه قوات التحالف. أما الآن فقد بات يشعر بالغدر من جانب الحكومة العراقية، ويرى في الأميركيين أصدقاء له.

ومع إزاحة د.باسمة وأبي محمد عن عمليهما فقد أصبحت مسألة توظيف المتطوعين معلقة تماماً. وما زال لدينا في السجلات ما يقرب من 106 آلاف متطوع من الصلوات، ونحاول أن نقلل العدد إلى 60 ألفاً بحلول العام المقبل. لكن المالكي نهج منهجاً آخر في التعامل مع هذا الملف، فقد ادعى بأن هناك 57 ألف شرطي من بين هؤلاء المتطوعين، وأن القوات الأمنية العراقية قد استوعبت بالفعل نسبة 20% منهم بين صفوفها، وهي النسبة التي سبق الاتفاق عليها. وعملياً فقد توقفت جهود استيعابهم في الوظائف المدنية.

وفي الحقيقة فقد أثارني العجب من مدى التغيير الذي ظهر عليه المالكي خلال الشهور التي ابتعدت فيها عن العراق، لقد بدأ بتجميع

القوة والصلاحيات في يديه، وبدأ متمرساً باستعمال السلطة. في السابق كان يؤخذ بالاعتبار على أنه مجرد قيادي طائفي ضعيف، لكن ملاحظته للصديين وجيش المهدي في بغداد والبصرة جعلت قوات التحالف تنظر إليه نظرة ارتياح وثقة. وربما شارك العراقيون أيضاً في تبني هذه النظرة عنه، فقد وجد فيه الكثيرون قائداً قوياً سيعمل على فرض القانون بالقوة ويسط العدالة على طول البلاد.

وفي عام 2007، وخلال عمليات فرض القانون، جعلت قوات التحالف سلطات الجيش والشرطة وأجهزة الأمن الداخلي في بغداد كلها تحت تصرف هيكل (قيادة عمليات بغداد). لكن هذا الإجراء افترض به أن يكون إجراءً مؤقتاً، وملائماً لأوقات الطوارئ فقط. أما المالكي فقد راقه هذا الأسلوب في العمل وإدارة السلطة، فعمل على توسعة التجربة لتشمل كل العراق. وبالمقابل فقد أهمل تسلسل هيكلية مؤسسات الدولة الموجودة بالفعل، والتي ساعدت قوات التحالف على بنائها للقوات المسلحة العراقية. وأصبحت القوات المسلحة والأجهزة الأمنية تدار عبر اتصالات هاتفية ورسائل نصية تأتي من مكتب القائد العام حصراً.

كان ذلك تطوراً خطيراً تمّ رصده من قبلنا، لكن المالكي كان لديه باستمرار كمية لا تنتهي من الأعذار والتفسيرات، ومن جانبنا أردنا المحافظة على علاقة جيّدة به.

وأرسل لي صفاء يخبرني بوجود «انتكاسة حقيقية» في علاقة الحكومة بالصديين. فانطلقت كي أجمع به في مكتبه بوزارة الأمن الوطني. وشرح لي التطورات التي حدثت أثناء غيابنا أنا والجنرال أوديرنو. وقال بأن هناك (جهات حكومية) قد سلكت مسلكاً عنيفاً

ومع شرب عدّة أقداح من (شاي نومي بصرة)، بدأ صفاء يشرح لي ما يجري. وسألته عما يحدث الآن في مدينة الصدر، وعن القصة الحقيقية فيما يحدث بدأ صفاء يفصّل الأمور.

الآن كانت مدينة الصدر تخضع لرقابة قويّة من قبل قوات التحالف والقوات الأمنية العراقية. وكان الصدريون يتهمون قوات التحالف فيما مضى بأنها هي مصدر الهجمات والتفجيرات التي تتعرض لها الضاحية. أما الآن فإنهم يتهمون ميليشيات بدر، وهي الجناح المسلح لتنظيم المجلس الأعلى. وقد وقع عدد كبير من الضحايا بالفعل، وتعرقلت الحياة اليومية هناك. الآن الصدريون يتهمون المالكي بأنه صار نسخة أخرى عن صدام.

وقد أتاح لي عملي الجديد أن أختار لنفسني اللقاءات التي أريدها. وأن أحضر إلى الاجتماعات التي أختارها في السفارة الأميركية. وذهبت إلى اجتماع المخططين معاونين للجنرال بيترايوس في مكتبه لأستعلم عن الأحداث الجارية في مدينة الصدر، وعن العمليات التي تجري إدارتها هناك. وفي الاجتماع قال الجنرال بيترايوس: «الأقوياء يؤدون دورهم بما يتوجب عليهم، أما الضعفاء فسيعانون بما قدّر لهم من معاناة». ثم التفت إلى الحاضرين يسألهم: «هل تعرفون من قال هذا؟»، فلم يجبه أحد.

ثم التفت إليّ يسألني: «أنت يجب أن تعلمي من قال هذا، لقد درست في أوكسفورد... إنه ثوسيديدوس، جاء ذلك جزءاً من حوارية ميلوس». - «سيدي، في الحقيقة لم أتمكن من تمييز هذه الترجمة».

قلت ذلك وأنا أحاول أن أخفي جهلي بمصدر هذا الاقتباس، كي أحفظ لأوكسفورد سمعتها!

...

وتلقى الجنرال بيترايوس رسالة من قاسم سليمانى (قائد فيلق القدس الإيرانى) يخبره فيها بأنه هو الوحيد المسئول عن السياسة الإيرانية فى العراق، واقترح عليه أن يعقدا لقاءً يجمعهما، لكن بيترايوس رفض.

وأطلعنى على ذلك قائلاً: «إن الشيء الوحيد الذى تهتم إيران لأجله هو بقاء نظامها واستمراريته». لقد كانت إيران هى من ترشى السياسيين العراقيين، وهى التى تسلّح الميليشيات، وتتدخل فى النزاعات الداخلية، وتخلق المنظمات من أمثال حزب الله. وهى التى تشرف على الاغتيالات، وهى التى تدرّب عناصر الميليشيا وتدفع الجميع باتجاه المزيد من العنف.

«كيف يمكن الحوار مع أشخاص مثل هؤلاء؟. كل ما سيفعلونه هو أن يأخذوا ما هو أمامهم على الطاولة، ويضيعون الوقت، ثم يعودون لممارسات أشدّ فتكاً من ذي قبل». بالضبط مثلما حدث قبل فترة فى البصرة، فقد تدخلت إيران بين المتقاتلين، وحصلت على هدنة، ثم بدأت بتحريض البعض ضد البعض الآخر، لقد كانت فى الحقيقة تدعم كل الأطراف المتقاتلة.

وخلال ذلك الصيف، التقيتُ بعدد كبير من العراقيين الذين كانوا على وشك الترشيح لخوض انتخابات مجالس المحافظات. كانت تلك الانتخابات مستهدفة من قبل الأحزاب الكبيرة، وعدد كبير من تلك الأحزاب كانت تتطلع إلى تأجيلها. لقد توصلت إلى قناعة بأن تلك الانتخابات كانت الفرصة الأخيرة أمام قوات التحالف كي تضم إليها جميع القوى التى سبق أن استبعدت من العمل السياسى. وهى الفرصة الأخيرة أيضاً لخلق مجالس شاملة للجميع لا تستثنى أحداً.

ومع تحسّن الأوضاع الأمنية، ازدادت مشاعر الناس إحباطاً من الفشل الحكومي في تقديم الخدمات. كانت الكهرباء تمثل معضلة حقيقية، مثلها في ذلك مثل باقي الخدمات. وظهرت الحكومة بمظهر غير متناغم وتعاني من الفوضى. وقال لي عدد من الشيوخ إنهم يرغبون باستبدال أولئك الذين يديرون الخدمات العامة بجيل آخر من الشباب المتعلّم المؤهل، بدلاً من أولئك الذين لا تأهيل لهم سوى دعم الأحزاب الكبيرة لتوليهم المناصب.

بدأ يتشكل لديّ إحساس وتخمين بأن من الممكن العمل على إيجاد «طريق ثالث»، للخروج من الأزمة. ونقلت أفكاري إلى بيترايوس. وقلت له: «إنني أعمل على افتراض جديد. ملخصه أن مصلحة الولايات المتحدة قد لا تكون في دعم زمرة من السياسيين العراقيين للبقاء في الحكم، خاصّة أن هذه الزمرة لا تحتوي سوى أولئك الإسلاميين القادمين من المنافي. وبدلاً من دعم هؤلاء، قد تكمن مصلحة الولايات المتحدة في التحكّم بالعملية السياسية، واستخدام القوات الأمنية العراقية لسحق المنافسين!!».

وأثنى بيترايوس على افتراضاتي. وكان في رحلة إلى واشنطن التقى فيها بالسفير البريطاني نيكال شينوالد (Sheinwald)، ووصفه في رسالته بأنه كان كريماً جداً معه. أجبت الجنرال بيترايوس: «بالتأكيد يجب أن يكون كريماً مع شخص مثلك له هيمنة تكاد ت طال الكون كله، وصدره مترع بالنياشين، وتقف خلفه آلة قتل عملاقة. لو لم يكن كريماً، فسيكون أحرق بكل تأكيد».

وكلفنا الجنرال، أنا ومعني الرائد رايبورن بمرافقة البروفيسور ولي

نصر (Vali Nasr)⁽¹⁾، وهو باحث أميركي من أصل إيراني نشر مؤخراً كتاباً عن الشيعة. وكان معه بيتر بيرغن (Bergen)، وهو خبير في شؤون تنظيم القاعدة. كان الرجلان من النخبة البارعة والمتميزة، وأرادا أن يلتقيا آية الله السيد حسين الصدر، وهو عمّ مقتدى الصدر، في منزله قرب ضريح الكاظمية.

كان حسين الصدر يختلف تماماً عن ابن أخيه المندفع. واستقبلنا بحفاوة وأجلسنا في ما يشبه نصف دائرة في غرفة مكتبته ونحن مُحاطين برفوف الكتب. ونقلت إليه تحيات الجنرال بيترايوس، وتقديره لرؤيته الحداوثوية والمعتدلة. وأبدى ولي نصر سلوكاً دبلوماسياً رائعاً في تعامله مع حسين الصدر كرجل دين، الأمر الذي راق للصدر جداً وأثار إعجابه.

وأخذت الحوار للحديث عن الانتخابات الحالية، وقلت إن ليس من مصلحة الصدرين عدم المشاركة في بناء العراق الجديد. فأجاب حسين الصدر بأنه لا يحبذ أن يطلق لقب التيار الصدري على أتباع مقتدى الصدر، لأنهم حادوا بوضوح عن مسار والد مقتدى، الشهيد، رجل الدين محمد الصدر. وأشار إلى مسألة نفسية تعترى مقتدى الصدر، إذ شهد مقتل والده وأشقائه عام 1999.

وأبدى حسين الصدر قناعته بأن الكثيرين من أتباع مقتدى الصدر لم يكونوا سوى مجرمين وعاطلين عن العمل. ولو أتيحت لهم الأعمال والوظائف النزيهة فسيعود الكثيرون منهم إلى جادة الصواب.

(1) كتب د. ولي نصر نصّاً تحليلياً مهماً عن هذه الفترة من عمر الحكومة العراقية في فصل خصصه للعراق، في كتابه «الأمة التي يمكن الاستغناء عنها، السياسة الأميركية في حالة تراجع» المترجم.

وخلال الحوار، نقل لنا حسين الصدر تدمير العراقيين من الأحزاب السياسية والساسة الذين قدموا من الخارج. وقال إنه استقبل قبل أيام وفدًا من الفلوجة، ضم شيوخ عشائر ووجهاء وشخصيات متعددة، واتفق معهم على أن الاعتزاز بالاثنية والثقافة الشخصية الاجتماعية هو أمر مشروع، لكن العمل الوطني يتبغي التوجه أولاً لكل العراقيين وألا يقتصر الدفاع عن الحقوق على فئة دون أخرى. وكشف لنا بأنه سيدعم مجلساً يشارك في الانتخابات يتشكل من خليط وطني من الإثنيات والكفاءات. وسيكون شعارهم «لا للعنف، ولا للطائفية... نعم لوحدة العراق».

كان كلمات حسين الصدر تبدو واثقة وهادئة، ويبدو للآخرين وهو يعزز روح السلام والطمأنينة. وسألته عن نسبة تمثيل النساء في مجلسه المزمع، فابتسم وقال: «إن النساء قد يمثلن فقط نصف المجتمع، لكنهن يملكن التأثير بنسبة 100%!».

وبعد اللقاء المميز مع حسين الصدر، كان هناك كابوس بانتظارنا. فقد تهنأ وسط بغداد لساعات حيث تعطل النظام الملاحي الذي يتعقب موقعنا، ولم يكن هناك تواصل بين السيارات الخمس التي يتشكل منها موكبنا. ثم نفذ من عندنا الوقود واضطررنا إلى شرائه من الباعة العراقيين في الشارع.

كنّا ضائعين حرفياً في شوارع بغداد ولا نعرف الاتجاهات. وطلبنا من رجل شرطة عراقي أن يدلّنا على العودة إلى المنطقة الخضراء، لكنه كان مخموراً. وفي لحظة معينة بدأ الهلع يأخذ مأخذه من الحمايا المرافقين لنا، وصاح أحدهم: «إننا سنقتل هنا». لم يكن بوسعي إلا أن أنهره بشدة: «أغلق فمك الأحمق، لن يموت أحد هنا».

وفي النهاية وصلنا إلى منطقة أمينة قرب المنطقة الخضراء ودخلنا إليها. وطلبت أن أرى الرقيب المسؤول عن القافلة، كان شخصاً نحيلاً

كبير السن. ومن الواضح أن الآخرين لم يكونوا طوع أمره. وقلت له: «إنك مسؤول عن أرواح رجالك، وكذلك أرواح ضيوف الجنرال بيترايوس الذين كانوا معنا». وطلبت منه أن يكتب تقرير ما بعد المهمة ويذكر فيها ما حصل. لقد كنّا محظوظين بشكل كبير بأن الوضع الأمني قد تحسّن في المدينة، وإلا كنّا سنواجه مصيراً مجهولاً لو حدث واكتشفت جهة معادية أننا كنّا تائهين وسط المدينة الكبيرة. وأخبرني بأنّه لم يسبق له أن خرج في دورية مرافقة للحماية، وأن الوحدة التي ينتمي إليها كانت بالأصل تتبع الحرس الوطني الأميركي. لقد أثارني العجب أن تتواجد مثل هذه الوحدة سيئة التدريب بين قطعات الجيش الأميركي في العراق. وتساءلت مع نفسي، أيّ حياة مدنية قد سُحب منها هذا الرجل الكهل وجعلته الأقدار يخدم هنا في العراق بلا تدريب كافٍ؟.

...

وكلفني الجنرال بيترايوس بمهمة أخرى، كان يسعى إلى توثيق رؤية الجيش الأميركي لتعريف «النجاح بالمهمة في العراق». بيترايوس تعرّض مؤخراً لهذا السؤال من قبل السيناتور أوباما (وقتها لم يصبح بعد رئيساً للولايات المتحدة)، وما زال الجنرال يشعر بأنه لم يوفّ حقّ الإجابة عن ذلك السؤال. ووجهني أن أراجع (خطة العمليات المشتركة)⁽¹⁾، وباقي الوثائق الأساسية. وبعد أن اطلعت على كل تلك الوثائق أرسلت له ورقة خلاصتها تفيد بأنني لست مقتنعة بوجود استراتيجية عامة وشاملة تجعلنا

(1) هي وثيقة أعدت من قبل السفارة الأميركية في العراق، ورئاسة أركان القوات المتعددة الجنسيات. وتضم أربعة محاور رئيسة، السياسي، والاقتصادي، والأمني، والدبلوماسي. وهي المحاولة الأولى لتحديد واضح المعالم تتقدم به الحكومة الأميركية للكونغرس لرسم نهاية للوجود الأميركي في العراق - عن مقال لـ «ريتشارد لاوري/ ويكلي ستاندرد» - 1 آب 2007. - المترجم.

نشير بوضوح إلى النجاح في العراق، وبالتالي، تحديد مستوى معين من الأوضاع يمكننا من سحب القوات الأميركية من العراق.

صحيح أننا قد طورنا تكتيكات براغماتية محددة (داخل العراق) من أجل تقليل العنف إلى حد كبير، لكن هذا لا يعني توفر استراتيجية متكاملة تحكمنا جميعاً، ولا دلائل على أن (خطة العمليات المشتركة) قد وضعتها من أجل تحقيقها.

وكانت إجابة بيترايوس سريعة كعهده دائماً، وجاء فيها: «إن الاستراتيجيات، تهدف في العادة إلى تمكين الوسائل المختلفة والمتعددة من خدمة أهداف مطلوبة». ووصف كيف أنه قد تعاون مع السفير كروكر من أجل وضع وثيقة (خطة العمليات المشتركة)، وكيف أنها تحدد «خطوطاً مختلفة» للعملية، وتشخص المنظمات المطلوب تعاونها وتسخيرها لإنجاز المهمة. وأطلعني كيف أن أول عمل اضطلع به لدى عودته إلى العراق في شباط 2007، هو عملية إعادة كتابة مقدمة وأهداف خطة العمليات المشتركة، بطريقة تستوعب كل التغيرات التي شهدتها الساحة العراقية. لقد اشتملت الخطة المعاد كتابتها على الكثير من النواحي، ابتداءً من طريقة مخاطبة القادة العسكريين للإعلام وصولاً إلى الإيجاز اليومي لقادة الوحدات والأهداف المعروضة فيه.

شرح لي بيترايوس كيف أن الضباط والقادة العسكريين يظهرون حساسية كبيرة تجاه من يتهمهم بأنهم بلا استراتيجية - خاصة إن كانوا قد عملوا بالفعل على تطوير وتوثيق استراتيجية بعينها. لكن الحقيقة أنني لم أكن أنتقد بيترايوس وإنما أنتقد واشنطن بدلاً منه.

لقد افترضت واشنطن بأنه حالما سيتراجع العنف، فإن النخب العراقية ستتجه نحو المصالحة وترسيخ استقرار العراق وبناء مؤسسات

الدولة. لكنها تناست أنهم السياسيون أنفسهم الذين ألهبوا العنف، وحاولوا أن يجيروه إلى حساب مصالحهم الضيقة. ولم يفلحوا في الوصول إلى اتفاق على الشكل النهائي للدولة، ولم يتفقوا كذلك على توزيع عادل للقوة والمصادر. وكانت هناك فرص ضعيفة أن يتمكن البرلمان العراقي من التوافق على تشريع سبق لواشنطن أن أسمته وعرفته بأنه يمثل مؤشرات النجاح في العراق.

كان الجنرال بيترايوس يسلك سلوكاً دقيقاً في كل شيء تقريباً. لم أعرف في حياتي شخصاً مثله يحرص على التفاصيل ومتابعتها. كان الضباط الشباب الذين هم أصغر منه بسنوات عديدة، يجدون أنفسهم عاجزين عن مجاراته. وتعود أن يقصّ شعره كل يوم جمعة. كما لم يكن يكتفي بالتأرجح داخل الطائرات المروحية حين يتنقل، إنما كان يصحب معه حاسبه المحمول ويستمر أثناء الطيران بالرد على الرسائل الإلكترونية وبريده الإداري، وحين يهبط يسلمه إلى أحد مساعديه من الضباط ليفرغها ويتابعها.

كانت معظم لقاءات وتفاعلات بيترايوس مع العراقيين تجري عبر مساعده ومستشاره سعدي عثمان. وهو مترجم طويل القامة من أصل فلسطيني. بالإضافة إلى أنه يستلم تقارير مباشرة مكتوبة من الضباط الأميركيين العاملين بصفة مستشارين للمسؤولين العراقيين. لقد وجدت أن لدى بيترايوس شهية لا تنقطع لحيازة المعلومات، وكانت الماكينة التي يديرها بالتالي تنتج المزيد منها. وفي النهاية تتحول هذه المعلومات إلى إضافات في الاجتماعات اليومية لتقييم المعركة والإيجاز.

كانت المشاريع التي يشرف عليها الجيش الأميركي تعرض في الاجتماعات على شكل شرائح؛ محطات محلية للكهرباء، وحقول

للدواجن جرى تأهيلها، ومشاريع للصرف الصحي أعيد تشغيلها. ولقد ساعد هذا الإيجاز والتقييم اليومي على إظهار الجنرال بيترايوس بمظهر العالم بكل شيء والمتابع لكل شيء. ودائماً يردد أن على الجنود أن يبقوا منشغلين من أجل الحفاظ على المعنويات. وقد كان هو القائد الذي يتابع كل صغيرة وكبيرة.

وخلال أحد اجتماعات هيئة الأركان، خاطب بيترايوس الجنرال لويد أوستن (Lloyd Austin) بقوله: «لويد... لقد التقيت بامرأة برتبة نقيب في فرقك، وقد اشتكت من تأخر بعض التجهيزات اليومية من الوصول إلى وحدتها... أرجو أن تتحدث إلى هذه النقيب، ربما ستجد الأمر مفيداً».

فأجاب الجنرال أوستن: «بالتأكيد سأحدث إليها سيدي، وسأحدث أيضاً إلى بديلها الذي سيستلم مهامها بعد صرفها من مسؤوليتها!...» وانفجر جميع من كان في الاجتماع في نوبة من الضحك، لم يتوقع أحد ردّ الجنرال أوستن الساخر هذا. كانت هذه السّمة في بيترايوس هي التي تصيب أقرانه بالغضب دوماً؛ إذ يتعيّن عليه أن يعرف كل شيء بتفصيل أكثر منهم جميعاً. وفي هذه الحالة، كانت مسألة تأخر التجهيزات قضية لا تستحق أن تعرض على الضباط الكبار، فضلاً عن عرضها أمام القائد العام.

وفي 26 حزيران عام 2008، ومباشرة بعد اللقاء الذي جمع كروكر وبيترايوس بالمالكي كي يؤكد له دعمهم ومساندتهم في الخطة التي شرعت بها القوات الأمنية العراقية، قامت القوّات الخاصّة الأميركيّة بعملية مدهامة في بلدة الهندية جنوب بغداد. وخلال العملية، اقتحمت القوات الخاصّة أحد المنازل واحتجزت اثنين من الحراس المتواجدين فيه، وحين سمع الآخرون بالاعتحام خرج أحدهم من المنزل ومعه بندقية كلاشينكوف فأرداه جنود القوّات الخاصّة قتيلاً على الفور.

ومن وجوه عدّة، كانت هذه الحادثة تعدّ مسألة «طبيعية»، وممكنة الحدوث في الساحة العراقية الأمنية، إلّا أن تفصيلاً محدّدة كانت غائبة عن الوثيقة التي قدمت عبر سلسلة المراجع العسكرية التي خوّلت الوحدة الخاصة بالقيام بالمداهمة. إن بلدة الهندية كانت البلدة التي تحدّر منها المالكي، وإن هذا المنزل كان منزل شقيقته التي كانت موجودة فيه وقتها، وإن الرجل الذي سقط صريعاً كان ابن عمّه. عندها كان المالكي مغتاضاً بشكل استثنائي غير مسبوق. وألغى كل مواعيد المقابلات مع أيّ جهة من قوات التحالف، فقد كانت الإهانة باقتحام منزل شقيقته من جانب قوات التحالف غير محتملة تماماً بالنسبة له. وأراد إبقاء الأمر سرّاً إلّا أن تسرّب الخبر للإعلام قد سبقه. وبعد تلك الحادثة بقليل، قتلت قوات التحالف مدير فرع المصرف في مطار بغداد عند حاجز تفتيش، ومعه اثنين من النساء في السيارة نفسها. ولم يتمكّن المالكي من السكوت هذه المرّة، ودعا علناً إلى: «إدانة أفعال قوات التحالف، وإلى تقديم من ارتكب تلك الأفعال الجرمية إلى العدالة».

كان تسامح المالكي مع أخطاء قوات التحالف قد وصل إلى حدوده الدنيا، حسب تعبير السفير رايان كروكر.

الفصل الخامس عشر

اتفاقية غير مريحة

«تذكر دائماً بأن بنيانك قد أقيم على أسس من الرمل»

تي.أي. لورنس (لورانس العرب).

* * *

في أيلول من عام 2008، عاد الجنرال أوديرنو إلى العراق. وتوجّهت على الفور إلى معسكر فيكتوري لملاقاته. لقد مضت تسعة شهور منذ أن التقيته فيها لآخر مرّة. وسرعان ما انخرطنا في تبادل أخبار بعضنا البعض قبل أن نعود إلى الشأن العراقي ونتكلّم في أهم تحدّياته.

وفي 16 من ذلك الشهر، حضرت مراسم أقيمت في قاعة جانبية في قصر الفاو، أقيمت بحضور وزير الدفاع روبرت غيتس شهدت ترفيع الجنرال أوديرنو ليكون جنرالاً بأربع نجوم. وخلال مدّة بسيطة سلّم الجنرال بيترايوس القيادة له.

كان مقر الجنرال أوديرنو بالقرب من قصر الفاو، لكنّه طلب منّي أن أبقى على مكثبي في السفارة الأميركية كي أكون قريبة من أجواء القصر الجمهوري ومطلّعة على آخر تفاصيل الأحداث هناك. كان يوم النشاط العسكري يبدأ قبل يوم العمل الاعتيادي للسفارة الأميركية، وهو الأمر الذي مكّنني من حضور الإيجاز العسكري الصباحي ثم الالتحاق باجتماع كادر السفارة اليومي.

وفي الوقت الذي وصل فيه الجنرال أوديرنو إلى العراق كانت المحادثات حول اتفاقية إطار حالة القوى بين العراق والولايات المتحدة (والمعروفة اختصاراً باتفاقية سوبا SOFA)، كانت لا تسير بالشكل المطلوب. وكان تخويل الأمم المتحدة للقوات الأميركية في العراق في طريقه إلى الانتهاء بحلول كانون الأول عام 2008. وعليه سيتعيّن على القوات الأميركية الرحيل على الفور إذا لم يجر تحديد العلاقة الأمنية بين العراق والولايات المتحدة باتفاقية جديدة.

وفي وقت مبكر من ذلك العام، كان الظنّ يلتبس الأوساط الأميركية بأن تلك الاتفاقية باتت بحكم المُبرمة. لكن عدداً مهماً من نقاط

التخالف مع العراقيين حطمت تلك النظرة المتفائلة. ليس أقلها الخلاف حول حقّ قوات التحالف في إجراء مدامات واعتقال العراقيين، ومسألة الحصانة للجنود الأميركيين والمتعاقدين معهم، وعدم تعرّضهم للمساءلة من القانون العراقي. كما أن الفريق الذي أرسل من واشنطن لم يتعامل مع المباحثات بما ينبغي، ولم يترك مجالاً للعسكريين كي يشاركوا في تفاصيلها. وعلى الجانب العسكري، كانت الشكوك تحوم حول هذا الفريق المُرسَل من واشنطن، وبأنه قد «يتخلّى عن المزرعة كلّها» من أجل إبرام الصفقة، آخذاً بنظر الاعتبار أن تمرير اتفاقية سوفّا كان أمراً جوهرياً بالنسبة لإدارة الرئيس بوش.

وبدأت الطبول تقرر بالضد من اتفاقية سوفّا؛ معارضة إيرانية واضحة، والصدريون يدعون إلى التظاهر بالضد منها، ورجال الدين يشجبونها على المنابر ويكررون التحريض ضدها ويصدرون الفتاوى بشأنها.

في الحقيقة إن اتفاقية سوفّا يمكن إبرامها مع الدول المستقرّة وليس مع دولة على شاكلة العراق. وعلى أرض الواقع، فإن الولايات المتحدة قد أبرمت مثلها مع عدد من الدول في المنطقة، لكن التفاصيل لم تعرض أبداً على العلن. أما في العراق، فإن واشنطن تسعى إلى إبرام الاتفاقية نفسها وتميرها عبر البرلمان العراقي.

ومن جانبه، فقد خشي المالكي أن يكون مصيره مثل مصير رئيس الوزراء الشيعي صالح جبر الذي أبرم اتفاقية بورتسموث مع البريطانيين خلال العهد الملكي العراقي، ثم دفع الثمن بعد ذلك وحده. وكذلك تأثيرات النسخة الإيرانية من اتفاقية سوفّا التي وقعتا الولايات المتحدة مع إيران عام 1964. وكانت تمنح الحماية للعسكريين الأميركيين والعاملين معهم من المدنيين، لكنّها في النهاية جلبت نقمة شعبية واسعة، ودعت آية

الله الخميني إلى التعريض بها، وقال وقتها إن هذه الاتفاقية تجعل للإيرانيين حقوقاً أدنى حتى من مستوى حقوق الكلاب الأميركية.

وطلب السفير كروكر من الجنرال أوديرنو أن يسمح لي بالانضمام إلى فريقه العامل على المناقشات المتعلقة باتفاقية سوفاف. كانت هذه طريقة لإبقاء الجنرال على دراية وتواصل مع سير المباحثات، لكن من دون أن يكون على صلة شخصية مباشرة. وقد أتيح لي أيضاً أن أطلع على فريق كروكر العامل عن كثب.

وجدتُ في كروكر أستاذاً في الدبلوماسية، كان مستمعاً جيداً وييدي أحكاماً وتقديرات صائبة. ودائماً ما يفكر بطريقة بعيدة عن الصخب والضجة. ومع هذا، فقد كان يمنحنا رؤيته عن تاريخ العراق الحديث، ويشرح لنا الأسباب التي تجعل المسؤولين العراقيين مترددين ومذعورين. وكان يحمل احتراماً كبيراً للعسكر ومنجزاتهم⁽¹⁾. لقد تحدر هو نفسه من عائلة فيها أكثر من شخص مُنتم لسلك الخدمة في القوة الجوية. وكان يُدرك أيّ المعارك يمكن خوضها بواسطة الجيش وأنها لا ينفع فيها استخدام السلاح والقوة. كان كروكر نموذجاً إيضاحياً بالنسبة لي للطريقة التي تؤثر فيها شخصية المسؤول على المؤسسة بأكملها، واتضح لي ذلك جلياً بعد أن رحل كروكر وانهارت العلاقات.

وبينما كان كروكر يخوض جدالاته بشأن الاتفاقية، كان الجنرال

(1) كشفت الصحفية (كارين دي يونغ)، مراسلة واشنطن بوست في كتابها عن سيرة حياة كولن باول، بأن السفير كروكر قد شارك في وضع أول تقييم سرّي لنتائج غزو العراق (لو حدث) وذلك عام 2002 بالاشتراك مع مساعد وزير الخارجية آنذاك ويليام بيرنز. التقييم السّرّي صيغ بشكل مذكّرة استقرأت أن الإطاحة بنظام صدام ستؤدي إلى إشعال حرب طائفية إثنية في العراق، ووضعت تقديرات لحجم الخسائر الأميركية المتوقعة أيضاً - المترجم.

أوديرنو يخوض منازل حادة مع واشنطن من أجل الحفاظ على مستويات قوته في العراق. وهناك من ادعى في واشنطن من كبار الضباط بأن الحرب في العراق قد تمّ حسمها وقد ربحنا بالفعل. وعليه توجب سحب الجزء الأهم من القطعات والقوات القتالية إلى أفغانستان. وكانت هناك رغبة لدى الإدارة الأميركية لإعادة نشر قوات المارينز تحديداً. ولهذا فقد تعيّن على الجنرال أوديرنو أن يذهب مرة في الشهر على الأقل إلى واشنطن من أجل التباحث، والتأكد بأن العراق ما زال غير منسي من قبل الإدارة الأميركية.

ومع تحسّن الوضع الأمني أصبحت فرص العمل والخدمات العامة هي الهم الأول للعراقيين. وما زالت القاعدة والمجاميع الشيعية الخاصة قادرة على ارتكاب جرائمها الإرهابية. لكن التهديد الأكبر للحكومة العراقية لم يكن التمرد السني أو التحدي الأمني، إنما تمثل في الاحتياج المستمر للوجود الأميركي من أجل تحقيق التفاهم على المستوى الوطني. ما زال العراقيون بحاجة إلى الأميركيين لبناء مؤسساتهم الحكومية وحماية العملية السياسية.

لم يكن فريق العمل المقرب من الجنرال أوديرنو يتمتع بمهارات فريقه السابق، ولا قدرته نفسها على الانسجام. حيث إن أغلب أعضاء هذا الفريق هم موجودون أصلاً منذ عهد سلفه. وقد انتشروا في العراق وعملوا بتواريخ ومهام مختلفة. صحيح أنه قد جلب معه بعض أعضاء فريقه القديم، لكن الأغلبية كانت تعاني من عقدة توثيق التواصل. وكانت هناك مشاحنات مستمرة حول الوصول إلى الجنرال.

وطيلة فترة عمله، رافقه كل من الجنرال جوي أندرسون (Anderson)، والعقيد جي. تي. ثومسون (Thomson)، والعقيد رايان غونزاليس

(Gonsalves). وطوال الوقت، كان هناك على الأقل واحد منهم موجود من أجل تلقي أوامر الجنرال والحرص على تنفيذها ومتابعتها مع الوحدات المعنية، والتأكد من أنها فهمت بصورتها الصحيحة.

وكان العديدون من أعضاء وكوادر الفريق المحيطون بالجنرال أوديرنو يعرفونني من خلال جولات خدمتي السابقة معه، لكن البعض لا يعرفني، وهو الأمر الذي تسبب لبعضهم بالحساسية تجاه التأثير الذي أمتلكه على آراء الجنرال.

أحدهم استوقفني مرة وقال: «توقفي عن إرسال رسائل إلكترونية إلى الجنرال، وإلا فإنني سأحطّمك». وقال لي آخر: «إنك تركنين دباباتك في ساحتي!». بينما اشتكى آخر بمرارة من أن الجنرال أوديرنو يحتاجني بأكثر مما يطلب مساعدته هو. كنت على وشك أن أخبره أن سبب ذلك هو أداؤه المتخلف مثل إنسان من العصر الحجري، لكنني أحجمت عن ذلك وأجبتّه بأنه مخطئ، فالجنرال يحتاج إلى كلينا لكن بطريقة مختلفة، ولكل منا دوره الذي عليه أن يؤديه. فأجابني بوقاحة بأنه يكرهني، وكذلك الجميع.

لقد عملت المدرسة الداخلية على تقوية قلبي في تعاملتي مع المتتمرّين. ولم أسمح لتعليقاتهم أن تنال منّي. كما أنني أعلم أن وجودهم وجولات الخدمة لهم في العراق ستنتهي خلال بضعة شهور بينما سأبقى أنا في النهاية.

وكان هناك أيضاً مايك جویدی المترجم. وهو العضو الثاني في فريق الجنرال أوديرنو الباقي باستمرار معه. كان مايك أهلاً للثقة، ومستمعاً جيداً وصديقاً لا يفتر ولاؤه. لقد كان بإمكانني دائماً أن أعتد عليه، وأن ألقى بإحباطاتي قربّه، وهو من سيهتم بي في النهاية.

يقع مكنتي إلى الخارج من إحدى القاعات التي تؤدي إلى مكتب السفير كروكر، ووجدت نفسي في إحدى الليالي وأنا أطلع إلى علي الخضيرى، مساعد كروكر والذي يقع مكتبه قبالة مكنتي وهو يندفع بانفعال وينادي: «تعالى بسرعة... ثمة حالة طارئة تستدعى تدخلنا».

والذي حدث أن أحد مساعدي محمود المشهداني، وهو رئيس البرلمان اتصل بالخضيرى طالباً منه التدخل. كان حراس المشهداني قد تجمعوا عند إحدى نقاط التفتيش وهو شخصياً قد هدد بإلغاء أي مفاوضات حول اتفاقية سوفافا. وصادف ذلك اليوم أن يكون آخر أيام عيد المسلمين، وكان المشهداني يحتفل بزواج ابنه.

وعلى الفور توجهنا إلى نقطة التفتيش التي شهدت المشاحنة، ووجدنا الجنود الأميركيين وأسلحتهم في وضع الاستعداد. بينما تجمع في الجانب المقابل عدد من العراقيين الغاضبين وبشكل عدائي ومن بينهم عبد الباسط بن محمود المشهداني. واقتربت منه في محاولة كي أفهم طبيعة التوتر وأسبابه فقال لي: «أحدهم نعت شقيقتي بأنها عاهرة!». ولأجل تهدة الموضوع طلبت من عبد الباسط أن يرجو والده وحراسه أن يعودوا إلى حيث أتوا، وأن يبقى هو ممثلاً عن العائلة لحل الموضوع. وفي المقابل توجهت إلى الجنود الأميركيين ورجوتهم أن يظهروا علامات الاسترخاء وعدم الشد. وحيث إن الجنود جرى استبدالهم، فقد طلبت إيقاظ الجندي المتورط بالمسألة. وبقيت أنتظر بصبر حتى جاءني بعد ساعة أحد الجنود بوجه طفولي.

وقلت له: «هذا الرجل يتهمك بأنك قد نعت شقيقته بأنها عاهرة، هل فعلت ذلك؟». فأجابني وعلائم الصدمة تبدو على وجهه: «سيدتي، يستحيل عليّ أنعت سيّدة بهذه الكلمة، عاهرة». وهذا عبد الباسط،

وافترضت أن الخطأ كان في الترجمة، وأن الأمر لا يعدو عن سوء فهم والتباس. ورجوت الاثنين أن يتصافحا، واعتذر الجندي عن أي فعل قد يكون أثار حنق الآخرين، وقبل عبد الباسط بدوره الاعتذار وقرر الذهاب إلى بيته. وقتها، كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد منتصف الليل.

وحين توجهنا أنا وعلي الخضيرى إلى السيارة سألت الجندي المعني عن حقيقة ما جرى، وأنه ربما قد قال شيئاً ما أدى إلى محاورة أسيء فهمها.

فقال الجندي: «نعم سيدتي، لقد كانت هناك محاورة مع المرأة بالفعل، وكان موقفها سيئاً وفضلاً للغاية حين طلبت منها رؤية الباج الخاص بها، ولذلك نعتّها بأنها «مومس لعينة!».

وصدمني بما قال. لقد ترجم المترجم هذه الكلمة إلى كلمة «قحبة» العربية، وهي كلمة شائعة لوصف المومسات.

وفي اليوم الثاني كنت أحضر الإيجاز الصباحي مع الجنرال أوديرنو الذي أنهاه كالعادة بصلاة ودعاء: «ربّنا بارك بجنودنا، والعاملين مع قواتنا، وبرجال المارينز وبرجال البحرية،... أسد 6 انصراف».

وبعد الإيجاز سألني الجنرال أوديرنو بأنه قد سمع أن شيئاً قد حدث في إحدى نقاط التفتيش، فشرحت له الموقف. وأخبرته بالحكاية كلّها، وبأفضل ما أستطيع من تقليد للهجة الأميركية كررت عبارة الجندي: «... ولذلك نعتّها بأنها مومس لعينة!». فغرق الحضور في ضحك متواصل. لقد كانت إهانة من جندي صغير عديم الخبرة ولا يتحلّى بالمسؤولية، كادت تؤدي إلى عرقلة اتفاق أمني يتعلّق بالجيش الأميركي ومستقبل وجوده في العراق.

وفي 14 كانون الأول عام 2008، قام الرئيس بوش بزيارة إلى العراق

هي الأخيرة له كرئيس للولايات المتحدة. وخلال الأسابيع الأخيرة، دأب الرئيس بوش على الاتصال بالمالكي أسبوعياً. كما سعى في توطيد علاقة جيدة مع السياسيين العراقيين. كانت الزيارة تهيمن عليها قضية الاتفاق الأمني مع العراق، كما أراد أن يهنئ الشعب العراقي بنفسه وأن تكون زيارة الوداع.

لقد جرى التخطيط للزيارة بعناية كبيرة تحافظ على سرّيتها، لكنها انكشفت للإعلام قبل يوم واحد حين أعلن جلال طالباني في كركوك أن عليه المغادرة لأن الرئيس جورج بوش سيأتي في زيارة إلى العراق. وفي المؤتمر الصحفي الذي تلا التوقيع على الاتفاقية الأمنية، قام أحد الصحفيين بخلع حذائه ورمى بالزوجين واحداً تلو الآخر باتجاه الرئيس بوش. وقد تفادها الرئيس بوش بمرونة عالية بينما حاول المالكي جاهداً أن يمنع وصولها ملوحاً بيديه. بعد ذلك جرى اعتقال الشخص الذي رمى الحذاء وأبرح ضرباً.

وفي إيجاز المعركة الصباحي مع الجنرال أوديرنو وهيئة الأركان التنفيذية لم يكن هناك، بكل تأكيد، أي ذكر للحادثة. ونقلت الصحافة العربية أن حذاء هذا الصحفي قد أعاد «كرامة» العرب، كما نقلت أن ثرياً سعودياً عرض شراء الحذاء بمبلغ 10 ملايين دولار.

أما رئيس البرلمان محمود المشهداني الذي كان مضطرباً في أحسن الأحيان، فقد منع أي نقاش في مجلس النواب عن مصير الشخص الذي رمى الحذاء. لكنّه وصفه بأنه «مفخرة» للعراق، وبعد ذلك قدّم استقالته ونعت أعضاء البرلمان بأنهم «أبناء كلب!»، وادّعى أنه تقدّم باستقالته لأجل مصلحة العراق.

بعد ذلك رافقت كلاً من السفير كروكر والجنرال أوديرنو للقاء

المالكي. كان يبدو مرتاحاً جداً لنتائج زيارة الرئيس بوش، لكنه أبدى انزعاجه العميق نتيجة «الحادث» الذي تعرّض له الرئيس. وقال المالكي: «إن هذا الأمر خارج تماماً عن عاداتنا وتقاليدها، لا يجوز معاملة الضيف بهذا الشكل، ربما يمكن في الغرب أن يحذف السياسيون بالطماطم أو البيض، لكن في التقاليد العراقية هذا أمر شائن جداً». ثم وصف الصحفي الذي رمى الحذاء بأنه تربى في عائلة بعثية، وكانت أمّه راقصة وضيعة الأخلاق. وطلب أن ننقل اعتذاره وأسفه إلى كل الأميركيين وإلى جنود قوات التحالف. كما بيّن أن الحادث قد لقي إدانة من الصحفيين العراقيين، فقط البعثيون هم من أبدوا مساندتهم لهذا الفعل.

بعد ذلك أضاف المالكي: «إن البعثيين هم فقط الآن من يعارض ويتسبون بالمشاكل. لقد وصلتني معلومات أنهم يخططون إلى إحداث مؤامرة، وقد حددوا لها يوماً أسود (يوم الشروع) وقد ضبطوا ساعة التحرك عند الساعة وسبعة وثلاثين دقيقة (19:37) وهو ما يشبه تاريخ ولادة صدام نفسه».

ثم كشف لنا أنّه قد اكتشف تآمراً ضمن الدائرة الأمنية المحيطة به، وأن هناك من اخترقها تمهيداً لاغتياله بدفع من المخابرات السورية. وقال إن البعثيين ضمّوا لمؤامرتهم مجموعة من الشيعة في كربلاء، والنجف، والديوانية، بما في ذلك امرأة تمتّ له بصلة قرابة.

في الحقيقة لقد كان المالكي مسكوناً بالخشية من التآمر البعثي، وأخذ يحيط نفسه بأناس يغذّون فيه هذه الخشية كي يكون ممتناً لهم لفرط حمايتهم إيّاه. وخرجنا من عند المالكي ونحن نهزّ رؤوسنا مما يعايناه من بارانويا. لكن الأهم هو أن الولايات المتحدة الآن لديها سوفاء مع العراق - تحت مسمى الاتفاقية الأمنية. وأن الإدارة الأميركية تعدّها

نصراً للدبلوماسية، وعلامة من علامات التأثير السياسي والنفوذ في النخبة العراقية، وأنها قد هزمت إيران التي كانت تحاول إعاقة الاتفاقية بشتى الطرق.

لكن ما غاب عنهم هو أن الجانب العراقي يسمي الاتفاقية باسم (اتفاقية الانسحاب الأميركي من العراق)، وأنها قد تضمنت بوضوح شرط عدم تواجد أي جندي أميركي على الأراضي العراقية بعد عام 2011. وأن المالكي قد رفع من شعبيته بتصدير نفسه كمفاوض صلب أمام الأميركيين، وأنه هو من أجبرهم على تحديد موعد نهائي للانسحاب التام.

...

وفي نهاية عام 2008، انتقلت السفارة الأميركية من القصر الجمهوري لتستقر في مبناها الجديد (المبنى الحالي). وهو مجمع بني على الطراز الستاليني، على ضفاف نهر دجلة، وقد روعيت فيه أعلى درجات الأمن والاحتياطات. وهي محاطة بجدران عالية وأبراج للمراقبة، وبذلك شكّلت السفارة الأكبر والأكثر كلفة للولايات المتحدة في العالم⁽¹⁾.

وفي داخلها يسكن كل موظفيها، وتدار كل شؤونهم بما في ذلك المدارس والأسواق والمطاعم والصالات الرياضية وكل احتياجاتهم، هم وعوائلهم. وقد صممت لتواكب المستوى المعاشي الحقيقي لساكنتها وهم في معظم الأحيان موظفون رسميون. وانتقلت للسكن فيها بعد أن تركت مقصورتها في القصر الجمهوري، لآتشارك في شقة جميلة داخل السفارة مع زميلة أميركية من أصل لبناني تعمل ك مترجمة، وكانت لطيفة للغاية. ومع هذه الجدران المحمية جيّداً، والمضادة للقذائف؛ أمكنني أن أنام بأمان دون أن أتوقع سقوط قذيفة باتجاهي.

(1) بلغت كلفة مجمع السفارة الأميركية الحالية في بغداد ما يقرب من 800 مليون دولار، وتعد أكبر سفارة في العالم لأي دولة على الإطلاق - المترجم.

وفي كانون الثاني من عام 2009، وصل السيناتور بايدن في زيارة إلى العراق (وكان وقتها نائباً للرئيس المنتخب للتو). كان بايدن يضع الحقائق ويصوغ آراءه بطريقة مباشرة أمامنا كالتالي: كانت حكومة الولايات المتحدة تعاني من عجز مالي بلغ 1300 مليار دولار. أما الشعب الأميركي فقد أبدى نفاداً للصبر تجاه الحروب، ولم يعد يرى أي فرق يحدث على الأرض، لا في العراق ولا في أفغانستان. والآن الشعب يطالب القوات الأميركية بالعودة إلى الديار. لقد كانت شعبية أوباما تزداد، وقد حصل على نسبة 75% من أصوات الاستطلاعات المؤيدة لسياسته. لكنه يتوجب عليه أن ينهي الحرب في أفغانستان، وعليه أن يرسل بالمزيد من القوات إلى هناك، وهو هناك بحاجة إلى 35 ألف جندي إضافي، وهذا يعني أن أعداد القتلى والإصابات ستتضاعف، وهو الأمر الذي سيؤدي بشعبية الرئيس المنتخب إلى الانهيار. لهذا (والكلام ما زال لأطروحة بايدن) توجب عليه أن ينهي حرب العراق أولاً. إن حرب العراق هي «حرب بوش»، ولقد خسر الحزب الجمهوري الانتخابات بسبب الحرب في العراق. وعليه يجب أن نسحب المزيد من القوات، ونعيد انتشارها خارج العراق على الأقل، لأن أفغانستان هي «حرب أوباما» بكل تأكيد.

كنت جالسة خلف الجنرال أوديرنو وأراقب كلام بايدن، عرفت لحظتها أننا إزاء لحظة تاريخية، إن السياسة الأميركية تجاه العراق ستتغير تماماً اعتباراً من هذه اللحظة.

وقال بايدن إن الولايات المتحدة ستدعم المؤسسات في العراق، وليس الأشخاص. وإذا كانت هناك ممانعة ورفض، فإننا سنمضي قدماً دون أن نلتفت، فما الذي يمكننا فعله؟. وعلق كروكر من جانبه، بأن

الأحزاب السياسية حاولت سابقاً أن تزيج المالكي في مناسبة معينة، لكنه حظي وقتها بدعم من الرئيس بوش. لقد ظن الجميع هنا بأن المالكي يتمتع بدعم غير مشروط من جانب إدارة الرئيس بوش.

أمّا أوديرنو فقد علّق بالقول إن علينا أن نستخدم قوانا كي ندعم المؤسسات في العراق كي تنجز بأفضل ما لديها، وربما علينا أن نبدأ بدعم البرلمان أكثر. وحالما انتهى ذلك الاجتماع، توجه بايدن والوفد المرافق له، والجنرال أوديرنو وأنا معهم للقاء المسؤولين العراقيين الرسميين. وكان اللقاء الأول مع طارق الهاشمي الذي ناقش بايدن حول خطته السابقة التي اقترحت أن يقسم العراق إلى ثلاث فيدراليات؛ سنية، وشيعية، وكردية. في الحقيقة لم تلق تلك الخطة سوى دعم الأكراد. وقوبلت بعاصفة من الإدانة والاتهامات للولايات المتحدة بأنها تسعى إلى تقسيم العراق.

وحين التقى بايدن بالمالكي، أخبره هذا الأخير بأن العراق مهتم جداً بإرساء علاقة طويلة الأمد مع الولايات المتحدة. وأن الوضع الأمني الحالي في تحسن كبير، وأن القوات الأمنية العراقية باتت تمتلك زمام المبادرة وبإمكان القوات الأميركية أن تشرع بالفعل في انسحابها.

وبعد أيام قلائل من زيارة بايدن إلى العراق، جرت في 20 كانون الثاني 2009 مراسم تنصيب باراك أوباما رئيساً للولايات المتحدة. وخلال خطابه الأول، قال أوباما: «إننا، وبشعور عالٍ بالمسؤولية، سنترك العراق كي يدار من قبل شعبه». في اليوم التالي وصلتنا التعليمات: «تم إنهاء الحرب في العراق».

وانخرطنا في عملية يعتريها الهياج والسرعة من أجل إعداد خطط وأوراق تفصيلية توضع أمام أنظار الرئيس أوباما. وانتدب الأدميرال

دايف باس (Dave Buss) ليقود هذه العملية. كان واحداً من أفضل الضباط من الذين قابلتهم من المختصين بالتخطيط الاستراتيجي، وأعلامهم في قابلية التفكير وترتيب الأولويات. كما شارك العقيد مايك ميس (Messe)⁽¹⁾ وهو رئيس قسم العلوم الاجتماعية في أكاديمية ويست بوينت العسكرية، وعمل مؤقتاً بصفة المشرف على فريق الجنرال أوديرنو للمبادرات.

كانت الأوراق البحثية التي أعدناها تهىء الجيش الأمريكي في العراق كي يخفض من عديد قواته إلى 50 ألف جندي فقط وفقاً لثلاثة مسارات؛ أن يجري هذا خلال 16، أو 19، أو 23 شهراً. كما تهدف إلى تغيير مهام القوات العاملة من المهام القتالية إلى مهام «الاستشارة والمساعدة».

في البداية لم أفهم أن إعلان أوباما نيته سحب القوات الأميركية من العراق، تعني ضمناً أنه سيقبل بترك 50 ألف جندي في مهام غير قتالية. لكن زملائي العسكريين كانوا مقتنعين بأن إدارة الرئيس ستقبل بتوصيتهم لترك هذا العدد من القوات في العراق لفترة أطول. وكانوا محقّين في آرائهم. وبعد أن درست الخيارات المتاحة، قررت إدارة أوباما أن تنفذ الاتفاقية الأمنية مع العراق، لكن بوضع كل القوات الأميركية خارج المدن العراقية بحلول حزيران من عام 2009، وأن تكون كل القوات الأميركية خارج العراق فعلياً بحلول كانون الأول من عام 2011.

ومنذ تلك اللحظة، بدأت القوات الأميركية في تغيير معتقداتها

(1) ألف كتاباً ممتعاً ومفيداً يرشد فيه العسكريين الأميركيين إلى أفضل الطرق لتنظيم مواردهم المالية والاستفادة من القوانين الأميركية الاقتصادية لتنمية واقعهم المعاشي، وقد لاقى رواجاً كبيراً - المترجم.

ومنظومة العمل الخاصة بها. لقد أصبحت «تساند، ومع، وتعمل من خلال» القوات العراقية. لم يعد ممكناً أن تمارس قوات التحالف أي نشاط قتالي أو اعتقال ما لم يطابق ذلك النشاط القانون العراقي.

كان الجنرال أوديرنو يجول في العراق، ويزور الوحدات ويلتقي بقاتلها. وأولى توصياته كانت: «لا تجعلوا من تكتيكاتكم تتجاوز أهدافكم الاستراتيجية. ما زلنا أمام دولة هشة. وهذا يعني أن الأخطار المحيطة بها لم تتزحزح، وهي بحاجة إلى مساعدة منا من أجل أن تضطلع بمواجهة تلك الأخطار بنفسها».

في أواخر آذار من عام 2009، نفذت القوات العراقية عملية لاعتقال عادل المشهداني قائد صحوة حيّ الفضل وسط بغداد. واندلعت المواجهات بين مقاتلي الصحوة ومقاتلي الجيش العراقي. وتدخلت قوات التحالف لصالح القوات العراقية وساهمت في اعتقال المشهداني. وتوفرت كمية كبيرة من الأدلة على أن المشهداني متورط بأنشطة جرمية. لكنه سبق له أن طرد عناصر القاعدة من حيّ الفضل، والآن بعد أن تحسّن الوضع الأمني، أصدرت الجهات العراقية مذكرة توقيف بحقّه.

وظهرت لنا قصّة مختلفة حين زرنا الوحدة العسكرية الأميركية المتواجدة في المنطقة، لقد كانت هناك امرأة تقدّمت بشهادتها أمام القضاء واتهمت عادل المشهداني بعدد من الجرائم، وهو الأمر الذي يسّر إصدار مذكرة اعتقال قضائية بحقّه. لكن هذه المرأة صادف أن تكون زوجة أحد قادة القاعدة القابع في السجون، وهي مدفوعة بالكامل بالرغبة في الانتقام.

وحدثت قصّة مشابهة مع العقيد رعد، قائد صحوة الغزالية غرب بغداد. لقد كان ضابطاً في الجيش العراقي السابق، وواحداً من أكثر قادة

الصحة المهنية الذين تعاملنا معهم، وسبق أن التقيته في مناسبات مختلفة. وحين تعرّض للاعتقال طالبنا بالإفراج الفوري عنه.

وعند هذا المستوى، ساورت الشكوك الجنرال أوديرنو، وارتاب في ما يجري بشأن أفراد الصحة. ووجهنا بأن نتبع مصائر قادة الصحة وأين انتهى بهم الأمر. ووجدنا أن عدداً منهم قد خضع للاعتقال على أساس نشاطه السابق في التمرد، والذي يفترض أن يكون قد غفر له وفقاً لقانون العفو الأخير. القليلون منهم فقط (مثل أبي العبد) تمكن من الهرب خارج العراق، والعديد منهم قد انتهى مقتولاً.

ودأب الجنرال أوديرنو على لقاء المالكي أسبوعياً، وفي العادة يصطحب معه العقيد بيكر، وهو القائد الجديد لفريق المبادرات، وأنا. وفي أحد اللقاءات، عرض أوديرنو على المالكي صوراً لطائرة إيرانية بدون طيار جرى إسقاطها داخل الأراضي العراقية. وقال للمالكي: «هذه الطائرة سقطت بسبب عطل ميكانيكي». وفي تلك اللحظة حدّقت في وجه الجنرال، لقد كان ذلك تحريفاً للحقيقة، لقد كان الجنرال يكذب بوضوح!

وتناول المالكي الصور وركّز فيها، ثم حاول أن يعرف أكثر؛ أراد أن يعرف ما الذي يدفع الإيرانيين إلى أن يرسلوا طائرة استطلاع مسيرة فوق الأراضي العراقية؟.

وقال الجنرال أوديرنو: «لقد عبرت الأجواء في محافظة ديالى، وربما كانت تصوّر معسكر جماعة مجاهدي خلق (معسكر اشرف). لقد استمرّت بالطيران لثلاث ساعات قبل أن تسقط».

وهنا قال المالكي: «بالتأكيد جنرال كتتم على علم بأن هذه الطائرة تحوم حول هدف ما في الأجواء العراقية، وبالتأكيد رصدتموها، أليس كذلك؟».

فأجاب أوديرنو: «بالتأكيد رصدناها، ثم أصبناها لتسقط بعد ذلك». وابتسم المالكي وقال: «إذن لم تسقط بسبب عطل ميكانيكي، إنما لأنكم أنتم من أصابها وأسقطها».

فردّ عليه أوديرنو بالقول: «لقد أصبنا الطائرة، لكن الإصابة تسببت في عطل ميكانيكي وهو ما أدى في النهاية إلى سقوطها».

وأخذ الرجلان في الضحك سوياً، ثم طلب المالكي معلومات أكثر كي يتمكن من إبراز الأمر أمام الإيرانيين وإرسال رسالة احتجاج لهم بسبب خرق الأجواء العراقية.

وفي آذار من عام 2009، ظهرت مقالة في صحيفة الغارديان اللندنية تكشف أن المالكي قد عقد صفقة مع الميليشيات الشيعية المسماة عصائب أهل الحق تتضمن مبادلة خمسة من المختطفين البريطانيين لديها (مختطفون منذ عام 2007)، مقابل الإفراج عن عدد من المعتقلين المنتمين لتلك الميليشيا، وفي مقدمتهم زعيمها قيس الخزعلي.

أخذ الجنرال أوديرنو المقال ووجهني بأن أذهب لرؤية المالكي من أجل أن أستفهم المزيد عن هذا الأمر.

وقدت السيارة إلى مكتب المالكي مع مايك جويدي المترجم، وهناك وجدناه في الطابق العلوي في مكتبه الصغير، وحين شرحت لرئيس الوزراء محتوى المقال أجابني: «إنهم أشرار، أشرار، أشرار». لقد كنّا نحاول دفع المجاميع إلى إلقاء أسلحتها، وإيقاف القتال، لكننا لم نتوصل إلى أيّ اتفاق. كان المالكي غاضباً ومتأثراً بشكل واضح من الطريقة التي حاولت فيها مجموعة العصائب أن تسوّق طريقتهما في تحرير المعتقلين، وتبرر لاختطاف الأجانب. لقد شعر بأن العصائب تحاول أن تلصق العار بالحكومة، وتتلاعب بها عبر تلك التسريبات.

ثم تناقشنا فيما يمكن أن نفعله، واقترح أن تصدر الحكومة نفيًا لهذا الموضوع، وأن تصدر العصائب من جانبها هي الأخرى نفيًا مشابهًا.

وقام المالكي بتأخير مواعده على الغداء مع علي لاريجاني كي نتمم معاً مناقشتنا في هذا الموضوع. وحين هممت بالمغادرة، قلت له: «إنها مسألة عصيبة ومهنة صعبة أن يكون المرء رئيساً للوزراء». فأجابني: «لا ضير من أن يكون المرء رئيساً للوزراء في أيّ مكان من العالم، لكن في العراق المسألة صعبة فعلاً».

....

وفي نيسان من عام 2009، قدم أوباما إلى العراق في أول زيارة له كرئيس للولايات المتحدة. كانت شعبية أوباما في صعود مستمر، وسمعته قد شغلت العالم. وحضر الفريق الأمني الخاص بالفريق وأجرى جميع الاستعدادات اللازمة المرافقة لزيارة الرئيس أوباما. وكانت الخطة تشتمل أن تهبط الطائرة الرئاسية في مطار بغداد ويتوجه الرئيس إلى معسكر فيكتوري ويستقر في فيلا الجنرال أوديرنو. ثم بعد ذلك يتوجه بالطائرة المروحية في رحلة من عشر دقائق إلى قصر الرئيس طالباني.

في قصر طالباني كانت الاستعدادات تجري على قدم وساق، وجرى تحضير الطعام على أكمل وجه. لكن أمراً طرأ في الساعات الأخيرة غير كل شيء، فقد كان جو بغداد متقلباً للغاية، ولم يكن بالإمكان إجراء رحلة الطيران بالمروحية من معسكر فيكتوري إلى المنطقة الخضراء. وفي المقابل فقد رفض الفريق الأمني الخاص بالرئيس فكرة أن يستقل أوباما السيارة ويأتي بموكبه من المطار إلى المنطقة الخضراء، فقد كان الأمر ينضوي على مخاطرة كبيرة وفقاً لتقديراتهم.

وبيّنت السفارة الأميركية بأن من المستحيل جعل المالكي يأتي بنفسه إلى معسكر فيكتوري من أجل لقاء أوباما، فقد كان يرفض أن يدخل إلى السفارة الأميركية والأولى أن يرفض الدخول إلى معسكر يخضع للقوات الأميركية بالكامل. وإذا لم يلتقِ أوباما بالمالكي، سيكون من الصعب جداً تحقيق لقائه بباقي القادة العراقيين.

كان الجنرال أوديرنو قد دخل في سورة من الغضب، فأتي رسالة سيفهمها العالم لو أن أوباما جاء إلى العراق والتقى فقط بالجنود الأميركيين؟. ثم قال لي أن أذهب إلى المالكي وأستطلع إن كان بإمكانه أن يحضر بنفسه إلى معسكر فيكتوري. وذهبت إلى منزله مع مايك المترجم وهناك التقيت بأحد مساعديه. لقد كان المالكي ينام في قيلولة الظهر. وشرحت الموقف له تماماً، وطلبت منه أن يوقظه ويرتجيه كي يذهب إلى لقاء أوباما في المطار. كنت أعرف أن ذلك الطلب يعدّ أمراً كبيراً جداً أن يطلب من رئيس وزراء لدولة ذات سيادة، لكننا تمنينا أن يتفهم الأمر.

وخلال عشر دقائق عاد إليّ المساعد وقال لي إن المالكي وافق على الأمر وإنه سيكون جاهزاً للانطلاق خلال نصف ساعة.

وعلى الفور أرسلت إلى السفارة، وإلى الجنرال أوديرنو كي يتخذ كل استعداداته. بقي أمر تأمين دخول موكب المالكي إلى معسكر فيكتوري، وأعرف أن المالكي قد يعود أدراجه مع أيّ عقبة قد تواجهه الموكب في نقاط التفتيش التابعة لقوات التحالف. وقررت أن أبقى معه في موكبه، وأن أكون في أول سيارة كي أتابع أيّ إجراء للدخول. ثم أرسلت إلى الجنرالات في معسكر فيكتوري أطلب منهم تسهيل المهمة بالسرعة الممكنة.

ودخلنا إلى المعسكر، وفي نقطة التفتيش الأخيرة قرب فيلا الجنرال

أوديرنو اضطرت أن أترجل من السيارة وأظهر الباج الخاص بي للحراس وصحت بأعلى صوتي أن معي رئيس وزراء العراق، وجرى دخولنا بلا مشاكل تذكر.

في الداخل، كنت مضطرة أن أبقى برفقة المالكي لنصف ساعة قبل أن يظهر أوباما ومعه الجنرال أوديرنو ومستشار الأمن القومي الأمريكي جيم جونز. في النهاية اعتقدت بأن اليوم سار على ما يرام، لكن ريبيكا فونغ (Rebecca Fong)، وهي مسؤولة القسم السياسي في السفارة الأميركية اتصلت بي وكانت تواجه مشكلة أخرى. لقد كانت ريبيكا مسؤولة عن مرافقة باقي القادة العراقيين الذين حضروا للقاء أوباما، وهي التي سترتب تسلسل اللقاءات. المشكلة أن مقر الجنرال أوديرنو لم يكن يحتوي على صالة خاصة للانتظار. وإذا جعلتهم ينتظرون في الاستقبال، فإنهم سيضطرمون بالمالكي حين يخرج، وهذا ما لا يريدونه. والقادة الأكراد، وبعضهم قد حضر من أربيل للقاء أوباما، قد جعلوا في الانتظار في قبة مقر الجنرال أوديرنو حيث كانت غرف منام الحراس، وقد كانت ملابسهم ملقاة في كل مكان. وبالتأكيد لم تكن تلك الطريقة في التعامل هي الطريقة المتوقعة أن تصدر تجاههم من الأميركيين.

كانت تلك الزيارة الأولى للمالكي إلى معسكر فيكتوري، وفي طريقه للخروج حيث كنت أرافقه، قال المالكي إن المكان قد يكون مناسباً لعقد القمة العربية في عام 2010. ونقلت تعليقه إلى الجنرال أوديرنو. في اليوم التالي وجه الجنرال هيئة الأركان أن تعد دراسة احتمالية لنقل كل جنود الجيش الأميركي المتواجدين في معسكر فيكتوري إلى خارج المعسكر. فقط تحسباً لو أن المالكي طلب بالفعل إخلاء المكان. وكان الأمر بمثابة صاعقة على ضباط الأركان، وصاح أحدهم: «أين بحق السماء يمكن أن ننقل خمسين ألف جندي في مكان واحد وفي وقت واحد!».

وفي أواخر نيسان 2009، كانت قوات التحالف تنفذ عملية قبض بحق مطلوبين في مدينة الكوت. وخلال عملية القبض، جرى تبادل لإطلاق النار، وقتلت امرأة في الحادث، وكانت زوجة لأحد الشيوخ المحليين. والأمر انتشر في وسائل الإعلام وأثار حفيظة الناس، وبدأ بعض الزعماء الدينيين يحرضون الأهالي ضد قوات التحالف. وخرجت مظاهرات تندد بالوجود الأميركي وتطالب بالقصاص. أمّا رئيس الوزراء المالكي فقد أدان علناً الحادث وطالب بإخضاع المتسببين لحكم القانون وأن يحاسبوا جراء ما اقترفوه.

وذهبنا أنا والجنرال أوديرنو للقاء المالكي، وكانت أكثر المقابلات توتراً على الإطلاق معه. وقال أوديرنو: «إننا ملتزمون بالشراكة مع الحكومة العراقية». ثم وجه اللوم للمالكي على انتقاده علناً قوات التحالف. وقال له إنه أمكنه من جانبه أن ينتقد الجيش العراقي نتيجة أفعال طائفية بحتة، وكان بإمكان أوديرنو أيضاً أن يتهم الجنود العراقيين الذين تسببوا في مقتل ثلاثة من قوات التحالف في الموصل قبل فترة قصيرة، لكنّه امتنع عن ذلك ولم يعرضه في وسائل الإعلام حفاظاً على الشراكة مع الحكومة العراقية.

وردّ المالكي كلام أوديرنو بأنه قد سبق أن وجه باعتقال كل من يتعرّض للجنود الأميركيين من قبل القوات المسلحة العراقية، لكن دائماً هناك «دخلاء مندسّون!» حسب تعبيره، وقال إنه سأل كل القادة العسكريين العراقيين إن كان لديهم علم مسبق بعملية الكوت فأجابوا بالنفي. ثم احتدت لهجة المالكي وقال: «من إذن نفذ هذه العملية؟... هل هم من المرتزقة؟».

وقال إنه سمع بأن القوات الخاصة الأميركية هي التي نفذت العملية،

وكرر المطالبة بتقديم المتسببين إلى العدالة. وهنا احتد الجنرال أوديرنو واحمرّ وجهه غضباً وأخبر المالكي بأنه هو المسؤول فقط عن محاسبة جنوده وليس لأيّ جهة أخرى أن تحاسبهم.

هنا رأيت أن جوّ الحوار قد تصاعد في التوتر، فوضعت يدي على يد الجنرال أوديرنو وقلت له: «سيدي، إن رئيس الوزراء يقصد أن يخضع الجنود الأميركيون إلى محاسبة من قبل الجيش الأميركي نفسه». وشرح مايك المترجم للمالكي وجهة النظر هذه، وكرر عبارتي لأوديرنو مؤكداً ما قلته. وهنا فقط هدأت الأجواء وسكت أوديرنو. لقد أفهمناه أن رئيس الوزراء يقصد أن يقدم الجنود للمحاسبة من قبل الجهات الأميركية العسكرية، وهذا أمر مختلف تماماً عما سبق أن قاله المالكي في الإعلام حين أشار إلى وجوب تقديمهم أمام القضاء العراقي.

ثم قال المالكي إن من المهم الاتفاق مع قوات التحالف على أن تكون جميع الاعتقالات تجري تحت غطاء مذكرات قضائية عراقية، وأن يجري تسليم المعتقلين إلى الجهات العراقية خلال أربع وعشرين ساعة. ثم قال: «إذا كان لدى الجنرال أوديرنو انطباع بأن الحكومة العراقية لا تسعى وراء جماعة عصائب أهل الحق، فهو مخطئ، إن هؤلاء أعداء لنا قبل أن يكونوا أعداءً للأميركيين. إنهم يدعون حمل السلاح بالضد من الاحتلال، لكن الآن لم يعد هناك احتلال». واستمر المالكي بالقول: «لقد وضعت في موقف محرج أمام الرأي العام العراقي، هذا الحادث ممكن أن يطيح بي، ومن الخطر أن يلام رئيس الوزراء في مقتل أناس مدنيين».

الفصل السادس عشر .

توترات على طول الخط الأخضر

«إننا على مبعده حادث واحد في نقطة تفتيش واحدة لتندلع الحرب الأهلية هنا».

العميد بوب براون

* * *

ومع انسحاب قوات التحالف إلى خارج المدن، شرع الأكراد في توسعة رقعة الأرض التي يتحكمون بها، بينما شرع المالكي من جهته بإعاقتهم من تحقيق ذلك.

وحرك المالكي الدبابات باتجاه المناطق المتنازع عليها، بينما أرسل بارزاني البيشمركة المسلحين بالمدفعية في المقابل. وحذر البارزاني من أن المالكي بدأ بالتحوّل إلى دكتاتور آخر، ويركّز السلطات بين يديه، وبدأ يستعمل العسكر بدلاً من لغة الحوار لحلّ المشاكل العالقة.

لقد فقد بارزاني أيّ ثقة في رئيس الوزراء، واشتكى من أن قوات التحالف تساعد الحكومة العراقية في بناء جيش عربي كبير ربما سيستخدم فيما بعد لمقاتلة الأكراد. كما ادعى بأن المالكي قد استبدل الضباط الأكراد في الجيش العراقي بآخرين من القومية العربية. لكن تحرّكات المالكي تجاه الأكراد لاقت استحساناً في الشارع العراقي العربي - الشيعي والسني على حدّ سواء - حيث يرى الكثيرون بأن الأكراد استغلّوا الضعف الحكومي العراقي منذ عام 2003 لتحقيق توسعاتهم والهيمنة على الأراضي الغنيّة بالنفط.

وبينما انشغل الجيش العراقي وقوات البيشمركة في مواجهة بعضهم البعض، استغلّ تنظيم القاعدة الظروف وهاجم الأيزيديين والمسيحيين باعتبارهم من «عبدة الشيطان». وأطلق القوميون السنة المتشددون في تنظيم رجال الطريقة النقشبندية سلسلة هجمات على البيشمركة وقوات التحالف عادّين إيّاها جميعاً «قوات احتلال».

كانت انتخابات مجالس المحافظات لعام 2009 قد جلبت أثيل النجيفي كمحافظ لنيوى. وكان البرنامج السياسي لقائمتة (الحدباء) مبنيّ على انتزاع ما حققه الأكراد من مكاسب في محافظته. وكاحتجاج

على سياسة أثيل النجيفي انسحب الأكراد من مجلس محافظة نينوى، وأعلنت المجالس المحليّة للأقضية الكردية التابعة للمحافظة انفصالها عن نينوى كي تلتحق بإقليم كردستان. وخلال محاولته حضور أحد المهرجانات في بلدة ذات غالبية كردية (بعشيقه)، تلقّى البيشمركة أوامر بإطلاق النار على المحافظ أثيل النجيفي لمنعه من الحضور. وخشية من تدهور الأوضاع إلى مزيد من التعقيدات اتّجه كل من بارزاني والمالكي إلى الجنرال أوديرنو يطلبون مساعدته في حلّ التوتر.

كنت على معرفة بالحراك السياسي الجاري في الشمال، لذلك أرسلني الجنرال أوديرنو في نيسان 2009 للقاء كبار ضباط قوات التحالف هناك من أجل تقديم المشورة. وعيّن المقدم دي.جي. جونز (D.J. Jones) لمرافقتي. كان المقدم جونز قد شهد ما يكفي من المواجهات خلال سنوات خدمته في العراق، وكان يحمل ندباً وجروحاً ظاهرة من جرائها. وتصوّر المقدم جونز لوهلة بأننا في مهمة لحلّ النزاع العربي الكردي. وسرعان ما شرحت له بأن هذا النزاع قائم منذ عقود طويلة، وأن حلّه يحتاج إلى توافقات بين القادة أولاً. أمّا مهمتنا فستنحصر في نزع فتيل هذه الأزمة ومنع تطورها، وقد تفهمني بذلك.

وحين وصلنا إلى الموصل توجّهنا للقاء الجنرال بوب كاسلن (Caslen)⁽¹⁾ قائد الفرقة 25، وكان معه نائبه العميد بوب براون. وبعد أن جلسنا وشربنا الشاي المثلج ودخّن بعض الموجودين لفافات التبغ، انحنى العميد بوب براون باتجاهي وقال: «إننا على مبعدة حادث واحد في نقطة تفتيش واحدة لتندلع الحرب الأهلية هنا!».

(1) للجنرال بوب كاسلن خدمة طويلة في أقسام وكتائب محاربة الإرهاب وملاحقة قادة القاعدة، كان متواجداً في البنتاغون لحظة تعرّضه لهجوم 11 أيلول. وفيما بعد، اتهمته جهات رقابية أميركية بأنه خرق قوانين الحياد العسكرية حين ظهر علناً في فيدوات دعائية تبشيرية إنجيليكانية - المترجم.

وعلى أثر مقترحاتنا شكل الجنرال أوديرنو لجنة برئاسته وعضوية جواد البولاني وهو وزير الداخلية، وعبد القادر العبيدي وهو وزير الدفاع، بالإضافة إلى بابكر زيباري وهو رئيس أركان الجيش، ووزير الداخلية في حكومة إقليم كردستان كريم سنجاري، ووزير البشمركة شيخ جعفر. واجتمعت اللجنة اجتماعها الأول في 19 آب 2009.

وعرضت للجنرال أوديرنو أن يخصص الاجتماع الأول لطرح مبادئ تحكم الحلول، وعلى الجميع أن يوافقوا عليها. فإن لم يفعل ذلك وتوجه مباشرة إلى التفاصيل، سيتعين عليه مناقشة كل التفاصيل والمساومة فيها مع كل عضو فيما بعد. وتحلّى الجنرال بالصبر وترك الجميع يدلون بأرائهم ثم عرض عليهم ستة مبادئ تحكم الحل المنشود.

وفي الاجتماع التالي، طرح الجنرال أوديرنو خطة للحل مكونة من مرحلتين؛ الأولى يجري فيها العمل والتنسيق الأمني المشترك من قبل البشمركة والجيش العراقي بالإضافة إلى قوات التحالف، ضمن هيكلية عسكرية مشتركة خاصة، تشرف على الأمن في المناطق المتنازع عليها.

أما المرحلة الثانية، فستشهد تطويراً لهذا العمل الأمني المشترك كي يشمل أبناء المناطق المتنازع عليها، وتجنيدهم كي يساهموا في حفظ الأمن فيها. بعد ذلك تنسحب قوات البشمركة والجيش العراقي ويناط حفظ الأمن في تلك المناطق بالشرطة المحلية.

التحدي الحقيقي تركّز في أن الأكراد كانوا راغبين بالمرحلة الأولى، وسعداء لتدخل قوات التحالف، بل إنهم كانوا يسعون إلى وجود عسكري دائم لهذه القوات هناك. بينما كانت الأطراف الأخرى ترى في المرحلة الأولى وتطبيقها شرعنة لوجود قوات البشمركة في مناطق خارج الخط الأخضر (وهو الخط الذي يسير في المناطق المتنازع

عليها ويمثل الحدود بين إقليم كردستان وباقي أنحاء العراق). وتوجب على الأميركيين أن يبددوا مخاوف العرب من وجود قوات البيشمركة. وقدم الجانب الأمريكي عرضاً بأنه سيتولى تدريب وتسليح كل قوات البيشمركة التي تتواجد تحت إشراف (حكومة إقليم كردستان) باعتبارها جزءاً من منظومة الدفاع العراقية الرسمية. كان هذا الأمر سيشتجّع الأكراد على حفظ قواتهم تحت إمرة حكومة الإقليم بدلاً من تبعيتها المتفرقة إلى الاتحاد الوطني الكردستاني والحزب الديمقراطي الكردستاني. ووقع المالكي مذكرة تضم بموجبها قوات الفصيلين الكرديين إلى إمرة حكومة الإقليم بما يسمح من الناحية القانونية بتسليحها وتدريبها من قبل قوات التحالف. ولإقناع الجانب العربي بأننا جادون فيما يتعلق بالمرحلة الثانية، علينا أن نستخدم نفوذنا للضغط على الأكراد كي ينفذوا ما جرى الاتفاق بشأنه.

كان الجنرال أوديرنو قد وثّق علاقته ببارزاني عبر السنين. ومن عدّة وجوه كانت شخصيتاهما تتشابه، فالاثنان كانا مُخلصين لما يعتقدان به، وكانا مباشرين في طرح وجهات نظرهما، كما كانا عنيدين تماماً.

ووجه لنا بارزاني الدعوة كي نزوره في قريته التي يتحدّر منها. وأقلّتنا الطائرة إلى أربيل ومنها انتقلنا عبر الطائرات المروحية إلى بلدة بارزان. كان المنظر خلّاباً، فقد تغيرت الأرض من تحتنا تغيراً جذرياً عن الأفق المليء بالغبار فتحوّلت إلى جبال مكللة بالثلوج، وكانت الوديان تعجّ بالأنهار الجارية. وفي يوم ما، قطعت قوات صدام هذه الأودية بالدبابات، وأزاحت القرى عن طريقها بالمئات، وهجّرت سكّانها. لكن اليوم الأمور تغيرت تماماً، فقد نزل الأكراد من الجبال وعادوا من المنافي وبدؤوا بإعمار أراضيهم. وحين نزلنا قرب منزل بارزاني، كانت السماء تمطر

والجو بدا قارس البرودة. وخرج لنا بارزاني بلباسه التقليدي الكردي، وكوفيته الحمراء التي يشدها على شكل عمامة بما يميز البارزانيين.

وأخذنا الحديث مع بارزاني عن تاريخ الأكراد، وقلت له إنني التقيت في أورشليم القدس بيهودي كردي ساعده البارزانيون على الخروج والهروب. فصدد على كلامي بإيماءة من رأسه وقال إن يتزاك موردخائي (Mordachai)، وهو وزير الدفاع الإسرائيلي السابق، قد تحدّر من بلدة عقرة المجاورة. وحدثنا أيضاً عن زيارة قام بها أحد أعضاء الكونغرس ومعه كبير موظفيه إلى كردستان، وقال كبير الموظفين لبارزاني إنه قد التقاه قبل سنوات عدّة حين كان بارزاني صبياً صغيراً، وكان كبير الموظفين يتدبّر أمره وقتها للهرب من العراق كونه يهودياً كردياً عراقياً. وقصّ على بارزاني أحداث خروجه من العراق بينما كانت دموعه تنهمر فلا يتمالكها. وحدثنا كثيراً عن فظاعات الحروب والمشاهد التي قد شاهدها بنفسه.

وفي طريق العودة كنت أتأمل كلمات بارزاني وأحاول استرجاعها. وجدتُ فيها الكثير من الجوانب الإنسانية كمنطق لمُحارب. لكنني لا أجد المنطق نفسه في الحروب الغربية. ففي حروبنا نسعى إلى وسم العدو بالكثير من الصفات اللاإنسانية. كل حروبنا تتمحور حول إيقاف الشر، وقتل الإرهابيين، ومنعهم من الوصول إلى الولايات المتحدة. كانت حرب اختيار وليست حرب الضرورة التي يخوضها الإنسان من أجل البقاء.

* * *

وفي نينوى، قدم د. جابر الجابري نفسه لي باعتباره مستشاراً سياسياً لرافع العيساوي. كان جابر من أبناء مدينة الرمادي، بينما كان رافع من

والجو بدا قارس البرودة. وخرج لنا بارزاني بلباسه التقليدي الكردي، وكوفيته الحمراء التي يشدّها على شكل عمامة بما يميز البارزانيين.

وأخذنا الحديث مع بارزاني عن تاريخ الأكراد، وقلت له إنني التقيت في أورشليم القدس بيهودي كردي ساعده البارزانيون على الخروج والهروب. فصدّق على كلامي بإيماءة من رأسه وقال إن يتزأك موردخاي (Mordachai)، وهو وزير الدفاع الإسرائيلي السابق، قد تحدّر من بلدة عقرة المجاورة. وحدثنا أيضاً عن زيارة قام بها أحد أعضاء الكونغرس ومعه كبير موظفيه إلى كردستان، وقال كبير الموظفين لبارزاني إنه قد التقاه قبل سنوات عدّة حين كان بارزاني صبياً صغيراً، وكان كبير الموظفين يتدبّر أمره وقتها للهرب من العراق كونه يهودياً كردياً عراقياً. وقصّ على بارزاني أحداث خروجه من العراق بينما كانت دموعه تنهمر فلا يتمالكها. وحدثنا كثيراً عن فظاعات الحروب والمشاهد التي قد شاهدها بنفسه.

وفي طريق العودة كنت أتأمل كلمات بارزاني وأحاول استرجاعها. وجدتُ فيها الكثير من الجوانب الإنسانية كمنطق لمُحارب. لكنني لا أجد المنطق نفسه في الحروب الغربية. ففي حروبنا نسعى إلى وصم العدو بالكثير من الصفات اللاإنسانية. كل حروبنا تتمحور حول إيقاف الشر، وقتل الإرهابيين، ومنعهم من الوصول إلى الولايات المتحدة. كانت حرب اختيار وليست حرب الضرورة التي يخوضها الإنسان من أجل البقاء.

وفي نينوى، قدم د. جابر الجابري نفسه لي باعتباره مستشاراً سياسياً لرافع العيساوي. كان جابر من أبناء مدينة الرمادي، بينما كان رافع من

الفلوجة. والتقى الاثنان في كلية الطب في الثمانينيات. لكن جابراً عاش فترة طويلة في باريس وكان علماني الرؤية، بينما عاش رافع كل حياته تقريباً في العراق، وكان متديناً.

وكلا الرجلين لديهما في قبيلتيهما رجال منخرطون في التمرد. وقال لي جابر إنه لم يتلقَ أيّ تعويض عن منزله الذي دمّره الجيش الأميركي في الأنبار. لقد احتجز الأميركيون والد رافع البالغ من العمر 70 عاماً لمدة 6 شهور في معتقل بوكا، ثم أفرجوا عنه دون أن توجه له أيّ تهمة. كان رافع يدير مستشفى الفلوجة حين شنّ الأميركيون حملتهم عليها عام 2004. لكنّه الآن يُعدّ نجماً صاعداً في السياسة العراقية بناء على تأثيره في محافظته ومُجمّعه.

وفي تموز من عام 2009، كلّف المالكي رافع العيساوي بأن يتولى التحقيق في الأوضاع في محافظة نينوى، وأن يبحث عن الحلول المناسبة. وبدأ رافع بإجراء عدد كبير من المقابلات واللقاءات مع الفاعلين السياسيين هناك. ثم انتقل إلى مرحلة بحث فيها النجيفي على جذب الأكراد مرّة أخرى كي يحضروا إلى اجتماعات مجلس المحافظة. كانت قضية الترتيبات الأمنية المشتركة في نينوى مطروحة للنقاش. وحضر رافع مع الجنرال أوديرنو إلى جلسة مشتركة مع مجلس المحافظة والمحافظ. وجرت المناقشة بأن الحاجة قائمة إلى 8000 شرطي إضافي، ومعهم 6000 جندي، يجب أن يجري تجنيدهم من أبناء المحافظة، وعند ذاك فقط يمكن لقوات البيشمركة أن تنسحب. وبعد شدّ وجذب، تمكّن رافع من الحصول على موافقة مجلس المحافظة على الترتيبات الأمنية المشتركة. كان جابر لحظتها يجلس في الغرفة فوجه لي ابتسامة فهمت مغزاها، لقد جهدنا أنا وهو في إعداد رؤسائنا في العمل إعداداً جيداً، والآن ها هو الأمر يترجم إلى اتفاق حقيقي.

ونشأت الحاجة إلى قانون جديد للانتخابات لتنفيذ انتخابات عام 2010. لكن العراقيين لم يتمكنوا من الاتفاق على بنود القانون. والتقى رافع العيساوي بهادي العامري (زعيم منظمة بدر) من أجل العمل سوياً على تطوير فهم مشترك، لكنهما وقفا عاجزين أمام مسألة كركوك. وصار مستحيلاً الإجابة عن السؤال التالي: من هو المواطن الذي يحق له التصويت في كركوك؟.

لقد اشتكى العرب والتركمان من أن حكومة إقليم كردستان قد دفعت بالأكراد إلى الهجرة إلى كركوك من أجل أن تكون لهم الأغلبية حين يجري الاستفتاء على ضم المحافظة إلى إقليم كردستان. وفندت حكومة الإقليم هذه الاتهامات بالقول إن الأكراد الذين عادوا إلى كركوك هم بالأصل من الذين جرى طردهم من المحافظة أيام نظام صدام.

وطلبت بعثة الأمم المتحدة (يونامي) المساعدة من الجنرال أوديرنو من أجل الخروج بوثيقة قابلة للاتفاق عليها من قبل الجميع. كانت تلك الحالة الأكثر وضوحاً في التعاون بين الجيش الأميركي والأمم المتحدة في العراق. يومها قال لي آندرو غيلمر، وهو مساعد ممثل الأمين العام للأمم المتحدة في العراق بأن بعثة (يونامي) تشعر بأنها تتعاون مع الجيش الأميركي أكثر من تعاونها مع السفارة الأميركية. وحضر كمال كركوكي إلى بغداد من أجل المزيد من الحوار، وهو وقتها يشغل منصب رئيس برلمان إقليم كردستان، وذهبت لرؤيته في فندق الرشيد حيث يقيم.

وأخيراً تم التوصل إلى اتفاق في 8 من تشرين الثاني حول قانون الانتخابات. وشعر الجنرال أوديرنو بالاختناق وهو يسمع تهينة رئيس البرلمان الإيراني علي لاريجاني للبرلمان العراقي، ثم وهو يؤكد بأن إيران سعيدة وهي ترى العراق يتقدم مجدداً على طريق البناء الديمقراطي،

وزاد عجبه وهو يرى لاريجاني يتكلم دون أن تبدو علامات السخرية على كلماته، فقد كان كلامه أمراً ساخراً بالفعل. ثم أسعده الأمر حين سمع أن عدداً من البرلمانين العراقيين رفضوا مقابلة لاريجاني وتحذثوا علانية عن التدخل الإيراني اللفظ في الشأن العراقي. ومع هذا فإننا لم نخرج من الغابة لحد تلك الساعة، فقانون الانتخابات يقتضي تصديقه من قبل مجلس الرئاسة، وقد قرر طارق الهاشمي أن يرفع الفيتو ضده.

وذهبت إلى مكتب الهاشمي كي أستطلع الأمر. وهناك التقيت بمستشاره، كريكور ديرهاكوبيان. كان كريكور عراقياً أرمنياً متعلماً وأنيقاً. وقد أنهى للتو دراسته العليا في الولايات المتحدة من ضمن منحة فولبرايت. ويتكلم الإنكليزية بلكنة بريطانية حيث إنه سبق أن أنهى دراسته الثانوية في مدرسة داخلية في قبرص. شرح لي كريكور بأن فيتو الهاشمي جاء بسبب يتعلق بمسألة احتساب الأصوات العراقية خارج العراق. يرى عدد كبير من العراقيين السنّة أن الذين هاجروا ونزحوا من العراق كانوا في غالبيتهم من السنّة، ولهذا فقد تبوّأ قضية السماح لهم بالاشتراك في التصويت.

.....

وصادف أن سافر الجنرال أوديرنو إلى واشنطن، فانتهزت الفرصة لأنال بضعة أيام من الراحة أقضيها في كردستان. وتكرّم عليّ الرئيس طالباني بأن خصص لي مسكناً للضيوف في السليمانية، ووجّه مستشاره آرام يارويسي بأمر رعاية شؤونني ومرافقتي.

وأخذني آرام إلى منزل أقربائه لتناول طعام الغداء. كانت عمّته إنسانة رائعة وقد عرفت بأنها فيما مضى كانت تصطاد الخنازير البريّة ببندقية الكلاشنيكوف. وجلسنا القرفصاء على الأرض، كان الطعام يحتوي

دجاجاً طبخ على الطريقة الكردية، وعلى الرّز بالرمّان، ومرق الرمان أيضاً. وقدمت لنا أيضاً أكلة (الدولمة) الشهيرة. وبعد الطعام اطلعت على ألبوم صور العائلة، كانت في معظمها صوراً تخلّد الزمن الذي كانت فيه قوات البيشمركة تقاتل في الجبال. وفهمت أن معظم من يظهر في تلك الصور كان قد قتل بما فيهم والد آرام.

وحكى لي آرام بأنه قد ترعرع كطفل صغير في الناصرية جنوب العراق حين كانت عائلته محتجزة من قبل نظام صدام. كان الاحتجاز يهدف إلى أن يسلم الأب نفسه وقتها. وقد ولد أخوه الثالث في السجن، ولذلك أطلقوا عليه اسم (أسير). وبعد أن جرى إطلاق سراح العائلة من الاحتجاز، عادت إلى كردستان. ثم نزلت بعد ذلك إلى إيران على أثر الهجوم الكيميائي الذي قام به صدام على حلبجة عام 1988. واستمرت جولتنا في المناطق الجبلية إلى أن انتهينا إلى ضفاف بحيرة دوكان.

وفي تلك الأثناء وصلتني رسالة من مولي في (Phee) من البيت الأبيض في واشنطن يخبرني فيها بأن الأكراد يحاولون الاستفادة من الفيتو الذي رفعه طارق الهاشمي بوجه قانون الانتخابات من أجل أن يحصلوا على مقاعد أكثر في البرلمان القادم. لقد عرفت حينها بأن كمال كركوكي قد وضع قدمه في عملية المساومة مرّة أخرى مع الهاشمي. لكن كيف لي أن أقنعه بأن تمرير قانون الانتخابات لن يؤثر على حقوق الأكراد؟. الآن هو مدفوع تماماً بهذا الهاجس ويعمل من أجله عبر المطالبة بمقاعد إضافية، لكن هذه المرّة عبر دعم فيتو الهاشمي. لن يكون ذلك ممكناً إلا أن يطلب منه بارزاني شخصياً الكفّ عن ذلك. ولم يكن بالإمكان التأثير على بارزاني إلا عبر الرئيس أوباما نفسه.

في اليوم التالي أصدر البيت الأبيض بياناً يؤكد فيه مساندته لتنفيذ

المادة 140 من الدستور العراقي والتي تختص بتطبيع الأوضاع في المناطق المتنازع عليها، كما أعلن أنه يساند إجراء مراجعة للدستور وهو الأمر الذي يطالب به القوميون السنة في العملية السياسية. وفي النهاية تم تمرير قانون الانتخابات، وقد كان لتدخل أوباما الأثر الأساس في تسهيل ذلك التمرير.

واستمرت جولتنا في الجبال حيث أخذتنا إلى حلبجة. كان النصب التذكاري للهجوم الكيميائي هو أول ما زرناه في المدينة. في القسم الأول شاهدنا صوراً للبلدة قبل الضربة الكيميائية، الحياة والناس والأسواق، كانت صوراً لبلدة كردية تقليدية. وفي القسم الثاني كانت هناك محاكاة تجسيمية لضحايا الهجوم. النساء القتلى ومعهن الأطفال، الشيوخ المتناثرون في كل مكان. كانت الصور قد التقطت من قبل مصور إيراني وهي تظهر الأطفال والنساء والضحايا كلهم وقد نزفت الدماء من أنوفهم على أثر التعرض للضربة الكيميائية.

وفي القاعة الرئيسة للنصب، حملت الجدران أسماء ما يقرب من 5000 ضحية سقطوا في ذلك اليوم. وقال لنا الدليل بأن الضربة اشتملت على استعمال ثلاثة أنواع من الأسلحة الكيميائية. وفي الخارج كانت هناك ساحة وحديقة لشواهد القبور، المئات منها. وكل شاهد قبر حمل ثلاثة أسماء. شاهداً بعد آخر، كلها كانت تحمل التاريخ الذي لن ينسى، 16 آذار 1988.

بعد ذلك استمرت بنا الرحلة إلى وسط منطقة جبلية وعرة تعرف باسم (أحمد آوا). كان الطريق يضيق بنا كلما توجهنا صعوذاً، والنهر يسير معنا نازلاً باستمرار، في تدفق قوي. حتى وصلنا إلى الشلال الجميل، ومن هناك ارتقينا الصخور لأعلى الجبل. كان المنظر رائعاً ويحتوي جمالاً طبيعياً لا ينسى.

وفي بلدة قره داغ، أخذني آرام إلى أماكن نشأته الأولى. ولأرام شقيق يدعى آلان، وهذا قد اعتاد على تربية زوج من كلاب الراعي الألماني الضخمة حيث يهتم بهما منذ أن كانا جروين صغيرين. ويذكر لي أنه في أحد الأيام وحينما كان آلان يغسل الجراء، دخل عليه إلى البيت ضيفين إيرانيين طلبا بعض الماء من أجل الوضوء للصلاة. وحين وقعت عيون الضيفين على الكلبين أصابهما الهلع، حيث إنهما يعدّانها نجاسة في عرفهما. وللغربة فقد كان الضيفان هما محمود أحمددي نجاد ومحمد علي جعفري (الأول أصبح فيما بعد رئيساً لجمهورية إيران، والثاني صار قائداً للحرس الثوري). حيث كانا يتواجدان بالبلدة بمعيتة الاتحاد الوطني الكردستاني.

بعد ذلك عدت إلى بغداد، وفي ليلة جمعتني بالجنرال أوديرنو وبعض الضباط قبيل ليلة الاحتفال بأعياد الميلاد (كانون الأول 2009)، استذكر الجنرال أوديرنو أن هذا العام سيكون الخامس له في العراق والذي يحتفل فيه بأعياد الميلاد هنا. لم يكن يتصور أبداً أن يمضي خمسة أعياد للميلاد في العراق. لكنه الآن حين يقارن الأوضاع مع عام 2006 وما تلاه، سيجد فرقاً كبيراً وشاسعاً عن تلك الأيام المظلمة. وذكر أنه الآن حين يجول بالمروحية ليلاً فوق بغداد ويرى الشوارع المكتظة والأنوار من المتاجر والمخازن والسيارات، يشعر بأن جزءاً كبيراً من الحياة قد عاد إلى هذه المدينة، وأن تضحيات جنوده لم تذهب سدى.

قلت له: «بالرغم من أن عملي معه قد عرّضني لتدمير فكري، وجعل عواطفني مشوشة، إلا أنني ما زلت أشعر بالتميز وأنا أمارس هذا العمل معه». فهمس لي الجنرال أوديرنو قائلاً: «أنت بمثابة سلاح السري!».

أصبحت المرحلة الأولى من التنسيق الأمني المشترك بين العرب والأكراد أمراً واقعاً وملموساً على الأرض. وجرت لقاءات مكثفة بين الضباط العرب (الجيش العراقي والشرطة المحلية لمحافظة نينوى) والأكراد (قوات البيشمركة) أدت إلى مزيد من التواصل والتعارف والتنسيق بين الطرفين. لكن تحقيق التقدم في إيجاد الحلول السياسية لمشاكل نينوى قد تأثر بالجدل حول كركوك في نقاشات إقرار قانون الانتخابات. الجدل تركز حول عدد المقاعد الذي يجب أن يخصص لكل محافظة من المحافظات الكردية الثلاث.

وكان أهم جزء من الترتيبات الأمنية المشتركة هي أن تترك حرية التنقل لمحافظ نينوى، وعلى ذلك قرر المحافظ أثيل النجيفي أن يختبر هذا التنسيق الأمني وأن يتوجه إلى بلدة (تلكيف)، وهي بلدة واقعة ضمن المناطق المتنازع عليها. وأهملت القوات الأميركية الاعتراضات الكردية وقررت أن الزيارة يجب أن تمضي. وفي المقابل جلب الأكراد تعزيزات من قوات البيشمركة ونشروها في المنطقة، وقرروا حشد الناس لمنع زيارة النجيفي وموكبه من الدخول. وحدث إطلاق نار في نوع من أنواع العراك في الشارع. ولأن القائد العسكري الأميركي المتواجد ميدانياً خشي أن يتعرض جنوده إلى تهديد فعلي، بادر إلى تحريك بعض الوحدات بالدبابات إلى مكان الحادث. وقامت الشرطة العراقية من جانبها باعتقال 9 من الأكراد تحت طائلة الاشتباه في محاولة اغتيال النجيفي.

وقتها كنا في أنقرة نتناقش مع الأتراك في السبل التي علينا اتباعها للتعامل مع قضية حزب العمال الكردستاني، وهم الجماعات الكردية المسلحة التي تتخذ من الجبال العراقية في كردستان قاعدة لها. وكان

هناك بعض الصحفيين الأتراك الذين حضروا للاحتجاج على زيارة أوديرنو ودوره في إلقاء القبض على جنود القوات الخاصة التركية في 4 تموز 2003. (كان أحد أفلام الإثارة التركية واسمه «وادي الذئاب» قد تطرق للقصة بشكل مُضادٍ تماماً للجانب الأميركي، ونال شعبية واسعة في تركيا). وهناك احتفلت بعيد ميلادي مع الجنرال أوديرنو وبعض الأصدقاء، وقد شربت كثيراً ولم أعرف مدى جدية تطورات الأوضاع في نينوى إلا مع عودتنا إلى العراق.

وفي بغداد تلقيت اتصالاً هاتفياً في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، كان المتحدث هو السفير مراد أوزجيلك، سفير تركيا في بغداد. وكان قد تلقى تقريراً للتو يفيد بأن الأكراد قد غزوا الموصل. لم يكن لديّ أية فكرة عمّا يقوله، وكل ما لدي من معلومات يقتصر على أن الشرطة اعتقلت بعض الأكراد على خلفية حادثة إطلاق النار في تلكيف. ووعده بتحرّي الموضوع وأن أعود له بالرد لاحقاً.

وحين تحرّيت المزيد من المعلومات، لم يكن الأمر (غزواً) إنما كان في حقيقته عملية اختطاف قامت بها القوات الكردية لعدد من العرب كي تبادلهم بالمعتقلين الأكراد، وهذا كان رد فعلهم على اعتقال الشرطة العراقية للأكراد المشتبه بهم.

ازدادت الأوضاع تعقيداً، وأخذت الشكوك تحيط بتفكير بارزاني، ففي كل مرة يتابع بها الأخبار يجد نفسه أمام دبابة أميركية أو طائرة تحلق فوق القرى الكردية. لقد كانت القوات الكردية مساندة على طول الخط للأميركيين، ولم يحدث أن قتل جندي أميركي واحد على أيدي القوات الكردية. لهذا، كان بارزاني يتساءل عن مغزى هذا الموقف الأميركي من الأكراد. والأكثر من هذا، لو اندلع قتال بين

العرب والأكراد، كان بارزاني يرغب بمعرفة أيّ الجانبين ستقف معه القوات الأميركية.

لم يرغب عن بال بارزاني كيف أن الأميركيين خذلوا والده عام 1975. وقتها توصل شاه إيران وصادام إلى اتفاقٍ يلبي مطالب إيران الإقليمية، وامتنع بعد ذلك الشاه عن تقديم المساعدات للأكراد؛ فلجؤوا لطلب العون من الولايات المتحدة لكن هينري كيسنجر رفض مدّ يد العون فانهارت المقاومة الكردية سريعاً.

وشعر الجنرال أوديرنو باستياءٍ شديد من الطريقة المبالغ بها في ردّة فعل بارزاني والأكراد إزاء أحداث نينوى. وامتنع عن التواصل معه، كما امتنع بارزاني من جانبه عن الاتصال بالجنرال. وسافر أوديرنو إلى واشنطن لأجل مزيد من التشاور، وتركني وحدي أتعامل مع المسألة.

اتصلت بالدكتور فؤاد حسين، وهو كبير موظفي بارزاني وقلت له: «دكتور فؤاد، إننا في قارب واحد، فإما أن ننجو جميعاً أو نغرق جميعاً».

أما السفارة الأميركية فقد أصرت على أن يُقدّم المشتبه بهم في محاولة اغتيال النجيفي إلى القضاء، وأن يعاملوا وفقاً للقوانين العراقية. وصرخ فؤاد حسين بوجهي قائلاً: «إننا في العراق، وهنا لا تحكم القوانين ولا تعمل».

لكننا اتفقنا على أن أفضل الحلول لنزع فتيل الأزمة هو أن تجري مبادلة المعتقلين الأكراد لدى الشرطة العراقية بالعرب الذين اعتقلتهم القوات الكردية. لكننا قبل ذلك بحاجة إلى برهان على أن أولئك المعتقلين لدى الأكراد ما زالوا على قيد الحياة.

وتوجهت إلى أربيل بواسطة طائرة (C-12) الصغيرة التي خصّصت

للجنرال أوديرنو. لكن الأحوال الجوية كانت غير مواتمة، والمطار كان يختفي خلف ضباب كثيف ولم يتمكن الطيار من تمييز المدرج. وأخبرني الطيار بأن الطائرة تحمل ما يكفي من الوقود فقط لمحاولة واحدة أخرى للهبوط. وفي النهاية تمكن الطيار من تمييز المدرج وهبطنا بسلام بعد محاولتين صعبتين للغاية.

وركبت سيارة واتجهت مباشرة إلى مكتب د. فؤاد حسين، ولم يصدق بأنني تمكنت من القدوم إلى أربيل، ونظر من نافذة مكتبه إلى الجو وراه متلبداً بالغيوم وزخات المطر تنهمر. وقلت له إنني بحاجة إلى برهان يثبت أن المختطفين العرب ما زالوا على قيد الحياة، وبذلك يمكنني أن أقنع مجلس محافظة نينوى على مبادلتهم مع المعتقلين الأكراد. لكن فؤاداً قال لي بأننا سنتكلم في وقت لاحق وإن أمامي وقتاً كي أرتاح، وخصص شابة كردية لمرافقتي.

وانتهزت الفرصة كي أزور صالوناً لبنانياً للتجميل افتتح مؤخراً في أربيل، استغرقت الوقت المتاح في قص شعري وإزالة شعر الساقين بالشمع. وما زال لدي وقت ولم نتلق اتصالاً من القيادة الكردية، فقررت الذهاب إلى أحد مولات التسوق في أربيل، وبينما كنا هناك تلقت الشابة المرافقة لي اتصالاً يطلب منها أن نتوجه على الفور إلى مقر (الأسايش) وهو جهاز الأمن الداخلي الكردي، وعلى الفور أخذنا السائق إلى هناك.

وبعد محادثة قصيرة مع أحد كبار الضباط هناك، تم جلب أحد العرب المختطفين إلى الغرفة، وقال لي إنه قد جرى توقيفه عشوائياً في الموصل وبلا مبرر وجرى أخذه من قبل الأسايش، حتى إنه أخبرهم أن جدته كانت كردية الأصل لكن هذا الأمر لم ينفعه، ثم جلبوا الآخرين واحداً تلو الآخر.

وحالما خرجتُ من مقر الآسايش اتصلت برافع العيساوي، وهو يومها يشغل منصب نائب رئيس الوزراء، وطلبت منه أن يؤكد للآخرين في الموصل بأن المختطفين على قيد الحياة. وثم اتصلت بالسفير مراد أوزجيلك كي أخبره بالمعلومة ذاتها، وأطلب منه الضغط على النجيفي كي يفرج عن ثمانية من أصل 11 كردياً معتقلاً لدى الشرطة العراقية. وعاد رافع العيساوي ليطلبني في الهاتف ويخبرني بأن مجلس محافظة نينوى والمحافظ قد وافقوا على إطلاق سراح المعتقلين الأكراد.

في اليوم التالي رجعت إلى بغداد وقابلت رافعاً وجابراً كي ننسق الخطوة التالية. وطرت بالطائرة نفسها معهما، لكن هذه المرة إلى الموصل من أجل تنسيق عملية تبادل المعتقلين. وفي المطار اصطحبنا باتريك ميرفي جميعنا في سيارته، وهو واحد من أفضل العاملين في فريق العلاقات العامة. وأخذنا من الجانب العسكري للمطار إلى القسم المدني. واتفقت الآراء أن هذا أفضل مكان لإجراء عملية تبادل المعتقلين. ثم حضر المحافظ أثيل النجيفي ومعه اثنان من أعضاء مجلس المحافظة، وبعد ذلك تم جلب 3 من المعتقلين الأكراد.

ونسقت مع العميد كوكولو (Cucolo) من الجيش الأميركي كي يتسلم المعتقلين العرب من مكانين مختلفين في كردستان ويجلبهم بواسطة الطائرات المروحية. وفي اللحظة التي ظننتُ فيها أن كل الأمور تسير على ما يرام، ظهر أن هناك عقدة أخيرة. إذ توجب أن يُعرض الأكراد الثلاثة على قاضٍ عراقي كي يأمر بإطلاق سراحهم وفقاً للقانون. وهنا وصلت الشكوك إلى كريم سنجاري، وهو وزير الداخلية في حكومة إقليم كردستان. لقد كان لديه مخبرون في كل أنحاء المطار، وقد اعتراه الشك بأن المعتقلين الأكراد الثلاثة لن يتم إطلاق سراحهم.

وفي النهاية وافق د. رافع العيساوي على أن يذهب د. جابر الجابري كرهينة مع الأكراد من أجل يضمنوا إطلاق سراح المعتقلين الأكراد جميعاً.

طبعاً لم يكن جابر سعيداً جداً بهذا الإجراء، لكنّه ذهب مع المعتقلين الأكراد بصحبة رجال الأمن الأكراد والعرب ليمثلوا أمام القاضي ويحصلوا منه على وثائق الإفراج المطلوبة. وأخبرني جابر لاحقاً أن القاضي كان مسروراً للتبادل حيث وجد أن الإفراج عن 3 من الأكراد مقابل 15 عربياً إنما هي صفقة ممتازة.

لكن كريم سنجاري أصر على أن يبقى المعتقلون العرب على متن الطائرتين المروحيتين ريشما يجري بالفعل إطلاق سراح الأكراد الثلاثة. كنت على تواصل معه عبر الهاتف لكن الخطوط كانت ضعيفة. وانتهت العملية بأن حضر المعتقلون العرب وأطلق سراحهم بينما كانت الأعمال في مطار الموصل تسير بالشكل المعتاد. واستقبلهم رافع وسلّم كلّاً منهم بعض المال، كانوا ما زالوا يجهلون لِمَ جرى اعتقالهم بالأصل. بعد ذلك عقد رافع مؤتمراً صحافياً أكد فيه على أهمية التعايش المشترك، والمصالحة الوطنية. ثم تلقى لاحقاً اتصالاً من بارزاني يشكره فيه على جهوده في حل هذه الأزمة منذ البداية. وفي النهاية كنّا سعداء للغاية إذ أنجزنا شيئاً ومنعنا نزاعاً مسلحاً من أن يندلع. وعلى متن الطائرة التي عادت بنا إلى بغداد، قال لي رافع إنه لأمر نادر في العراق أن يتمكن فريق من العمل سوياً وأن يشعر الجميع بعدها بالسعادة.

لقد كان يوماً آخر في العراق.

الفصل السابع عشر

انتخابات ومخادعات

«إن أكبر مخاوفني تتلخّص في أننا نجهد من أجل ترسيخ استقرار العراق، ثم سنسلّمه إلى إيران في وقت نندفع فيه مسرعين بالانسحاب منه».

الجنرال ريموند أوديرنو.

* * *

كان الجنرال أوديرنو قد شاهد مؤخراً الفيلم السينمائي (حرب تشارلي ويلسن)، والذي يحكي قصة دعم المجاهدين الأفغان من قبل الأميركيين من أجل هزيمة السوفييات وإخراجهم من أفغانستان. وكانت لديه مخاوفه أن يحدث الشيء نفسه في العراق. وقال لي ذات مرة: «لقد راهنت بالكثير هنا، وصار صعباً أن نقرر مجرد الخروج من العراق ببساطة». كان يتطلع أن تستمر العلاقات العراقية الأميركية لعقود قادمة، على أن تقاد ملفاتها من قبل السفارة الأميركية في العراق وليس من قبل الجيش الأميركي.

ولم يخفِ أوديرنو مسعاه بأن يترك في العراق ما يقرب من 20 ألف جندي أميركي، يعملون على تدريب القوات المسلحة العراقية، ويوفرون دعماً نفسياً يبعث على الاستقرار. كان يتطلع دوماً إلى حقبة طويلة من الشراكة الاستراتيجية بين العراق والولايات المتحدة.

وفي كل مرة تأتي فيها لجنة من أعضاء الكونغرس إلى العراق، كان الجنرال أوديرنو يضع في إيجازه لهم شروحات عن أهمية العراق بالنسبة للولايات المتحدة، وكيف أن اتفاق الإطار الاستراتيجي الذي وقع عام 2008 يمكن أن يقود الشراكة مع هذا البلد. ورغم أن نظريته كانت تعد نظرة متفائلة لتقييم حجم الدور الأميركي في العراق وفي تشكيل النظام السياسي فيه، إلا أننا لم نشهد طروحات تعاكس ما كان يؤمن به ويعرض له، خاصة من داخل الحكومة الأميركية.

كانت أولى يقينيته عن الأوضاع في العراق، بأنه من أجل أن نشهد نجاحاً للشراكة العراقية الأميركية، توجب علينا أن نشهد أولاً اتفاقاً سياسياً عراقياً بين الزعماء العراقيين. وبخلاف ذلك، فإن كل الاستقرار الذي قاتلت قوات التحالف من أجل تحقيقه لن يكون استقراراً مستداماً

أبدأً. ولهذا، فقد كان ينتهز كل فرصة متاحة كي يشرح طبيعة تعقيد المشهد الاجتماعي والسياسي العراقي لإدارة الرئيس أوباما.

ولأشهر عدّة حاول جاهداً العمل مع طاقم السفارة حين تم تعيين السفير كريستوفر هيل في أواخر عام 2009. وكان واضحاً عنده أن اختيار السفير هيل لهذا المنصب كان خطأ، وأن السفير جرى إقحامه في شأن لم يقاربه طوال حياته المهنية. وبوجود نقص كبير في خبرة السفير هيل ومعلوماته عن الأوضاع في العراق والمنطقة، لم يكن اختياره سوى قرار سييء للغاية. في الحقيقة لم يرغب السفير هيل بتولي هذه المسؤولية منذ البداية، لكن الوزيرة هيلاري كلينتون هي التي أصرت وضغطت عليه من أجل أن يقبل. وخلال لقائه بوزيرة الخارجية في واشنطن، اشتكى الجنرال أوديرنو من كون السفير هيل لا يتواصل مع العراقيين أو مع باقي أعضاء السلك الدبلوماسي في بغداد، ويبدو أن تركيزه الأساس ينصبّ على مراقبة القوات الأميركية المتواجدة في العراق.

كان وجود كريستوفر هيل كسفير للولايات المتحدة في العراق يعد مثلاً حياً على إمكانية أن يُفسد شخص ما منصباً بهذه الأهمية. لقد جلب معه عُصبة موظفين من المُستجدين على الوضع العراقي، وعمل هؤلاء على تهميش كل أصحاب الخبرة الطويلة والمُطلعين على تطورات الأوضاع في العراق. وعلى سبيل المثال، فقد قطع الدبلوماسي المحنك روبرت فورد الذي كان سفيراً في الجزائر فترة خدمته هناك ليلتحق بالعراق، وليخدم في السفارة تحت إدارة السفير كروكر، وبقي في العراق مع قدوم السفير كريستوفر هيل كنائب للسفير. لكن السفير هيل لم يرغب بالاستماع إلى مشورته ودفعه إلى مغادرة منصبه مع بداية عام 2010.

كان السفير هيل يصرّح أمام طاقم السفارة علناً بأنه لا يحبذ العمل في العراق ولا يستلطف العراقيين. وكان يحث المرؤوسين على أن تجري الأمور بشكل «طبيعي» في السفارة. ومن بين تعريفاته لكلمة «طبيعي» هي عملية غرس العشب في المساحات الواسعة داخل مبنى السفارة. وفي أولى المحاولات لبذر العشب أكلت الطيور كل البذور وفشلت المحاولة. ثم تطلّب الأمر جلب لفائف ضخمة من العشب الجاهز - لا أعرف من أين أتوا بها - من أجل فرش الأرضيات الترابية. إذ لم يكن هناك ما يكفي من مساحات العشب داخل السفارة كي يلعب السفير لعبته المفضّلة «كرة الأكروس».

وكلمة «طبيعي» كانت تعني له أيضاً ألاّ يدخل الأجانب إلى السفارة. وقد حاول البريطانيون أن يلتحقوا باتفاقية سوفافا (SOFA)، لكنهم فشلوا وتوجب عليهم الانسحاب كاملاً بحلول أواخر عام 2009.

في البداية لم ألحظ أيّ فرق، لكن بمرور الوقت تطلّب الأمر أن أحصل على مرافق يرافقني لدى دخولي السفارة الأميركية كوني من غير الأميركيين. وصار صعباً عليّ أن أدخل إلى مكتب المحفوظات والأرشفة في السفارة، حيث كان لديّ مكتب هناك، للسبب نفسه. أصبح واضحاً لديّ أن السفير لا يريدني أن أتواجد في السفارة.

وبناء على ذلك، سعيت إلى الحصول على «اللجوء» لدى قبيلة العسكر، وقد وقر لي الجنرال باربيرو (Barbero) مكتباً في مقرّه الذي كان عبر الشارع الذي تقع فيه السفارة. ورأيت أن العسكر الأميركيين يعدّون أكبر الأخطار عليهم هو أن تخضع قيادة مهمتهم للسفارة الأميركية.

...

وفي أحد أماسي شباط 2010 كنت جالسة في منزل رافع ومعنا جابر أيضاً، حين عرض لي رافع على حاسبته الإعلان الدعائي لقائمة (العراقية) التي ستشارك بها في الانتخابات القادمة التي يفترض أن تجري في آذار القادم. كان المقطع الدعائي يحتوي شاباً وسيماً يغني أغنية حب للعراق والعراقيين. كانت كتلة (العراقية) تبني طموحها الانتخابي على خوض حملة انتخابية لاطائفية. وقد قدمت (العراقية) نموذجاً للقادة السنة مثل رافع، الذين بإمكانهم العمل مع العلمانيين الشيعة مثل إياد علاوي. في الانتخابات السابقة شارك من محافظة الأنبار فقط 2% من الناضحين، ويتوقع رافع أن يختلف الأمر الآن. وكان محافظ الأنبار قد تعرض لتفجير قبل أسبوع، وقد فقد ذراعه في التفجير، وقمنا بزيارته في المستشفى، لكن بالرغم من كل هذا كنت أجد رافعاً متفائلاً، ويتأمل خيراً في الديمقراطية الواعدة في العراق.

وخلال السباق إلى الانتخابات، أطلّ قانون اجتثاث البعث برأسه مجدداً ليجري استبعاد المرشحين. وتصدر للأمر أحمد الجلبي مدعوماً من الإيرانيين، وقام علي فيصل اللامي⁽¹⁾، وهو مدير هيئة اجتثاث البعث بتهئية ملفات الاجتثاث. (كان اللامي قد أطلق سراحه مؤخراً من معتقلات قوات التحالف حيث كان معتقلاً بتهمة التعاون مع الميليشيات الشيعية).

كانت هيئة اجتثاث البعث تستبعد المرشحين بالتعاون مع مفوضية الانتخابات، وكذلك عبر تواطؤ بعض القضاة معهم. وقد تأثرت (العراقية) كثيراً بالاستبعاد. لكنه ضرب أيضاً كتلة (دولة القانون) التي يقودها المالكي. لقد بدا الأمر كما لو أن الشد والتخندق الطائفي يعود إلى الواجهة من جديد، كانت إيران ترى في العراق الذي لا تحكمه

الطائفية تهديداً لها. ولقد جرى تصوير علاوي على أنه بعثي، وعلى أنه سيعيد شكل المقابر الجماعية، وحكم صدام بطريقة أخرى.

وواظب الجنرال أوديرنو على مراقبة الأوضاع عن كثب، وقال لي ذات يوم: «يتوجب علينا أن نبقي (العراقية) في العملية السياسية، لقد قاتلنا طويلاً من أجل جلب الجميع إلى الحلبة، وسيكون الأمر بمثابة كارثة إذا انسحبت (العراقية) من العملية السياسية».

ومن بين الذين منعتهم مفوضية الانتخابات من الاشتراك على خلفية الاجتثاث، القيادي في (العراقية)، صالح المٌطلق. كنت قد زرته في فندق الرشيد حيث اتخذ له مقراً هناك من غرفتين في الفندق. وقد ظهرت عليه علامات اليأس والإجهاذ. كان المالكي قد دعاه كي ينضم إلى كتلته دولة القانون، وحين رفض بدأ المالكي بتوجيه الضغوط عليه. يميل صالح المٌطلق إلى أن يكون قومياً عربياً، وهو علماني النزعة ولم يكن جزءاً من النزاع الطائفي. وهو سني متزوج من شيعية. كان المٌطلق يحمل شهادة الدكتوراه في علوم الزراعة، وأمضى سنوات في سكوتلندا. وكان هناك حديث عن اعتقال ابن أخيه وإجباره على الإدلاء باعترافات عن علاقة عمّه بالإرهاب.

وبناء على تعليمات الجنرال أوديرنو، نصحتُ المٌطلق بأن يغادر العراق كي يتفادى التعرّض للاعتقال. وأن يحث باقي أفراد (العراقية) على البقاء وعدم الانسحاب. كانت تلك الطريقة الوحيدة التي نحفظ بها التوازن في البلاد وفي العملية السياسية. وفي لقائي الأخير معه أوصلني إلى السيارة وصافحني، وبعد ذلك بأيام سمعت أنه غادر متجهاً إلى الأردن.

وكان هناك شخص آخر قد يستهدف، وهو عبد القادر العبيدي وزير

الدفاع. كان عبد القادر سنياً لكنه مقرب من المالكي ومن ضمن أعضاء كتلة (دولة القانون). تعرّض عبد القادر إلى السجن في عهد حكم صدام وإلى مصادرة أمواله. وفي آخر لقاء دوري بيننا، طلب منّي أن نتكلّم على انفراد. كان مستاءً جداً من اتهامه بالانتماء للبعث. وقد تدمّر بشكل كبير من اتهامه بعد هذه السنوات من إثبات الولاء للحكومة الشيعية والنظام في العراق. كل ذلك جعله محبطاً وقال إنه في حال تم استبعاده، فلن تكون هناك فرصة للمصالحة في العراق.

الصاعقة التالية التي خرجت عن الحكومة العراقية في ذلك الشهر (شباط 2010) كان طلبها بأن تنقل إلى عهدها سلطان هاشم الذي كان معتقلاً لدى القوات الأميركية وفي عهدها. كان سلطان هاشم قد شغل منصب وزير الدفاع في عهد صدام، ويعد واحداً من أكثر الضباط المرموقين في الجيش العراقي السابق.

كان سلطان قد سلّم نفسه إلى قوات التحالف في الموصل وفقاً للتفاهم بأنه سيلقى الاحترام، وأن يعامل بعدالة. وجرى في وقتها نقله إلى بغداد في مروحية الجنرال بيترايوس. لكن الذي جرى في بغداد أنه تعرّض للمحاكمة وقد حُكم بالإعدام، وهذا ليس التعامل الذي توقّعه منّا أو إن قوات التحالف جعلته يظنّ بأنه سيتلقاه. وصار لدينا شك بأن السلطات العراقية قد طلبت نقله إلى عهدها تمهيداً لإعدامه قبيل الانتخابات، من أجل رفع حظوظ الأحزاب الشيعية الانتخابية. وإذا حصل هذا، فإن قادة كتلة (العراقية) سيشعرون بأنهم يُدفعون دفعاً نحو الانسحاب من العملية السياسية. واتصلت برافع الذي كان في أربيل. وعاد على الفور إلى بغداد لمقابلة الرئيس طالباني من أجل أن يوقف الإعدام، حيث يتطلّب هذا الأمر بالضرورة تصديقاً من رئيس الجمهورية.

وجمّدت (العراقية) حملتها، وطالبت بتوفير ضمانات ومراقبة دولية للانتخابات وللعملية الديمقراطية بصورة عامة. ثم تمكّن رافع من جمع بعض الأحزاب السياسية لمساندة مدونة قواعد السلوك الانتخابي خلال الانتخابات. ومن أجل الحيلولة دون وضع معايير عشوائية للانتخابات، والإبقاء على كتلة (العراقية) في اللعبة السياسية، تدخلت مفوضية الاتحاد الأوروبي مدفوعة من قبل السفير البريطاني جون جينكنز (Jenkins) من أجل إصدار بيان يوزّع في الأمم المتحدة، يرفق بالتقرير الفصلي الذي يعدّه أد ميلكرت، الممثل الخاص للأمين العام للأمم المتحدة في العراق.

ولحسن الحظ، فقد عمل التقرير الدولي وبيان الاتحاد الأوروبي على إقناع كتلة (العراقية) بوجود ضمانات حول مراقبة الانتخابات. وعادت (العراقية) لتشارك في الحملة الانتخابية. وخلال جولتي حول بغداد مع صفاء، كان بإمكانني أن أرى الملصقات الانتخابية في كل مكان، لقد كانت الحملة على أشدها.

وأخيراً، جرت الانتخابات في 7 آذار عام 2010، وقد جرت بسلاسة لم نكن نتوقعها. بعد أن سبقتها حملة انتخابية عاصفة شملت تغطيات إعلامية واسعة لكل الأحزاب المشاركة. وقد شارك 62% من الذين يحق لهم التصويت فيها. كان الاشتراك على المستوى الشعبي رائعاً، خرج كبار السن والعجزة للانتخاب أيضاً، والآباء يصطحبون أطفالهم سيراً إلى مراكز الاقتراع. كنّا أنا والجنرال أوديرنو نراقب الحدث من الجو. وقد هبّا الاتحاد الأوروبي المئات من مراقبي الانتخابات الذين عملوا إلى جانب الآلاف من العراقيين المدربين على إدارة الانتخابات. بينما وفّرت الأمم المتحدة العون اللوجستي والتقني والاستشاري اللازم

للعراقيين من أجل العمل على تفاصيل العملية الانتخابية. كل هذا ساعد على نشر القناعة بمصداقية الانتخابات.

كان المتمردون قد استعدوا لمهاجمة بعض المراكز الانتخابية عبر زرع العبوات الناسفة، ونجح البعض منها. لكن القوات الأمنية العراقية تمكنت من تفكيك عدد كبير من تلك العبوات، ومواجهة المتمردين بفاعلية. الآن بدت القوات الأمنية العراقية بأنها تلعب دور الحامي للعملية السياسية والشعب العراقي أكثر من كونها حامية للنظام. وهذا يرجع إلى تأثير الجيش الأميركي حتماً. وقبل أن تخرج نتائج الانتخابات إلى العلن، توقعت الدوائر العسكرية الأميركية أن تكون الغلبة لكتلة (دولة القانون) التي يقودها المالكي.

واتصل بي رافع العيساوي صائحاً في الهاتف: «لقد ربحنا الانتخابات»، كان بإمكانني أن أسمع أزيز الرصاص في اتصاله احتفالاً بالفوز. لم نكن نتوقع أن تبلي (العراقية) هذا البلاء الحسن، لقد ربحوا 91 مقعداً وهو ما يزيد عن كتلة المالكي بمقعدين. فقلت له بالعربية: «ألف مبروك». يبدو أن برنامجهم الانتخابي قد اجتذب العديد من العراقيين الذين يرفضون أن يتم تصنيفهم إلى طوائف، أو أن يحكموا باسم الدين.

في اليوم التالي ذهبت مع الجنرال أوديرنو والسفير كريستوفر هيل لمقابلة المالكي، وحين سأله السفير هيل عن خطته للتقاعد، كان واضحاً تماماً أن المالكي لا يفكر بأي شكل من الأشكال أن يتنحى عن منصبه. وتكلم عن عمليات تزوير واسعة حدثت في الانتخابات. كما ذكر أن جماعة مجاهدي خلق (المنظمة الإيرانية المعارضة للنظام الإيراني) قد استعملوا الصحن اللاقطة للدخول على نتائج الانتخابات

ونتمكّنوا من اختراق أجهزة الكمبيوتر المستخدمة في عدّ الأصوات. لقد كان مقتنعاً تماماً أن أجهزة الكمبيوتر قد جرى اختراقها، رغم أنها كانت قد نصبت معزولة وحدها، ومنفصلة عن الإنترنت، وبحضور المئات من المراقبين الدوليين.

وقد أخبره مستشاروه أن ائتلافه سيفوز بـ 100 مقعد على أقلّ تقدير، وطالب بإعادة العد للأصوات. لقد أصبح المالكي الآن مذعوراً وغاضباً من النتائج.

لم يكن يتوافر من الأدلة على حصول التزوير بما يكفي لإعادة العد. لكن مفوضية الانتخابات وممثلة الأمم المتحدة وافقوا على الإجراء. وهو إجراء حدث ما يشابهه في انتخابات أفغانستان 2009 وأدّى إلى فقدان الانتخابات لمصداقيتها بين الناس.

وفي الوقت نفسه أخبرنا مستشارو المالكي بأنه بحاجة إلى مقعدين إضافيين، وإلا فإنه سيتعرّض للائمة الشيعة إذ سيلومونه على خسارة العراق من بين أيديهم. وسبق للمالكي أن أصرّ على أن يخوض الانتخابات بقائمة وحده (دولة القانون)، بدلاً من الانضمام إلى قائمة شيعية موحدة مثل ما حصل عام 2005. وكان جزء كبير من هذا الرفض غائداً إلى رفض الأحزاب الشيعية أن يكون هو على رأس قائمتهم الموحدة.

وفي النظام البرلماني، يشار إلى الكتلة الفائزة بأنها الكتلة التي حصلت على أكبر عدد من الأصوات وحصدت أكبر عدد من المقاعد، على أنها تمثل إرادة الناخبين. بالتأكيد كانت هذه تيّّة الذين شرّعوا الدستور العراقي. وتوجه المالكي بطلب إلى القاضي مدحت محمود رئيس القضاة، لغرض تفسير معنى توصيف «الكتلة الأكبر» الذي ورد في الدستور. فأجاب القاضي مدحت تحت ضغط المالكي إجابة مواربة،

وقال إنها يمكن أن تعني أكبر كتلة فازت في الانتخابات، أو تعني أكبر كتلة ستتشكل في البرلمان بعد الانتخابات. كانت تلك الإجابة بمثابة الفرصة الثمينة للمالكي كي يستغلها.

ودفع الجنرال أوديرنو باتجاه أن يجري تكليف إياد علاوي بتشكيل الحكومة، وقال: «يجب أن يمنح الفرصة أولاً لتشكيل الحكومة، إذا لم يفعلوا فستبدو العملية السياسية مجللة بالعار. ليس من واجبنا أن نختار الفائز، لكن من واجبنا أن نحمي العملية، وأن نضع ذراعنا مع (العراقية) كي تبقى ضمن العملية السياسية». كانت لدينا قناعة بأن إياد علاوي لن يتمكن من تشكيل الحكومة، لكنه - باعتباره الفائز الأول - له الحق في أن يحاول أولاً ويكلف رسمياً قبل غيره. وبعد ذلك نتوقع أن تجري مساومة بينه وبين المالكي لاقتسام السلطة، فإما النجاح في ذلك أو أن يكلف شخص ثالث بتشكيل الحكومة.

كان الجنرال أوديرنو متبرماً جداً من حقيقة أن السفارة الأميركية لا ترغب بأن تقدم الدعم لإياد علاوي من أجل أن يكلف بتشكيل الحكومة أولاً. وكلفني أن أحاول ترتيب لقاءٍ تفاوضي بين (العراقية) و(دولة القانون). كانا يمثلان أكبر كتلتين سياسيتين، وقد يكون الاتفاق بينهما يصبّ في مصلحة قوات التحالف. صحيح أن هذا ليس واجب الجيش، لكن الجنرال أوديرنو يرفض فكرة أن يجلس ليتفرّج وألا يفعل شيئاً.

وذهبت لرؤية رافع، وكان يلعب دور كبير المفاوضين في مفاوضات تشكيل الحكومة عن كتلة (العراقية). كانت خطته الأولى هي أن يتولى علاوي تشكيل الحكومة. أما الخطة الثانية البديلة لها فهي أن يتولى علاوي ترشيح شخص آخر لتشكيل الحكومة، وكان تحديداً يتحدث عن عادل عبد المهدي. كانت القائمة العراقية تحتوي ما يقرب من 20%

من غير العرب السنّة. وعبر اختيار رئيس شيعي للقائمة، تمكّنت كتلة (العراقية) من كسب عدّة مقاعد في الجنوب العراقي، حيث حصّدت أصوات العلمانيين من الشيعة الذين لا يريدون انتخاب الأحزاب الدينية. لكن (العراقية) بترشيحها إياد علاوي رئيساً للوزراء، فهذا يعني أنها قبلت ضمناً بأن لا يكون لها أي ممثل عن العرب السنّة في المناصب الرئاسية. كانت هذه محاولة منهم لكسر ترسيخ النموذج اللبناني في بناء المؤسسات العراقية.

وسألت د. رافع، هل يمكن له أن يتصور اتفاقاً بين (العراقية) و(دولة القانون)؟. إن رؤيتهما لبناء الدولة تبدو متقاربة. أمّا العقبة الأساسية بينهما فهي تبدو عقبة شخصية تتعلق بالمالكي وعلاوي، إذ إن الاثنين يرغبان ويسعيان لتولّي منصب رئيس الوزراء. ووفقاً لحسابات رافع، فقد فكّرت (العراقية) بعرض منصب مهم على المالكي، وهو أن يتولّى رئاسة الجمهورية. ولو لم يتمكن من قبول هذا العرض، سيتحوّل إلى عضو برلماني عادي وهو أشد ما يزعج المالكي.

وتركت رافعاً لألتقي بسامي العسكري. كان سامي عضواً في الدعوة. ورغم أنه تركهم لكنّه بقي قريباً من رئيس الوزراء. كان سامي يسكن المنفى في لندن وقد ترك عائلته هناك حين عاد إلى العراق عام 2003. وهو ينتمي إلى جناح في الدعوة يرى ضرورة إقامة العلاقات مع الغرب بدلاً من الاتكاء على إيران. كنت قد تعرّفت إليه حين تواصلت معه عام 2007 حول اختطاف ميليشيا عصابات أهل الحق لخمسة بريطانيين. وقتها كان هو من جلب الجثث للقتلى الخمسة وسلّمها إلى المنطقة الخضراء كي تعود إلى عائلات الضحايا ويجري لها دفن لائق.

وكان سامي العسكري هو من أوصل بيتر مور (Peter Moore)⁽¹⁾ إلى السفارة البريطانية بعد سنتين من اختطافه.

وطلب منّي سامي العسكري أن أخبر (العراقية) بآلا يناقشوا نتائج الانتخابات من زاوية تفرّق بين كتلة (دولة القانون) وباقي أعضاء التحالف الوطني على أنهما كتلتين منفصلتين، أو أنهما لن يعودا معاً مثل السابق. كان الإيرانيون يعملون بجهد على إعادة كل الأحزاب الشيعية في هاتين القائمتين إلى كتلة واحدة وقد فعلوا ذلك. لكن هذا الخيار - وفقاً لسامي العسكري - لن يكون في صالح البلاد، وإنه يرى في التحالف بين علاوي والمالكي، على أن يكون هذا الأخير رئيساً للوزراء، هو أفضل الخيارات. ولعدة أيام دأبتُ على نقل الرسائل بين سامي العسكري ورافع العيساوي تمهيداً للقاء بينهما، وفي النهاية تحقق هذا اللقاء وكانا مسرورين بهذه المبادرة.

وواظب الجنرال أوديرنو على حضور مآدب العشاء عند السفيرين التركي والبريطاني، وكان يحثهما على تقديم النصح لأعضاء (العراقية) بالبقاء على طاولة النقاش وعدم الانسحاب. كان السفير البريطاني يختلف بوضوح مع سياسة السفير كريستوفر هيل. ربما يعود ذلك إلى خبرة السفير جينكنز الطويلة في الشرق الأوسط.

وكنت قد تعرّفت على السفير التركي مراد أوزجيلك خلال أزمة المختطفين الأتراك في نينوى، كان أوزجيلك من الدبلوماسيين القلائل

(1) مهندس بريطاني مدني جرى اختطافه في العراق من مقر وزارة المالية مع 4 حراس بريطانيين، كان ذلك في أيار 2007، من قبل عدد كبير من أفراد الشرطة العراقيين. وجرى بعد ذلك إطلاق سراحه مقابل إفراج الأميركيين عن قيس الخزعلي زعيم عصابات أهل الحق في كانون الأول 2009. بعد أن أمضى بيتر مور سنتين وسبعة شهور مختطفاً - المترجم.

الذين عملوا على تحسين علاقة تركيا بالأكراد العراقيين. نجح أوزجيلك في تغيير نظرة الحكومة التركية للأكراد العراقيين وتبديد مخاوفها من أنهم لا يصلحون كشركاء لها. ونجح أيضاً في دفع عدد من السياسيين العراقيين إلى القبول بإبرام معاهدة (سوبا) عام 2008. كان أوزجيلك دبلوماسياً متقدماً وواسع الخبرة ومُلهماً لمن حوله، حتى لأفراد السلك الدبلوماسي التركي في العراق، وكنت أراهم يقلّدونه حتى في طريقة تصفيف شاربه!.

لقد عمل أوزجيلك جهده في تكوين القائمة العراقية كي تظهر ككتلة لاطائفية تحت قيادة إياد علاوي، وكانت تركيا قد أبدت عزمها على ألا ترى المالكي في سدة الحكم لفترة ثانية.

لكن المحادثات توقفت بانتظار نتائج عملية إعادة العد، ونتائج تنفيذ قرارات اجتثاث البعث والبت في الاعتراضات عليها. كانت (العراقية) تخشى أن يتم تغيير النتائج، وكانت خشيتها في محلّها. وفي أواخر نيسان التقى الجنرال أوديرنو بفرج الحيدري رئيس مفوضية الانتخابات ومعه الجنرال عيدان المسؤول عن أمن مركز الانتخابات الرئيس. وأكد الاثنان أن العراق شهد انتخابات جيدة في معاييرها وليس هناك من ضرورة لإعادة العد للأصوات. وإن ما جرى من استبعاد 52 مرشحاً والذهاب بأسمائهم مرّة أخرى إلى لجنة اجتثاث البعث إنما كانت حركة ذات دوافع سياسية تماماً.

والتقى الجنرال أوديرنو برافع العيساوي الذي نقل له مخاوفه من أن العملية السياسية بمجملها ستكون في خطر. وكان قادة (العراقية) يرون أن فوزهم في الانتخابات قد سحب منهم، والآن يخشون أن يتم وصمهم كبعثيين من أجل حرمانهم من المشاركة في العمل السياسي. وبعد أن

أقنعوا قواعدهم الشعبية السنيّة بضرورة المشاركة في الانتخابات، فهم الآن خائفون من ردّة فعل تلك القواعد.

على أثر ذلك شعر الجنرال أوديرنو أنه قد اكتفى من هذه الفوضى، وأن عليه أن يتدخل. فتوجه إلى القاضي مدحت المحمود ويّين له أن قرارات لجنة اجتثاث البعث باستبعاد المرشحين بعد الانتخابات كانت انتقائية ومزاجية وغير قانونية وأن عليه أن يهملها، فوعد القاضي مدحت بأنه لن يسعى إلى تنفيذها.

وفي تلك الأثناء بدأ المالكي بخلق الانطباع بأنه سيبقى كرئيس للوزراء، وأنه ماضٍ في منصبه لكن من دون تعرّضه للرقابة البرلمانية. كان ممسكاً بيده بالمقدّرات المالية للحكومة فضلاً عن القوات الأمنية، وكان عدد كبير من الوزراء سعداء بهذا الترتيب الذي سيتيح لهم البقاء في مناصبهم لوقت أطول. كان المالكي يستخدم عامل الوقت لصالحه من أجل تفتيت جبهة المعارضين له. وكلّما تمكّن من البقاء في منصبه لمدة أطول، ترسّخ بقاؤه لفترة ثانية وخلق شعوراً لدى الآخرين بأن العملية لا يمكن تغيير مسارها. وسيظن العراقيون بأن الولايات المتحدة تدعم موقف المالكي، وإلا لماذا تسمح له بالبقاء في السلطة؟.

درج الجنرال أوديرنو على إجراء زيارات إلى الوحدات العسكرية التي تستعد للانسحاب وتجميع كل متعلقاتها كي تشحن إلى الديار أو إلى القواعد خارج العراق. كان جدول الانسحاب يسير وفق التخطيط المتفق عليه. لكن في إحدى الزيارات وجّه الجنرال كتيبة عسكرية كاملة بأن تلغي عملية انسحابها. وقد عرف أن وقع هذا التأخير سيكون سيئاً على الجنود، لكنّه ربط بين تعرقل سير العملية السياسية واستمرار الوحدات العسكرية بالانسحاب المنظم. وسبق أن مُنح الجنرال أوديرنو

صلاحية أن يؤخر من سحب القوات وفقاً لتقديراته للأوضاع على الأرض. وكانت القوات العراقية وقوات التحالف تبلي بلاء حسناً في مطاردة القاعدة والمتمردين. وسبق لها أن اقتصت في 18 نيسان رأسين من رؤوس قادة القاعدة وهما أبو أيوب المصري وأبو عمر البغدادي قريباً من المكان الذي عثر فيه على صدام مُختبئاً. وكان ثلاثة أرباع قادة تنظيم القاعدة في العراق إما مقتولين أو مُعتقلين، لكن الجنرال أوديرنو يحسب حسابه أن التلكؤ في العملية السياسية قد يقود إلى الاضطراب وعدم الاستقرار مرّة أخرى.

كنتُ عائدة إلى السفارة حين استدعاني الجنرال أوديرنو على عجل إلى قصر الفاو. كان الجو مُغبراً بما لا يسمح للطائرة المروحية أن تقلّني إلى هناك، فاصطحبني الرقيب نورتون في سيارة مصفحة ومعها عربة هامفي للحماية وسرنا باتجاه قصر الفاو. كان الجنرال يرغب بالاطلاع على آخر مستجدات لقاءاتي مع الأطراف العراقية، حيث إن البيت الأبيض طلب منه تقييماً أخيراً لهذه الجهود، وعلمت أنهم استلموا منه تقارير متضاربة مع ما كانت السفارة الأميركية ترفعه لهم، فأرادوا أن يقيموا الحالة بأنفسهم.

وجدت الجنرال أوديرنو يتحرّك رواحاً ومجيتاً مثل ثور غاضب. لقد استغرق الأمر عدة شهور من الانتظار كي نشاهد البيت الأبيض يتدخل في هكذا قضية مهمة. كان أوديرنو ينتظر اللحظة التي سيتحرّك فيها البيت الأبيض ويقول للمالكي (كفى) بقوة. وهل كانت الإدارة الأميركية متهيئة كي تهدد بسحب اعترافها بشرعية الانتخابات أو بتائجها؟. لكنه يخشى في الحقيقة ألا تعير الإدارة الأميركية أيّ أهمية للموضوع، كانوا يظهرون تركيزهم فقط على الانسحاب وتخليص أنفسهم من العراق.

وفي أيار غير المالكي من تكتيكاته حين أدرك أن قرارات اجتثاث البعث أو إعادة العد لن تؤدي إلى منحه المقعدين الإضافيين اللذين يحتاجهما كي يشكل الحكومة، فتوجّه إلى إعادة تحالفه مع الائتلاف الوطني العراقي (الذي يضم الشيعة ومنهم المجلس الأعلى والصدريين). لكن ما زالت هناك مشكلة الترشيح لرئاسة الوزراء، لم يكن هناك من يرغب برؤية المالكي في فترة رئاسية ثانية، تقريباً لا أحد يرغب بذلك.

وبعد اجتماع مع السفير كريستوفر هيل، خرج الجنرال أوديرنو إلى باحة السفارة وملاح الغضب والاستياء بادية عليه، وقال: «لقد أخبرني أن العراق غير مستعد بعد للديمقراطية، وأنه بحاجة إلى رجل شيعي قوي للحكومة، وأن هذا الرجل هو المالكي، رجلنا هنا».

واعترض أوديرنو على هذا الطرح بأنه لا يمثل إرادة العراقيين. لقد دأب الجنرال على مخاطبة جنوده في العراق سنة بعد أخرى بأنهم هنا يقاتلون من أجل ترسيخ الديمقراطية في العراق.

ودعانا الجنرال بابكر زيباري، وهو رئيس أركان الجيش العراقي إلى العشاء في منزله داخل المنطقة الخضراء. ومثلما تعودنا دائماً كان الكباب والمثلجات من أجود ما يمكن. وجلسنا نتبادل القفشات عن البريطانيين والأميركيين، وتساءل بابكر عن الطريقة التي سيتذكر بها العراقيون الأميركيين بعد مغادرتهم. فقلت «بالدعائم الكونكريتية أكيداً»، فابتسم الجنرال بابكر وقال: «وبعلامات الأرتال العسكرية التي تقول ابتعد 50 متراً أو إنك ستقتل».

وظهر صالح المطلك على إحدى القنوات الفضائية في بث مباشر من عمّان، كنت أنا من نصحه بالمغادرة كي يتفادى الاعتقال. وسأل الجنرال أوديرنو مترجمه مايك: «ماذا يقول؟». فترجم مايك أهم

الجميل التي قالها صالح المطلك: «إن الأميركيين هم المسؤولون عن كل هذه الفوضى في العراق، وفي العملية السياسية». فعلق الجنرال أوديرنو: «تفاهات، أحرص هذا التفاهات». وأخرجت هاتفها وطلبت صالح المطلك على هاتفه الدولي الخاص، وظهر في البث المباشر وهو يتحسس جيبه بعد أن رنّ هاتفه. ثم قطعت الاتصال. وبعدها بدقائق أيضاً طلبته أثناء كلامه أمام الكاميرا وبدأ أيضاً وهو يتحسس هاتفه. لم يصدق الحاضرون أن هذا كان يجري بالفعل على الهواء، ودخلنا جميعاً في نوبة من الضحك.

بعد البرنامج اتصل بي صالح المطلك وأخبرته بما جرى، فقال: «فقط البريطانيون يمكنهم أن يؤدوا مثل هذه الحيل»، لكنه نظر إلى الجانب الساخر في اتصالاتي.

ثم طار الجنرال أوديرنو إلى واشنطن من أجل إجراء المزيد من المشاورات، وانتهزت الفرصة كي أهرب من الجو المسموم في السفارة وطرت إلى كردستان حيث لحقت برحلة مع الجنرال بابكر زيباري. وهناك توفرت لي مصاحبة من اليشمركة يرافقونني كانوا يرتدون بدلات سوداء رخيصة. ومعهم فتاة كردية كدليل لي. وتوجهنا إلى جبال زاكروس ووصلنا إلى كهف شانيدر. هناك حيث عثر في الخمسينيات على بقايا عظام هيكل إنسان نياندرتال، الذي يعتقد بأنه يعود إلى 65 ألف سنة. كان المنظر في وادي شانيدر رائعاً وأخاذاً للغاية.

ثم وصلنا إلى بلدة بارزان التي كنت قد زرتها في العام الماضي، ومقبرتها التي تحتوي أحجاراً بيضاء. كان نظام صدام قد غيّب ما يقرب من 8000 آلاف من رجال وأبناء قبيلة بارزان في الثمانينيات نتيجة تعاونهم مع إيران، ولم يعثر لهم على أثر بعد ذلك. وهذه المقبرة هي

بمثابة ذكرى لهم. ثم زرنا قبر الملا مصطفى بارزاني، الزعيم القومي للأكراد ووالد الرئيس مسعود بارزاني.

وفي بارزان استقبلنا الشيخ عبدالله بارزاني، وهو أقارب الملا مصطفى. كان في السبعين من العمر لكنه رَحِب بنا كثيراً. وأخذنا نتبادل الكلام بشيء من الكردية والعربية والإنكليزية سوية. أبدى الشيخ بضعة آراء عمّا يحصل في العراق وعن الحال السياسي، وكشف رغبته بمساندة إياد علاوي كي يصبح رئيساً للوزراء.

ودعانا الشيخ عبدالله إلى أن نشاركه طعام الغداء. وكان يكرر الاعتذار عن بساطة الطعام حيث إنه لم يذبح حيواناً من أجلنا. وجلسنا نأكل الرز والبزاليا والمرق والسَّلطة. كنت أتأمل الاختلاف الكبير بين تصرّف هذا الشيخ والثقافة التي انحدرت منها. إنه سعيد جداً باستقبالنا في هذا المكان القصي. وواعٍ جداً لإرثه التراثي والتاريخي، ويفتخر به دون أن يُخرج ضيوفه.

في اليوم التالي اصطحبني شاب أيزيدي أرسله فؤاد حسين اسمه بارزاد إلى معبد لالش، أقدس معابد الديانة الأيزيدية. وهي بمثابة الكعبة لهم. وتقع لالش شمال الموصل بـ 40 ميلاً، وتبعد عن أربيل ساعتين شرقاً بالسيارة. كنت أعرف القليل جداً عن الأيزيديين، ليس أكثر من أنهم يطلقون شواربهم، ويحرّمون أكل الخس، ولا يحبذون اللون الأزرق في ملابسهم. وخلال مرور السيارة ببلدات شقلاوة وعقرة، تسنى لي أن أعرف المزيد عن الأيزيديين من خلال بارزاد. عرّف قومه بأنهم يشكلون ما يربو عن 500 ألف نسمة في العراق، وأنهم يرون في أنفسهم أكراداً لكن من أتباع الديانة الأيزيدية. وحين قلت له إن هناك من بين الأيزيديين من لا يرى في نفسه كردياً، فأجابني

بأن هؤلاء هم سكنة سنجار في الغرب، وكانوا قد دُفعوا من قبل العرب إلى الادعاء بأنهم ليسوا أكراداً.

أطلعني بارزاد كيف أن قومه كانوا يصلّون مرتين في اليوم. واحدة مع طلوع الشمس والثانية عند غروبها. وكانوا يصلّون باللغة الكردية، ويتجهون إلى لالش أينما كانوا في صلاتهم. وهم يرون في ديانتهم أنها الأقدم في العالم. ووفقاً لمروياتهم فإن الله خلق الكون وعمد إلى سبعة ملائكة للإشراف على الخلائق، بما في ذلك الملاك الأكبر (طاووس ملك). ورفض طاووس ملك أن يخضع لآدم، ولهذا يسمى عند المسيحيين والمسلمين باسم إبليس (Lucifer)، وهو الملاك الذي سقط. وكان الأيزيديون قد تعرّضوا للملاحقة على مدى قرون باتهامهم بأنهم «عبدة الشيطان». وكان تنظيم القاعدة يستخدم هذه النصوص للتحريض ضدهم.

وسارت بنا السيارة باتجاه وادي لالش، و صفوف الأشجار تحيط بنا. وعند المعبد ترجلنا وخلعنا أحذيتنا وشرنا حفاة. وعند المدخل كان هناك نحت على الجدار لأفعى، واحدة عند كل طرف من طرفي الباب تعبيراً عن الحماية من الشر. في الداخل رأيت عدداً من الأشرطة والأربطة اللامعة المعقودة، وقيل لي أن أحلّ أحدها تعبيراً عن طلبي لحل مشكلة، ثم أعود وأعقدها. وهو ما يعني ضمناً أنني ساعدت في حلّ مشكلة شخص قبلي سبق له أن عقدها بانتظار الحل. ثم انتقلت إلى قبة أخرى، حيث قيل لي أن أدور ثلاث مرّات عكس اتجاه الساعة حول قبر الشيخ عادي، وهو شخصية أيزيدية أساسية توفي عام 1162. وفي القاعة الثالثة كانت هناك جرار ملأى بالزيت الذي ينير في الليل. وطلب منّي أن أسير باتجاه الضريح وأن أصعد إليه وأقبل جداره،

وأعود راجعة من الطريق نفسه الذي قدمت منه. ثم أعطيت وشاحاً
قيل لي أن أغمض عيني وأن أرميه في الهواء. في الحقيقة فعلت ذلك
ثلاث مرّات ولم أعرف ماذا يتوجّب عليّ أن أستهدف في رميّه. وبعد
المرة الثالثة قال لي بارزاد إنني لن أتزوّج أبداً. ثم نزلت إلى مستوى
آخر أوطأ من مستوى الضريح حيث كان هناك نبع مياه يجري تحتنا،
ويعتقد الأيزيديون أن هذا هو نهر (زمزم) الذي يمثل ينبوع الحياة،
وهنا يجلبون أطفالهم لغرض التعميد.

...

وبعد عودتي إلى بغداد، قررت أن أذهب في رحلة أخرى، لكن
هذه المرة إلى الجنوب. وفي الموعد المتفق عليه اتصل بي صفاء
وكنّت واقفة أمام السفارة الأميركية ومربّي بسيارته كي يقلّني. كنت
أرتدي النظارات الشمسية، لا أعرف بالضبط كم من الوقت سنمضيه
في الشمس الحارقة. هذه المرة سأزور المزارات الشيعية المقدّسة في
الجنوب. وعند ضواحي بغداد انتقل صفاء ليجلس في المقعد الأمامي
وانتقلت زوجته لتجلس بجانبني. وهناك التحق بنا بعض المرافقين،
وأصبحنا موكباً بأربع سيارات.

واتبعنا الطريق نفسه الذي يسلكه الزائرون إلى كربلاء في رحلة سيرٍ
تمتد ثمانين كيلومتراً وصولاً إلى وسط كربلاء انطلاقاً من بغداد. على
جانب الطريق رأيت العشرات يقفون لبيع الماء والمشروبات الباردة،
كما لم تكن هناك إشارة إلى بيع الوقود في السوق السوداء مثل السابق،
فقد توفّر ما يكفي منه في محطات التعبئة. ثم صرنا على مقربة من أشجار
النخيل التي تبعد قليلاً عن الطريق العام (بعد انتفاضة 1991 قرر صدام
أن تقطع الأشجار عن جوانب الطرق بمسافة لا تقل عن 100 متر لمنع

استخدامها في الكمائن). واجتزنا الأقواس التي تحمل لافتة تقول: «بغداد... دار السلام تودّ عكم». ثم مررنا ببلدة المحمودية، وبعدها ببلدة المسيّب التي تقع على نهر الفرات. وأينما مررنا كنت أشاهد أطفالاً يلعبون، والناس تتبضع والأسواق والمحلات تعمل. وما هي إلا ساعة ونصف وكنا قد وصلنا إلى أبواب كربلاء. وحين مررنا بنقطة تفتيش تحسست أجهزة استشعار القنابل مؤشراً في إحدى السيارات، لذا كان عليها أن تبقى خارجاً بينما توجّهنا إلى داخل المدينة ورصفنا السيارات قرب بوابة الضريح. وقبلها ساعدتني زوجة صفاء على ارتداء الحجاب ثم تغطية قدمي بجوارب طويلة، وأخيراً ارتديت العباءة العراقية السوداء. لحظتها لعنت الرجال حيث يجبرون النساء على التحرك تحت خيمة سوداء مثل هذه، وكان صفاء يضحك.

ودخلنا إلى ضريح الحسين، قبل ذلك تركنا عند الاستقبال متعلقاتنا، الكاميرات والهواتف وجرى تفتيشنا. خشيت أن أتعثر بالعباءة وأسقط على الأرض. كل من حولي كانوا إما يصلّون أو يبتهلون. وجميع النساء كنّ يرتدين العباءات السوداء مثلي، لكن الرجال كانوا يرتدون ملابس متنوعة. ولم يكن واضحاً إن كانوا من العراق أو من باكستان أو من أندونيسيا أو من إيران. وأبهرني مشهد الجدران المغطاة بالموزاييك الرائع. في السابق كانت هذه الباحة مفتوحة للسماء، لكن الآن جرى تغطيتها بالسقوف التي زينت أيضاً بالموزاييك. وكان السجاد مفروشاً في كل مكان.

وحين دشنا إلى القسم المخصص للنساء من الضريح، كانت الأنوار تغطي كل شيء، ولمعان الفضة والزجاج المنتشر في كل مكان يشكّل مشهداً أخاذاً. رأيت النسوة وهنّ يتدافعن من أجل الوصول إلى أقرب ما

يمكنّ إلى الضريح، ويلمسن الشباك الخارجي للقبر نفسه. بعضهن كنّ يترنّمن بالدعاء، والبعض الآخر اغرورقت أعينهنّ بالدموع. كانت النساء الإيرانيات يبدن تدافعاً أشدّ من الأخريات. وقالت لي زوجة صفاء بأن الوجود الإيراني ازداد في الأضرحة المقدّسة للشيعة كثيراً جداً عمّا كان عليه قبل 2003.

جلسنا لبرهة قرأنا فيها نصّ الزيارة لضريح الإمام. لم يلق أحد بالآل لنا، كنّا مجرد امرأتين مثل آلاف النساء الموجودات هنا لأداء الصلاة أو الدعاء. وحينها أذن المؤذن للصلاة، فوقفنا في القسم الخاص بالنساء في صفوف نتبع فيها شخص الإمام الذي سيؤمّ المصلّين. كنّا ننحني راكعين وساجدين مع الجميع. كنّا لحظتها أشعر بالامتياز كوني أشهد مراسم الصلاة مع هذا الجمع الكبير جداً من المؤمنين في كربلاء.

الفصل الثامن عشر

خسارة العراق

في حزيران من عام 2010، قرر أخيراً ممثلون عن كتلة (دولة القانون) وكتلة (العراقية) أن يجلسوا إلى بعضهم البعض للتباحث. كان ذلك بعد ثلاثة شهور من الانتخابات. وكانت كتلة (دولة القانون) لا تحمل إلا مطلباً واحداً وتصرّ عليه؛ وهو أن يكون المالكي رئيساً للوزراء للمرة الثانية. بينما أصرت كتلة (العراقية) على أن يتولى إياد علاوي هذا المنصب. كنت قد التقيت بسامي، الذي فسّر لي الأسباب التي تدفع المالكي إلى التمسك بمنصب رئيس الوزراء.

كان علاوي علمانياً شيعياً، غير منتم لحزب ديني، وكان يتعيّن على من يشغل منصب رئيس الوزراء أن يكون شيعياً متديّناً ومنتزحاً إلى حزب ديني. إن تشكيل الكابينة الحكومية، تحوّل إلى ما يشبه المعركة بين الإرادتين الإيرانية والأميركية. ونشط الإيرانيون بفاعلية عالية، بينما لم يفعل الأميركيون شيئاً. واستمر قاسم سليمان، قائد قوات القدس في دعوة القادة العراقيين إلى الاجتماع في طهران. ثم صرّح بأن الإيرانيين ينوون إطالة مدى المفاوضات إلى غاية 31 من آب، وهو موعد نهاية المهام العسكرية الأميركية في العراق، من أجل تسجيل (نصر) على الأميركيين. لم يكن الإيرانيون خاملين أبداً، ولسنوات طويلة حاول النظام البعثي في سوريا أن يعرقل بناء العراق الجديد عبر توفيره محطات آمنة للانتحاريين والجهاديين القادمين إلى العراق من كل أنحاء العالم، وجعل من سوريا منطلقاً لأفزع الهجمات التي استهدفت العراقيين.

وفي آب من عام 2009، استهدف هجوم مسبق التنسيق مبنّي وزارتي المالية والخارجية وسط بغداد مودياً بحياة أكثر من مئة عراقي. واتهم المالكي علانية نظام بشار الأسد بأنه يقف خلف تلك الهجمات داعماً للقتلة.

الآن اضطر الإيرانيون أن ينخرطوا في عملية إقناع بشار الأسد كي يتخلى عن دعمه لعلاوي وأن يقبل بولاية ثانية للمالكي. وسلّطوا ضغوطاً ضخمة على حزب المجلس الأعلى كي يقبل هو الآخر بولاية ثانية للمالكي. أما مع الصديين فقد استعملوا وسائل الإقناع، وقد وعدوا الصّدر بأن المالكي سيضمن عدم بقاء أيّ قوات أجنبية من أيّ نوع بعد عام 2011. كما وعدوهم بأن يكون لهم مناصب مهمة في حكومة المالكي الثانية. فعل الإيرانيون ذلك مع الصديين عبر استخدام وساطة من حزب الله اللبناني. كان الهدف الأساس الذي يسعى إليه قاسم سليمان هو منع العراق من التكامل والتواصل مع العالم العربي، والتأكيد على أن يصبح بلداً حليفاً كاملاً لإيران. ولسبب ما فقد تصوّروا أن المالكي هو وحده من يمكن له تنفيذ هذا الهدف، إذ إن كل الجيران العرب للعراق قد دخلوا في عدااء شخصي معه ويكرهونه.

والشيء ذاته ينطبق على جلال طالباني الذي صمم على البقاء كرئيس للجمهورية لفترة أخرى، وكانت علاقته بسليمان علاقة قديمة وتعود إلى عقود سابقة.

وذهبت لرؤية رافع وجابر، حيث أطلعتهما على صورتي وأنا أرتدي (العباءة) النسائية العراقية أثناء زيارتي إلى ضريح الإمام الحسين. وقال لي جابر: «أنت الآن حجة»، مستعملاً الكلمة التي تطلق على النساء اللواتي يذهبن إلى الحج. وحدثني أنه في صباه اعتاد على مرافقة والدته في رحلة تبدأ من الرمادي إلى كربلاء وتنتهي في النجف ومعهم ثلاثة خراف كأضحية، واحد يضخّي به عند ضريح الإمام الحسين، والآخر عند ضريح الإمام العباس، والثالث عند ضريح الإمام علي. وتساءلت هل سيشهد المستقبل أناساً من الرمادي يفعلون الشيء نفسه؟ لكن يبدو أن الأمر سيبقى طويلاً في حيّز التساؤل ولن يجد إجابة حاسمة.

وأخذنا الحوار بسرعة نحو قضية تشكيل الحكومة، وسألني رافع: «أين الأميركيون؟، لا أكاد أرى لهم أثراً». وأشار إلى جهود السفير الأميركي السابق الذي بذل الكثير من أجل أن يحقق التقارب بين العراقيين. وقال: «لو كانت الولايات المتحدة موجودة ومُهتمة لما تجرأ الآخرون على مخالفتها، ولو كانت قد أخذت بنظر الاعتبار بأن كتلة (العراقية) هي من يحق لها تشكيل الحكومة، لما تمادى الآخرون في مخالفتها». واستمر قائلاً: «هل صحيح أن الولايات المتحدة لا تهتم لشكل الحكومة التي ستتشكل في العراق؟. هل صحيح أنها لم تعد تهتم بمآل المشروع الديمقراطي والعملية السياسية في العراق؟. يمكن أن أرى الجنرال سليمان وهو يلعب دوراً فاعلاً ومهماً في تجميع الشيعة معاً على رأي واحد، فهل صحيح أن الولايات المتحدة لا تهتم لاستقرار العراق؟»، ثم بيّن أنه قد فهم من خلال لقاءاته بالمسؤولين في السفارة الأميركية بأنهم يفضلون بوضوح المالكي على علاوي.

وفي 14 من حزيران اجتمع البرلمان العراقي أخيراً، وفهمنا أن مهلة الثلاثين يوماً الدستورية قد بدأت لتشكيل الحكومة، لكنّ المالكي أصرّ على أنها لم تبدأ وبقيت الجلسة مؤجلة مُعتمدة على أن الدستور لم يضع لها سقفاً زمنياً كي تنتهي.

وفي إحدى أمسيات أواخر حزيران، اتصلت بي ميسون الدمولوجي، ثم حضرت لتقلّني من أمام المنطقة الخضراء حيث ذهبنا في جولة ببغداد، واتجهنا إلى حي المنصور. كانت ميسون عضواً في البرلمان ومتحدثة باسم كتلة (العراقية) السياسية.

كانت ميسون أنيقة وذات مظهر حسن، مثلما كانت نصيرة قوية للعلمانية. وتنحدر من عائلة متميزة وذات أصول سنّية ممتدة. ميسون

عملت في السابق كمعمارية لبضع سنوات في لندن وكان لها ذوق رائع في الفن. وكانت قد دعّنتني إلى منزلها في مناسبتين مختلفتين سابقاً وأخذنا بضع كؤوس من الشراب سوياً، كما أتذكر كلبها المدلل (مشمش).

ظهر لنا حي المنصور في حال ممتاز، المقاهي مفتوحة والشوارع مكتظة، وأشارت لي ميسون إلى مكان جرت فيه محاولة اغتيال عدي صدام حسين قبل أعوام، لكنه نجا بأعجوبة. ثم علقنا في زحام السير وكانت السيارة بالكاد تتحرك، فقالت ميسون متهكمة: «إننا نمشي بالسيارة مثل عملية تشكيل الحكومة!».

وكانت زيارتي الأولى إلى نادي الصيد، وقالت لي ميسون إن والدها كان يمنعها من الذهاب إلى هذا النادي حيث كان يفضل البعثيون الذين هبطوا بمستواه الاجتماعي عبر إدخالهم لثقافتهم القبائلية الفظة، وكان النادي مكاناً لعائلات الصفوة التي تنظر إلى اختلاف المستوى مع هؤلاء. وفي تلك الليلة كان النادي مكتظاً بالعائلات، وبعض الرجال يشربون الويسكي فيما اكتفى البعض الآخر بالكوكاكولا. والنساء فيهن من أطلقت شعرها وفيهن من ارتدت الحجاب؛ كانت الإشارة واضحة أن النزعة المحافظة بين العراقيين آخذة بالنمو. وهناك التقينا بـ(أبو طه)، وهو أحد الزوّار الدائمين في ملتقى الخميس الذي يقيمه الفريق نصير العبادي في منزله. أبو طه أخذنا إلى طاولة في إحدى الزوايا. وكانت هناك فرقة موسيقية تعزف ألحاناً شرقية، عراقية ومصرية ومن النوع القديم الذي يعرفه الجميع، ويصفق معه الجميع. ولم يقطع هذا المرح سوى انقطاع الكهرباء الذي أدخلنا جميعاً في صمت، وبدأ الجميع يتذمر من أنهم ما زالوا لا يتوافرون سوى على ساعتين إلى ثماني ساعات من الكهرباء يومياً.

واقترحت عليّ ميسون أن أرافقها في رحلة إلى سامراء، وهي بلدة إلى الشمال من بغداد بنحو ثمانين ميلاً. وخلال أسبوع حددنا موعداً للقيام بالرحلة. قالت لي ميسون إنها تفضل أن تقتل على أن تقع بيد خاطفين، وكان هذا رأيي أيضاً. وقررنا الخروج في قافلة من ثلاث سيارات، وجلست مع ميسون في السيارة المصفحة ومعنا اثنان من حراسها. وقبل أن ننطلق اتصل بها إياد علاوي وطلب منا أن نكون حذرين، لكنه قال: «إن سامراء هي من مناطق كتلة (العراقية)»، لذلك سنكون بخير. وانطلقنا وفي غضون نصف ساعة كنا على الطريق السريع المتجه إلى سامراء خارج بغداد. وقبل أن نصل إلى المدينة، استوقفتنا إحدى نقاط التفتيش. بعد تفجير ضريح الإمامين العسكريين عام 2006، أصبح دخول المدينة من قبل الغرباء يحتاج إلى إذن خاص ولم يكن بحوزتنا هذا الإذن، لكن الحظ الحسن أرسل لنا أحد أفراد الشرطة الاتحادية الذي عرف ميسون ورّحب بها ورافقنا خلال دخولنا.

وأصبحنا داخل سامراء. في كل زيارتي السابقة إلى البلدة كنت أصل إليها بواسطة الطائرة المروحية، وأدخلها بصحبة القوات الأميركية، لكنني اليوم أزورها وأراها لأول مرة مثلما يفعل الناس العاديون. ثم سارت بنا السيارات مع نهر دجلة حتى وصلنا إلى المسجد القديم التاريخي الذي يعود بناؤه إلى القرن التاسع الميلادي، وكان مقراً بناب الخليفة العباسي المتوكل. ثم ارتقينا المنارة الملوية التي تشبه المخروط، والتي ترتفع بحدود 170 قدماً عن الأرض. كانت قمّتها قد تعرّضت إلى التخريب على أيدي المتمرّدين عام 2005. وهناك في أعلى المنارة جلسنا نتأمل منظر سامراء وهي تمتد حولنا. وحين نزلنا من المنارة، افترقنا عن رجل الشرطة الاتحادية الذي غادرنا وعدنا إلى السيارات. وقصّت عليّ ميسون أنها التقت بأحد رجال الشرطة من

أنصار(العراقية) كان قد تعرّض إلى ضغوطات في عمله، وأخبرها أنه مُنع من الترقية نتيجة لذلك. كان رجل الشرطة ذاك من بلدة الضلوعية، ولديه اثنان من أقاربه جرى إعدامهم في عهد صدام.

بعد ذلك أخذنا أبو طه إلى منزل صديق له يدعى (أبو عمر). حيث دعانا لتناول الغداء في منزله، وهناك كانت العائلة كلّها ترحّب بنا. وهتف أبو عمر: «لا شيء أفضل من استقبال الضيوف». وعلمت أن أبا طه وأبا عمر متتمان إلى الحزب الشيوعي العراقي. وحين جلسنا مع العائلة أبدى الجميع مساندتهم لإياد علاوي، ورغبتهم بأن يكون هو رئيس الوزراء المقبل، وبرروا ذلك بأنهم ينتظرون رئيساً للوزراء لا يميّز بين الشيعة والسنة. كان لدى عائلة أبي عمر ولدان، أحدهما عمر والثاني حسين. وأخبروني بأنهم امتنعوا عن إرسال عمر للدراسة في جامعة البصرة -حيث قبل هناك- لأن اسمه هو اسم سني تقليدي مما قد يعرّضه للخطر هناك، بينما كان أخوه حسين (وهو اسم شيعي تقليدي) بمأمن عن هذا الخطر.

من خلال ميسون تعرّفت على رجل رائع يبلغ السبعين من العمر ينحدر من بلدة حديثة، كان (سعدي الحديثي) خبيراً في الغناء الفولكلوري الشعبي العراقي. ودعّتنا ميسون إلى الغداء في منزلها، ومع سريان المشروبات بدأ سعدي يخبرني بقصّته، حيث لم يغادر العراق حتى بلغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً، واتجه إلى بريطانيا، لكنه الآن عاد إلى وطنه الأم. وحين كان طالباً في كلية الآداب ببغداد يدرس اللغة الإنكليزية ارتبط بالحزب الشيوعي العراقي. وقُدّم إلى المحاكمة التي أخبرني عنها التالي: «وقفت أمام القاضي الذي سألني عمّا أظنه في الملاء مصطفى البارزاني، وإن كنت أعتقد بأنه خائن. فأجبت بأنني لا أعرفه،

وبالتالي لا أستطيع أن أصفه بالخيانة. ثم سألني القاضي عن عبد الكريم قاسم وإن كنت أظنه خائناً، فقلت الشيء نفسه وكررت أنني لا أعرف كليهما، فحكم عليّ القاضي بخمس عشرة سنة في السجن، لأنني «لم أصفهما بالخيانة». وبدأ سعدي في السجن بمنهاج مكثف للقراءة اليومية، حيث كان يقرأ يومياً مئة صفحة. وحين يتأخر عن إتمامها فإنه يعوّض ذلك بالنهوض مبكراً لأجل القراءة. وبالنهاية فقد كان مسجوناً في سجن مليء بالسياسيين. وبعد خمس سنوات من اعتقاله وتلقيه الحكم، قرروا الإفراج عنه. لم يكن يعلم لماذا سيفرجون عنه مثلما لم يعلم بالضبط لماذا تم اعتقاله ومحاكمته أول الأمر.

وفي تموز من ذلك العام، بدت حظوظ المالكي أنها تشهد انعطافة كبيرة، فقد تلقى رسالة من الائتلاف الوطني العراقي يطلب منه فيها أن يسحب ترشيحه لرئاسة الوزراء. كانت كتلة (العراقية) قد أخبرتهم بوضوح أنها قد تساند المالكي لرئاسة مجلس النواب أو حتى رئاسة الجمهورية، لكن ليس لرئاسة الوزراء. أما الأكراد فقد أكدوا لهم أنهم حقيقة لا يريدون رؤيته رئيساً للوزراء للمرة الثانية.

والتقى الجنرال أوديرنو والسفير كريستوفر هيل بالمالكي وكلموه بصراحة، وأخبروه بأنه لا يحظى بالكثير من المساندين، لكنه أصرّ على أنه وحده القادر على أداء المهمة، وأنه وحده القادر على إنقاذ العراق، حتى إنه قال لأوديرنو: «لقد رأيت حلماً أنني كنت في قارب، وكنت أسحب العراقيين فرداً فرداً من الماء وأنقذهم». بعد ذلك أعلنت السفارة الأميركية بعثة الأمم المتحدة، وعلاوي، وباقي القادة العراقيين بأنّ المالكي ليس لديه حظوظ قويّة في البقاء كرئيس للوزراء لفترة ثانية. وسافر الجنرال أوديرنو إلى واشنطن، ومن هناك اتصل بي

وقال لي إن نائب الرئيس جو بايدن قد وافق على تحديد سقف زمني للمالكي وعلاوي للتوصل إلى اتفاق. وإذا لم يتمكنوا من التوصل إلى اتفاق فعليهما سوية أن يتراجعا ويتيح المجال للآخرين كي يحاولوا تشكيل الحكومة. لكنّ الذي جرى في مكالمة بايدن لكل من علاوي والمالكي كان غير ذلك تماماً. ولم يكن بايدن متمسكاً جداً بالمهلة التي حدث أوديرنو عنها، فقد أخبر بايدن المالكي بأن الولايات المتحدة ستدعمه في تشكيل الحكومة الثانية، وأخبر علاوي بأن عليه أن يقبل ببقاء المالكي في رئاسة الوزراء. كانت الإدارة الأميركية تريد أن ترى تشكيل الحكومة العراقية الجديدة قبل الانتخابات الرئاسية القادمة في تشرين الثاني من ذلك العام، وكان إبقاء الوضع ساكناً بلا تغيير في رئاسة الوزراء هو أفضل الحلول وأسرعها. وسرعان ما تداولت وسائل الإعلام العربية ما عرف على أنه (مقترح أميركي) بالإبقاء على المالكي في رئاسة الوزراء، وترشيح علاوي لرئاسة الجمهورية، أو لرئاسة مجلس أمني سياسي؛ كان من المفترض أن يشكل لاحقاً⁽¹⁾.

وهو الأمر الذي تسبب في إرباك وحيرة حول السبب الذي يدعو الولايات المتحدة وإيران إلى دعم ترشيح المالكي سوية. هذا الأمر أحياناً نظرية المؤامرة، وأجج الشكوك بوجود اتفاق أميركي إيراني حول قضايا عدّة منها العراق.

وبعد أن تلقى علاوي الاتصال الهاتفي من بايدن، جمع أعضاء كتلة (العراقية) وأخبرهم بالتفاصيل. وحين التقيت برافع بدا لي منزعجاً للغاية وبادرني بالقول: «كيف يُعقل أن تغيّر الولايات المتحدة موقفها

(1) المقصود به هو (مجلس الاتحاد)، الموصوف في المادة 65 من الدستور العراقي - المترجم.

في أسبوع واحد، فبعد أن كانت تخبر الجميع بأنها لا تساند بقاء المالكي رئيساً للوزراء تعود بعد أسبوع لتخبر الجميع أن عليهم القبول به رئيساً للوزراء لأربع سنوات أخرى»، ثم استمر بالقول: «ولماذا يجب أن تختار الولايات المتحدة رئيساً لوزراء العراق؟. هذا البلد يدعى العراق، ويفترض بنا نحن من نقرر، ونحن من يهتم لمستقبل أطفالنا». كانت (العراقية) تفضل أن تخسر منصب رئاسة الوزراء (إذا تحتمت عليها الخسارة) وأن تخسره لصالح حزب المجلس الأعلى، ولمرشحه عادل عبد المهدي. وهذا أفضل لهم بكثير من رؤية المالكي رئيساً للوزراء لأربع سنوات أخرى. أما جابر فقد قال لي: «إما أن الأميركيين حمقى كبار، وإما أن هناك صفقة سرية لا نعلمها».

لكن المالكي التف مرة أخرى، واتهم هذه المرة رافعاً بأنه يدير مجموعة مليشيا تدعى حماس العراق. وسلم الجنرال أوديرنو ملفاً يحتوي على الأدلة. وعلى الفور، كلف الجنرال أوديرنو ضباطاً من الاستخبارات العسكرية ليستوضحوا الموضوع. فأجابوه بأنها كانت أدلة بلا أساس. وكتب أوديرنو رسالة إلى المالكي يخبره فيها بأنه لم يجد أي صلة بين رافع العيساوي وحركة حماس العراق، أو تنظيم القاعدة نهائياً. وحين التقى المالكي مرة أخرى بالجنرال أوديرنو أظهر له ملفاً كبيراً قال إنه يحتوي على «اعترافات» ومعلومات توصلت إليها «التحريات الاستخبارية»، ثم طلب من أوديرنو أن يتنحى رافع عن رئاسة مجموعة كتلة (العراقية) التي تتفاوض حول تشكيل الحكومة. وخلال ظرف أسبوع واحد، انتقل قادة كتلة (العراقية) من وضعية الاحتفال بنتائجهم الانتخابية، إلى وضعية الدفاع عن بقائهم السياسي. وفي إحدى الأمسيات، وخلال جلسة شراب أخبرني كلاريس بازتوري (Pasztor) وهي مستشارة قديمة عملت طويلاً مع بعثة الاتحاد

الأوروبي في العراق، أخبرتني عن الأسباب التي جعلت الأميركيين يُخطئون في تحليلاتهم وقراءتهم للأوضاع في العراق. كانت كلاريس ترى أن الأميركيين كانوا يأتون متأخرين في المواقف الحاسمة التي تمرّ بها العملية السياسية في العراق. كما أنهم كانوا على الدوام في عجلة من أمرهم ويرغبون برؤية تشكيلة حكومية سريعاً. كانوا يظنون أن حزب الدعوة، وائتلاف (دولة القانون) هو الأقل تأثراً بإيران، بينما في الحقيقة إن من يقف بوجه الخطط الإيرانية في العراق هو عمار الحكيم رئيس المجلس الأعلى وكذلك مقتدى الصدر، على الأقل رفضوا إصرار إيران على إعادة ترشيح المالكي وكانوا صريحين في مواقفهم. ترى الولايات المتحدة أن العراق بحاجة إلى رجل قوي وليس هناك غير المالكي، وهذا على العكس تماماً مما أرادته باقي الأحزاب، حيث أرادوا رئيساً ضعيفاً على رأس الوزارة - ثم وصل بهم الأمر أن يقبلوا بأي شخص باستثناء المالكي.

إن الولايات المتحدة-والكلام لكلاريس- قد أهملت الكتلة العراقية، ولم تعطها أهميتها التي تستحق، لكنهم في المقابل ذهبوا بعيداً في تقديراتهم لتأثير علاوي ومقبوليته. كانوا يرون فيه الرجل الذي فاز بالانتخابات. وأطلعني على نتائج استطلاع للرأي أجراه (المعهد الوطني للديمقراطية) يبيّن أن 59% من العراقيين يرون أن علاوي يجب أن يمنح الفرصة الأولى في تشكيل الحكومة، وكانت شعبية المالكي في تراجع مستمر، بل إن صورته كمتشبت بالحكم بدأت تترسخ شعبياً. ويرى 14% فقط أن المالكي يجب أن يشكل الحكومة القادمة. وكانت شعبية علاوي ترتفع ووصلت إلى 42% في الاستطلاع. ومع هذا، فقد أصرّ الأميركيون على دعم المالكي وعلى استبعاد الصديريين من الحكومة. في الواقع لم يكن الصديريون عملاء

لإيران، كانوا ضد الاحتلال - وليسوا مُعادين للغرب كما توهم فيهم الأميركيون، أو كما تمكن المالكي من إيهامهم.

ومع مطلع شهر آب، غادر كريستوفر هيل العراق، وحلّ محلّه السفير جيمس جيفري. وخلال ليلة وضحاها شهدنا تحسّناً ملحوظاً للأجواء، وتم كبح الخلافات بين القيادة العسكرية الأميركية والسفارة. لكن الوقت كان قد فات ووقع الضرر بالفعل، إذ إن الولايات المتحدة بدعمها للمالكي فقدت القدرة على لعب دور الوسيط بين القادة العراقيين. أصبح الآن القادة العراقيون متباعدين أكثر من أي وقت مضى. وقد شهدت لقاءً تفاوضياً بين كتلة (دولة القانون) و(العراقية)، وخلال اللقاء كشف حسن السنيد (وهو من أعضاء حزب الدعوة) عن ساقه ليظهر آثار التعذيب التي نالها من البعثيين قبل عقود، واتهم كلّ أعضاء (العراقية) بما فيها العضو الشيعي المتديّن محمد علاوي بأنهم مسؤولون عمّا ناله من تعذيب. كانت إيماءة استفزازية بشكل لا يوصف. ودفعت محمد تميم (عضو العراقية عن كركوك) إلى أن يقفز من مكانه ويردّ عليه بصرخة: «لسنا نحن من فعل بك هذا، هذا اتهام فظيع»، وغرقت الغرفة في الفوضى وانتهى الاجتماع إلى نتيجة غير محددة.

وفي نهاية شهر آب، زار بايدن العراق. واجتمع به كل من جيمس جيفري والجنرال أوديرنو قبل لقائه بالمسؤولين العراقيين. خلال ذلك الاجتماع جادل بايدن بأن المالكي هو «رجلنا في العراق»، وأنه سيكون قادراً على تمرير اتفاقية سوفاً بسهولة، وأنه سيواجه الصديرين. كما بيّن بايدن أن المالكي كان قد وعده بعدم الترشح لولاية ثالثة. لكن جيفر فيلتمان (Feltman)، وهو مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى نقض هذا الكلام الذي قاله بايدن كلّهُ، قائلاً: «إن المالكي ليس صديقاً

لنا»، كما اعترض على الطبيعة الإيهامية التي سارت بها النقاشات. أما بايدن فقد بقي مصرّاً على أنه ليس هناك من أحد سوى المالكي يمكن له أن يقود الحكومة العراقية، وأنه سيكون قادراً على توقيع اتفاق أمني جديد مع الولايات المتحدة بما يسمح بالإبقاء على عدد محدود من القوات الأميركية بعد عام 2011. كان بايدن يرى إن أسرع طريقة لتشكيل الحكومة تنحصر بالإبقاء على المالكي رئيساً للوزراء، وحث الآخرين على القبول به.

وتحدث أوديرنو قائلاً: «كتلة (العراقية) تخشى تصرفات المالكي»، وشرح لبایدن أنهم يتوقعون منه أن يتهمهم بالإرهاب، ثم يلقي القبض عليهم فرداً فرداً. وشرح ما سبق أن فعله المالكي مع رافع العيساوي، والملف الذي أعده عنه. لقد تغير المالكي كثيراً خلال الشهور الستة الأخيرة، أصبح أكثر تسلطاً، وأكثر طائفية في أدائه، «إن لدى العراقيين أسباباً معقولة تجعلهم يخشون من استمرار بقاء المالكي في منصبه».

ثم تدخلت (هيرو مصطفى) وهي وقتها تعمل كمستشار لبایدن، وعملت على إشراكي في الحوار. هيرو كان قد سبق لها العمل مع الجنرال بيترايوس في نينوى عام 2003. وشرحت لبایدن وجهة نظري من أن هناك بالأصل صراع بين العلمانيين والإسلاميين، وأن هناك عدداً لا بأس به من العراقيين يرغبون بالعبور على المحددات الطائفية التي وجدوا أنفسهم فيها. لكن بايدن لم يكن مستعداً أن يهضم هذا الطرح، بالنسبة له، كان العراق مكوناً من الشيعة والسنة والأكراد. ثم حاولت أن أفعل ذلك بتكتيك آخر، فقلت له: «إن من المهم أن نظهر للناس أن الديمقراطية تعمل، وأن التغيير يمكن أن يحدث من خلال الانتخابات وليس عبر العنف. إن هذا أمر لم يحدث سابقاً في العالم العربي». فعلى

أقل تقدير، يتوجب على أحدهم، إما طالباني أو المالكي أن يتخلى عن منصبه، وإلا سيظن أنهُ مُلك لهم وقد خلقوا من أجله. لكن بايدن لم يوافقني واحتجّ بالقول إنه حتى في الولايات المتحدة، قد تحدث انتخابات ولا تؤدي إلى أي تغيير في الرئاسة أو طاقم الرئيس. لحظتها انتبهت إلى أنني أجلس وأكلم أعلى مستويات السياسة الأميركية، والتي يمكن أن تقرر نتائج الحرب في العراق، ومع ذلك فلم تفلح أي من حججي وطروحاتي في ثني نائب الرئيس عن قراره.

ورأيت أن ابتسامة بايدن قد غادرت وجهه، وبدأ واضحاً أنه قد انزعج مما طرحته، وقال: «انظري، أنا أعرف هؤلاء الناس. إن جدي آيرلندي الأصل، وقد نشأ على كراهية البريطانيين، إن الأمر مشابه لما يحدث في البلقان، الجميع يكره الجميع».

وهنا انتهت المحادثة حيث توجب علينا أن نتوجه إلى لقاء كتلة (العراقية) في منزل رافع، كان علاوي قد جمع مجموعة من أعضاء (العراقية) تهيئة للقاء.

كان بعضهم يرتدي البدلة الرجالية، فيما يرتدي آخرون أفضل الأثواب العربية والعباءة. وكان من بينهم السنة والشيعة والتركمان، مثلما كان من بينهم مسيحيون. كانوا يمثلون خليطاً يشابه التنوع العراقي. وابتدأ بايدن الكلام بابتسامة وقال: «أنا أعرفكم، فلقد كان جدي آيرلندياً وهو يكره البريطانيين». وعلى الفور التفت الجميع إليّ، كنت أسأل نفسي كيف لي أن أجعل بايدن يسكت وأمنعه من إبداء هذه التعليقات غير المناسبة تماماً، والتي تشير ضمناً إلى كونهم سنة يكرهون الشيعة؟. فقلت له: «لا تنظر إليّ سيدي نائب الرئيس، فلست البريطانية الوحيدة في هذه الغرفة». فتكلم أحد أعضاء القائمة العراقية

وقال: «أنا لذيّ الجنسية البريطانية!». وفقد بايدن سلسلة ترتيب أفكاره، لكنه مضى قائلاً: «إن آل غور قد فاز عملياً في انتخابات عام 2000 في أميركا بأعلى الأصوات، لكنه ولمصلحة الولايات المتحدة، فضل أن يتخطى الموضوع ويتراجع بدلاً من الاستمرار في الطعن في عملية العد للأصوات». لم أكن أتصور كيف سيكون العالم لو أن أصوات فلوريدا جرت إعادة احتسابها، بالتأكيد كان العالم سيغدو مختلفاً، وعلى الأقل ما كنّا سنأتي إلى العراق.

تظاهر علاوي بأنه لم يفهم النقطة التي يريد بايدن إيضاها والتي تشير بوضوح أن عليه أن ينسحب لمصلحة العراق، وأن بايدن كان يقترح بالفعل أن يتنازل ويترك المالكي يشكل الحكومة. وانتهى الاجتماع، وأنا متأكدة أن الحضور من العراقيين كانوا يتساءلون عن السبب الذي دفع بايدن إلى ذكر أصله الأيرلندي. لم يُعر بايدن اهتماماً لتعقّد الهويات المختلفة داخل المجتمع العراقي، والشخص الذي كان أقدر على فهم هذا التعقيد من بايدن هو الرئيس أوباما نفسه، لكنه لم يهتم بالشأن العراقي سوى تركيزه على الإسراع بإنهاء الحرب وسحب القوات الأميركية.

وبدأنا أنا والجنرال أوديرنو نعدّ أنفسنا لمغادرة العراق. لقد غادرت العراق بعد عمليات الموجهة وأنا أشعر بالبهجة، لكن هذه المرة سأغادر وأنا أشعر بالأسى والحزن والخوف على مستقبل العراق. لقد نكثت واشنطن تعهداتها للعراقيين بأنها ستدافع عن العملية السياسية، ووجهت طعنة خيانة لروح المبدأ الذي قاتلت من أجله القوات الأميركية. وبدلاً من ذلك، توجهت إلى دعم الإبقاء على حال السكون والنكوص بدلاً من الدفع باتجاه التغيير. لكنها كانت حالة سكون لا يمكن الدفاع عنها ولا تستحق التضحية أبداً.

ومع نهاية العمليات القتالية في 31 آب 2010، تولى الجنرال أوستن (Austin) قيادة القطعات المتبقية البالغ عددها قرابة خمسين ألف جندي. وكان هناك الكثير من اللقاءات الوداعية مع عدد كبير من القادة العراقيين، والجميع وجه الشكر والعرفان للجنرال أوديرنو وتمنوا له الأفضل في حياته المستقبلية. وكان عليّ أن أذهب لزيارة د.باسمة، وكانت قد انتخبت مؤخراً عضواً في البرلمان. وجدتها في اللقاء مثلما عهدتها دائماً تبدو بليدة في تغيراتها. وقالت: «إن العراقيين سيتذكرون البريطانيين عبر الطرق والجسور والمباني التي ما زال البعض منها صالحاً بالرغم من مرور قرن من الزمان على بنائها، لكنهم سيتذكرون الأميركيين في عملهم على تفجير الأوضاع وترك الأيتام في العراق». ثم قالت بعد برهة: «لقد فوّت الأميركيون الفرصة»، ثم صافحتني وقبلتني وقالت كلمات الوداع: «عديني أنك ستبقيين على تواصل، وأعلميني إذا وجدتِ زوجاً لك».

بعدها ذهبت لزيارة الشيخ أنور العاصي، الرئيس العام لقبيلة العبيد. وكان في زيارة لمنزل أخيه الشيخ وصفي. وجلسنا نتبادل الأحاديث. ثم سألني: «هل صحيح أنك ستغادرين العراق، وضميرك مرتاح؟». ثم وجهت له نظرة صامتة. لقد كان العراقيون سريعين جداً في توجيه الانتقاد لنا، لكنهم قلماً يتوقفون لانتقاد أنفسهم ومراجعة أفعالهم. فأجبت: «لقد تسبب تدخلنا بالكثير من الدمار والموت في العراق، وعلينا أن نتعايش مع هذه الحقيقة ما بقي لنا من العمر، لكننا نتمنى الأفضل للعراق وأن يكون بمستقبل أحسن». فأومأ الشيخ أنور برأسه مؤكداً لما قلت.

ثم قال: «لكن كيف يمكن بحق السماء، أن يحوز العراق مستقبلاً أفضل مع وجود هؤلاء الذين وضعتهم أميركا في السلطة؟». ثم شرح

لي قائلاً: «تعلمين أننا عندما رأيناك لأول مرة في عام 2003 كنا نرغب بقتلك، الآن نعتبرك قريبة لنا». وأجبت ببساطة: «شيخ أنور، لقد كنا على الدوام أصدقاء»، ورأيت ارتياحاً يبدو عليه كلياً. ثم قال لي الشيخ أنور: «يجب عليك أن تكتبي كتاباً، عنا نحن العراقيين. لا تكتبي عما حدث، ولكن أكتبي عن الناس والبلد. لا تتركي الآخرين يعرفوننا فقط بالعنف والحرب». ثم صافحته وكانت عيوننا تتعلق في أطرافها الدموع.

أما الوداع الذي كان الأكثر إيلاً فقد أتى من جنرال عراقي حضر إلى مكتب الجنرال أوديرنو للتحية وللتعريف بنفسه لي، لم أكن أعرفه حتى تلك اللحظة. جلب هذا الضابط العراقي معه هدية عبارة عن صورتين في إطار واحد. الأولى للجنرال أوديرنو والثانية لمراهقين مبتسمين يرتديان زيّ فريقهما الأوروبي المفضل. الولدان كانا ابني الضابط العراقي، وحدث أن أحدهما كان يسبح في مكان ما وتعرض لمشاكل في السباحة، فهرع إليه الثاني لينقذه. وكانت النتيجة أن كليهما قد غرق. وقتها أمر الجنرال أوديرنو بتوفير منزل خاص لهذا الضابط كنوع من المواساة، والآن هو في المكتب لتقديم التحية بمناسبة رحيل أوديرنو. رغم أنني كنت قد درّبت نفسي على تخطي المواقف المأساوية، ومحاولة عدم إظهار مشاعر الألم إلا أن هذه القصة كانت فوق الاحتمال. لم يكن هناك من شخص كي يتوجه اللوم إليه، أو لإلقاء الغضب عليه. كما ليس هناك من تتوجه نحوه مشاعر الانتقام.

ثم أقام لنا الفريق نصير العبادي حفلاً توديعياً في حديقة منزله، الحفل دُعي إليه عدد كبير من الأصدقاء، ومن أعضاء السلك الدبلوماسي. وكان الفريق العبادي مضيافاً بشوشاً كعادته. وأثناء الحفل طلب منّي أن أقف أمام الحضور وقرأ لي نصّاً شعرياً كتبه لي خصيصاً:

أشعة الشمس تمنحنا الضوء

بينما يمنحنا ضوء القمر فتنة السحر

لكن حين يرحل عنا شعاع أوديرنو

كذلك سيكون حال شعاع إيما من سماء العراق.

* * *

كنّا نجلس معاً، أنا والجنرال أوديرنو على ضفاف البحيرة في قصر الفاو، وكان يدخن سيكاًراً. وطلب منّي أن أُلقي نظرة على الخطاب الذي سيلقيه في حفل نقل القيادة. وأبدت ملاحظة له بأنه كان قد عمل خلال تواجده في العراق مع قيادة فيلقين، وقيادة 24 فرقة قتالية، و211 لواء قتالياً، وأكثر من 1000 كتيبة، لكنه تعامل مع مستشار سياسي واحد فقط.

فأجابني، بأن هذا السبب الذي جعله يعاني من آثار اضطراب ما بعد الصدمات. فقلت له: «سيدي، إنك كنت تعاني من آثار هذا الاضطراب منذ وقت طويل، حتى قبل أن توظفني للعمل عندك».

ابتسم أوديرنو ثم صمت لبرهة وقال: «لقد جعلت منّي جنرالاً أفضل». كانت تلك أكبر معاملة ومديح أتلّقاها منه لغاية تلك اللحظة. وقلت له: «لقد غيرت مسار حياتي سيدي، لا يمكنني حتى التوقف عن التفكير في الفرصة التي منحني إياها وجودي هنا».

ثم صمت وتوجه إليّ بسؤال سريع: «أنا حتى لم أسألك سابقاً عما تنوين عمله في حياتك القادمة، ماذا تخططين؟. هل ستتزوجين وتحصلين على أطفال مثلاً؟».

«لا أظن أن الوقت يكفي لفعل هذا، فعندما يعود الرجال من

الحروب، فإنهم يجلسون في الحانات ويغوون الفتيات برواية قصص القتال، وهذا سيكون صعباً من ناحيتي، فلا أحد سيرغب بالاستماع إلى امرأة تروي قصصها عن الحرب، أو هي تشرح كيف كانت تتفافز من الطائرات المروحية وبين التعرّض للإصابة». سيكون الرجال منزعجين جداً لو سمعوا هذه التفاصيل.

كان الجنرال أوديرنو بصدد استلام منصبه الجديد، كرئيس لهيئة الأركان المشتركة، وكانت مهمته القادمة هي تصفية وإغلاق القيادات الميدانية وسحب الجيوش مرّة أخرى لتكون تحت إمرة الأركان المشتركة. حتى إنه صارت له شهرة باعتباره الشخص الذي سيغلق كل شيء!.

وسألني مرّة أخرى عمّا أنا بصدد فعله، فقلت له: «لا تقلق، سأجد شيئاً أفعله، لكن عليّ قبل كل شيء أن أخلو إلى نفسي، وأن أجد ذاتي بعيداً عن العراق، وبعيداً عن تعريفي كمستشارة للجنرال أوديرنو».

تصوّرت أنني قد استخدمت في العراق كل معرفتي، وكل خبرتي، وكل محاولاتي في أن أجعل العالم (والعراق جزء منه) مكاناً أفضل. لكنّ المفاجأة أنني وبعد عقد من الزمان لم أكن سأترك شيئاً ورائي، كانت محاولتي لفهم العراق ينبغي لها أن تبدأ بمحاولتي لفهم العالم بصورة أفضل، قبل أن نتورط في العمل على جعله مكاناً أفضل.

لقد فعل الجنرال أوديرنو كل ما بوسعه، كتب عدداً لا يحصى من التقارير، وأجرى كل ما أمكنه فعله كي يجعل الإدارة الأميركية تنتبه إلى نتائج أفعالها، وطلب منهم مراراً دعم نتائج الانتخابات، وحذّر مراراً من استبداد المالكي المتنامي. وأخيراً قال: «لقد فعلت كل ما أتيح لي من تقديم للمشورة».

وأخيراً، أجريت مراسم نقل وتسليم القيادة في قصر الفاو، يوم 31 آب. واجتمع القادة العسكريون الأميركيون، ومعهم أعضاء السلك الدبلوماسي، وبعض المسؤولين العراقيين العسكريين والمدنيين. وبدأ عزف الأناشيد العسكرية التي أصبحت مألوفة لدينا، ثم رددنا سوية نشيداً عسكرياً. ووقف الجنرال أوديرنو ليلقي خطاب الوداع الذي حمل الكثير من العاطفة والتأثر، مثنياً كل ما قدمه العسكريون والمتعاقدون في الخدمة لأجل مساعدة بلد أجنبي وشعب أجنبي أن ينهض ويحقق ذاته. وفي الأخير وجه أمره الأخير: «أسد 6 انصرف».

ثم دخلنا جميعاً في جولة كبيرة من التحايا والوداع والمصافحة، وشكرت جميع الذين التقيت بهم وعملت معهم من العسكر وعاملوني وكأنني صديقتهم المفضلة.

ثم مشينا أنا والجنرال أوديرنو خارجين من قصر الفاو للمرة الأخيرة.

القسم الرابع:

ما بعد الجولات...

كانون الثاني 2012 - تموز 2014.

الفصل التاسع عشر

الأوضاع تتضك وتتساقط

«إن صعوبة إنهاء حرب ما، تفوق صعوبة البدء بها. ولتذكر أن كل ما قدّمته القوات الأميركية في العراق، كل التضحيات والمنازلات والأرواح، كل التدريب والتعاون، كل هذا... قد أوصلنا إلى هذه اللحظة التي نحتفل فيها بالنجاح. إننا نترك خلفنا في العراق دولة مستقلة، ومستقرة ومعتمدة على نفسها. وتقودها حكومة منتخبة من قبل الشعب هناك».

من خطاب للرئيس أوباما

14 كانون الأول 2011

وصلت إلى مطار أربيل في الأول من كانون الثاني من عام 2012، ولم أعرف نفسي أين كنت بصراحة. لسنوات خلت، حدثني المسؤولون الأكراد عن مشروع مطار أربيل، واصطحبوني في زيارات إلى الموقع. والآن قد نفذوه وأصبح حقيقة. مبنى جديد من 16 بوابة (تيرمينال)، وبمدرج يعد من بين أطول المدرج في العالم، وبطاقة استيعابية تقترب من 3 ملايين مسافر سنوياً. كانت الخدمة أكثر من رائعة، والمعلومات مسجلة على الكمبيوتر كما يفترض، وقال لي ضابط الجوازات: «أهلاً بك في العراق، نرى من خلال سجلك بأن هذه أول زيارة لك إلى العراق»، فلم أجبه بأكثر من ابتسامة!.

وفي الجناح الفخم في فندق روتانا الذي حجزته لي حكومة الإقليم، جلست أرسل رسائل نصية إلى أصدقائي العراقيين أهنتهم بالسنة الجديدة. كان نوري المالكي لا يزال رئيساً للوزراء، وهو الآن يرسل رسائل نصية يهنئ العراقيين بالانسحاب الأميركي الكامل من العراق؛ «كلنا نعمل من أجل مجد العراق، واعتزازنا بأممتنا، أهتكم وأهنئ الشعب العراقي بهذا اليوم التاريخي». وجاء في تقرير إخباري لمحطة (CNN)، أن المصادر الحكومية العراقية تشير إلى هذا اليوم باعتباره يوم «الاستحقاق»، بينما تشير إليه بعض المجاميع المسلحة باعتباره «يوم النصر على الأميركيين».

وفي لقاءات مختلفة سمعت الأكراد يقولون إن إيران نجحت في دفع الولايات المتحدة إلى مغادرة العراق. وحتى قبل أن يغادر آخر جندي أميركي، أطلق المالكي انقلاباً سياسياً لقهر كتلة (العراقية) ومحاصرتها. وعلى ضوء مغادرة القوات الأميركية نهاية عام 2011، وفي طريق العودة من لقائه بالرئيس أوباما، استصدر المالكي مذكرة توقيف بحق

نائب رئيس الجمهورية طارق الهاشمي متهماً إتياء بالمشاركة في أعمال إرهابية. لكن الهاشمي هرب إلى أربيل ثم إلى تركيا، وألقي القبض على حرسه الخاص بتهمة الاشتراك في عمليات إرهابية، وعُرضت اعترافات متلفزة لهم، وهناك على الأقل واحد منهم قتل أثناء الاستجواب.

بعد أن غادرنا العراق أنا والجنرال أوديرنو في أواخر عام 2010، ضغطت إيران على مقتدى الصدر من أجل أن يقبل بولاية ثانية للمالكي. وبذلك ستتأكد من أنه لن يكون هناك فترة تمديد وبقاء للقوات الأميركية بعد الموعد النهائي للمغادرة. أما الولايات المتحدة فقد ساعدت على إبرام اتفاق لتقاسم السلطة وتم توقيعه في أربيل، لكنه اتفاق لم ير النور أبداً. وبالإضافة إلى كونه رئيساً للوزراء، فإن المالكي كان يشغل حينها منصب وزير الداخلية، ووزير الدفاع، ومستشار الأمن القومي، ووزير الأمن الوطني كلها مجتمعة. كما توصل المالكي إلى اتفاق مع قيس الخزعلي، زعيم مجموعة عصائب أهل الحق المدعومة من إيران، والتي كانت قد اختطفت وقتلت الجنود الأميركيين في كربلاء، وهي المسؤولة أيضاً عن اختطاف عدد من البريطانيين.

وسألني أحد السياسيين الأكراد: «ما السبب الذي يدفع الولايات المتحدة أن تسمي العملية السياسية في العراق بالديمقراطية بينما هي تنحدر بوضوح نحو الدكتاتورية؟. ولماذا توجه اللائمة إلى كتلة (العراقية) في افتعال الأزمة؟. ولماذا تزود المالكي بطائرات أف 16 في الوقت الذي يمكن له أن يستخدم هذه الطائرات ضدنا؟.»

كانت الولايات المتحدة تظهر في موقف الداعم لسلطة المالكي أكثر من دعمها لسلطة الدولة، وهذا الأمر دفع الأكراد إلى الدعوة العلنية لبقاء القوات الأميركية في العراق زمناً أطول. كان الأكراد ينتهزون كل فرصة

للتعبير عن امتنانهم للأميركيين في منحهم الحرية، حتى إنهم وجهوا دعوات إلى عوائل الضحايا الأميركيين الذين سقطوا في الحرب كنوع من التعبير عن التقدير العالي لتلك التضحيات. لكن الأكراد اليوم ينظرون إلى الجهود الأميركية بنوع من الاستنكار، خاصة مع صعود القوى الإقليمية الجديدة. يقف الأكراد اليوم مستفزين بين التنافس (القديم-الجديد) بين تركيا وإيران، بين ورثة السلاطين العثمانيين وأحفاد الدولة الصفوية التاريخية. وهم يجادلون اليوم بينهم فيما إذا تحتم عليهم البقاء على الحياد في هذا التنافس، أم إن عليهم الاصطفاف مع جهة ما.

بعد ذلك توجهت إلى بغداد، حيث سألتحق بصفاء الشيخ وبعض الأصدقاء لتوجه جنوباً إلى الأهوار، تلك المستنقعات التي جفها نظام صدام بعد انتفاضة عام 1991 لمنع المتمردين من اتخاذها ملجأ لهم. ومنذ عام 2003، كانت هناك دعوات وجهود لإعادة إحيائها. وهناك أمضينا أسبوعاً من التنقل الرائع بين الأماكن التي يُروى أنها جنة عدن التاريخية، ومولد النبي إبراهيم. وفي طريق العودة بالسيارة إلى بغداد، كنت أتحدث مع رفاقي في الرحلة عن الوضع الراهن في العراق. كانوا كلهم من الشيعة، وكانوا مرتاحين للمواجهة بين المالكي و«البعثيين» و«الإرهابيين»، لكنهم كانوا قلقين من تداعيات التوتر الطائفي ومآلاته. وبينما كان الأكراد والسنة يشيرون إلى إيران باعتبارها هي من تمكنت في النهاية من طرد الأميركيين خارج العراق، كان الشيعة ينسبون هذا الشيء لأنفسهم.

وعبروا عن المالكي على أنه شخص قوي يملأ منصب رئيس الوزراء، وقادر على توثيق الاستقرار، وهذه ليست دكتاتورية. وقالوا إن السنة في العراق لن يقبلوا أبداً بحاكم شيعي، وقد جرّبوا التمرد ولم

ينجح. ثم جرّبوا التحشيد للانتخابات في 2010 ولم ينجح الأمر كذلك، الآن هم يتجهون نحو الفيدرالية. وعلى الرغم من أن الأغلبية السكانية في العراق هي أغلبية شيعية، فإن السنة العراقيين يحظون بدعم العالم العربي لهم، وحتى الإعلام الغربي. وهناك تخوّف حقيقي من أن تقدم السعودية وتركيا على تحالف من أجل إزاحة النظامين السياسيين في العراق وسوريا. وكانت الأصابع تتوجه إلى العربية السعودية تتهمها بأنها تغذي البروبغاندا ضد الشيعة في المنطقة، وتدعم بشكل أو بآخر خروج الجهاديين من مجتمعها.

ومع حلول الظلام وصلنا إلى بغداد، وكنتُ تعباً جداً. كنت أرغب بالتوجه إلى منزل الفريق نصير العبادي، لكنه كان قد أجبر على طلب الإحالة على التقاعد. واتهمه البعض بأنه كان مقرباً جداً من الأميركيين. فما كان منه إلا أن غادر العراق نهائياً. وحين وصلنا إلى المنطقة الخضراء، لاحظت انتشاراً كثيفاً للرموز الشيعية واللافتات في نقاط التفتيش. وتوجّهت إلى منزل رافع العيساوي الذي دعاني إلى أن أمكث عنده. وعندما وصلنا الشارع الذي فيه منزل رافع، وجدت دبابة تسدّ المدخل وتوجّه فوهة مدفعها صوب منزل رافع. أثار الأمر ريبتي، وترجّلت من السيارة والتفتفت حول الدبابة، وصحت بصوت مسموع: «صفاء، برأيك ما هي المهمة التي وضعت هذه الدبابة هنا؟».

وبدا صفاء مُخرجاً وهو يصيح من داخل السيارة: «عودي إلى السيارة أرجوك». عدت إلى السيارة وقال لي: «أستطيع أن أتصور مدى تدمير قادة قائمة (العراقية)». وبالإضافة إلى هذا، قال لي صفاء، إن دبابات آخر تقف الآن قرب منزل صالح المطلك. كان المطلك قد تم استبعاده من الانتخابات ضمن إجراءات اجتثاث البعث، لكن المنع قد رُفع عنه

لاحقاً، وتمت إعادته ليتسلم منصب نائب رئيس الوزراء. وأبدى صالح المطلق تذمراً من الأوصاف التي يطلقها أوباما على العملية السياسية في العراق، حيث وصفها أوباما بأنها عملية ديمقراطية تستحق الشناء، فما كان من المطلق إلا أن وجه اتهاماً في الإعلام للمالكي واصفاً إياه بأنه دكتاتور، وما كان من المالكي إلا أن استبعده.

وفي السيارة قال صفاء: «لماذا لا تأتين للإقامة في منزلي؟». كان صفاء وقتها هو نائب مستشار الأمن الوطني، فشكرته وقلت له: «أنا ممتنة لدعوتك، لكنّ رافعاً ينتظرني على العشاء، لا بد من طريقة يمكن لك أن تساعدني بها». فترجل صفاء من السيارة واتصل بالفريق فاروق الأعرجي (وهو يومها مدير مكتب القائد العام للقوات المسلحة وعلى علاقة سيئة بالدكتورة باسمه الساعدي)، وتحدّث معه عبر الهاتف وشرح له الموقف. ثم طلب الأعرجي من صفاء أن يمرر الهاتف لقائد الدبابة التي تمنعنا من التوجه إلى منزل رافع ووجهه بتنفيذ الأمر والسماح لنا بالمرور. أوصلني صفاء إلى باب منزل رافع، الذي كان في انتظاري ومعه جابر، وعمل على تهدّتي بعد هذا الذي مررنا به. وجلسنا معاً في المطبخ نأكل الكباب الذي كان بارداً. وكان يتواجد أيضاً شقيق رافع⁽¹⁾ وهو ضابط في الجيش أجبر مؤخراً على تقديم طلب الإحالة على التقاعد.

. وجلسنا إلى طاولة الطعام نتبادل الأحاديث، شرح لي رافع كيف أن المالكي الآن يدفع السنّة دفعاً باتجاه الحرب الأهلية. وكيف يستهدف الضباط السنّة من خلال الصرف من الخدمة أو الإحالة على التقاعد. وبدأ يبين كيف أن الشارع السنّي لم يعد مسيطراً عليه مع هكذا أداء

(1) المقصود هو العميد نوري جواد العيساوي - المترجم.

من جانب المالكي، وتساءل: «كيف يمكن للولايات المتحدة أن تترك العراق منالاً سهلاً لإيران بهذا الشكل؟ كيف يمكن أن تترك العراق على هذه الحالة؟».

بعد ستة شهور من تلك الحادثة، عدتُ ثانية إلى العراق. كنت أتأمل عبر نافذة التاكسي في المنازل التي ارتفعت على جانبي الطريق من السليمانية إلى كركوك. ورأيت العديد من المربعات السكنية تم تخطيطها بأعمدة الكونكريت، وازدهت المنازل الجديدة بالألوان الزهرية والوردية، الآن هبط الأكراد من الجبال وهم منشغلون الآن بالبناء في الوديان. الطريق نفسه كان مبلطاً بشكل حديث وتزينه العلامات البيضاء والمرورية. وسألت السائق الذي صادف أنه يعرف العربية: «هل هذه البلدة هي قره هنجير؟». فوافقني، نعم هي هذه القرية نفسها التي سوّاها صدام بالأرض في الثمانينيات. وعند بوابة المدينة، تركت التاكسي وركبت في سيارة مع ثلاثة من البيشمركة كانوا بانتظاري. ومشيت بنا السيارة في المدينة، وتراءت لي شعلة حقول كركوك من بعيد وهي تميز أفق المساحة المحيطة بها. مرّة أخرى أنفَس كركوك، وأشعر بتحسس على شفاهي نتيجة الغاز في الجو. ثم تجاوزنا أرض المطار حيث كانت القاعدة العسكرية الأميركية تتخذ مكاناً لها. ثم انحرفنا عند مركز شرطة قوريا. ثم التفتنا يساراً باتجاه مبنى الحكومة المحليّة، حيث افتتحت مكنتي لأول مرّة هناك عام 2003، لقد مضت تسع سنوات منذ أن نجوت من ذلك الهجوم الصاروخي. وأخيراً توقفنا عند منزل إسماعيل الحديدي، ونزلنا نمشي باتجاه مكتبه. كان إسماعيل عربياً سنّياً وعمل لفترة كنائب لمحافظ المدينة. الآن يقود حزباً سياسياً في كركوك اسمه (كركوك بيتنا). وأسرع أحدهم قبل دخولنا ليخبره بأنني قد وصلت. وحين دخلت إلى منزله، وجدته يقف على عتبة الباب بوجهه

البشوش الذي لم يتغير كثيراً رغم السنين. وقف وصاح بصوت يسمعه الجميع: «أهلاً وسهلاً، إيما سكاي... أهلاً وسهلاً»، فأجبت «السلام عليكم يا إسماعيل».

واستقبلني بالتحية والقبلات. وقادني إلى الداخل لأجلس في صدر غرفة الاستقبال. وجلست على يمينه، بينما جلس باقي الحضور إلى يساره. وقدم لي الشاي التقليدي الحلو، وشربت قدحاً من المياه المعدنية، بينما كان إسماعيل يقدمني للحضور، ويعرفني بأني صديقة قديمة سبق أن عملت معه ومع قوات التحالف من أجل إيجاد حلول لمشاكل المحافظة. ووصف تلك المرحلة والظروف بأنها كانت «صعبة» و«غير طبيعية» تماماً.

كلام إسماعيل أعادني بالذاكرة إلى تلك الأيام التي وقف فيها يتحدى الرصاص المتطاير في كل مكان من أجل أن يبرم التهدئة، أو أن يحقق صلحاً بين متخاصمين. كان إسماعيل يتمتع بقدرة تلقائية أن يكون توفيقياً في تلك الأيام التي شهدت احتكاكات قلقة وخطرة للغاية. شكرت إسماعيل على الترحاب الذي أحاطني به، وأخبرته بأني سعيدة اليوم إذ أزور كركوك كسائحة وألتقي بالأصدقاء القدامى.

دار إسماعيل على كل من كان جالساً في الغرفة وطلب منهم تعريفاً لكل شخص من الحضور، وسنحت الفرصة أن يعبروا عن قلقهم، والأسباب التي دعتهم لمراجعة مكتب إسماعيل. أحدهم كانت لديه منظمة غير حكومية وكان يبحث عن تمويل لها. الآخر كان يمثل المواطنين الذين فقدوا أوراقهم الثبوتية التي تشير إلى أنهم كانوا في المدينة في إحصاء عام 1957. وآخر يمثل (الوافدين)، وهؤلاء هم الذين تخلوا عن منازلهم في الجنوب وقدموا إلى كركوك، حيث منحتهم الحكومة مبلغ 10 آلاف دينار في وقتها كجزء من سياسة البعث في تعريب المدينة.

وقال أحد الشيوخ من الجالسين: «في أوروبا أصبح مواطناً بعد أربع سنوات من الإقامة، لكنني هنا منذ ثلاثين عاماً، ولا أعرف مكاناً آخر كمسكن لي، بأي حق يجبروننا على الرحيل؟». فقلت له: «إذن أنت النسخة الجديدة من الشيخ عكار؟». في إشارة إلى عضو مجلس المحافظة الذي قتل قبل تسع سنوات لأنه كان يدافع عن حقوق الوافدين. فصفق إسماعيل بيده مندهشاً وقال: «هل رأيت؟ إنها تعرف كل شيء عنا، بالفعل هذا هو الشيخ عكار الجديد!». واستمعت له برحابة صدر وتمنيت لهم جميعاً الحظ الوافر، لكنني امتنعت عن الإدلاء بأي نصيحة أو رأي.

وبناء على طلبي، فقد اصطحبني إسماعيل بجولة في الأسواق، مررنا على قسم من السوق يبيع الطيور. كانت هناك حمامات وصقور كلها معروضة في أقفاص للبيع، وهناك عدد من الطيور التي يبدو أن أصولها من ألمانيا، أيضاً كانت معروضة للبيع. لقد كانت على الدوام تربية الطيور واقتناؤها هواية عراقية منتشرة يمارسها الرجال. وكانت هناك دجاجات ملونة تباع أيضاً، منها ما هو زهري ومنها ما هو أزرق. تذكرت وأنا أضحك الدجاجات اللاتي استقبلنني في منزل برهم صالح حين زرته لأول مرة في 2003. ثم صعدنا إلى قلعة كركوك. كانت القلعة قد خضعت إلى عملية تزيين وتجميل جيدة منذ آخر مرة زرتها. وفيها مناطق خضراء لجلوس الكبار وللعاب الأطفال. ثم زرنا الضريح ذا القبتين الذي يقال إنه ضريح النبي دانيال. كركوك كانت تتمتع فيما مضى بوجود مجتمع يهودي بارز فيها، مثلها في ذلك مثل مدن عراقية عديدة. وقبل أن نخرج من الضريح، أخرج إسماعيل من جيبه حزمة نقود وسلمها للسادن، وقال له: «قل لهم إن هذه هدية من إيما سكاي». تذكرت أننا كنا نزور المساجد في عام 2003 ونسلمهم الأموال لغرض الإعمار، وكنا نقول لهم إنها من الحكومة العراقية.

بعد ذلك ذهبنا إلى منزل الشيخ غسان العاصي في الطرف الجنوبي الغربي من المدينة. وما إن وقفت السيارة أمام منزل الشيخ حتى خرج علينا وهو يرحّب بوجه مبتسم. كان يرتدي الدشداشة وعقال الرأس الأسود التقليدي،: «أهلاً بالآنسة إيما أهلاً وسهلاً... أهلاً إيما سكاي». ثم خرج من خلفه الشيخ برهان شقيقه وهو يهز رأسه ترحيباً بمقدمنا. أدخلني الشيخ إلى مضافته وأجلسني على أريكة خضراء وهو يرحب بي. كنت أنظر إلى السقف العالي والقاعة الفسيحة التي تتدلى فيها الثريات من السقف. وإلى الصور التي يظهر فيها والده وهو الرئيس الأعلى لقبيلة العبيد. وجلس الشيخ غسان على يساري وانخرطنا في نقاشات تتمحور حول كركوك، وسرعان ما اشتكى من الحكومة ووصفها بأنها حكومة لا تستطيع أن تحسن تدبير أي شيء، «إنهم يسرقون العراق، ولا يقدمون أي شيء في المقابل. العراق بحاجة إلى قادة أقوياء يحافظون عليه موحداً، هناك الكثير من الناس المخلصين خارج العراق والموهوبين والمتعلمين، أنا لا أعني البعثيين، لكن هناك الكثير من الناس الجيدين». وحاول الشيخ برهان أن ينضم إلينا في المحادثة، فحوّلنا الحديث إلى العربية. وابتدأ غسان بالقول إنه قد ترك السياسة والعمل فيها، حتى مقعده في مجلس المحافظة صار الآن من نصيب برهان، الذي ترك له كل شيء يتعلق بالسياسة. وسألني برهان إن كنت ما زلت أعمل مع قوات التحالف، فأجبته: «لا، الآن أنا أعمل كمحاضرة في الجامعة». فأجاب الشيخ برهان: «وي وي وي، يعني بروفيسورة!»، كان مثل كل العراقيين، لا يخفي إعجابه الشديد بالمستوى الدراسي. وقلت له: - «لكني ما زلت على تواصل مع الجنود الذين خدموا في العراق، وهم في الحقيقة يتوقون للعراق ويفتقدونه».

- «يفتقدونه؟!»، قال ذلك وقد اتسعت حدقتا عينيه.

- «نعم، يفتقدون البلد والناس، ويودّون لو يزوروا العراق مرّة ثانية».

- «لا، لا، لا، هكذا أفضل، لا تريد لأحد منهم العودة إلى العراق، الأمور هكذا أفضل».

لم يكن المكان أو طبيعة اللقاء حينها مناسبة كي أشرح للحضور كيف أن التجربة العراقية قد أثرت في حياة عدد كبير من الأميركيين. قبل ذلك ببضعة أسابيع، كنت مدعوة في فورت ليفنورث بولاية كنساس الأميركية، ضمن أعمال تطوير ورقة مكافحة الإرهاب. وهناك طرحت السؤال التالي: «هل علينا أن نتغافل عن البحث في سبب عدم كسب الحرب على الإرهاب؟». «وهل كانت الخسارة ناتجة عن نقص في الاستراتيجية؟، أم بسبب ضعف في القيادة؟، أم نتيجة حتمية للتكتيكات الخاطئة؟». لكنهم لم يكونوا مستعدين بعد للإجابة بصراحة عن تلك الأسئلة. لقد لاحظت أن بعض الضباط من الذين خدموا في العراق، مروا أيديهم على قلوبهم بعد أن صافحوني (وهذه عادة عراقية اكتسبوها من العراقيين)، والعديد منهم سألني عن أشخاص عراقيين بعينهم، كانوا قد رافقوهم أثناء خدمتهم العسكرية. أحد الضباط أخذني إلى منزله، وهناك عرض لي شجرة العائلة لعشيرة زوبع، وأخذ يحدثني عن أشخاص عرفهم موجودة أسماؤهم في الشجرة، وعن علاقة القرابة بينهم. كان مظهره يبدو كما لو كان يتحدث عن عائلته هو. البعض من الضباط عبّروا لي بأنهم يفتقدون إحساسهم بأهمية أنفسهم وهم مكلفون بالمهمة في العراق، وأن عملهم كان ذا غرض وهدف في ذلك البلد، ولم يكن هناك أي شيء يعوّضهم عن ذلك الإحساس حين عادوا إلى ديارهم. لقد ذهبوا إلى العراق لأجل

إحداث نقلة في أوضاعه كبلد، وحين غادروه وجدوا أنهم هم أنفسهم قد تغيروا في المقابل.

وسألني الشيخ غسان عن أحوال العقيد مايفيل، فقلت له إنه الآن أصبح (اللواء) مايفيل، وهو يقود فرقة الآن في أفغانستان، فقال عنه: «إنه أفضل من جميع الذين التقيت بهم كضباط أميركيين». ثم سألني عن الجنرال أوديرنو، فقلت له إنه يتسنى الآن رئاسة الأركان المشتركة للجيش الأميركي ويؤدي عمله من واشنطن. ثم سألته: «هل تحب الأميركيين وتهتم لهم؟». فقال إنه يحبهم كأشخاص سبق أن تعامل معهم، لكنه لا يکن أيّ ود لسياسة الولايات المتحدة الخارجية، وبالتأكيد لا يحب ما فعلت الولايات المتحدة في العراق.

وشرح الشيخ غسان وجهة نظره: «لم يحدث أن أتى أي خير من الولايات المتحدة، إنهم يتصرفون بطريقة همجية غير متحضرة. ويتعمدون إهانة العرب، ليس فقط في العراق، إنما على طول العالم العربي». ومضى أكثر من ذلك بقوله: «وأسوأ ما فيهم أنهم يعقدون اتفاقات سرية من تحت الطاولة مع إيران». وأشار بيده إلى تحت الطاولة لمزيد من تأكيد فكرته. «لقد قدموا العراق إلى إيران على طبق من فضة».

وتصاعدت حماسة الشيخ غسان وهو يذهب بعيداً في آرائه فقال: «انظري إلى الربيع العربي، ما هو إلا عبارة عن خطة أميركية لإذلال العرب وتقسيمهم، وجعلهم أمة ضعيفة. وانظري الآن إلى المشكلة التي تحاول الولايات المتحدة أن تثيرها في سوريا..»، هنا تناولت إحدى المِخدرات من جنبي وضربتة على كتفه، فسقط الجميع في نوبة من الضحك. ثم كرر الشيخ غسان بعض التحليلات التهكمية عن الأميركيين، وهذه

المرّة ضربته لكمة على ذراعه، واستمر الجميع بالضحك، لقد كانوا في الحقيقة يسلّون أنفسهم بهذا الكلام.

لقد أدخل الإعلام مصطلح (الربيع العربي) إلى كل منزل تقريباً، وكان الناس مرتبكين لا يعرفون أين تتجه الأمور. لقد أدى فشل الأنظمة العربية في بناء مؤسسات شاملة، وفشلت في تحقيق التنمية، وفشلت في فتح النظام السياسي للجميع، وفي توفير فرص متكافئة، كل هذا أدى إلى دفع الشباب إلى الشارع في محاولة منهم لإيصال أصواتهم المخنوقة، والتي لم تعد تؤتي نفعاً حتى في الصراخ.

كانت الاحتجاجات في سوريا رفعت في البدء مطلبَ الكرامة وتوفير فرص العمل، بالضبط مثلما كانت بداية كل الاحتجاجات الأخرى في بلدان الربيع العربي. لكن بشار الأسد أظهر عدم الرغبة، بل عدم القدرة على التعامل مع هذه التطلعات. وبدلاً من ذلك فقد أعلن الحرب على شعبه. فانقلبت الاحتجاجات إلى أعمال عنف. وبينما كنّا نتبادل الأحاديث، كان اثنان من أبناء الشيخ غسان يهيئان الطعام ويقدمانه على فرش بلاستيكي مَدّ على الأرض. فجلسنا القرفصاء أمام صحون كبيرة أهيل عليها الرز ولحم الضأن. كان الشيخ يقطع اللحم بيديه ويضعه أمامي. وكنت أكسر قطع الخبز الحار وأغرف بها بحذاقة اللحم والرز وألتهمهما. لحظتها، كنت جائعة بشكل لا يوصف.

بعد ذلك، قمت بجولة في الخارج مع الشيخ غسان الذي قال: «آنسة إيما.. يجب أن تعودى إلى زيارتنا ثانية»، وودعته وغادرت بعد ذلك.

في السيارة، استرجعت في ذاكرتي مشهد الجنرال أوديرنو حين التقيته في مؤتمر عقد بلندن قبل شهر تقريباً. وانسحبنا بهدوء من صخب الفندق والمؤتمر، واستعدنا نوبات المزاح التي اعتدنا عليها أثناء عملنا معاً في

العراق خلال سنوات. وسألني إن كنت قد بدأت بكتابة تجربتنا هناك؟. وقال: «أنت تعلمين أنه حين تم اختياري لقيادة الفيلق في العراق، كنت أنت من بين أول الأشخاص الذين طلبتهم للعمل معي».

فأجبت: «لقد كنت أنت الشخص الوحيد الذي يمكن أن يعيدني ثانية للعمل في العراق». وانتهزت الفرصة لأخفف اللحظة وقلت: «كنت قلقة من أنك قد تحطم العراق وتسويه بالأرض مثلما فعل جنكيزخان، لذلك سارعت للحضور والعمل معك». ثم وصفت له تجربتي مع لجنة الاستجواب والتحقيق في شأن العراق، وقلت له: «كان حرياً بك أنت أن تخضع للاستجواب، وأن تقدم إلى محاكمة مثل محاكمات نورمبرغ، وليس أنا».

فأجابني ووجهه يبدو عليه علامات الجذ: «كنت سأقول لهم إنني قد اتبعت حرفياً نصائح مستشارتي للشؤون السياسية!!».

في اليوم التالي كنا في جولة بلندن، ابتدأت من وايت هول وانتهت بقصر بيكنغهام. كنت أقص للجنرال أوديرنو كيف أن بالأمس فقط كانت هناك جماهير غفيرة تحيي الملكة وتلوح بالعلم البريطاني، كنت أظن أن التلويح بالعلم هي حماسة أميركية مختصة ولم أتصورها ستصل إلى الوطنيين البريطانيين.

وصلت بعدها في جولتي الكركوكية إلى منزل عبد الرحمن مصطفى، كان بيته منزلاً قديماً وجرى تحديثه. وكانت صالة الاستقبال مليئة بالكتب، وخرج عليّ من غرفة أخرى مرحباً ومصافحاً: «أهلاً وسهلاً إيما سكاى»، فحييته بابتسامة وقلت له «أنت تبدو أصغر من ذي قبل!»، ففرح بالعبارة. كان عبد الرحمن مصطفى قد عمل لثمانى سنوات كمحافظ لمحافظة كركوك، وهو الآن يتمتع بالتقاعد منذ سنتين. جلسنا

واستذكرنا تلك الفترة التي أعقبت سقوط صدام، وتبادلنا الذكريات بأنّها كانت بالفعل فترة مليئة بالصخب. في عام 2003، توقع الجميع أن تندلع الحرب الأهلية في العراق وأن تكون شرارتها هي كركوك، لكن هذا لم يحدث. وسألت عبد الرحمن مصطفى عن السبب، فحين أخذت الحرب الأهلية مأخذها في باقي أنحاء العراق بقيت كركوك بعيدة نسبياً عن تأثيراتها. أجابني بالقول: «كانت الروابط الاجتماعية بين الأفراد من مكونات كركوك قوية للغاية». وشرح وجهة نظره قائلاً: «إن الأمر ليس مثل بغداد التي لا يعرف فيها أحد الآخر، وحتى الأحزاب السياسية هنا في كركوك لم تتصرف بلا مسؤولية كما فعلت الأحزاب في بغداد، وبالرغم من وجود شيعة وسنة هنا في المدينة إلا أن قضية خلافاتهم لم تؤثر كما في بغداد».

«وللأسف كانت أخطاء الأميركيين متسلسلة، ما كان عليهم أن ينتشروا في طول البلاد وعرضها، وما كان لهم أن يباشروا كل شيء بأنفسهم. ولا أن يتدخلوا في التفاصيل اليومية لحياة الناس، كأن الأولى بهم ترك الأمور للعراقيين والانسحاب إلى المعسكرات. ثم أخطؤوا بمحاولة زجّ النموذج الغربي للديمقراطية في العراق... في العراق لا يوجد ديمقراطيون، وقادة الأحزاب الشيعية ضعفاء ولا خبرة لديهم». وحين سأله عن رؤيته لمستقبل العراق قال: «إن لعنة العراق تكمن في النفط، الكثير من النفط يجعل الناس أغبياء وعاطلين عن العمل بالرغم من كثرة المصادر. إن العراق لديه الكثير من الأموال ومع ذلك فالعراق يتراجع، ولم يشهد تنمية حقيقية. في العراق أناس جيدون لكن سياسيه سيئون للغاية».

في تموز من عام 2014، عدت مرّة ثانية إلى أربيل وإلى فندق روتانا

أيضاً. وفي ذلك الفندق رأيت جمهرة من السياسيين العراقيين ومن وجوه معروفة. كانوا يتباكون ويتشاكون من أن المالكي سائر في تحطيم البلاد، وكيف أن الإيرانيين باتوا يسيطرون على الحكومة. كان العديد منهم راغبين في التحدث إليّ حول الأوضاع الراهنة، كما عرضوا تقديم المتحدث باسم المتمردين لي. ثم اقترب منّي رجل له شوارب سوداء بعثيّة قائلاً: «إنها انتفاضة شعبية»، ثم أخذ يشرح لي كيف أن السنة تظاهروا لمدة عام كامل من أجل رفع التهميش عنهم، وإطلاق سراح المعتقلين. «لكن الحكومة رفضت الاستماع إلى مطالبنا، وردّت باستخدام العنف، بداية في الحويجة ثم في الفلوجة. لم يكن أمامنا أي خيار آخر، لقد أجبرنا على رفع السلاح بوجه الحكومة». وكان الجمع من حول هذا الرجل الذي قديم من محافظة صلاح الدين يهزون رؤوسهم إيجاباً وتصديقاً، ثم أضاف: «المالكي يرتكب إبادة جماعية بحق السنة، إنه يعدّهم كلهم إرهابيين».

كان النزاع في سوريا قد أعاد الجدل والتماحكات الطائفية في العراق إلى الواجهة، وسألته عن (داعش) أو تنظيم (الدولة الإسلامية في العراق والشام) فأجاب: «داعش لا تمثل سوى 8% من حجم التمرد»، قال ذلك وكأنه يتلو معلومات نتجت عن بحث علمي. «لكنهم لهم حجم كبير في الإعلام، لقد سمحنا لداعش أن تكون في الواجهة، فإننا لا نريد أن نكشف وجوهنا وتحركاتنا، وحالما نتمكن من الخلاص من المالكي، فإننا قادرون آنذاك على التخلص من داعش».

قلت لهم إنهم كانوا في الحقيقة يوهمون أنفسهم إن كانوا يتصوّرون أن بإمكانهم أن يستخدموا تعصّب الدولة الإسلامية لهزيمة المالكي وبعد فترة يمكن أن يهزموا داعش.

في الحقيقة كان البعثيون يقاتلون من أجل السلطة في العراق بينما وضعت الدولة الإسلامية الجدل بإنهاء الوجود المادي للعراق كدولة موضع التنفيذ. ألم يلحظوا ماذا حصل في سوريا وكيف تطورت الأحداث هناك؟. لقد كان التيار السلفي الراديكالي هو الأشد تعصباً وهو الذي اجتاحت الجميع وأزاح الآخرين عن طريقه، وصار له الوجود الأكبر هناك.

وقلت لهم: «إن العراقيين من السهولة أن يجتمعوا بالضد من شيء يكرهونه، لقد اجتمعت (الشوارب) مع (اللحي) ضد المالكي». في إشارة مني إلى تحالف الإسلاميين مع البعثيين. «لكن ما إن يرحل المالكي، فما الذي تحملونه من رؤى للعراق؟». هنا تعذر على البعثي تهئية إجابة، بينما بقي الآخر إلى جانبه يتشكى من إيران وهيمنتها على الشيعة. كررت سؤالي للجميع عن شكل المستقبل الذي يريدونه من خلال دعم هذه التوجهات، ولما لم أجد إجابة كررت اعتذاري وانسحبت بهدوء.

ثم حضر مسؤول عراقي كبير سابق للقائي، وأعطاني ألبوماً من الصور التي توثق عمله السابق في وزارة التربية. كانت الصور تظهره وهو يتابع تفاصيل مسؤولياته اليومية ميدانياً، كما تظهر التعاون مع الأميركيين في مجال التربية والتعليم فيما يمكن أن أسميه الآن «العهد الذهبي» للعلاقة مع الحكومة العراقية، حيث كان الجميع يتطلع ويعمل من أجل مستقبل أكثر إشراقاً للعراق.

وقابلت كمال كركوكي في مكتبه الجديد بأربيل. يومها كان قد خرج من منصبه كرئيس لبرلمان إقليم كردستان، لكنه ما زال عضواً في المكتب السياسي للحزب الديمقراطي الكردستاني، ومقرباً جداً من بارزاني. استقبلني بعبارات الترحيب «أهلاً إيما سكاي»، وأجلسني وجلب لي قنينة ماء، رغم أنني أظنه كان صائماً فالوقت كان في شهر رمضان.

لم يسبق لي أن رأيت كمال كما أراه اليوم مبتهجاً ومسترخياً خلال عقد من الزمن عرفته فيه. فقلت له: «كمال... أراك مبتسماً ملء وجهك، من الأذن للأذن!». فأجاب: «نعم، كركوك صارت بحوزتنا».

لم تصدر مني أي ردّة فعل تجاه ما تفوّه به. هل إنه بالفعل يعتقد أن حدود كردستان قد تغيّرت بالفعل وستثبت على هذا التغيير؟ لقد توسّطنا على مدى عقود بين الأحزاب المتصارعة، والآن هناك حقائق متغيّرة على الأرض. وكم سيدوم هذا التغيير؟

في حزيران 2014، كانت القوات الأمنية العراقية قد تقهقرت أمام اندفاع عناصر تنظيم الدولة الإسلامية، على الرغم من أنها كانت تفوقهم عدداً، وتتفوق عليهم في التسليح، لكنها كانت تحت قيادة سيئة. لم تكن هناك سلسلة أوامر تحرّك القوات العراقية عبر وزارة الدفاع، وبدلاً من ذلك كان مكتب المالكي (أو مكتب القائد العام للقوات المسلحة) يصدر الأوامر بالهاتف أو عبر رسائل نصّية. واستبدل المالكي الضباط المنافسين بآخرين يضمن ولائهم له حصراً. وكان الفساد منتشرًا، والبعض استحوذ بطرق السطو حتى على الأموال المخصصة لشراء أطعمة للجنود.

وانتهز الأكراد تلك الفرصة، ونشروا البيشمركة في المناطق المتنازع عليها. وأعلن بارزاني أن المادة 140 من الدستور قد جرى تنفيذها بالفعل، وأن لا أحد يمكن أن ينزع كركوك عن كردستان مجدداً.

قال لي كمال كركوكي: «أنت تعرفين أن بارزاني لم يكن راغباً في أن يبقى المالكي كرئيس للوزراء في عام 2010»، في الحقيقة لم يكن بحاجة إلى أن يذكرني. كنت أتذكر تلك التفاصيل جيداً. ومضى كمال يقول: «لقد أبلغ بارزاني الأميركيين بأن المالكي أصبح شخصاً خطيراً

جداً، وقد يؤدي إلى تدمير البلاد». وكرر كمال القول: «المالكي شخص سيء للغاية، لقد عمل بالفعل على تدمير العراق»، ثم سكت برهة وكأنه يستعد لتجميع عبارته التالية وقال: «لكنني من صميم قلبي يتوجب علي أن أشكر المالكي، فقد جعل استقلال كردستان أمراً قريباً للغاية».

كان بارزاني قد دعا إلى استفتاء شعبي عام على استقلال كردستان، لم يكن هناك شك في شكل نتائج هذا الاستفتاء، لكن السؤال يبقى عن الكيفية التي سينجز بها هذا الاستقلال. كان المسؤولون الأميركيون يجادلون دوماً بأن من مصلحة الأكراد البقاء ضمن العراق والحصول على حصّتهم المنصفة من عوائد الثروات الطبيعية. أما حكومة إقليم كردستان فقد مضت بعيداً ووقعت اتفاقاً لتصدير النفط الخام (بلا موافقة حكومة بغداد)، ومدّت خطوطاً للأنايب الناقلة عبر الأراضي التركية. وكانت إيكسون موبيل هي أبرز شركة عالمية دخلت في هذا المجال إلى جانب شركات أخرى ووقعت اتفاقات مع حكومة الإقليم. لقد كان الاستقلال قاب قوسين أو أدنى.

واستمر كمال بالقول: «الجميع الآن سعداء بوجود البيشمركة، لقد أصبح لدينا الآن ما يقرب من 600 ميل من الحدود التي يجب السيطرة عليها والتي هي في تماس مع (الدولة الإسلامية)». فابتسمت بوجهه مرّة ثانية. وعاد ليشدد على ما قاله بالبداية: «العراق يجب أن يقسم إلى ثلاث مناطق، كردستان، وشيعة ستان، وسنة ستان. إنها الطريقة الوحيدة للحل، فإننا لا نستطيع العيش معاً، ربما في المستقبل يمكن للأجزاء الثلاثة التي صار إليها العراق أن تتحد في فيدرالية واحدة تجمعهم».

بعد اللقاء بكمال كركوكي، عدتُ إلى فندق روتانا واتصلت هاتفياً بالشيخ غسان. لقد مضت ستان منذ آخر لقاء جمعنا أثناء زيارتي

إلى الحويجة. والآن أصبحت الحويجة تحت سيطرة تنظيم (الدولة الإسلامية)، ومنزله ومنزل أقاربه الشيخ أنور والشيخ وصفي قد تم تفجيرهما، كونهم كانوا متعاونين مع المالكي، أما الشيخ غسان فقد انتقل إلى الأردن هو وعائلته.

قال لي الشيخ غسان في الهاتف: «آنسة إيما، هناك كلام عن تقسيم البلد إلى ثلاثة أجزاء، شيعة ستان، وسنة ستان، وكردستان. لكن كيف سيجري تقاسم المياه؟. كيف يمكن تقاسم النفط؟. إن هذا التقسيم يعني الحرب الأهلية لا محالة، فأين ستكون هذه الحدود؟. هناك جهة واحدة تتحكم في العراق اليوم، إنها إيران، إيران، إيران... لا نريد شيئاً سوى كرامتنا وأن نحافظ على ميراثنا وثقافتنا».

ووصل إلى أربيل قادماً من بغداد، صديقي الأرمني كريكور ديراكوبيان خصيصاً للقاء. كانت حياته قد انقلبت رأساً على عقب، في أعقاب الاتهامات التي وجهت إلى رئيسه السابق في العمل، نائب رئيس الجمهورية طارق الهاشمي. لقد أغلق مكتبه، وفقد عمله. أما أصدقاءه فقد ألقى القبض عليهم أو هربوا. أما هو فقد بقي حبس منزله بلا عمل لعدة سنوات. في الحقيقة لم ينقذه سوى كونه مسيحياً، وهو الأمر الذي جعل الشبهات تتخطاه. أما الآن فإن وجوده كمسيحي في العراق صار معرضاً للخطر. لقد خيّرت داعش المسيحيين بين دفع الجزية، أو النزوح والخروج من الديار. الآن يتمنى كريكور، مثله في ذلك مثل جميع المسيحيين العراقيين أن ينال اللجوء خارج بلده. وسبق أن قدّم طلب الهجرة إلى الولايات المتحدة، لكنّ طلبه قد رفض معتبرين أنه يشكل خطراً «أمنياً».

وعدت بالذاكرة إلى عام 2011 حين دعاني كريكور إلى منزله

في الحي الذي كان في يوم ما حياً يهودياً في بغداد. حدثني كيف أن والده كان من أنصار الملكية المتشددين، وفي اليوم الذي سمع فيه أن العائلة المالكة قد تم قتلها بوحشية وقسوة، سقط من على سلم البيت وكانت نهايته. كما حدثني والدته خلال الغداء عن المجتمع الأرمني في العراق، وكيف أن عدداً كبيراً من الأرمن هربوا من الإبادة الجماعية على أيدي الأتراك ولجؤوا إلى القبائل العربية في الموصل وما حولها. وقالت: «إننا لا يمكن أن ننسى فضل القبائل العربية، لقد ترعرع أطفالنا الأيتام مع أطفالهم كما لو أنهم أبناءهم بالضبط».

لقد عاش المسيحيون في العراق لما يقرب منذ ألفيتين، الآن يبدو أن وجودهم قارب على النهاية، وكذلك الأيزيديين أخذوا يرحلون عن العراق، يبدو أن الأقليات لا أحد يريد لها البقاء.

في تلك الليلة، وحيث كنت أجلس على كرسي في بهو فندق روتانا، كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساءً. وتفاجأت بأن هوشيار زيباري، وزير الخارجية العراقي يتجه نحوي. كان يبدو وقد ازداد وزنه قليلاً ولا شيء فيه قد تغير، وخاطبني: «أنا لا أكاد أصدق نفسي، إيما سكاي، ما الذي جلبك إلى هنا؟»، واحتضنني بقوة بحيث رفعتني من الأرض، كنا نضحك وقد مضى وقت طويل منذ آخر لقاء لنا.

كان المالكي قد وجه اتهاماته مؤخراً إلى أربيل مدّعي أنها باتت «عاصمة تجمع الإرهابيين»، واتهم الأكراد بالتعاون مع تنظيم الدولة الإسلامية. وفي المقابل قاطع الأكراد الحكومة واجتماعات مجلس الوزراء. ورداً على ذلك، استبعد المالكي هوشيار زيباري من منصبه كوزير للخارجية، والذي كان يشغله منذ عام 2003؟ ببساطة قال زيباري: «إنها فوضى شاملة»، قال ذلك وهو يجلس إلى جانبي، لقد عادت أربيل

لتلعب دور المكان الذي تعمل منه المعارضة للحكومة المركزية، مثلما كان الحال في أيام صدام.

وبعد دقائق، لمحت رافع العيساوي في الفندق فاتجهت إليه وجلبته إلى حيث يجلس زبياري. كان رافع مثلما رأيته آخر مرة، متأنقاً في بدلة غامقة ويرتدي ربطة عنق. والتقى رافع بهوشيار ويبدو أنهما لم يلتقيا منذ فترة طويلة. وحالما جلسا بدأ تبادل النميمة والشائعات بينهما حول المالكي وتشكيل الحكومة. وقتها كان قد مضى شهران على انتهاء الانتخابات التي فاز بها هذه المرة المالكي بأغلبية. لكنه يواجه هذه المرة الكثير من الاعتراضات والرفض من قبل السياسيين الشيعة الذين يرفضون بقاء المالكي في السلطة. أما السيستاني فقد وجه رسالة إلى أعضاء حزب الدعوة يطلب منهم فيها أن يرشحوا بديلاً عن المالكي. في ذلك اليوم كان البرلمان العراقي قد اجتمع واختار سياسياً إسلامياً معتدلاً لرئاسته وهو سليم الجبوري. الآن حساب الوقت يتجه بسرعة نحو انتخاب رئيس للجمهورية، ثم الشروع بتكليف رئيس الوزراء.

وبعد أن غادرنا زبياري، سرعان ما غرقنا أنا ورافع في نقاشات عميقة. أخبرني أن عائلته الآن بالكامل هي خارج العراق، بعضهم في الأردن والبعض الآخر في الخليج. وكأنسان عاش حياته كلها في العراق ليجد نفسه اليوم في المنفى، أكاد أجزم كم أن ذلك الأمر يؤلمه. لقد طرأ الكثير على رافع منذ أن زرته آخر مرة في بيته عام 2012 وكانت الدبابة تحاصره. وقبل أن تنتهي تلك السنة، وبعد أن أصيب الرئيس طالباني بعجز ألقده عن مهامه، كرر المالكي اتهام رافع العيساوي بدعم الإرهاب. واعتقل كل حماياته؛ لقد استعمل معه الاستراتيجية نفسها التي سبق أن استخدمها ضد طارق الهاشمي. في الحقيقة كانت التهم

التي وجّهت إلى رافع هي التي أثارت الاحتجاجات السنّية بالضد من حكومة المالكي. أذكر أن أحد القادة السنّة قال لي: «إن العيساوي هو أفضل السياسيين السنّة، فإذا كان المالكي يعدّه إرهابياً فلا أمل لنا كلنا أن ننجوا!». بعد ذلك أجبر رافع العيساوي على الاستقالة من منصبه كوزير للمالية وغادر بغداد.

والفضل يعود إلى قبيلته التي شاركت في الاحتجاجات، ومنعت قوّة خاصة كان المالكي قد أرسلها خصيصاً لغرض اعتقاله.

وسألت رافعا: «هل من الممكن تفادي انهيار العراق؟»، فأجابني: «لا، لقد كان العراق يتجه بالاتجاه الإيجابي، لولا ما حدث عام 2010 حين مُنعت كتلة (العراقية) من فرصة تشكيل الحكومة، أعرف أنها ما كانت ستنجح في تمرير الحكومة، لكن الفرصة بحد ذاتها والمحاولة كانت ستسهم في بناء الثقة في المؤسسات العراقية الناشئة». يظنّ رافع أن القرار السيء الذي ركن إليه الأميركيون عام 2010 كانت له نتائجه في دفع البلد إلى المزيد من الخراب. ومنذ تلك اللحظة بدأ الرئيس أوباما ينظر إلى إنهاء الحرب في العراق على أنها واحدة من أعظم إنجازاته. لنذكر قول أوباما في البيت الأبيض والمالكي إلى جانبه في الأول من تشرين الثاني 2013، إذ قال: «إننا نثمن عالياً الأرواح التي ضحّت من قبل العراقيين والأميركيين على حدّ سواء، لأجل تحقيق ديمقراطية عاملة في بلد كان قد حكم من قبل دكتاتورية شريرة. وأقدّر جهود المالكي لتقييم تلك التضحيات عبر التأكيد على ازدهار العراق وقوّته، وفي الوقت نفسه يمثل ديمقراطية تشتمل الجميع». لقد بدا أوباما وكأنه لا يعير أيّ اهتمام لسلطة المالكي الاستبدادية، ولا يهتم للتدهور الحاصل فعلاً في العراق.

بدأ رافع يحدد الشكاوى التي رفعها السنّة والتي كانت تعتمل وتتراكم إلى أن بدأت بالغليان أخيراً. كان المالكي قد اعتقل آلاف السنّة دون أن يقدمهم إلى محاكمة، ودفع بالقياديين السنّة إلى خارج العملية السياسية باتهامهم بالإرهاب، ونكث بتعهداته السابقة بدفع رواتب قوّات الصحوة - كان قادة الصحوة إمّا أمواتاً أو هاربين أو في السجون. كما تم إيقاف طلب تأسيس إقليم وفقاً للدستور بالقوّة، كان الطلب قد دعم من قبل مجالس محافظات صلاح الدين ونيوى والأنبار. وكانت الاحتجاجات السلمية قد استمرت لعام كامل قبل أن تواجه بالقوّة، وقتل المئات من المحتجّين في تلك المواجهات. كان المالكي قد هدم السلطة القضائية وجعلها تعمل وفقاً لإرادته بشكل كامل. وهنا بيّن لي رافع أن (الدولة الإسلامية) - مع هذه الأحوال - كانت قادرة على أن تستغل المشاعر، وتدّعي بأنها تدافع عن حقوق السنّة في مقابل الحكومة الشيعية المدعومة من إيران. وفي السنوات السابقة، كانت العشائر السنيّة - بمعونة أميركية - قادرة على هزيمة تنظيم القاعدة، الذي انبثقت منه الدولة الإسلامية. أما اليوم فإن هذه العشائر تتعاون مع تنظيم الدولة الإسلامية في انتفاضة الناس ضد الحكومة المركزية. وبالرغم من طريقة التنظيم المرفوضة في التعاطي مع الإسلام، فإنهم يرون فيه أهون الشرّين حين يقارن الأمر مع حكومة المالكي.

وفي ظل الانهيار الكبير الذي شهده الجيش العراقي في مواجهة تقدم كبير لعناصر تنظيم الدولة الإسلامية، أصدر آية الله السيستاني دعواه إلى العراقيين بأن يلتحقوا بصفوف القوات الأمنية لمواجهة الخطر، وللدفاع عن البلاد. كانت آخر مرّة أصدر فيها مرجع شيعي مثل هذه الفتوى قد حدثت قبل قرن من الزمان بالضد من البريطانيين. واستغلت الميليشيات الشيعية دعوى السيستاني لأجل التحشيد. وكان الجنرال الإيراني قاسم

بدأ رافع يحدد الشكاوى التي رفعها السنّة والتي كانت تعتمل وتتراكم إلى أن بدأت بالغليان أخيراً. كان المالكي قد اعتقل آلاف السنّة دون أن يقدمهم إلى محاكمة، ودفع بالقياديين السنّة إلى خارج العملية السياسية باتهامهم بالإرهاب، ونكث بتعهداته السابقة بدفع رواتب قوّات الصحوة - كان قادة الصحوة إمّا أمواتاً أو هاربين أو في السجون. كما تم إيقاف طلب تأسيس إقليم وفقاً للدستور بالقوّة، كان الطلب قد دعم من قبل مجالس محافظات صلاح الدين ونيوى والأنبار. وكانت الاحتجاجات السلمية قد استمرت لعام كامل قبل أن تواجهه بالقوّة، وقتل المئات من المحتجّين في تلك المواجهات. كان المالكي قد هدم السلطة القضائية وجعلها تعمل وفقاً لإرادته بشكل كامل. وهنا بيّن لي رافع أن (الدولة الإسلامية) - مع هذه الأحوال - كانت قادرة على أن تستغل المشاعر، وتدّعي بأنها تدافع عن حقوق السنّة في مقابل الحكومة الشيعية المدعومة من إيران. وفي السنوات السابقة، كانت العشائر السنيّة - بمعونة أميركية - قادرة على هزيمة تنظيم القاعدة، الذي انبثقت منه الدولة الإسلامية. أما اليوم فإن هذه العشائر تتعاون مع تنظيم الدولة الإسلامية في انتفاضة الناس ضد الحكومة المركزية. وبالرغم من طريقة التنظيم المرفوضة في التعاطي مع الإسلام، فإنهم يرون فيه أهون الشرّين حين يقارن الأمر مع حكومة المالكي.

وفي ظل الانهيار الكبير الذي شهده الجيش العراقي في مواجهة تقدم كبير لعناصر تنظيم الدولة الإسلامية، أصدر آية الله السيستاني دعواه إلى العراقيين بأن يلتحقوا بصفوف القوات الأمنية لمواجهة الخطر، وللدفاع عن البلاد. كانت آخر مرّة أصدر فيها مرجع شيعي مثل هذه الفتوى قد حدثت قبل قرن من الزمان بالصد من البريطانيين. واستغلت الميليشيات الشيعية دعوى السيستاني لأجل التحشيد. وكان الجنرال الإيراني قاسم

سليماني موجوداً بالفعل في العراق لمساعدة الميليشيات الشيعية، وتقديم الدعم، ونشر المستشارين العسكريين الإيرانيين بين القوات الأمنية العراقية. وتحت وطأة الخوف من العواقب، صدر عن السيستاني تأكيد «بأن السنة هم أنفسنا، وليسوا مجرد إخوان لنا».

في اليوم التالي توجهنا أنا ورافع لحضور مأدبة إفطار، كان الناس يحيون رافعاً ويتسمون بوجهه. والمكان مليء بالعوائل التي ستفطر. قال لي رافع إن معظم هؤلاء كانوا عرباً سنة من الأنبار، وقد سمح لهم بارزاني بأن يلجؤوا إلى كردستان، وأبدى تجاههم رعاية خاصة. بدأنا الإفطار بالتمر، ثم بحساء العدس، ثم بالرز والسلطة ثم تم تقديم اللحم. وجاء أحد الحراس الشخصيين بكومة من لحم الكباب والدجاج وأهالها على طبقى بالرغم من اعتراضى على الكمية الضخمة التي لا تتناسب مع شهيتى.

وعاد رافع بالحديث إلى ذكرياته حين كان طيبياً قبل الغزو، وإلى عطلات نهاية الأسبوع التي كان يقضيها مع العائلة في الأرض التي أحبها كثيراً. كما حدثني عن مهنته وبداية مشواره حين كان طالباً في كلية الطب ببغداد، لم تخطر على باله السياسة ولا مرة آنذاك. كان على الدوام شخصاً متديناً ومن عائلة دينية. في تصوري إنه يجسد المستقبل المحتمل للعراق نحو الأفضل، وهو هزيمة التطرف على يد الأسباب البراغمية التي تفرض نفسها.

ثم سألتني رافع: «ما أخبار الجنرال أوديرنو؟».

قلت له: «إنه يتابع بحزن بالغ الأوضاع في العراق»، فأوماً برأسه موافقاً ومتفهماً. حاولت أن أشرح له كيف أن كل العسكريين الأميركيين الذين تحدثت إليهم كانوا يستشعرون الغضب ويحسّون بالمرارة. لقد

حاولوا جهدهم قدر المستطاع، والآن بالتأكيد هم يتساءلون عن جدوى كل التضحيات التي قدمت حين يستمعون إلى الأخبار القادمة من العراق. لقد كانوا على ثقة بأن مسؤوليهم المدنيين ما كانوا ليضعوهم في موضع أذى ما لم يكونوا واثقين من النتائج ولأسباب معقولة. لقد فقدوا أجزاء من أجسامهم، وقتل الكثير منهم، وشاهدوا رفاقهم يُقتلون تحت هذه القناعة. لقد كانوا يشعرون لحظة التضحية بأنهم إزاء شيء أكبر منهم وأكثر أهمية من أنفسهم.

إن التناقض أمر يصعب شرحه مثلما يصعب تبريره، لقد كان هناك شعور بالفخر والكبرياء يملؤهم، وبأنهم أنجزوا شيئاً مهماً، وعقدوا فيما بينهم صلات قوية أثبتت تكاتفهم معاً في ساحة الميدان. وبعد كل الأخطاء التي ارتكبت في بداية غزو العراق، كان الجيش الأميركي يشعر بأنه قد قلب مسار الحرب مع عملية موجة الاندفاع وزيادة عديد القوات في العراق، ومع تمكنهم من هزيمة تنظيم القاعدة. وشعروا بأنهم فعلوا كل ما قد طلب منهم، وأنهم قدّموا أفضل ما عندهم في الميدان.

لكن، لم يكن هناك من أثر ملموس سيظهر لاحقاً لكل الدماء والأموال التي جرى هدرها، لقد كانت إيران تتمدد، وكانت الحروب بالوكالة تمضي على قدم وساق في المنطقة. فيما تبدو الولايات المتحدة في حالة تراجع على مستوى العالم. الحقيقة الوحيدة التي بين أيدينا هي أن المسؤولين الأميركيين الذين أعدّوا العدة لغزو العراق، لم يحسبوا حسابهم لما سيفعلونه في مرحلة ما بعد الإطاحة بنظام صدام، كما لم يحسبوا حسابهم للطريقة المثلى للانسحاب من العراق لاحقاً. والآن، القليل منهم قد أبدى الندم على ذلك.

لقد شعرت بالدموع وهي ترغب بالنزول من عيني، فأشحت بنظري بعيداً عن رافع، وأحيت رأسي لأخذ لقمة أخرى من لحم الدجاج.

وسألني رافع: «هل ستعودين للعمل في العراق؟».

قلت: «لا، أنا أصغر منك بسنة واحدة، وعليّ أن ألتفت لحياتي الخاصة قليلاً». كنت أتساءل في سرّي هل سيكون أيّ شيء في القادم من الأيام مهماً مرة ثانية؟. لقد شعرت بحياتي وحيويتي في العراق بقوة. وبإحساس كبير بالجدوى. كانت أفضل أيام حياتي (وأقساها أيضاً) قد مرّت عليّ وأنا في العراق. أنا اليوم أعيش مثل امرأة عراقية في المنفى، أبدأ يومي بتسقط أخبار العراق، وهو أمر لا أستطيع ألا أكثرث له.

وقال لي رافع: «عليك أن تأتي لزيارة أصدقائك»، فوعده بأنني سأفعل. وما زلت أذهب مرة أو مرتين في السنة إلى العراق، فقد وقعت في حب المكان والناس. لكنني أحاول أن أبني حياتي بعيداً عن الحروب. وبدأت بالتدريس في جامعة يال، وأحاول أن ألهم جيلاً جديداً كي يصنع الفرق في هذه الحياة.

لقد تقاسمنا معاً الكثير من الأوقات الجميلة، وليس بعيداً حين التقيته في لبنان حيث كان يحضر جنازة محمد حسين فضل الله، وقتها كنّا نتحدث عن العراق أيضاً. وأظهر لي صورة وهو يصلي خلف مقتدى الصدر. لكن للأسف، الآن اجتاحت سلفية تنظيم الدولة الإسلامية كل مكان كانت قد تظهر فيه صوفية شخص مثل رافع. وأصبح الآن ما كان يُحتسب كثروة متنوعة للشعب العراقي، أصبح الآن عاملاً لبروز الهويّات الطائفية وطغيانها على كل شيء آخر.

ورغم تعقد المشهد العراقي، لكن رافعاً لا يزال يرى مخرجاً من هذه المشكلة بالالتفاف على هذه الأوضاع. فلو كان ممكناً استبدال المالكي، ولو كان ممكناً الاستماع إلى شكاوى العرب السنّة، لأمكن التوصل إلى اتفاق جديد. ولأمكن إعادة تشكيل الجيش العراقي على

أسس مهنية واحترافية، الجيش الذي استقطبه المالكي للسلطة السياسية بشدة. ولأمكن تجنيد المزيد من أبناء المناطق السنية لمحاربة تنظيم الدولة الإسلامية. وحلّ الميليشيات الشيعية التي تشكلت بموجب فتوى السيستاني لإيقاف تقدم التنظيم.

وعندما غادرنا المطعم، مضينا كلانا صامتين إلى وجهتنا.

ملحق الصور



أيما سكاي - مؤلفة الكتاب.



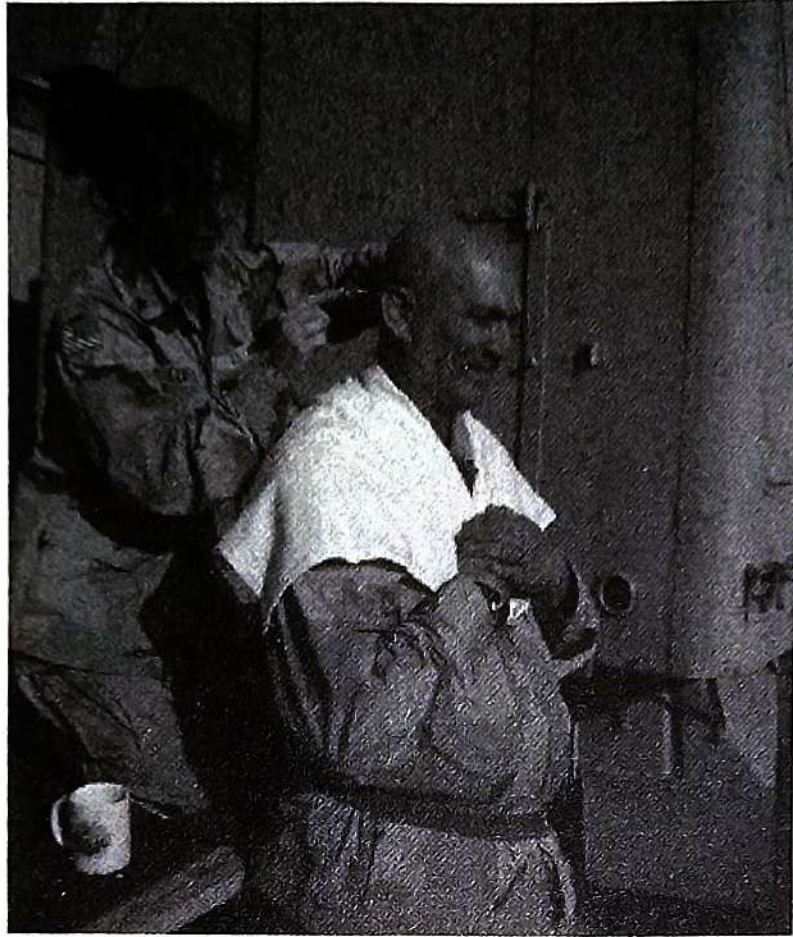
الجنرال أوديرنو مع إيما سكاي في العراق



الجنرال أوديرنو مع إيما سكاي في جولة بأحياء بلدة الخالص شمال بغداد
- 2007.



الجنرال أوديرنو مع ضباط عراقيين وأميركيين ومعهم إيما سكاي في سوق
الدورة جنوب بغداد



الجنرال أودير نو يحافظ على رأسه بالصلعة الشهيرة - معسكر فيكتور - 2009



العقيد مايفيل (الجنرال لاحقاً) مع زوجته شاند وأبناءه اندور (ملازم في الجيش)،
ومارجي، وتشاس (ملازم في الجيش)



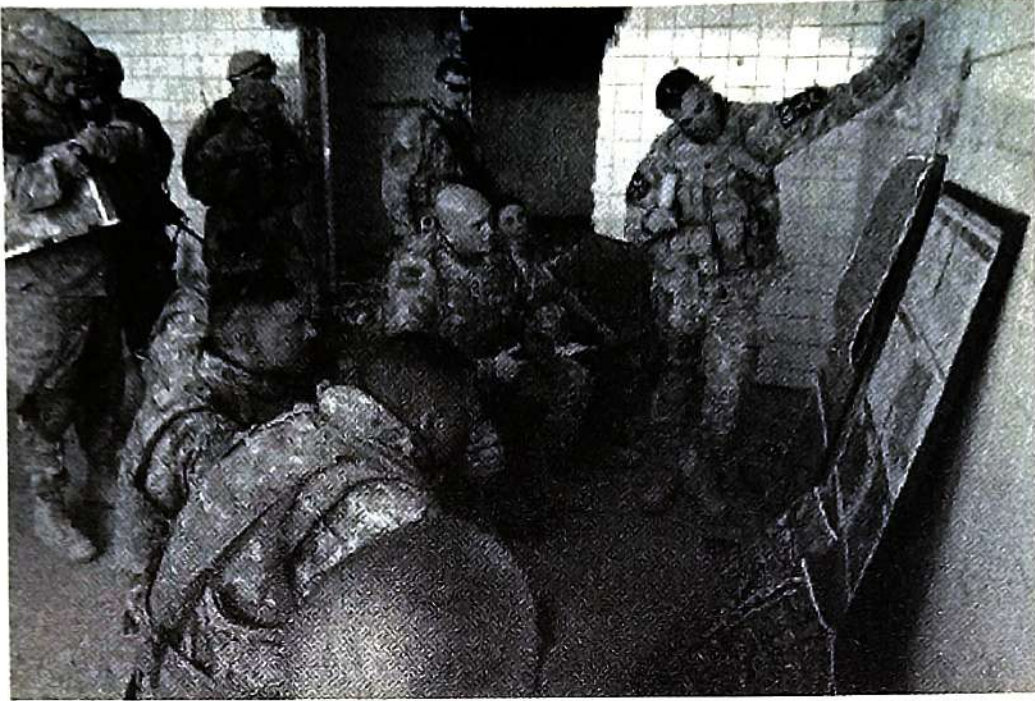
الجنرال ديفيد بيترايوس في الزعفرانية -جنوب شرق بغداد



العقيد مايكيل مع عدد من أهالي كركوك



المؤلفة تنال وسام المجد البريطاني من قبل أمير ويلز



الجنرال أوديرنو مع ايما سكاي وضباط اللواء الثالث من فرقة الفرسان الاولى
في دياالى



أوديرنو وضباطه ومعهم ايما سكاي في دياالى



أوديرنو يستقبل أوباما في مطار بغداد وقد منعته الأحوال الجوية من التوجه
الى المنطقة الخضراء حينها



ايما سكاي في جولة بالأهوار جنوب العراق



ايما سكاي وأوديرنو في جولة بأسواق بغداد



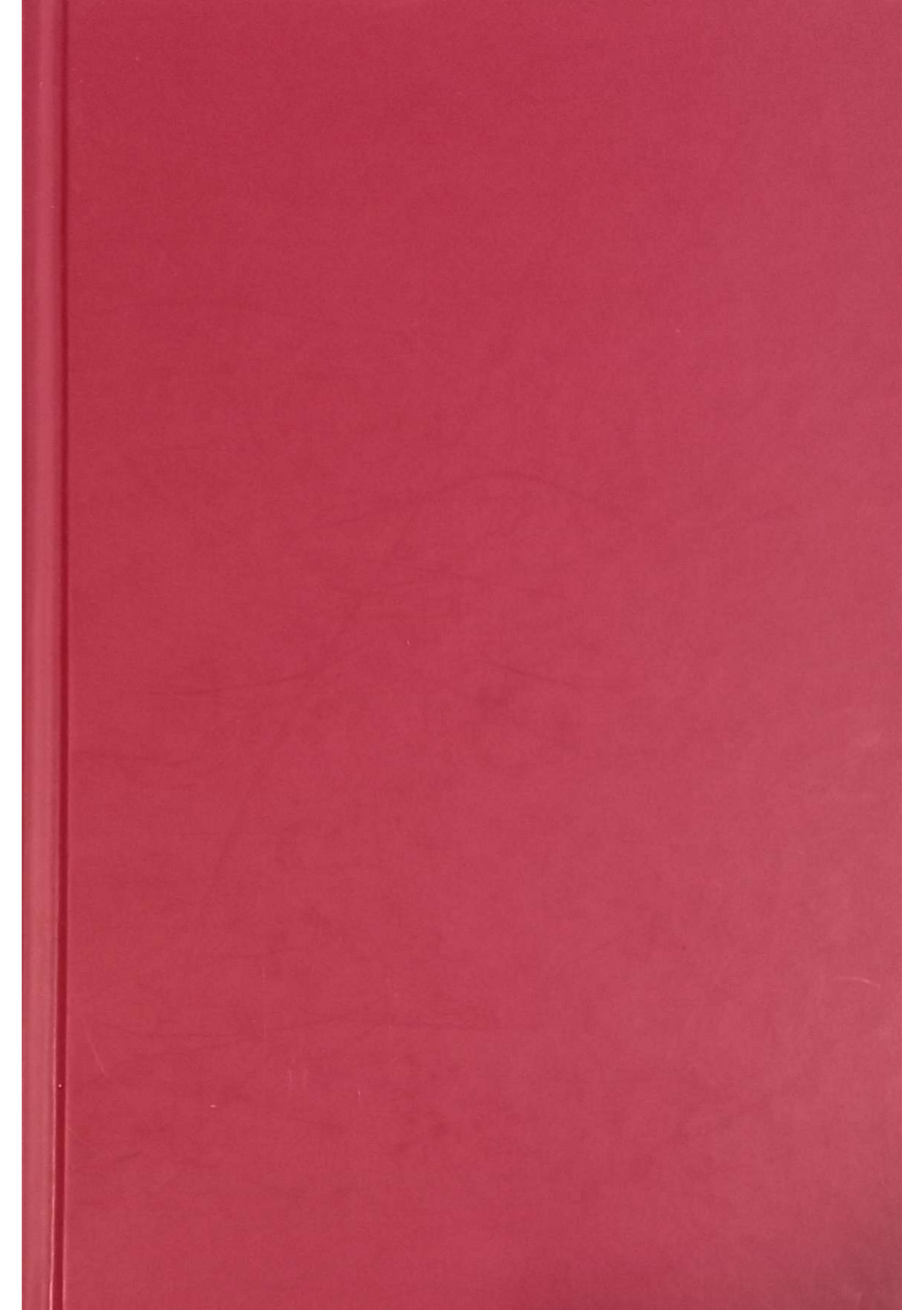
ايما سكاي، صفاء الشيخ، د.باسمة الساعدي



برهم صالح، أوديرنو، إيما سكاي



وزير الدفاع الأميركي روبرت غيتس يقلد الجنرال أوديرنو رتبة (أربع نجوم)
في معسكر فيكتوري قرب مطار بغداد



الانهيار

T H E U N R A V E L I N G

"صعد الجنرال أوديرنو بنفسه الى المدرعة، ووقف خلف الرشاش وسارت بنا القافلة على طول نهر دياالى، بينما انحشرت أنا عند قدميه... قبل أيام تعرّضنا لهجوم بشاحنة ملغومة ثم تلتها شاحنة أخرى تفجّرت في الداخل، وتسببت بانهييار المبنى ما أدى الى مقتل تسعة من الجنود الذين كانوا في الداخل. والآن نحن نمشط البساتين، فيما شرعت فرقة أخرى ببناء ما تهدم من أجل إظهار التزامنا للمدنيين".

مثل هذه الصور، احتوتها مذكرات إيما سكاي التي تقول عن نفسها بأنها الآن تعيش كإمرأة عراقية في المنفى. فقد تركت التجربة العراقية بصماتها عليها. لقد شهدت إيما اللحظات المفصلية في تاريخ العراق ما بعد الغزو الأميركي. حيث عملت لعقد من الزمان كمستشارة سياسية لأعلى الجنرالات الأميركيين رتبة في العراق. وشهدت ولادة الحكومة العراقية الجديدة، مثلما تابعت التمرد المسلح بكل مراحلها. ثم أشرفت شخصياً على تجربة (الصحوة)، والمصالحة التي جرت مع بعض فصائل الميليشيات المسلحة. ودوّنت لنا كل تفاصيل عمليات المواجهة التي هزمت تنظيم القاعدة، وجلبت الاستقرار النسبي للعراق. ثم وقفت تتابع بعيون كليله كيف أصبح العراق مسألة ثانوية في إدارة الرئيس أوباما، وصار شغله الشاغل أن تنسحب القوات الأميركية من العراق بأسرع وقت. وانهارت التجربة التي علّقت عليها الآمال. لهذا جاء اسم كتابها (الانهيار)، ليعبّر بوضوح عن أمل امرأة حاولت أن تعتذر من العراقيين عبر العمل داخل المؤسسة العسكرية الأميركية. وربما تكون قد نجحت في تقديم الاعتذار، لكن الضرر قد أصاب العراق وأدّى به في النهاية الى التفكك تحت ظل تنظيم الدولة الإسلامية، وإخفاقات التجربة الديمقراطية المتعثرة.

الناشر

ISBN 978-1-7732203-9-0



9

781773

220390

دار سطور

دار سطور للنشر والتوزيع

بغداد - شارع المتنبي - مدخل جديد حسن باشا

هاتف: 07700492576 - 07711002790

e.mail: bal_alame@yahoo.com



لبنان / بيروت / الحمرا

تلفون: 961 1 541980 / 961 1 751055

daralrafidain@yahoo.com

info@daralrafidain.com

www.daralrafidain.com